هوامش على

"تاريخ العرب" لفيليب حِتّي



د. إبراهيم عوض

هوامش على

"تاريخ العرب" لفيليب حِتي

هوامش على

"تاريخ العرب" لفيليب حِتي

د. إبراهيم عوض

دار الفردوس

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

تقديم

للدكتور فيليب حِتّى كتاب ضخم بالإنجليزية يقع فى نحو ألف صفحة عن "تاريخ العرب" اختصره فى كتاب صغير لا يزيد كثيرا عن خُمس حجم الكتاب الضخم. وفى كتابنا الحالى يجد القارئ النص الإنجليزى المختصر المسمَّى: "The Arabs: A Short History" (برنستون/ ١٩٤٣م)، وبرفقته عدد من الدراسات حول بعض القضايا الهامة فى تاريخنا العربى والإسلامى: فدراسة عن الجاهلية، وثانية عن الشعوبيين والعرب، وثالثة عن الفتوح الإسلامية، ورابعة عن فتح مصر بالذات، وخامسة عن الاتهام القائل بأن المسلمين قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة، وسادسة عن المقارنة بين عمرو بن العاص ونابليون بن بونابرت، وسابعة تناقش فيليب حِتى فى طائفة من المسائل التى تناولها فى كتابه مناقشة تتفق معه أحيانا، وتختلف معه أحيانا، وتضيف إليه أحيانا، وتستدرك عليه أحيانا. ولقد حاولت جهدى فى هذه الدراسات أن أتحف القارئ ببعض الأشياء الجديدة: إما فى الآراء، وإما فى الطريقة التى أعالج بها القضية المطروحة، مع الحرص دائما على أن يكون مذاق التقديم مختلفا عما هو فى الساحة. وهأنذا أضع ذلك كله بين أيدى القراء الكرام راجيا أن يجدوا فيه شيئا من الجدوى.

هذا عن الكتاب الذى فى يد القارئ، أما بالنسبة إلى فيليب حتي، مؤلف كتاب "تاريخ العرب" فقد وُلد في بلدة شملان بجبل لبنان في ١٨٨٦م، وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة القرية، ثم التحق بمدرسة سوق الغرب الأمريكية الثانوية. وبعد أن تخرج فيها التحق بالجامعة الأمريكية ببيروت، وحصل منها على شهادة البكالوريوس في العلوم سنة ١٩٠٨م، ولم يلبث أن عمل بالتدريس فيها بعد تخرجه لمدة ثلاث سنوات. ثم واتته الظروف للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩١٣م حيث التحق بجامعة كولومبيا، وحصل منها على درجة الدكتوراة سنة ١٩١٥م ليعين فيها مدرسا في قسم الدراسات الشرقية لمدة أربع سنوات. ثم عاد حتي للبنان سنة ١٩٢١م ليعمل في الجامعة الأمريكية ببيروت أستاذا للتاريخ العربي. ولما رغبت جامعة برنستون أن تؤسس قسما لدراسات الشرق الأدنى استدعت فيليب حتي لهذا الغرض سنة ١٩٢٦م، فأقام مركزا للدراسات العربية وما يتصل بها من تاريخ وآداب واقتصاد وعلوم، وأنشأ مكتبة عربية إسلامية في تلك الجامعة، التي ظل حتي يعمل بها حتى تقاعد سنة ١٩٥٤م. وومنذ ذلك الحين عمل أستاذا غير متفرغ، وأصبح يشارك في الكثير من النشاطات العلمية والأكاديمية، وتفرغ للبحث العلمي، والكتابة في تاريخ العرب وحضارتهم. ويعد كتاب "تاريخ العرب" أشهر مؤلفات فيليب حتي وأكثرها رواجا، وهو يضم ستة أقسام رئيسية، تناول في القسم الأول عصر ما قبل الإسلام والمجتمعات العربية القديمة وممالكها، وعالج في القسم الثاني ظهور دولة الإسلام وقيام الخلافة الراشدة وانتشار الفتوحات الإسلامية. ودرس في القسم الثالث الدولتين الأموية والعباسية وازدهار الحضارة الإسلامية، وفي القسم الرابع حضارة المسلمين في الأندلس وصقلية. وتناول في القسم الخامس تاريخ

الفاطميين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك وما تخلل ذلك من الحروب الصليبية. وفي القسم السادس يتناول الحكم العثماني في شمال إفريقيا ومصر وسوريا ولبنان فلسطين والعراق.

وفي النهاية أدعو الله عز وجل أن يغفر لى أخطائى، وأن يتقبل من عبده المقصر الضعيف هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه الكريم وينفع به الطلاب والباحثين. وهو سبحانه ولى التوفيق.

مصطلح الجاهلية

كما هو معروف تطلق كلمة "الجاهلية" على الفترة السابقة على الإسلام من تاريخ العرب. لكن إلى أى مدى زمنى ينبغى الرجوع بهذه الفترة التاريخية إلى الوراء؟ هل الأمر مفتوح على مصراعيه إلى أبعد ما يستطيع التاريخ أن يأخذنا كما يقول رينولد نيكلسون، الذى يعزو ذلك الرأى إلى المسلمين: "Muhammadans include the whole period of Arabian history from the earliest times down to the establishment of Islam in the term al-Jdhiliyya"[1]، وكما يقول أيضا حنا الفاخورى فى النص التالى من كتابه: "الجمل فى تاريخ الأدب العربى- الأدب القديم": "والجدير بالذكر أن هذه الحقبة من الزمن التى تمتد فى تاريخ العرب منذ ظهورهم إلى الهجرة النبوية سنة ٦٢٢ تسمى: "جاهلية"[2]؟

لا أظن ذلك، إذ ليس من المعقول، وقد ذكر القرآن أن هناك أنبياء كإسماعيل وهود وصالح سبقوا محمدا عليه السلام إلى دعوة العرب للإيمان بالله واليوم الآخر والتحلى بمكارم الأخلاق، أن يُسَمِّىَ نفسُ هذا القرآن تاريخَ العرب جميعَه، بما فيه الفترات التى ظهر فيها أولئك الأنبياء وغيرهم وآمن بهم وبدعوتهم من آمن من أقوامهم، بـ"الجاهلية"، علاوة على أن إدانة تاريخ أى من الأمم بكامله منذ أبعد نقطة فى ماضيه هو أمر من الغرابة بمكان، فليس من المنطقى فى شىء أن تكون صفحات التاريخ كلها لأمة من الأمم بهذا السواد. كما أن الكلام فى القرآن والحديث فى هذا السياق إنما يتركز على الفترة السابقة مباشرة على الإسلام، وهى الفترة التى كان من ثمارها تلك العادات والتقاليد والعقائد والأخلاق المنحرفة المنتشرة بين العرب حينئذ. وكم كان ابن منظور دقيقا حين شرح "الجاهلية" فى مادة "جهل" بأنها "زمن الفترة ولا إسلام". أى أن الجاهلية هى الفترة التى لم يكن للعرب فيها أنبياء أو رسل. ومعنى هذا أنه لا يطلق بدايتها إطلاقا راجعا بها فى الماضى إلى أبعد نقطة فى تاريخ العرب كما يدعى نيكلسون على المسلمين. بل لقد زاد فوضح أنها "هى الحال التى كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك".

وقد ألفيتُ كاتبَ مادة "Arab/ Arabia" فى "The Qur'an: an Encyclopedia" يقول ذات الشىء، إذ وصف "الجاهلية" بأنها الفترة التى تسبق الإسلام مباشرة: "the period of the jahiliyya (period of ignorance) just prior to the start of Islam". وهذا المعنى موجود فيما كتبه صاحب مادة "Jahiliyya" بـ"موسوعة الأدب العربى" الإنجليزية: "Encyclopedia

---

[1] Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, T. Fisher Unwin, 1907, London, P. 30.

[2] حنا الفاخورى/ الجامع فى تاريخ الأدب العربى- الأدب القديم/ دار الجيل/ ١٩٨٦م/ ١/ ٧٣.

Jahiliyya ('time of ignorance'), is " ، وهذا نص ما قاله بالحرف: "[1]of Arabic Literature a designation for the pre-Islamic period. As a religious term occurring four times in the Koran, jahiliyya denotes a timespan during which the belief in God has fallen into oblivion and which is ended by the rise of a new prophet. In particular, it is the common term for the period immediately preceding the mission of the Prophet Muḥammad"[2].

والواقع أننا بحاجة إلى أن نعرف مصدر اشتقاق هذا المصطلح ومعناه: فأما اشتقاقه فمن الجلىّ أنه نسبةٌ إلى كلمة "جاهل" على صيغة المصدر الصناعى، وإن كان هناك من يقول إن معناه "الجاهلون". وصاحب ذلك التوجيه الأخير الذى نقلتُه عن كاتب مادة "Age of Ignorance" من "Encyclopaedia of the Qur'an: دائرة المعارف القرآنية"[3] هو المستشرق اليهودى الألمانى فرانز روزنتال. وهذا التوجيه يمكن الرد عليه من ثلاث نواحٍ على الأقل: فأما الأولى فهى أنه لا يوجد فى ذلك العصر، عصر صدر الإسلام، ولا فى العصر السابق عليه، عصر الجاهلية، شاهدٌ واحد يعضد هذا الذى يقوله المستشرق. بل سوف نرى بُعَيْد قليل أننى لم أستطع العثور على أى وصفٍ نَسَبِىّ إلى صيغة "فاعل" إلا أن يكون اسم عَلَم. وربما كان فى ذهن روزنتال، وهو يطرح هذا التوجيه، ما عرفه العرب بعد هذا من قولهم: "الشافعية" والمالكية" و"الظاهرية" و"الباطنية"، يقصدون المتمذهبين بالمذهب الشافعى أو المالكى أو الباطنى أو الظاهرى. وهو قياس خاطئ لأنه يقيس سابقًا على لاحق على عكس ما ينبغى أن يكون الأمر، علاوة على أن هذا إنما يصح فى المذاهب والآراء، ناهيك عن أن النسب فى "الشافعية" و"المالكية" إنما هو نسبة لاسم علم، وأن النسب فى "الظاهرية" و"الباطنية" هو نسب إلى اسم جنس، لا إلى صفة كما هو الحال فى كلمة "الجاهلية"، وإن لم يكن لهذا الاعتبار الأخير كبيرُ وجاهةٍ.

وأما الثانية فكيف يا ترى نفهم قوله عليه السلام مثلا لأبى ذر الغفارى: "إنك امرؤ فيك جاهلية"؟ أيكون معناه أنه امرؤ فيه ناس جاهلون؟ وقس على ذلك قول أحد الصحابة لرسول الله صلى الله علي وسلم: "هل لأحد ممن مضى من خير في جاهليتهم؟". كما نرى كثيرا من علمائنا القدامى يقولون عن عرب ما قبل المبعث: "أهل الجاهلية". ولا يعقل بطبيعة الحال أن يكون المقصود "أهل الناس الجاهلين". الحق أن هذا التوجيه الروزنتالى هو توجيه ضعيف. وأما الثالثة فكيف غاب التوجيه يا ترى طوال هاتيك القرون المتطاولة عن كل علماء العرب والإسلام، الذين لم يستعملوا الكلمة إلا على أنها مصدر صناعى أو صفة نسبية بمعنى "زمن الجاهلية"، ولم يعرفه أو يطرحه إلا مستشرق أعجمى؟ وهذا كلام محرر المادة المذكورة بنصه الإنجليزى: " It is also possible that the word was a kind of collective

[1] Routledge, 1998.

[2] Encyclopedia of Arabic Literature, ed. Julie Scott Meisami and Paul Starkey, London and New York, Routledge, 1998.

[3] Brill, 2001, 1, 37- 40.

plural of "ignorant person" (jāhil), as has been asserted by F. Rosenthal "(Knowledge triumphant, 33-4)

ولقد حاولت أن أجد كلمة أخرى بصيغة المصدر الصناعى على وزن "فاعلية" فى الجاهلية أو فى صدر الإسلام، ففشلت. ومع هذا فقد قابلتنى كلمة "عالِمِيّة"، ضمن عبارة "ما كان ذلك فى جاهلية ولا عالِمِيّة"، فى كتاب "الاشتقاق" لابن دريد لدُنْ كلامه عن كلمة "جهل" فى لقب "أبى جهل"، الذى أطلقه المسلمون على الحكَم بن هشام، إذ جعلها ابن دريد ضد "العلم"، ثم أورد العبارة السابقة دليلا على صحة تفسيره للجهل، وإن كنت لا أستطيع أن أحدد فى أى عصر (بعد الإسلام) ظهرت هذه العبارة. بل إننى لم أنجح فى التوصل لأية صفة منسوبة إلى كلمةٍ على وزن "فاعل" صفةً من الصفات لا علمًا من الأعلام كما هو الحال فى "الهاشمى" و"العامرى" و"المازنى" و"الحاتمى" و"الغامدى" و"الباهلى" نسبة إلى "هاشم" و"عامر" و"مازن" و"حاتم" و"باهلة" على التوالى، وكلهم أشخاص مثلما هو واضح. ومن هذا يتبين لنا أن كلمة "الجاهلية" كلمة فريدة الاشتقاق كما نرى. ولا أستطيع أن أمضى معها من هذه الناحية أبعد من ذلك. وبالمناسبة فرغم أننا نقول الآن: "الجاذبية" و"الجاهزية" و"القابلية" و"الباطنية" و"الظاهرية" فما زالت تلك الصيغة حتى يوم الناس هذا نادرة.

هذا من حيث الاشتقاق، أما من حيث المعنى فالمشهور أن "الجاهلية" مأخوذة من "الجهل" الذى هو ضد العلم. وهذا هو السبب فى أن المستشرقين درجوا على ترجمتها بـ" the time of ignorance, les jours d'ignorance" أو ما أشبه. يقول حنا الفاخورى: "لقد شاع فيما بين كتاب العرب عصرا بعد عصر أن الجاهلية هى عهد الجهل والأُمّيّة والتوحش البعيد عن كل رُقِىّ وعمران. وقد توهم ذلك الجاحظ نفسه فى كتابه: "البيان والتبيين"، وابن عبد ربه فى "العقد الفريد"، ومحمد كرد على فى "الإسلام والحضارة العربية". . . ". ثم يُعقّب مؤكدا أنْ "ليس الأمر كذلك فيما نرى ويرى كثيرون من علماء العصر الحديث، ولا سيما بعد الاكتشافات الأثرية التى. . . أظهرت عالما من الحضارات القديمة فى جميع أطراف البلاد العربية. وقد تمسك بعضهم بحَرْفيّة بعض الآيات القرآنية ليصفوا الجاهلية بالأمية والجهل. قال الدكتور ناصر الدين الأسد: "غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعنى، فى رأينا، الأمية الكتابية ولا العلمية، وإنما الأمية الدينية، أى أنهم لم يكن لهم (يعنى غير أهل الكتاب من نصارى ويهود) قبل القرآن كتاب دينى. ومن هنا كانوا أميين دينيا، ولم يكونوا مثل "أهل الكتاب" من اليهود والنصارى، الذين كان لهم التوراة والإنجيل". . . "[١].

وهو يعود إلى هذه الفكرة مرة أخرى فى نفس الكتاب فيقول: "توهم الكثيرون أن بلاد العرب قبل الإسلام كانت بلاد بداوة وجهالة. وليس الأمر كذلك، فلعرب الجاهلية حضارة ليست دون حضارة

---

[١] حنا الفاخورى/ الجامع فى تاريخ الأدب العربى – الأدب القديم/ ١/ ٥٥ – ٥٦ .

الآشوريين والبابليين عراقة وشأناً. قال ونكلر (Winckler) إن تاريخ الجزيرة العربية، كما توضحه النقوش، يُظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة منذ أقدم القدم. وقال هومل (Hommel) إن الحضارة العربية الجنوبية، بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها وحصونها وقلاعها، لا بد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد"[١].

وقد يكون النص التالي، وهو من كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، أحد النصوص التي اعتمد عليها القائلون بتخلف العرب العلمي في الجاهلية. قال الجاحظ: "وللروميين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحبُ المنطق نفسُه بكيَّ اللسان، غيرَ موصوفٍ بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطقَ الناس، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة. وفي الفرس خُطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد رأي وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علمَ الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم. وكل شيءٍ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرفَ وهمَه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يَمتح على رأس بئر أو يحدُو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمَه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحداً من ولده. وكانوا أُميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهرَ وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحدٍ في نفسه أنطق، ومكانُه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجَد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارُس. وليس هم كمن حفظ علمَ غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب. وإن شيئاً هذا الذي في أيدينا جزءٌ منه لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب، وهو الله الذي يحيط بما كان، والعالم بما سيكون. ونحن، أبقاك الله، إذا ادعينا للعرب أصنافَ البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهدٌ صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعرُ الناس اليومَ، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير، والنبذ القليل"[٢].

فهذا النص، رغم ما يضج به من التغزل في ذكاء عرب الجاهلية ومواهبهم الفطرية، يؤكد تأكيداً بيناً أنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة ولا الدراسة ولا الفلسفة و لا العلوم الطبيعية وما إليها.. إنهم لا يعرفون إلا

---

[٢] المرجع السابق // ١/ ٧٤..

الشعر والخطب. وليس بالشعر والخطب وحدهما تكون ثقافة الأمم، ولا تقوم للأمم نهضة أو حضارة. ويجرى فى هذا المجرى تأكيد ابن عبد ربه فى "العِقد الفريد" لأميتهم، إذ يقول: "جاء الإسلامُ وليس أحد يكتب بالعربيّة غيرَ سبعة عشر إنسانا، وهم عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعُمَرُ بن الخطاب، وطلحة بن عُبَيْد الله، وعثمان، وأبو عُبيدة بن الجرّاح، وأبَان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وأبو حُذَيْفة بن عُتْبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سَلمة ابن عبد الأسد، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وحُوَيطِب بن عبد العُزى، وأبو سُفيان بن حَرْب، ومعاوية ولده، وجُهيم بن الصلت بن مخرَمة". وحتى لو قلنا إن هؤلاء السبعة عشر هم من أهل مكة وحدهم لا من العرب كلهم لبَقِيَ أن السبعة عشر هو عدد ضئيل جدا، وأنه يومئ إلى انحطاط مستوى العرب الثقافى فى ذلك الوقت نسبة إلى أمم الحضارة فى العالم أوانئذ.

ويتحدث كليمان هوار عن عرب الجاهلية فى كتابه: "La Littérature Arabe" قائلا إن بدوهم، وهم بطبيعة الحال يمثلون الغالبية العظمى منهم آنئذ، يَحْيَوْن حياة فطرية ويحتفظون بجهلهم لا يَبْغون عنه حِوَلا، وإن كان أهل الحضر قد مسهم شيء من التحضر عن طريق الرحلات التجارية التى كانوا يقومون بها إلى الشام والعراق. يقول:

"le Bédouin est vite retombé dans son genre de vie primitif, il a conservé avec amour son ignorance native, dont il n'a jamais voulu sortir; et quant à l'Arabe des villes, la fréquentation des marchands syriens et chaldéens, avant l'islamisme, celle des pèlerins qui de toutes les parties du monde musulman viennent vénérer le temple sacré de la Mecque, la Ka'ba et sa pierre noire, depuis Mohammed le prophète, l'a bien un peu civilisé, mais bien peu; et encore aujourd'hui, les vices qui sont les vertus de l'homme primitif, l'astuce, la cupidité, la défiance, la cruauté régnent encore, sans palliatif, dans le cœur des citadins de ces villes inaccessibles".

وكان رأى المرحوم أحمد حسن الزيات فى عرب الجاهلية من هذه الناحية سيئا أيضا، إذ يؤكد أنهم كانوا أهل ظعن وارتحال وتنازع وحروب وتوحش وكثرة ترحل وتنقل محرومين من المدنية الاجتماعية والحكومة السياسية والفلسفة الدينية، وأن مجتمعهم كان مجتمع قبيلةٍ وخيْمةٍ لا مجتمع شعب وأمةٍ، ومن ثم لم تعرف لغتهم فى ذلك الوقت ألفاظ "الحضارة والرأى العام والأرستقراطية والديمقراطيةً والإقطاع"[١]. ولسنا نظن أن الزيات قد وُفق فى إشارته إلى خلو لغة العرب أوانذاك من ألفاظ الرأى العام والأرستقراطية والإقطاع والديمقراطية واتخاذ ذلك برهانا على تخلفهم، إذ كثيرا ما تكون الأمة متقدمة فى مضمار الحضارة لكنها ليست ديمقراطية مثلا أو لا تعرف هذه الكلمة بالذات وتعرف كلمة أخرى بدلا منها. كما أن لغة العرب، وإن خلت من لفظة "الرأى العام" أو "الأرستقراطية"، كانت تعرف عوضا عن ذلك كلمات "حسن الذكر" مثلا و"الشرف" و"كرم الأرومة" وما إلى ذلك. على أنى لست أقصد من تسجيل هذه

---

[١] انظر أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربى/ دار نهضة مصر /٩.

الملاحظة أن أعلن مخالفتي للزيات في حكمه على العرب، بل أقصد أن الدليل الذي ساقه ليس بالدليل المقنع.

ومن يرون الصورة الحضارية للعرب رديئة بل شنيعة محمد الهادي اليوسفي الغروي، الذي يؤكد، في كتابه: "موسوعة التاريخ الاسلامي/ج١: العصر النبوي– العهد المكي"، أن "القرآن يسمّي عهد العرب المتّصل بظهور الإسلام بـ"الجاهليّة"، وليس إلا إشارة منه إلى أنّ الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم، وأنّ المسيطر عليهم في كل شيء الباطل دون الحق، وكذلك كانوا على ما يقصّ القرآن من شؤونهم. . . أضف إلى ذلك بلاء الأميّة وفقدان التعليم والتعلم في بلادهم، فضلاً عن العشائر والقبائل. . . ومن مصاديق الحميّة الجاهليّة ما حاوله البعض أنْ يحرّف في معنى الجاهليّة من معنى عدم العلم وفقدان المعرفة لديهم إلى أنّها من الجهل بمعنى "الحميّة والغضب"، كما قد يقال: "جَهِلَ زيدٌ على عمرو" بمعنى "غضب عليه"، وأنّها ليست من الجهل بمعنى "عدم العلم والمعرفة". وهذا التوجيه ليس، كما قلنا، إلا مصداقا من مصاديق الحميّة الجاهليّة، فإنّ الظاهر من إطلاق الجهل ليس إلا بمعنى ما يقابل العلم والمعرفة، ولا تحمَل على معنى الحميّة والغضب إلا مجازا بقرينة ما، كما فيما يستشهدون به من قولهم: "جَهِلَ عليه"، فإنّ تعدية الجهل إلى المفعول بلفظة "على" أجلى قرينة لفظية لذلك، وإلا فلا تحمَل الكلمة إلا على ما يقابل العلم فقط.

وليت شعري ما يقول أصحاب هذا التوجيه غير الوجيه في معنى ما جاء في الآيات الكريمة الأربع: "ظَنّ الجاهليّة" و"حُكم الجاهليّة" و"الحميّة الجاهليّة" و"تبرّج الجاهليّة"؟ فهل يصحّ أنْ تفسّر "الجاهليّة" في هذه الآيات بمعنى "الغضب"؟ وقد رأينا أمير المؤمنين عليه السلام[١] وَصَفَ الجاهليّة بـ"الجهلاء" تأكيدا للمعنى المعروف من الجاهليّة، ثمّ قال: "وبلاء من الجهل" و"إطباق جهل" ممّا يؤكد ذلك أيضا ويدفع أيّ تردد فيه. لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته المتقدّمة حالة العرب ومستواهم العلمي والثقافي، وأنهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل والحيرة والضياع. . .

فالذي رواه الرواة والمؤرخون يفيد نفيَ وجودِ أي لون من ألوان التعليم، أو وجودَه ولكن بنسبة صغيرة جداً حيث لا يتجاوز عدد المتعلمين عدد أصابع اليدين والرجلين في كل بلدان الحجاز وحواضره. . . وخلاصة القول في جواب هؤلاء هو أن نقول: إنّ الجهل كان هو الحاكم المطلق. ولا نلاحظ نحن فيهم أي شيء من العلوم قبل الإسلام بل لا نرى إلا جهلاً وحيرة وضياعا. أمّا ما استشهد به هؤلاء فلا يعدو أنْ يكون ممّا قام به الإسلام لمحو الأمية. . . إنّ عرب الجاهليّة، ولا سيما العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام، كانوا بالطبع أسخياء يكرمون من استضافهم، ولا يخونون أماناتهم إلا قليلاً، ويرون نقض العهد ذنبا لا يُغتفر، وكانوا صريحين في أقوالهم، أقوياء في حفظهم، أقوياء في فنون من الشعر والخطابة، يُضرَب بهم المثل في شجاعتهم وجرأتهم، مهَرة في ركض الخيل والرمي، يرون الفرار من الزحف عارا لا

---

[١] يقصد ما في كتاب "نهج البلاغة" من خطب وأقوال منسوبة لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

يُغْتَسل. وفي مقابل هذه الصفات كانوا قد تلوّثوا من مساوىء الأخلاق بما يذهب بكل كمال من هذه الخصال. ولولا أنْ تداركتهم رحمة من ربّهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة لما كنّا نعايش اليوم نسلا من عدنان، بل كانوا قد التحقوا بالعرب البائدة، وكانت تتجدّد قصة أخرى عن هؤلاء البائدين.

إنّ شيوع الجهل والخرافات والفساد فيهم كان قد قرّب حياتهم من حياة الحيوانات، بحيث ينقل لنا التاريخ قصصا متعددة عن حروب امتدّت خمسين سنة بل مائة، ولم تبدأ إلا على مواضيع حقيرة لا يُعْبَأ بها. إنّ عدم وجود حكومة متنفذة بينهم تضرب على أيدي الطغاة والبغاة من ناحية، ومن ناحية أخرى سوء الوضع الجغرافي للجزيرة من حيث الماء والكلأ، كانا عاملين جعلا أكثر العرب من البدو الرُحّل يجوبون الصحاري برواحلهم كل عام سعيًا وراء الماء والكلإ، وإذا رأوا أثرا منهما نصبوا خيامهم حولها، وإذا علموا أو أخبرهم رائدهم بمكان أنفع مما هم فيه بدأوا الرحلة من جديد. إنّ الجهل والفقر وفقدان النظام كان قد خيّم على بيئة الجزيرة العربية بصورة ظاهرة بحيث أصبحت لهم تلك العادات القبيحة أمورا اعتيادية، فكثرت فيهم الغارات، وأُسِر بعضهم، وتداول فيهم الربا والخمر والميسر. إنهم كانوا يثنون على المروءة ويمجّدون بالشجاعة، لكنّ مفهوم الشجاعة لديهم كان عبارة عن قتل أكبر عدد ممكن وسفك الدّماء أكثر فأكثر. وكذلك الغيرة كانت لديهم بمعنى وأد البنات في القبور و هنّ أحياء. ويرَوْن الوفاء أنْ ينصروا عشيرتهم وحلفاءهم في كل شيء سواء كانوا على حقّ أم باطل.

هل كانت للعرب حضارة قبل الإسلام؟ لا شكّ أنه كانت هناك في جزيرة العرب بعض الحضارات، إلا أنها لم تكن في كل الجزيرة بل عدّة نقاط منها، كحضارة قوم سبأ أصحاب سدّ مأرب في اليمن، فإنها حضارة لا تُنكر.. إلا أنّ وجود هذه المستندات لا تدلنا على حضارة تسود كلّ أقطار الجزيرة العربيّة، ولا سيّما منطقة الحجاز التي لم تكن تتمتع بهذه الحضارة بل لم تشمّ شيئا من نسيمها. وهذا هو الذي جعلها مصونة عن تصرّف المتصرفين بالبلاد، فلم يتوجّه إليها نَهَمُ الروم والفرس اللذين كانا يقتسمان العالم آنذاك. والمقطوع به هو أنه لم يَبْقَ من هذه الحضارة حين ظهور الإسلام شيءٌ يُذكر".

لكنْ على الجانب الآخر هناك من يقول بعكس هذا: فعلى سبيل المثال يرى جوستاف لوبون المستشرق الفرنسي المشهور بدفاعه عن أجدادنا وحضارتهم أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أجلافا لا تاريخ لهم. وبالمثل يخطئ القول بأنهم لم يكونوا يحتلون أية مكانة فى تاريخ العالم السياسى أوالثقافى أو الدينى كما يدعى بعض العلماء من أمثال إرنست رينان رصيفه الفرنسى. ذلك أنه ما من أمة استطاعت أن تبرز حضارتها بغتة إلى الوجود، بل لا بد لها من تطور ونمو بطيء حتى لو صعب علينا أن نثبت لها هذا التطور كما هو الحال لدى العرب، الذين نهضوا بالإسلام نهضة جبارة بدت للأعين كما لو أنها نبت بلا جذور سابقة على دين محمد. فما بالنا إذا أثبتت الآثار أنهم كانوا أصحاب حضارة لا تقل عما كان عند البابليين والآشوريين منها؟ علاوة على أننا نخطئ فلا نفرق بين العرب والأعراب، فالأولون لم يكونوا همجيين

أجلافا عارين عن الحضارة كالأخيرين. وينبغى أن تنتبه إلى هذا ولا تخلط بين الفريقين. قال لوبون ذلك فى بداية الفصل الثالث من كتابه: "La Civilisation Arabe" تحت عنوان " Prétendue barbarie des Arabes avant Mahomet"، وهذا نصه كاملا فى أصله الفرنسى:

"On admet généralement que les Arabes avant Mahomet n'ont pas eu d'histoire. Composés de tribus errantes sans traditions ni demeures, ils auraient mené pendant des siècles une vie demi-sauvage, et rien ne serait resté de leur souvenir dans la mémoire des hommes.

Une telle opinion est professée encore aujourd'hui par des esprits fort distingués. J'en trouve la preuve dans le passage suivant de l'illustre auteur de l'histoire des langues sémitiques: « Jusqu'à ce mouvement extraordinaire qui nous montre la race arabe tout à coup conquérante et créatrice, l'Arabie n'a aucune place dans l'histoire politique, intellectuelle, religieuse du monde. Elle n'a pas de haute antiquité. Elle est si jeune dans l'histoire que le sixième siècle est son âge héroïque, et que les premiers siècles de notre ère appartiennent pour elle aux ténèbres antéhistoriques. »

Quand bien même nous ne saurions rien du passé des Arabes, nous pourrions affirmer d'avance que l'opinion qui précède est erronée. Il en est de la civilisation d'un peuple comme de son langage. L'un et l'autre peuvent apparaître brusquement dans l'histoire, mais ils ont eu toujours des fondements dont l'élaboration a été nécessairement fort lente. L'évolution des individus, des peuples, des institutions et des croyances est toujours graduelle. Une force supérieure ne peut être atteinte que lorsque toute la série des formes intermédiaires a été successivement franchie.

Lorsqu'un peuple apparaît dans l'histoire avec une civilisation avancée, on peut affirmer sûrement que cette civilisation est le fruit d'un long passé. Ce passé nous est souvent ignoré, mais il existe toujours, et les investigations de la science finissent le plus souvent par le mettre en évidence.

Il en est ainsi de la civilisation des Arabes avant Mahomet. Dire exactement aujourd'hui ce que fut cette civilisation serait difficile, mais les documents que nous possédons suffisent à montrer qu'elle a existé, et qu'elle ne fut pas inférieure peut-être à ces antiques civilisations de l'Assyrie et de la Babylonie, ignorées pendant si longtemps, mais que l'archéologie moderne reconstitue maintenant.

Les idées courantes sur la barbarie des Arabes avant Mahomet ne sont pas seulement le résultat du demi-silence de l'histoire, mais encore de la confusion qu'on fait généralement entre les Arabes nomades, habitants du désert, et les Arabes sédentaires, habitants des villes. Avant comme après Mahomet, les nomades sont restés des populations à demi sauvages, n'ayant possédé, comme tous les sauvages, ni civilisation ni histoire.

Mais ces Arabes nomades ne forment qu'une des deux branches de la race arabe: à côte d'eux se trouvent les Arabes sédentaires, connaissant l'agriculture et habitant les villes. Or, il est facile de prouver que ces Arabes des villes possédèrent autrefois une civilisation dont nous ignorons les détails, mais dont nous pouvons pressentir la grandeur..

L'histoire n'est pas restée aussi muette sur l'ancienne culture des Arabes qu'elle l'a été sur d'autres civilisations que la science moderne voit sortir avec étonnement de la poussière ; mais eût-elle garde un silence complet, nous aurions pu assurer que la civilisation arabe fut bien antérieure à Mahomet. Il nous aurait suffi de rappeler, qu'a l'époque du prophète, les Arabes possédaient déjà une littérature et une langue très développées et se trouvaient depuis plus de 2000 ans en relations commerciales avec les peuples les plus civilisés du monde, et réussirent en moins de cent ans à créer une des plus brillantes civilisations dont les siècles ont gardé la mémoire.

Or, une littérature et une langue ne s'improvisent pas, et leur existence est déjà la preuve d'un long passé. Les relations séculaires avec les nations les plus civilisées finissent toujours par conduire à la civilisation les peuples

qui en sont susceptibles ; et les Arabes ont suffisamment prouvé que tel était leur cas. Pour avoir réussi enfin à créer en moins d'un siècle un vaste empire et une civilisation nouvelle, il fallait des aptitudes qui sont toujours le fruit de lentes accumulations héréditaires, et par conséquent d'une longue culture antérieure. Ce n'est pas avec des Peaux-Rouges ou des Australiens que les successeurs de Mahomet eussent créé ces cités brillantes qui pendant huit siècles furent les seuls foyers des sciences, des lettres et des arts, en Asie et en Europe. Bien d'autres peuples que les Arabes ont renversé de grands empires, mais ils n'ont pas fondé de civilisation, et faute de culture antérieure suffisante, ils n'ont profité que bien tard de la civilisation des peuples qu'ils avaient vaincus. Il a fallu de longs siècles d'efforts aux barbares qui s'emparèrent de l'empire romain pour se créer une civilisation avec les débris de la civilisation latine et sortir de la nuit du moyen âge"[1].

وعلى ذات الشاكلة يرى جرجى زيدان أن اللغة العربية تدل على أن الأمة التى ابتدعتها لا بد أن تكون من أعرق الأمم فى المدنية لأنها من أرقى لغات الأرض فى ألفاظها وعباراتها وتراكيبها ومعانيها، إذ لا يمكن أن تكون لغة بهذا السمو التمدنى من صنع أمة متوحشة. ثم إنه يعد الحمورابيين أصحاب الحضارة الشهيرة المتقدمة فى بلاد الرافدين عربا من العرب رغم أنهم كانوا يعيشون خارج الجزيرة العربية، ورغم اختلاف لغتهم عن العربية التى نعرفها. وهو يرى هذا الاختلاف اللغوى أمرا طبيعيا، إذ اللغات لا تظل على صورة واحدة طوال الزمن، بل تخضع لعامل التطور ككل شىء فى الحياة. وهو يسمى زمنهم: "الجاهلية الأولى"، على حين يطلق على الجاهلية التى تسبق الإسلام مباشرة اسم "الجاهلية الثانية". وبناء على هذا فالعرب، فى رأيه، من أسبق أمم الأرض إلى المدنية وسَنّ الشرائع وبناء المدارس وتنشيط العلم. وقد سبقوا كثيرا من أمم العصر إلى كثير من مظاهر المدنية، فكانوا يعرفون المدارس، وتمتع نساؤهم بنصيب ضخم من الاستقلال. كما نشروا مدنيتهم وعلمهم فى جزيرة العرب ذاتها، وخصوصا فى البقاع العامرة منها كاليمن ومَدْين والحجاز.

بل إنه لينفى عن عرب "الجاهلية الثانية"، كما يسميها، أن يكونوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن سكنى المدن وانقطاعهم للغزو والحرب. ذلك أن ما وصلنا من أخبارهم يدل على أنهم كانوا ذوى عقول كبيرة وذكاء ونباهة واختبار وحنكة حسب تعبيره. وهو يمضى فيورد بعضا من أشعار شعرائهم كزهير بن أبى سلمى، الذى يؤكد أن ما يقوله لا يقل عن أحكام أكابر الفلاسفة. وهنا نراه يرتد إلى الدليل اللغوى فيتخذ من احتواء العربية على ألفاظ العمران والسياسة والاقتصاد والعلم كـ"الشعب والجماعة واللجنة والقوم والشرذمة والمحفل والنادى والمجلس والجريدة والقلم والمجلة والصحيفة والقِمَطر والصَّك والسِّجل

---

[1] ويجد القارئ هذا باللغة العربية فى ترجمة المرحوم عادل زعيتر لكتاب لوبون بعنوان "حضارة العرب" (مكتبة الأسرة/ ٢٠٠٠م/ ٨٧- ٨٩).

والرِّكاز" وأسماء النقود المختلفة، علاوة على كثرة مترادفاتها وارتقاء آدابهم واشتراك نسائهم في كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية دليلا على تقدمهم[١]

ويمضي د. عمر فروخ في نفس الاتجاه، وإن لم يذهب إلى المدى الذي ذهب إليه جرجي زيدان، فهو يرجع اشتقاق لفظة "الجاهلية" إلى "الجهل" الذي هو ضد الحِلم لا العِلم، قائلا إن "الجاهلية اسم أطلقه القرآن على العصر الذي سبق الإسلام لأن العرب في تلك الحقبة كانوا "أهل جاهلية" يعبد بعضهم الأوثان، ويتنازعون فيما بينهم، ويثأر بعضهم من بعض، ويئدون أحيانا أولادهم. وكانوا يشربون الخمر ويجتمعون على الميسر (القِمَار). وهكذا نرى أن الجاهلية كانت من "الجهل" الذي هو ضد الحلم لا من "الجهل" الذي هو ضد العلم. إن العرب كانوا على قسط وافر من العلوم والمعارف التي كانت معروفة في عصرهم كالفلك والطب واقتفاء الأثر. أما أدبهم فكان أرقى الآداب في أيامهم، ولا يزال هذا الأدب الجاهلي إلى اليوم من أبرع النماذج الأدبية"[٢].

ولعل أول من قال بهذه الفكرة، فكرة أن "الجهل" في لفظة "الجاهلية" هو الجهل الذي يناقض الحِلْم لا العِلم، هو المستشرق اليهودي المجري إجناتس جولدتسيهر في كتابه: " Muhammcdanische Studieni". كتب رينولد نيكلسون في " A Literary History of the Arabs":

"Goldziher, however, has shown conclusively that the meaning attached to jahl (whence 'Jahiliyya is derived) by the Pre-islamic poets is not so much 'ignorance' as 'wildness,' 'savagery,' and that its true antithesis is not 'ilm (knowledge), but rather hilm, which denotes the moral reasonableness of a civilised man." When Muhammadans say that Islam put an end to the manners and customs of the Jahiliyya, they have in view those barbarous practices, that savage temper, by which Arabian heathendom is distinguished from Islam and by the abolition of which Muhammad sought to work a moral reformation in his countrymen: the haughty spirit of the Jahiliyya (hamiyyatu 'l-Jahiliyya), the tribal pride and the endless tribal feuds, the cult of revenge, the implacability and all the other pagan characteristics which Islam was destined to overcome"[3].

وقد عاد جولدتسيهر فكرر ذات الفكرة، ولكن دون التطرق إلى مناقشة اشتقاق كلمة "الجاهلية"، وذلك في النص التالي من كتابه: "Mohammed and Islam":

"If anything in Mohaimned's religious production can be called original, it is the negative side of his revelations. They were intended to eliminate all the barbarities of Arabian paganism in worship and social

---

[١] انظر جرجي زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف/ دار الهلال/ ١/ ٢٤-٣٤. وفي كتابه: "العرب قبل الإسلام" نراه يؤكد ما قاله هنا من أن الحمورابيين عرب أصلاء، مضيفا إليهم الهكسوس في مصر، ومملكتي الأنباط وتدمر في شمال بلاد العرب، إلى جانب الدول التي قامت في اليمن بطبيعة الحال: مَعِين وسَبَأ وحِمْيَر.

[٢] د. عمر فروخ/ تاريخ الأدب العربي/ ط٤/ دار العلم للملايين/ ١٩٨١م/ ١/ ٧٣.

[3]Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, T. Fisher Unwin, London. 1907, P. 30.

intercourse, in tribal life and in their conceptions of the world; in other words, they were to eliminate the jahiliyya, the pre- Islamic barbarity, in so far as it stamped these conceptions and customs as opposed to Islam"[1]

وفى مادة "Jahiliyya" بـ"Encyclopedia of Arabic Literature"[2] نقرأ فى تعريف ذلك المصطلح ما هو قريب جدا من هذا:

"Jahiliyya ('time of ignorance'), is a designation for the pre-Islamic period. As a religious term occurring four times in the Koran, jahiliyya denotes a timespan during which the belief in God has fallen into oblivion and which is ended by the rise of a new prophet. In particular, it is the common term for the period immediately preceding the mission of the Prophet Mubammad".

ويلتقف كاتب مادة "Hilm" (حِلم) فى "The Qur'an: an Encyclopedia" الفكرة هو أيضا فيقرر أن "الجاهلية" هى الاندفاع مع الغضب والتهور، على عكس الحِلم، الذى يتبدى فى الصبر والعدل والرحمة والتواضع والقدرة على ضبط النفس:

"The period before the Qur'anic revelation was known in Arabia as the age of ignorance (jahiliyya), which connotes the barbarism of the 'reckless temper' of the pagan Arabs (Goldziher, 1967:202ff.). The opposite of it is hilm (forbearance, self-mastery), which connotes the qualities of a civilized person. The expression 'fierceness of paganism' (hamiyyat al-jahiliyya) in the Qur'an (48.26) refers to the haughty spirit of the tribal Arab, which the Qur'an contrasts with the calm, tranquil and forbearing way of religion (Izutsu, 1959:23ff.). The quality of forbearance is a dominant virtue in the Qur'an and it is manifested in self-control, kindness and abstinence (Isutzu, 1959:216). Luqman advised his son to be a model of forbearance and humility (31.17–19). Thus hilm is a complex and delicate notion, which includes the qualities of justice, moderation and leniency"[3].

أما أحمد محمد أمين هزاعة فيتوغل فى البحث عن أصل كلمة "الجاهلية" قبل أن تأخذ معنييها الشائعين اللذين يعمل على أن يربط بينهما برباط من ذلك الأصل، قائلا فى مقال له منشور فى "شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية" بعنوان "المعجم التاريخي: (١) رسالة إلى مجمع اللغة العربية": "جاء في اللسان: "المِجْهَل والمِجْهَلة، والجَيْهَل والجَيْهلة: الخشبة التي يُحَرَّك بها الجَمْر والتنور . . ." . . . والجَيْهل والجَيْهلة . . . هي أصل هذه المادة اللغوية . . . ثم اشتقت العرب من "الجَيْهَل" . . . الفعل فقالوا: "جَهِل التَّنورُ"، أي تحرَّك جمره فهبت لفحاته الحارة، ثم نعتوا التنور بصفة مشتقة من الفعل: "جهل"، فقالوا: "تنورٌ جاهل"، أي مجمَّرٌ قد ثار جمره فهو يلفح وجه القاعد دونه، ثم غلبت الصفة على الموصوف فقيل: "أوقدتُ الجاهلَ"، أي أوقدتُ التنورَ. ثم شبهوا الغاضب الطائش بالتنور، فقالوا: "جهل فلان"، أي هبت لفحاته الحارة لما في كلامه من سوء، ثم نعتوه فقالوا: "فلان جاهلٌ"، أي ثائرٌ جمرُه، فهو يلفح وجه الذي أمامه بالكلام السيِّيء . فمن هذا صار الجهل نقيض الحِلم. ثم وصفوا كل من يجادل بغير علم بـ"الجاهل"، لأنه في جداله بغير علم

---

[1] Ignaz Goldziher, Mohammed and Islam, Translated from the German by Kate Chambers Seelye, Yale University Press, 1917, PP. 12- 13.
[2] Routledge, 1998.
[3] Ed. O. Leaman, Routledge, 2006.

تراه يلفح وجه مناظره بالكلام القبيح الخاطىء بغير وجه حق. فمن هذا صار الجهل نقيض العلم. جاء في "اللسان" في تعريف الجاهلية: "هي الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك". قلت: إن أكثر ما حيَّرني في أمر هذا المصطلح هو صيغته الصرفية المبنية على صيغة المصدر الصناعي مع وجود المصدر الصريح، وهو "الجهْل والجهالة". ثم إن هذا المصدر متفرد بهذه الصيغة الصرفية عن أقرانه من المصطلحات التي جاءت كلها على صيغة المصدر الصريح، فـ"الإسلام والإيمان والإحسان والشرك والكفر والنفاق" كلها مصادر صريحة، إلا "الجاهلية" فهي مصدر صناعي، فلِمَ كان هذا؟...

نعلم في النحو أن المصدر الصناعي هو في حقيقته اسم منسوب، والاسم إنما ينسب إليه ليوصف به فيقال: "هذه أخلاق إنسانية"، فالإنسانية هنا اسم منسوب يراد به الصفة. فإذا حذف الموصوف وقامت الصفة بنفسها، فقيل: "الإنسانية هي التخلق بأخلاق الإنسان السَّوِيّ" صار لفظ "الإنسانية" هنا مصدرا صناعيا. وكذلك "الجاهلية"، فهي في أصلها اسم منسوب إلى "الجاهل". وليس "الجاهل" هنا هو اسم الفاعل من الفعل: "جهل"، الذي هو نقيض "عَلِمَ" أو "حَلِمَ"، بل الأصل في مصطلح الجاهلية أنه اسم منسوب إلى "الجاهل" الذي هو "التنور". إذ وُصِفت النفس به، فقيل: "نفس جاهلية، ونفوس جاهلية"، أي نفس تنورية، ونفوس تنورية، وهي النفس المنفعلة الغاضبة العنيفة. وهي كقولنا: "نفس نارية". ثم حُذِف الموصوف وهو "النفس"، وقامت الصفة بنفسها، وهي "الجاهلية". جاء في الحديث: "إنك امرؤ فيك جاهلية" قلت: وأصل الكلام هو قولنا: "إنك امرؤ فيك نفس جاهلية"، أي نفس تنورية، أي نارية، فهي نفس تلفح مَنْ أمامها بالكلام غير الحسن، ثم تُوسِّع في مصطلح "الجاهلية" فصار اسم عَلِم على تلك المدة التي كانت قبل الإسلام، إذ كانت النفوس فيها نفوسًا جاهلية، أي تنورية ونارية. ولكن لِمَ؟...

لقد بدأت نفوس العرب تجهل كالجاهل. أي يثور جمرها كما يثور التنور إذا حُرِّك بخشبة الجيهل على أثر دخول الشرك إلى العبادة. ذلك أن الشرك أضعفَ وازع الديانة الحقة من النفوس. فلقد كان رادع الدين الذي يستشعره الإنسان يمنعه من الإساءة، فلما دخل الشرك على الناس ضعف وازع الرقابة كما ذكرنا. ذلك أن دين الله تعالى الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وذريتهما يعلم أتباعه أن الله تعالى يعلم ما يعملون حيثما كانوا، فهم لذلك في رقابة لأنفسهم دائما. فلما دخلت عبادة الأصنام صارت الرقابة محصورة حيث هم مجتمعون عند أصنامهم، فإذا خرجوا من عندها تحللوا من الرقابة. فمن ذلك تمرَّدوا

وعنفت نفوسهم حتى صارت من حرّها تشبه التّنور الجاهل (المجمَر)، فلذلك نُسِبَتْ إليه فقيل لها: نفوس جاهلية أي تَنُّوريّة ونارِيّة"[١].

وهى محاولة طريفة فيها اجتهاد ودأب يُحْمَدان لصاحبها، وإن كنا لا نوافقه على كل حاء فى المقال، إذ ما الدليل على أن أصل المعنى فى هذه المادة هو النار والتّنور وما أشبه؟ ذلك أن المعجميين العرب كالخليل والجوهرى والراغب الأصفهانى وابن منظور والزَّبيدِىّ مثلا يقولون إنها تعنى انتفاء العلم أو نقصانه، ولا يذكرون النارية وما يرتبط بها، إن ذكروها، إلا عَرَضا وباختصار جدّ شديدٍ، ودون القول بأن هذا هو أصل معناها. بل إن الخليل والجوهرى لم يوردا من معانى "الجهل" إلا انتفاء العلم ليس إلا. لا بل إن الزبيدى مثلا، حين أورد كلمة "المِجْهَل" وقال إنها الخشبة التى يحرَّك بها الجمر، عقّب بأنها لغة يمانية. وحين قال إن معنى "جَهِلَتِ القِدْرُ": "اشتد غليانها" قال إنها مجاز. أى أن الأصل فى الكلمة هو دلالتها على نقيض العلم، ثم توسع العرب فاستعملوها لما يتصل بالنار واللهيب. يقول الزبيدى ذلك رغم أن المعنى المادى هو، فيما يقول اللغويون، المعنى الأصيل للكلمة، ثم يُتَوَسَّع فى استعمالها بعد ذلك للمعنويات. على أنى لا بد أن أعبر عن غبطتى بقول الباحث إن "الجاهلية" منسوبة إلى "الجاهل" بمعنى "التنور" بما يعنى أن المنسوب إليه هنا اسمٌ لا صفة، وهو ما قد يحل بعض المشكلة التى تتعلق بصيغة المصدر الصناعى فى هذه الكلمة حسبما وَضَحْتُ من قبل. لكنْ يلاحَظ أن الزبيدى لم يذكر هذا المعنى لكلمة "الجاهل"، بل ذكر أن "الجاهل" (اسمًا لا صفةً) هو "الأسد".

وكنت قد تساءلت فيما بينى وبين نفسى فى محاولة للبحث عن اسم يكون أصلا لكلمة "الجاهلية" بدلا من الصفة: ألا يمكن أن تكون كلمة "الجاهلية" منسوبة إلى واحدٍ من العرب، بمعنى أنه كان فى الجاهلية أو فى بداية البعثة شخص يحارب الإسلام سيئ الخلق والطبع، فلُقِّب عند المسلمين بـ"جاهل" كما كان عمرو بن هشام يلقب عندهم أيضا بـ"أبى جهل"؟ بيد أنى استبعدتُ هذا الاحتمال لأنه لم ترد إلينا رواية بهذا المعنى عن أى إنسان. كما أن أحدا ممن تناول اشتقاق الكلمة ومعناها لم يقل شيئا من هذا ولا حام حوله مجرد حَوَمَان. والآن ها هو ذا الباحث الأردنى يقول بنسبتها إلى اسم، ولكنه اسم جنس لا اسم علم. لكن هذا الاسم ليس من الشيوع بمكان، ولا قال به أحد من العلماء من قبل.

---

[١] نوّه المؤلف فى رأس مقاله هذا بأنه مقتطف من كتاب له يسمى: "الأوليات: العرب والأدب والإسلام والجاهلية والشعر" بدءا من ص ٢٣ فصاعدا. والكتاب موجود على المشباك (الإنترنت)، ومثبت على صفحة عنوانه اللقب الذى اختاره المؤلف لنفسه: "أصيل الصيف الأصولى"، وليس اسمه الحقيقى. وهو بصيغة "Word"، وغير مذكور عليه اسم أى دار أو تاريخ للنشر، وإن كان الكاتب ينص فى بعض المواقع المشباكية بأنه من منشورات وزارة الثقافة بالأردن.

وفى كتاب "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" نجد تفصيلا لهذه القضية، إذ يقول مؤلفه فى الفصل الثانى منه تحت عنوان "الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلى": "اعتاد الناس أن يسموا تاريخ العرب قبل الإسلام: "التاريخ الجاهلي" أو "تاريخ الجاهلية"، وأن يذهبوا إلى أن العرب كانت تغلب عليهم البداوة، وأنهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم في الحضارة فعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحَل في جهل وغفلة، لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم، أميون عبدة أصنام، ليس لهم تاريخ حافل. لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الإسلام عندهم بـ"الجاهلية".

و"الجاهلية" اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الإسلام. وقد أطلق على حال ما قبل الإسلام تمييزًا وتفريقًا لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من إطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضا بتسميات جديدة. وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة ما يدل ضمنًا على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان. وقد سبق للنصارى أن أطلقوا على العصور التي سبقت المسيح والنصرانية: "الجاهلية"، أي "أيام الجاهلية"، أو "زمان الجاهلية"، استهجانًا لأمر تلك الأيام، وازدراءً بجهل أصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليها، ولجهالة الناس إذ ذاك وارتكابهم الخطايا التي أبعدتهم، في نظر النصرانية، عن العلم وعن ملكوت الله: "وقد أغضى الله عن أزمنة هذا الجهل فيبشر الآن جميع الناس في كل مكان إلى أن يتوبوا".

وقد وردت لفظة "الجاهلية" في القرآن الكريم: وردت في السور المدنية دون السور المكية، فدل ذلك على أن ظهورها كان بعد هجرة الرسول إلى المدينة، وأن إطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة، وأن المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده. وقد فهم جمهور من الناس أن "الجاهلية" من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم، ومن الجهل بالقراءة والكتابة، ولهذا ترجمت اللفظة في الإنكليزية بـ" The Time of Ignorance"، وفي الألمانية بـ"Zeit der Unwissenheit". وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين واتباع الوثنية والتعبد لغير الله، وذهب آخرون إلى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهليين. ويرى المستشرق كولدتزهير (Goldziher) أن المقصود الأول من الكلمة: "السفه"، الذي هو ضد الحلم، والأنفة والخفة والغضبُ وما إلى ذلك من معان. وهي أمور كانت جدً واضحةٍ في حياة الجاهليين، ويقابلها الإسلام، الذي هو مصطلح مستحدث أيضا ظهر بظهور الإسلام، وعماده الخضوع لله والانقياد له ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن الكريم والحديث.

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في مواضع منه منها آية سورة الفرقان: "وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاما"، وآية سورة "البقرة": "قالوا أتتخذنا هُزُوًا ؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين"، وآية سورة "الأعراف": "خذ العفو وأْمُرْ بالعرف وأَعْرِضْ

عن الجاهلين"، وآية "هود": "إني أعظك أن تكون من الجاهلين". وفي كل هذه المواضع ما ينم على أخلاق الجاهلية. وقد ورد في الحديث: "إذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفثْ ولا يجهل"، وورد أيضا: "إنك امرؤ فيك جاهلية". وبهذا المعنى تقريبا وردت الكلمة في قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا * فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا

أي لا يَسْفَه أحد علينا فنسْفَه عليهم فوق سفههم، أي نجازيهم جزاء يُرْبِي عليه. واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير. وجاء في سورة المائدة: "أفحُكمَ الجاهلية يبْغون * ومَنْ أحسن من الله حُكمًا لقوم يوقنون"، أي أحكام الملة الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكام والتفريق بين الناس في المنزلة والمعاملة.

وأطلقوا على "الجاهلية": "الجَهْلاء". و"الجَهْلاء" صفة للأولى يراد بها التوكيد، وتعني "الجاهلية القديمة". وكانوا إذا عابوا شيئًا واستبشعوه قالوا: "كان ذلك في الجاهلية الجهلاء". و"الجاهلية الجهلاء" هي الوثنية التي حاربها الإسلام. وقد أنب القرآن المشركين على حميتهم الوثنية فقال: "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية". والرأي عندي أن الجاهلية من السفه والحمق والأنفة والخفة والغضب وعدم الانقياد لحكم وشريعة وإرادة إلهية وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام. فهي في معنى "اذهب يا جاهل": تقولها في العراق لمن يتسفه ويتحمق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل، فلا يبالي أدبا ولا يراعي عرفا. و"رجل جاهل" تطلقه على من لا يهتم بمجتمع ودين، ولا يتورع من النطق بأفحش الكلام. ولا يشترط بالطبع أن يكون ذلك الرجل جاهلا أميا، أي ليس له علم، وليس بقارئ كاتب...

واختلف العلماء في تحديد بدء الجاهلية أو العصر الجاهلي: فذهب بعضهم إلى أن الجاهلية كانت فيما بين نوح وادريس. وذهب آخرون إلى أنها كانت بين آدم ونوح، أو أنها بين موسى وعيسى، أو الفترة التي كانت ما بين عيسى ومحمد. وأما منتهاها فظهور الرسول ونزول الوحي عند الأكثرين، أو فتح مكة عند جماعة. وذهب ابن خالويه إلى أن هذه اللفظة أطلقت في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة. والذي يُفهم خاصةً من كتب الحديث أن أصحاب الرسول كانوا يعنون بـ"الجاهلية" الزمان الذي عاشوا فيه قبل الإسلام، وقبل نزول الوحي، فكانوا يسألون الرسول عن أحكامها، وعن موقفهم منها بعد إسلامهم، وعن العهود التي قطعوها على أنفسهم في ذلك العهد. وقد أقر الرسول بعضها، ونهى عن بعض آخر. وذلك يدل على أن هذا المعنى كان قد تخصص منذ ذلك الحين، وأصبح للفظة "الجاهلية" مدلول خاص في عهد الرسول.

وأطلق بعض العلماء على الذين عاشوا بين الميلاد ورسالة الرسول: "أهل الفترة"، وهم في نظرهم جماعة من أهل التوحيد ممن يقر بالبعث ذكروا منهم حنظلة بن صفوان نبي أصحاب الرسّ وأصحاب الأخدود، وخالد بن سنان العبسي، ووثاب السني، وأسعد أبا كرب الحميري، وقسّ بن ساعدة الإيادي،

وأمية بن أبي الصّلت، وورقة بن نوفل، وعداس مولى عتبة بن أبي ربيعة، وأبا قيس صرمة بن أبي أنس من الأنصار، وأبا عامر الأوسي، وعبد الله بن جحش وآخرين. فهم إذن طبقة خاصة من الجاهليين مُيّزُوا عن غيرهم بهذه السمة لأنهم لم يكونوا على ملة أهل الجاهلية من عبادة الأصنام والأوثان. فلفظة "الجاهلية" إذن نعت إسلامي من نوع النعوت التي تطلق في العهود السابقة على حركة ما أو انقلاب. أطلقه المسلمون على ذلك العهد كما نطلق اليوم نعوتا وأسماء على العهود الماضية التي يثور الناس عليها، من مثل مصطلح "العهد المباد" الذي أطلق في العراق على العهد الملكي منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، ومثل المصطلحات الأخرى الشائعة في الأقطار العربية الأخرى، والتي أطلقت على العهود السابقة للثورات والانقلابات"[١].

كذلك نقرأ فى مادة "Age of Ignorance" من "Encyclopaedia of the Qur'an"[٢] أن مصطلح "Age of Ignorance" هو الترجمة الشائعة لكلمة "الجاهلية"، وهى الفترة التى تسبق ظهور الإسلام، وتتسم بأن العرب لم يكن لديهم خلالها وحى إلهى. وكان المسلمون ولا يزالون يستخدمون هذا المصطلح مقابلا لمصطلح "الإسلام" باعتبار أن كلا المصطلحين يدل على نقيض ما يشير إليه المصطلح الآخر. ويمضى كاتب المادة قائلا إن كلا من إجناتس جولدتسيهر وت. إيزوتسو يوكدان، اعتمادا من أولهما على شواهد من شعر الجاهليين، ومن ثانيهما على شواهد من القرآن والسيرة النبوية، أن الجذر الذي اشتُقّ منه هذا المصطلح لا يعنى "الجهل" الذى هو ضد العلم، بل الجهل الذى هو ضد الحِلم. وهذا نص ما قيل فى ذلك الموضوع فى أصله الإنجليزى:

"Age of Ignorance: This phrase is a common translation of the Arabic word jāhiliyya used by Muslims to refer to the historical period in west-central Arabia covering the centuries immediately prior to the mission of Muhammad, a period characterized by ignorance of the divine truth. To the original audience of the Qur'ān, however, it almost certainly referred primarily to the moral condition of those individuals and their society which led them to oppose the mission of the Prophet (see opposition to muhammad) and only secondarily, if at all, to a defi ned historical epoch. It is also possible that the word was a kind of collective plural of "ignorant person" (jāhil), as has been asserted by F. Rosenthal (Knowledge triumphant, 33-4).

As to the nature of this moral condition, I. Goldziher and T. Izutsu have argued that the primary meaning of the root, j-h-l, from which āhiliyya is derived, is not "ignorance" but "barbarism," especially the endency to go to extremes of behavior. According to this view the original antonym was not ilm (knowledge) but ilm (moral reasonableness, self-control). I. Goldziher (ms, 201-8) has adduced considerable evidence for this from pre-Islamic Arabic poetry, while T. Izutsu (Concepts, 28-35) has examined key passages from the Qur'ān and the biography of the Prophet

---

[١] د. جواد على/ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ط٢/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م/ ١/ ٣٧- ٤٠.

(see sIra and the qur_An). The word jāhiliyya is often translated "pagandom" or "heathendom" and it may be argued that its effective an tonym is islām (q.v.), as it certainly is for many later writers (see ignorance). The texts of the four passages where the word jāhiliyya occurs in the Qur'ān tend to bear these prints out, though not conclusively. The contrast between jāhiliyya and ilm seems particularly clear in q 48:26: "When the unbelievers stirred up fierce arrogance in their hearts, the fi erce arrogance of jāhiliyya (amiyyat al-jāhiliyya), God sent down his tranquility upon the messenger and the believers and imposed on them the command of self-restraint (taqwā)." T. Izutsu (Concepts, 31) interprets "the fi erce arrogance of the jāhiliyya" as "the staunch pride so characteristic of the old pagan Arabs, the spirit of stubborn resistance against all that shows the slightest sign of injuring their sense of honor and destroying the traditional way of life." q 3:154 speaks of "a band anxious for themselves, wrongly suspicious of God with a suspicion (zann) of the jāhiliyya." Here jāhiliyya may mean ignorance, but a lack of trust in God would seem more specific. q 5:50 reads, "Do they seek a jāhiliyya judgment (hukm jāhilī)?" i.e. a judgment by pagan rather than divine standards. Here islām would seem the likely antonym. Finally, q 33:33 admonishes the wives of the Prophet: "Stay in your homes and do not make a display of yourselves in the manner of the fi rst [or old] jāhiliyya (al-jāhiliyya alūlā)." Only here does it seem plausible, though not necessary, to interpret "jāhiliyya" as an epoch. These passages illustrate some but not all of the contrasts between the beliefs and values represented by jāhiliyya and those of the Qur'ān. The key difference is the attitude toward God. The Qur'ān insists that only God is to be obeyed and worshipped. The pagan Arabs did recognize God as creator of the world and as a kind of remote figure to be approached in certain crisis situations (q 29:65), but they also recognized other deities closer at hand, such as the three Meccan deities, al-Lāt, al-'Uzza and Manāt, who were thought to intercede with God (q 53:19-20; see satanic verses). The Qur'ān calls this the association of other beings with God (shirk), and treats it as the worst of sins, the one thing God will not forgive (q 4:48; see belief and unbelief). While the Qur'ān inculcates an attitude of submission to God and dependence on him, the pagan Arabs were marked by a spirit of independence and self-sufficiency in relation both to God and to other deities, seeing themselves as subject only to a rather impersonal fate (q.v.). The ways of their ancestors had more authority than the commands of God. While the Qur'ān preaches universal values (q 49:13), their highest loyalty was to the tribe and to tribal solidarity ('asabiyya) as illustrated by the words of the poet Durayd: "I am of Ghaziyya: if she be in error, then I will err; and if Ghaziyya be guided right, I go right with her" (R.A. Nicholson, Literary history, 83). Whereas the key motive for ethical action in the Qur'ān is the hope of reward and fear of punishment in the future life, for the pagan Arab there was no future life: "There is nothing but our present life. We die and we live. Nothing but time destroys us!" (q 45:24). W.M. Watt has called these attitudes "tribal humanism" (Muhammad at Mecca, 24-5).

The Qur'ān, however, by no means rejects all the values of the pagan Arabs. At many points the concern is rather to redirect and moderate them. Nobility comes not from having noble ancestors whose deeds one emulates, but from deeds of piety as defined by God (q 49:13). The loyalty, courage and fortitude that once served the tribe in battle and elsewhere are now meant to serve God and the Muslim community (umma). Honor is a value, but not the sort of honor that leads to unending vendettas. The Qur'ān

permits limited retribution, but encourages forgiveness (q 2:178; 17:33). Generosity and hospitality are values, but not to the extent of Hātim of Tayy, who gained fame by giving away all his father's camels (R.A. Nicholson, Literary history, 85-6). The Qur'ān says, "Be neither miserly nor prodigal" (q 17:29). At other points, pagan values and practices are more completely rejected. The hard-drinking and womanizing admired by the pre-Islamic poets are rejected in favor of bans on alcohol (q 5:90; see intoxicants; gambling) and on adultery (q 17:32...). In place of the class stratification of the jāhiliyya the Qur'ān supports human equality and encourages concern for the poor (q 49:13; 80:1-16). In relations between the sexes, the Qur'ān seems, at least in some cases, to have limited women's freedom, as q 33:33 suggests. On the other hand, it also appears to have given women greater sec urity and greater recognition of their status as humans, as suggested by the ban on female infanticide (q 16:58-9...)".

وتقول "Encyclopaedia of Islam" فى مادة "Djahiliyya" من طبعتها الجديدة ما نصه:

"Djahiliyya, a term used, in almost all its occurrences, as the opposite of the word isldm, and which refers to the state of affairs in Arabia before the mission of the Prophet, to paganism (sometimes even that of non-Arab lands), the pre-Islamic period and the men of that time. From the morphological point of view, didhiliyya seems to be formed by the addition of the suffix -iyya, denoting an abstract, to the active participle didhil, the exact sense of which is difficult to determine. I. Goldziher (Muh. St., i, 219 ff.; analysis in Arabica, vii/3 (1960), 246-9), remarking that djahil is opposed to halim "administered", gives it the sense of "barbarous", and renders djahiliyya as "the time of barbarism", but he has not been followed to the letter by translators of the Kur3an who render djahil as "not knowing God, the Prophet and the Law", or "lawless", and djahiliyya as "time of ignorance", "heathendom" (cf. however T. Izutsu, The structure of the ethical terms in the Koran, Tokyo 1959, index). The fact is that the nine attestations of didhil and the four of djahiliyya, in the Kur3an scarcely permit of their sense being precisely determined; however, in the feeling of Muslims and of the commentators, djahil is opposed to halim "one who knows God, etc.", and djahiliyya to isldm taken not in the sense of "submission to God" but rather that of "knowledge of God, etc." (compare the Druze terminology, where djahil is opposed to 'akil, and designates all those who have not been initiated into the mysteries of the sect.) The word djahiliyya as an abstract is thus applicable to the period during which the Arabs did not yet know Islam and the Divine Law, as well as to the beliefs current at that time. On the basis of Kor'an, XXXIII, 33, where the expression aldjahiliyya al-'ula "the first djahiliyya" appears, one is inclined to distinguish two periods, the first djahiliyya extending from Adam to Noah (or to other prophets), and the second corresponding to the "Interval" between Jesus and Muhammad. The relative adjective djahili formed from djahiliyya is applied to all which is anterior to Islam, in particular to the poets who died before Muhammad's preaching; those who knew both periods are called mukhadram, and those born after Islam. The double opposition djahili- islami and djahiliyya- islam thus marks an evolution and a departure from the primitive sense of djahil".

وسبق أن كتب العبد لله فى مقدمة كتابه: "فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام"، الذى طبع لأول مرة منذ سبع سنين تقريبا، السطور التالية: "تناول د. شوقى ضيف فى أول الفصل الثانى من كتابه: "العصر الجاهلى" هذا الاسم قائلا إن "الجاهلية" ليست مشتقة من "الجهل" الذى هو ضد "العلم"، بل من "الجهل" الذى هو ضد "الحِلم". أى أن الجاهلية عنده لا تعنى عدم المعرفة، بل تعنى السفه والغضب والنزق. ثم راح يستشهد على تفسيره هذا ببعض أمثلة من القرآن والحديث والشعر الجاهلى وَرَدَتْ فيها

كلها كلمة "الجهل" بذلك المعنى. وكل هذا جميل وعلى العين والرأس، إلا أننا نستطيع أيضا أن نجد فى القرآن والحديث والشعر الجاهلى شواهد أخرى ورد فيها "الجهل" بمعنى عدم العلم، كقوله سبحانه عن الفقراء المتعففين الذين لا يمدون أيديهم بالسؤال فيظنهم من يجهل أحوالهم أنهم أغنياء: "يحسبهم الجاهل أغنياءَ من التعفف. تعرفهم بسيماهم"، وقوله جل شأنه: "يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، وقوله عليه السلام: "إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ويُرفع فيها العلم ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل"، "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني"، "إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون"، "إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضه، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه"، وكذلك الأبيات التالية للنابغة الذبيانى وعَبيد بن الأبرص وعَدِىّ بن زيد وعنترة والسَّمَوْأل وتأبط شرًّا على الترتيب:

يُنْبِئْكِ ذو عِرْضِهِم عَنّي وَعالِمُهم * وَلَيسَ جاهِلُ شَيْءٍ مِثلَ مَن عَلِما

**

يا أَيُّها السائِلُ عَن مَجْدِنا * إِنَّكَ عَن مَسْعاتِنا جاهِلُ

**

أَم لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأَيْـ * ـامِ؟ بَل أَنتَ جاهِلٌ مَغْرورُ

**

هَلّا سَأَلتِ الخَيْلَ يا ابْنَةَ مالِكٍ * إِن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعلَمي

**

سَلِي، إِن جَهِلْتِ، الناسَ عَنّا وعنهمو * فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهولُ

**

بِها الرَكْبُ أَيْما يَمَّمَ الرَكْبُ يَمَّموا * وَإِن لَم تَلُحْ فالقَومُ بالسَيْرِ جُهَّلُ

. . . إلخ. لكن ذلك لن يحل المشكلة، إذ المعروف أن مصطلح "الجاهلية" إنما ظهر بعد مجىء الإسلام، وكان القرآن الكريم والرسول أول من استعمله. والمفهوم أن الجاهلية تناقض الإسلام فى كل شيء تقريبا بما فى ذلك الحِلم والعِلم. أى أن المسألة لا تقف عند مخالفة الجاهلية للدين الجديد فى قيمتى الحِلم والعلم، بل تشمل سائر القيم الإنسانية والاجتماعية والخلقية. وعلى ذلك فالجاهلية لا تقتصر على الجهل الذى هو ضد العلم ولا الجهل الذى هو ضد الحِلم، بل تعنى كل ما أتى الإسلام لمحوه، سواء كان جهلا أو طيشا أو كسلا أو سُكْرا أو زنى أو ظلما أو تجبرا أو ذلة أو نفاقا أو خيانة أو احتكارا أو اغتصابا أو إسرافا أو يأسا أو حسدا أو قذارة أو فوضى أو قبحا أو كفرا أو شركا أو عصبية قبلية أو عرقية. . . إلخ. وغير خافٍ أن المعنى اللغوى لأية كلمة لا يتطابق مع معناها الاصطلاحى، بل يكون أوسع منه أو

أضيق، بل قد يختلف عنه اختلافا كبيرا . وربما أراد د. شوقى ضيف أن ينفى الجهل عن العرب قبل الإسلام ردًّا على من يحاولون التطرق من ذلك إلى الإساءة للعروبة نفسها، إلا أن الواقع التاريخى يؤكد فعلا أن معارفهم كانت قليلة ولا تعدو أن تكون شظايا متفرقة يمازجها الأوهام والخرافات ولا تقوم على منهج. كما أنهم لم يكونوا يعرفون المدارس والمعاهد، بل كانوا يتشربون معارفهم أثناء حياتهم اليومية تشربا عمليا، إذ كانت تغلب عليهم الأمية. ومن هنا كانت عظمة الإسلام، الذى حول تلك الأمة من حال إلى حال وجعل من أبنائها فى غضون سنواتٍ قلائل سادةً وقادةً للعالم فى كل ميادين الحياة! إلا أن هذه مسألة أخرى"[1].

وقد صدر الكتاب المذكور، كما سلفت الإشارة، منذ سبعة أعوام تقريبا . ثم لما عُدتُ هذه الأيام (أواخر يوليه ٢٠٠١م) أردد النظر فى الأمر من جديد وجدتُ كاتب مادة "Knowlege" فى " The Qur'an: an Encyclopedia"، وتحت عنوان جانبى هو: "Ignorance (jahal)"، يقول ما نصه، وهو قريب مما قلته:

"Ignorance (jahal) is the opposite of knowledge, but it is also wrong conduct. Ignorance could either mean the absence of knowledge, or the disparity between a particular belief and reality. The term jahiliyya appears four times in the Qur'an and, according to Goldziher (1967), it should be understood as the opposite of hilm (forbearance), not the opposite of knowledge. Rosenthal disagrees, arguing that the term signifies ignorance, not barbarity. It refers to the ignorance of the pagan Arabs who rejected God (Rosenthal, 1970: 32ff.).

Both scholars are partially correct, as the Qur'an refers to both meanings of ignorance. The Qur'an refers to immorality, particularly the uncontrollably violent temperament of pre-Islamic Arabs, and also to ignorance by contrast with knowledge. The meaning of knowledge here should be qualified. We do not mean scientific knowledge, but knowledge as it relates to belief. The pagan Arabs who worshipped idols were ignorant, not merely because they worshipped, but also because they held beliefs about the sacred power of these stones which do not correspond with reality.

The views of Goldziher and Rosenthal could be located within the three meanings of jahal given by al-Raghib al-Isfahani, who states: First, it is the mind's emptiness of knowledge, and some theologians hold that this pertains to immoral actions; second, it is believing in something contrary to what it is; third, it is to do something contrary to what ought to be done, such as deliberately avoiding obligatory prayer. (al-Isfahani, n.d.: 100).

Goldziher's view corresponds with the first meaning, and Rosenthal's with the third. Thus the meaning of ignorance refers to both the absence of the true knowledge of reality and the immoral conduct of the Arabs. In his ethical treatise, al-Isfahani deals with ignorance under four categories. The third refers to one who is fanatical in believing to be true a false opinion. Such people will never change. The fourth level refers to those who know the truth, yet hold on to what is false. They are like Satan, full of pride, as God states: 'Your God is the One God; but because of their false pride, the hearts of those who do not believe in the life to come refuse to admit this [truth]' (16.22) (see also al-Isfahani, 1987: 222).

The second meaning of ignorance is evident in the following verse: 'O you who believe, if an iniquitous person comes to you with a slanderous

---

[1] د. إبراهيم عوض/ فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام/ ٨-١١ من المقدمة.

tale, then verify [the truth of it], lest you hurt a people out of ignorance, and afterwards be filled with remorse for what you have done' (49.6). The tale-bearer is characterised as iniquitous because the very act of spreading unsubstantiated rumours will affect the reputation of other people, which constitutes a spiritual offence. It is imperative that the honour and reputation of every person of the community be respected and protected, and one should either not listen to false rumours or substantiate the truth of such statements, lest one should hurt other people out of ignorance"

وتكاد الجملة التالية أن تلخص الأمر كما أوثر أن أفهمه، وهو أن "الجاهلية" مصطلح يشير إلى الأوضاع الحضارية المتدهورة فى بلاد العرب بوجه عام، وفى مكة وما حولها بوجه خاص، فى الفترة السابقة على الإسلام مباشرة. والجملة مأخوذة من مادة "jâhilîya" من "الويكيبيديا" الفرنسية، ونصها:

"La jâhilîya (arabe: جاهِلِيّة [jāhilīya], ignorance; paganisme) désigne dans le Coran la période préislamique caractérisée par la présence à La Mecque d'un panthéon d'idoles".

وعلى النحو ذاته يقول كاتب المادة فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "الويكيبيديا":

"Jahiliyyah (Arabic: جاهلية) is an Islamic concept of "ignorance of divine guidance" or "the state of ignorance of the guidance from God" or "Days of Ignorance" referring to the condition Arabs found themselves in pre-Islamic Arabia, i.e. prior to the revelation of the Qur'an to Muhammad. The root of the term jahiliyyah is the I-form verb yajhalu "to be ignorant or stupid, to act stupidly". By extension, it has come to refer to the state of anyone not following Islam and the Qur'an".

وفى معجمه المسمى: "كتاب اللغتين: العربية والفرانساوية" (باريس/ ١٨٦٨م) يفسرها المستشرق البولندى ألبير كازِمِرسكى بأنها الجهل، وبخاصة الجهل بالأشياء اللازمة لخلاص الإنسان، ومن هنا جاءت دلالتها على الفترة الزمنية التى تسبق مجىء النبى محمد، وكانت تشيع فيها الوثنية بين العرب:

"جاهلية: 1. ignorance. 2. Particul. Ignorance des choses nécessaries au salut, et de la 3. Epoque du paganisme ches les Arabes (avant la venue de Mahomet)".

وبعد، فقد كان العرب بوجه عام عشية الدعوة المحمدية فى حالة تخلف حضارى شامل، بيد أن هذا لا ينفى أن يكون بينهم هنا أو ههنا أفراد أو جماعات راقية. ومعروف أنه ما من قاعدة عامة إلا وتنكسر فى بعض الحالات، وبخاصة فى مثل ذلك الوضع الحضارى المعقد الخاص بالعرب قبيل الإسلام. لم يكن ثَمّ مدارس ولا معاهد ولا جامعات، بل لم يكن هناك أى تعليم منظم، وإن لم يمنع هذا مثلا من وجود أفراد يعرفون القراءة والكتابة، أو أشخاص يستطيعون علاج المرضى علاجا بدائيا بسيطا دون كتب أو مقررات دراسية، كما لا يمنع هذا من انتشار المعرفة بالكواكب والنجوم بينهم فى حدود ما يحتاجون فى أمور السفر والتنبؤ بالمطر وما إلى هذا. أما من الناحية الدينية فرغم وجود طوائف من اليهود والنصارى فى بلادهم، بل رغم دخول بعضهم فى اليهودية والنصرانية، كانت الغالبية الساحقة منهم وثنيين أخلاقهم أخلاق الوثنية لا يعرفون دينا سماويا، وإن كانوا فى يوم من الأيام يؤمنون بهذا النبىِ أو ذاك. لكن هذا كان قد صار ماضيا راح فى غياهب التاريخ. بل لقد أصاب اليهودية والنصرانية أنفسهما الخرافاتُ كثيرةٌ

ابتعدت بهما عن الصورة الأولى التى نزلنا عليها من السماء. لقد كان العرب متخلفين حضاريا لا ريب فى ذلك، وهذا هو المقصود بـ"الجاهلية".

ونحن لا ننكر أنه كانت لعرب الجنوب دول وحضارات. لكن ذلك إنما كان محصورا فى الجنوب فى بلاد اليمن وما يجاورها، وهى لا تمثل إلا جزءا ضئيلا من بلاد العرب الشاسعة. أما بقية الجزيرة فهى صحراء رملية تعيش فيها قبائل رُحَّل لا تستقر فى مكان ولا تعرف قيام الدول ولا أنظمتها. بل إن جنوب البلاد ذاته عشية سطوع شمس الإسلام كان قد ودع التقدم الحضارى منذ وقت طويل. فـ"الجاهلية" إذن كانت تعنى الوضع الشائع فى البلاد فى ذلك الوقت بغض النظر عما كان قبل وقت طويل حين كانت الأحوال أفضل منها الآن. وسواء كان ما قاله جرجى زيدان من أن الحمورابيين عرب صحيحا أو لا فقد غبر زمان طويل على اختفاء دول الحمورابيين وغير الحمورابيين. أما إذا كان لا بد، ولا أدرى كيف، أن نلحق الحمورابيين بالعرب فلماذا الحمورابيون فقط دون الفينيقيين والكلدانيين والبابليين والأحباش والعبرانيين، وهم لا يتميزون عن الحمورابيين فى شىء بل ينطبق عليهم ما ينطبق على الحمورابيين؟ ذلك أن الحمورابيين والكلدانيين والأشوريين... إلخ أقوام ساميون حسب التصنيف المشهور الذى لا يقوم على أساس علمى مع ذلك. وهذا كله أمر معروف للجميع. وأجتزئ فى ذلك بهذا النص القصير من كتاب رينولد نيكلسون فى تاريخ الأدب العربى:

"The Arabs belong to the great family of nations which on account of their supposed descent from Shem, the son of Noah, are commonly known as the Semites.' This term includes the Babylonians and Assyrians, the Hebrews, the Phoenicians, the Aramaeans, the Abyssinians, the Sabaeans, and the Arabs, and although based on a classification that is not ethnologically precise—the Phoenicians and Sabaeans, for example, being reckoned in Genesis, chap. x, among the descendants of Ham—it was well chosen by Eichhorn († 1827) to comprehend the closely allied peoples which have been named. Whether the original home of the undivided Semitic race was some part of Asia (Arabia, Armenia, or the district of the Lower Euphrates), or whether, according to a view which has lately found favour, the Semites crossed into Asia from Africa,^ is still uncertain"[1].

ومن ثم يتبين أن ما كتبه جرجى زيدان لا ينقض الحقيقة التى نعرفها جميعا، وهى أن العرب قبيل الإسلام كانوا فى حالة مزرية بوجه عام، وهو ما استدعى ظهور الدين الجديد ليأخذ بأيديهم وينقلهم من هذه الأوضاع المتردية إلى وضع أفضل يمكنهم أن ينطلقوا منه فيخلعوا عن أنفسهم هذا الرداء الذى لا يليق، ويصيروا هم أنفسهم نموذجا حضاريا تتعلم منه الشعوب الأخرى التى كان عليهم أن يحرروها من الاستبداد والطغيان والاحتلال الأجنبى القيم الإنسانية الرفيعة والوحدانية الزاكية ويأخذوا بدورهم عنها ما كان لديها من معارف وعلوم ويضيفوا إليها... وهو ما تحقق بالحضارة الإسلامية، التى شارك فى صنعها وتطويرها كل الأجناس والشعوب فى الإمبراطورية الجديدة.

---

[1] Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, P.XV

أما إلحاح بعض الباحثين من مستشرقين و مشايعيهم من بين ظَهرانَيْنا على أن الغالبية العظمى من العلماء فى الإمبراطورية الإسلامية الجديدة كانوا من غير العرب فهو كلام صحيح، لكنه لا يسىء إلى العرب فى شىء على عكس ما يريده أولئك الباحثون، إذ من الطبيعى جدا أن تكون نسبة العلماء العرب بين العلماء داخل الدولة الإسلامية بوجه عام نسبة جد ضئيلة طبقا لضآلة نسبتهم بين سكان تلك الإمبراطورية. ويكفيهم فخرا أنهم استطاعوا طَبْع شعوب تلك البلاد بطابعهم سواء من حيث اللغة أو الدين الذى نزل على رجل عربى منهم أو العادات والتقاليد العربية الإسلامية دون أى قسْر حتى لقد أصبح هؤلاء المسلمون الجدد من غير العرب يتحمسون للدين الجديد وثقافته ودولته بدرجة لا تقل عن درجة تحمس العرب أنفسهم إن لم تفقها فى كثير من الأحيان. إلا أن هذه مسألة أخرى.

مرة ثانية أكرر أن "الجاهلية" لا تتوقف عند جانب واحد من جوانب التخلف والانحراف التى كان العرب يعانون منها فى العصر السابق على الإسلام، بل تشملها جميعا، وإن لم يعن هذا أن كل فرد من العرب أو كل جماعة منهم كانت تعانى من كل هذه العيوب. فمن المعروف أننا كثيرا ما نطلق القول إطلاقا فى الوقت الذى نعرف فيه نحن والسامعون أن الكلام على التعميم لا على الإطلاق. وهذا لون من المجاز التعبيرى معروف فى كل اللغات. وعلى هذا فأنا لا أوافق تماما د. فيليب حِتى، الذى يرى أن "الجاهلية" هى فقط الجهل بالوحى والكتب الدينية جراء انقطاع الأنبياء. قال: "يسمى المسلمون الفترة السابقة على محمد بـ"الجاهلية"، وهى كلمة تترجم بـ"time of ignorance" (عصر الجهل) أو "barbarism" (البربرية). ورغم أن عرب الشمال لم يعرفوا أىّ نظام للكتابة حتى عصر محمد تقريبا فإن كلمة "barbarism" لهى من الشدة بمكان حين نستخدمها لذلك المجتمع الذي سبق أن تطور قبل هذا فى جنوب بلاد العرب. لقد كانت هذه فترة لم يكن للبلاد فيها شريعة أو نبيٌّ مُلهَمٌ أو كتابٌ مُوحًى به"[1].

وأخيرا إلى القارئ بعض الأحاديث النبوية التى ترينا كيف كان المسلمين فى صدر الإسلام ينظرون إلى الفترة التى تسبق الدعوة المحمدية على أنها النقيض التام تقريبا لما جاءهم به الدين الجديد، وليست فترة انتفاء علم فقط: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت رايةٍ عِمِّيَّة، يغضب لعَصَبة أو يدعو إلى عَصَبة أو ينصر عَصَبة فقُتِل، فقِتْلته جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب برَّها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه"، "عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ثمن الكلب وقال: طُعْمَة جاهلية"، "كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمع ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: دَعُوها، فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟

[1] Philip K. Hitti, The Arabs- A Short History, Macmillan, London, 1948, P. 20.

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"، "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ. قلت: وما دَخَنُه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تَعرِف منهم وتُنكِر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعَضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"، "لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حُلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خَوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم. فإن كلفتموهم فأعينوهم"، "لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب، وترك بني نوفل وبني عبد شمس، فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم. فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا، وقرابتنا واحدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام. وإنما نحن وهم شيء واحد"، "أرسلنا إلى عبد الله بن عمر نسأله: أي الكبائر أكبر؟ قال: الخمر. فأعدنا إليه الرسول، فقال: الخمر! من شربها لم تقبل منه صلاةٌ سبعا. فإن سَكِر لم تقبل له صلاةٌ أربعين يوما. وإن مات فيها مات ميتة جاهلية"، "أن أبا بكر وعمر وناسا جلسوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم فيها علم، فأرسلوني إلى عبدالله بن عمرو أسأله، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر"، "أن رجلا وجد كنزا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن وجدته في قرية مسكونة أو طريق ميتاء فعرِّفه. وإن وجدته في خربة جاهلية أو قرية غير مسكونة ففيه الركاز"، "جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم! لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلت أعجب: ما قال إلا خيرا. ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غَيَّبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه. أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبيا من الأنبياء في فترة من

جاهلية، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده حتى إنْ كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار. وإنها التي قال الله تعالى: والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين"، "نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: النجاشي. أمِنّا على ديننا وعَبَدْنا الله وحده لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة. وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم. فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدَوْا له هدية. وبعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدّموا للنجاشي هداياه ثم اسألوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا فقدما على النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمانٌ سفهاءُ فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم. وقد بَعثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم إليهم. فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم. فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم قربوا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم. ثم كلماه فقالوا له: أيها الملك، قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأبنائهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فلهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعابوهم فيه. ولم يكن أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم. فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك. قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم. فأسلمهم إليهم فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشي وقال: لا هَيْم الله! إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد قوما جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم: فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم. وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم. فلما جاءهم رسوله اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في الرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوه، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب عليه السلام. قال: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا

بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة (قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام)، فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فغدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عز وجل وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. قالت: فقال له النجاشي: فاقرأه. فقرأ عليه صدرا من "كهيعص". قالت فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تُلِيَ عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّه غدا أعيبهم عنده بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عليه السلام عبد. قالت: ثم غدا عليه فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما. فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها. واجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قال: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى بنُ مريم ما قلتَ هذا العُودَ. فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي (والسيوم: الآمنون). من سبكم غُرِّم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبرا ذهبا وأني آذيت رجلا منكم (و"الدبر" بلسان الحبشة: الجبل). ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي فيها. فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ فيه الرشوة. وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه. فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به. وأقمنا عنده في خير دار مع خير جار. فوالله إنه لعلى ذلك إذ نزل به من ينازعه في ملكه. قالت: والله ما علمنا حزنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفًا أن يظهر ذلك على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف. قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل. قالت: فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا. قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا. قالت: وكان من أحدث القوم سنا. قالت: فنفخوا له قربة فجعلوها في صدره فسبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: ودعونا الله عز وجل للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده. واستوسق عليه أمر الحبشة،

فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة"، "مر شاس بن قيس، وكان شيخا قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد. والله ما لنا معهم، إذا اجتمع مَلَؤُهم بها، من قرار. فأمر فتى شابا معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذَكِّرْهم يوم بُعَاث وما كان قبله، وأنشِدْهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار (وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج)، ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكب: أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا. ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جَذَعَة. وغضب الفريقان جميعا وقالوا: قد فعلنا. السلاح السلاح! موعدكم الظاهرة (والظاهرة: الحَرَّة). فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم لهم. فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضا. ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس"، "... أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة قال: كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر. فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال: كفوا السلاح. حتى إذا كان من الغد لقي رجل من خزاعة رجلا من بني بكر بالمزدلفة فقتله. فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا مسندا ظهره إلى الكعبة، فقال: إن أعتى الناس على الله عز وجل من عدا في الحرم وقتل غير قاتله، ومن قتل بذحول الجاهلية. وجاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فلانا ابني عاهَرَ بامرأة في الجاهلية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذهب أمر الجاهلية. لا دعوة في الإسلام. الولد للفراش، وللعاهر الأثلب. قالوا: يا نبي الله، وما الأثلب؟ قال: الحجر... وقال في خطبته: ولا تُنكَح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها..."، "عن سليمان بن عمر وابن الأحوص: حدثنا أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال: أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟ قال: فقال الناس: يوم الحج الأكبر يا رسول الله. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. ألا لا يجني جان على نفسه. لا يجني والد على ولده ولا ولد على والده. ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل لمسلم من أخيه إلا ما حل من نفسه. ألا وإن

كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون غير ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله. ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع من دماء الجاهلية دم الحارث بن عبد المطلب. كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل. ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عَوَار عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا: فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"، "... أن النكاح في الجاهلية كان على أربع أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وَلِيَّته أو ابنته، فيُصدِقها ثم ينكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهُرَت من طمْثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه. فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الَّذي كان من أمركم. وقد ولدتُ، فهو ابنك يا فلان. تسمي من أحبت باسمه فيُلحِق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل. ونكاح رابع: يجتمع الناس كثيرا فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا. كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَما. فمن أراد دخل عليهن. فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يَرَوْن، فالتاط به، ودُعِيَ ابنه، لا يمتنع من ذلك. فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم"، "دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها: زينب، فرآها لا تكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمتة. قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل. هذا من عمل الجاهلية"، "نادى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا كنا نعتر عتيرة في الجاهلية في رجب، فما تأمرنا؟ قال: اذبحوا لله في أي شهر كان، وبرُّوا الله عز وجل، وأطعموا. قال: إنا كنا نفرع فرعا في الجاهلية، فما تأمرنا؟ قال: في كل سائمة فرع تغذوه ماشيتك حتى إذا استحمل (قال نصر: استحمل للحجيج) ذبحته فتصدقت بلحمه (قال: على ابن السبيل) فإن ذلك خير. قال خالد قلت لأبي قلابة: كم السائمة؟ قال: مائة"، "لا تفتخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية. فوالذي نفسي بيده لما يدهده الجُعَل خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية".

ليس هذا فحسب، بل لقد أقر الرسول الكريم أن العرب أمة أمية لا تعرف كيف تحسب الحساب المعقد: "نحن أمة أمية. الشهر كذا وكذا". ثم لما نزل القرآن كان أول نص فيه أو أحد أوائل نصوصه لفتا للأنظار والضمائر إلى أهمية القراءة والعلم والقلم في وقت لم يكن العرب فيه أهل علم أو قراءة أو قلم، اللهم إلا أفرادا هنا وهناك: "اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم *

الذى علَّم بالقلم * علَّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم". كما أكد الوحى المبكر فى مكة أنه لا يستوى الذين يَعْلمون والذين لا يعْلمون: "قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟"، ولم يأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستزادة من شىء كما أمره بالاستزادة من العلم: "وقل: ربِّ، زدنى علما". وبَيَّن رسول الله عليه الصلاة والسلام فضل العلم على الجهل بما لا يوجد مثيله فى أى دين آخر: "من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع"، "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، "فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب"، "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"... وغير ذلك كثير. ولقد وقف أحد المستشرقين مبهورا أمام قول الرسول الأكرم إن طلب العلم فريضة، وليس مجرد حق من حقوق الإنسان، مبينا أن ما تقوله الحضارة الحديثة من أن التعلم حَقٌّ معناه أن صاحب الحق يمكنه أن يتنازل عن حقه فلا يهتم بفرص التعلم المتاحة له، بخلاف ما لو كان التعلم فرضا، إذ يأثم صاحبه إذا ما أهمله ويعاقب على ذلك.

أضف إلى ذلك أن أول ما صنعه الرسول فى المدينة حين أتيحت له الفرصة هو محو أمية الصبيان المسلمين، إذ عرض على من يعرف القراءة والكتابة من أسرى المشركين فى بدر أن يطلق سراح أى واحد منهم لقاء محو أمية عشرة من صبيان المسلمين. وهو ما يبين أية عبقرية كان يتمتع بها رسولنا العظيم، إذ إنه بهذا التصرف كان أول من جعل من محو الأمية سياسة حكومية، فضلا عن أنه أظهر إلى أى مدى هو على استعداد للتسامح مع مخالفيه لقاء أشياء غاية فى البساطة لا تكلفهم شيئا يُذكَر. ومن جهة ثالثة فإنه بذلك قد تخلص من عبء توفير سجن لهم وحراستهم فى ذلك السجن وتوفير الطعام والشراب والملبس لهم، وهو ما يدل على بعد نظره وعمق فهمه. وأخيرا وليس آخرا سوف يكون هؤلاء الأسرى لدن عودتهم إلى أهليهم فى مكة لسانا لأهل الإسلام، إذ لا ريب فى أنه كان بينهم ناس تأسرهم تلك اللفتة الإنسانية العجيبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا كله، وما أقله بجانب ما صنعه رسول الله طوال حياته، ينبئك عن الفرق بين الجاهلية والإسلام بما يلقى الضوء على معنى "الجاهلية" وأن الجهل فيها لا ينحصر فى الجهل الذى هو نقيض العلم ولا فى الجهل الذى هو نقيض الحلم، بل يشمل الانحراف كله بجميع أنواعه. إنه التخلف الحضارى فى مقابل التحضر الراقى الذى يمثله الإسلام أنقى تمثيل والذى للأسف غفلت عنه جماهير المسلمين فكان ما كان مما نشهده منذ قرون من تخلفهم وضعفهم وانحطاطهم، وهو ما أطمع فيهم أعداءهم وأوقعهم فى براثنهم التى لا ترحم، وجعل منهم لقمة سائغة فى حلوقهم فازدردوهم ازدردا، ثم زادوا فطمعوا فى القضاء عليهم وعلى دينهم واستئصال شأفتهم. ويمكن من يشاء أن يرجع إلى كتابى: "الحضارة الإسلامية: نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ" ليتبين معنى قولى إن الإسلام هو الحضارة فى أنقى صورها.

الوثنية والدعوة المحمدية

خصص فيليب حِتّي فصلا كاملا من كتابه الذي بين أيدينا للحديث عن محمد عليه الصلاة والسلام. وفى كلامه عن النبى فى هذا الفصل وفى مواضع أخرى من الكتاب ما لو أُخِذ حرفيا لظن القارئ أنه كان يصدّق بنبوته، إذ تكررت تسميته لما كان يتلوه النبى على قومه من نصوص تعلق على الأحداث التى يمر بها معهم بـ"الوحى: ((his revelation(s)"[1] . إلا أنه فى مواضع أخرى من كتابه ينسب نصوص القرآن إلى النبى عليه السلام[2] بما ينبئ أنه يراه قد اخترع الإسلام ولم يتلقه من السماء . كما قال فى أحد المواضع إن محمدا كان معجبا بكتب اليهود والنصارى ويتوق إلى أن يكون له ولقومه كتاب مثلهم[3]، وهو ما قد يعنى أنه كان يتطلع إلى أن يكون نبيا ، شأنه فى ذلك شأن واحد كأُمَيَّة بن أبى الصَّلْت مثلا. كل ما هنالك أنه نجح، على حين فشل أمية فى تحقيق مطمعه ومطمحه. والطريف أنه زعم هذا الزعم عن تطلع النبى إلى أن يكون له كتاب كما لليهود والنصارى كتاب عند حديثه عن مهاجرى الحبشة وحماية النجاشى لهم ورفضه تسليمهم إلى قومهم، أى بعد أن كان قد نزل عليه من نصوص القرآن الكثير والكثير، وهو أمر غريب غاية الغرابة، إذ معناه أنه لم يكن هناك قرآن طوال كل هاتيك الأعوام منذ بداية الوحى حتى ذلك الحين.

كذلك نجد حِتّى، لدن حديثه عن زواج موسى (الذى لم يكن فى رأيه إلا زعيما لمجموعة من القبائل) بالفتاة المَدْيَنِيّة، يقول إنه تعلم منها عبادة يهوه الإله الرعوى الساذج، ثم جعل بعد هذا من عبادته دينا جديدا كانت له آثار هامة فى التاريخ[4] . وهو ما يعنى أن دين موسى هو دين أرضى تعلمه من زوجته، التى أخذته بدورها عن أبيها ، ذلك الكاهن العربى حسبما يصفه حِتّى. أى أن موسى لا علاقة له بالسماء وأن دينه ليس سوى صناعة بشرية عربية الأصل.

ومعروف أن الناس ليسوا طرازا واحدا فى مسألة الإيمان والكفر بالله وبالنبوات، بل هناك المؤمنون، وهناك الكافرون. وللكفر فى العصر الحديث نظريات يسوغ بها أصحابه إلحادهم ويسبغون عليه مظهرا علميا رغم أن الدين والإيمان يواكبان البشرية منذ أقدم العصور: ففريق من العلماء يرى أن الإيمان بدأ وثنيا خرافيا، ثم أخذ يترقى حتى انتهى لدى العقلية السامية إلى التوحيد . وهذا التفسير معناه أن

---

[1] ص٢٥- ٢٦.

[2] ص٢٦.

[3] ص٢٦.

[4] ص١٩.

التوحيد هو نتاج بشرى خاص بالأمم السامية بما يعنى أن الإيمان بالله الواحد الأحد غير ملزم لغير الساميين. وفريق يقول بأن البشر فى البداية قد ألهوا وعبدوا عناصر الطبيعة، إذ لاحظوا أنها تتميز بقوة ساحقة غلابة لا يمكن مقاومتها ولا الوقوف فى طريقها، ثم ترقوا من ذلك إلى الإيمان بقوة عاقلة لا لأن هناك قوة عاقلة فعلا، بل لأن اللغات قد خلعت على الجمادات صفات الكائنات العاقلة طبقا لأسلوب المجاز الذى تعرفه، فتقول إن النهر يجرى، والهواء يئن، والنار تشهق. . . وهكذا، ثم سرعان ما أُخِذت تلك المجازات على أنها حقائق. وأمثال هؤلاء ينكرون أن يكون هناك إله خالق للكون، بل الكون عندهم وليد المصادفات العمياء التى أخذت تتتابع على مر ملايين الأعوام حتى أخذ الكون وضعه الحالى[١].

وهذا هو الإلحاد، وهو كما عرّفه إسماعيل أدهم، فى كتابه: "لماذا أنا ملحد؟"، "الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم". وهذا معناه أن العالم إله لا يحتاج شيئا خارجه، فهو الكمال المطلق الموجود منذ الأزل وإلى الأبد. وهذا أمر مناقض للعقل، إذ إن هذا العالم لا يصلح أن يكون إلها لما فيه من نقصان لا يمكن أن ينكره منكر، ومن ثم لا يمكنه أن يستغنى عن خالق حائز لصفات الكمال يحتاجه غيره ولا يحتاج هو إلى سواه. كما يزعم أدهم "أن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها في عالم الفكر الإنساني لا يرجع لما فيها عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس: التبرير. ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التي تقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية. ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية. ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها". يقصد أن العقل البشرى إنما يفكر فى وجود إله لهذا الكون بسبب الوهم والجهل والخوف الذى يشعر به ويعانيه أمام عظمة هذا الكون واتساعه الهائل الذى لا يمكن أن يتخيله متخيل وما فيه من أسرار وتعقيدات وما تقع فيه من مصائب وويلات! لكنه لم يحاول أن يقول لنا: من يا ترى الذى جعل البشر أمام هذه الأشياء يفترضون وجود إله إذا لم يكن لهذا الإله وجود أصلا؟ ترى من الذى ركب الكون على هذا النحو بحيث يبحث الإنسان عن إله ما دامت لا ألوهية هناك ولا يحزنون؟ إن الإنسان مثلا إنما يشعر بالجوع لحاجته إلى الطعام الذى هو موجود، ويشعر بالشهوة الجنسية لحاجته إلى المرأة التى هى موجودة. وكان قبل الطيران كذلك يتوق إلى أن يسبح فى الفضاء، وكانت سباحة البشر فى الفضاء موجودة هى أيضا فى ضمير الكون، أى كان وجود طيرانه حينذاك وجودا بالقوة لا بالفعل، ثم جاءت محاولات الإنسان وتجاربه واجتهاداته فحولت هذا الوجود من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل. وقس على حاجات الإنسان التى ذكرنا طرفا منها رحلة بعض الطيور والأسماك لمسافة آلاف الأميال فى مواسم معينة للتزاوج أو للبحث عن الغذاء. . . وأستطيع أن أمضى فى ضرب هذه

---

[١] انظر د. محمد عبد الله دراز/ الدين– بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان/ دار القلم/ الكويت/ ١٠٦ وما بعدها.

الأمثلة فلا أنتهى أبدا، فلماذا يا ترى يريد أدهم وغيره من الملاحدة استثناء الشعور بالحاجة إلى الله من هذه الظاهرة، بل قل: من هذا المبدإ؟

ويمضى أدهم محاولا نفى وجود الله وإثبات أن ما نشاهده فى الكون من نظام دقيق معقد باهر مرجعه إلى المصادفة فيقول: "يمكننا أن نقول إن الصدفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطي حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض في وحدات وتداخل وتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم. . وهكذا، خاضعة في حركتها هذه لحالات الإمكان التي يحددها قانون العدد الأعظم الصُّدْفِيّ، ومَثَل العالم في ذلك مَثَل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة في الاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا في دورة لانهائية، فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب "أصل الأنواع" وكذا "القرآن" مجموعا منضدًا مصحَّحًا من نفسه. ويمكننا إذن أن تتصور أن جميع المؤلفات التي وضعت ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزا لحالة الاحتمال و(ص) رمزا للنهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات: ح = ص. وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة".

لكن أدهم، شأنه شأنُ الملاحدة جميعا، يقفز فوق مسألة خلق العالم فيقف مرة واحدة أمام نظام العالم دون أن يجيب على السؤال الخاص بخالق الكون، وكأن الكون بطبيعة حاله فى غنى عن خالق يوجده بعد إذ لم يكن موجودا . إن المادة التى يتصور أدهم أنها كانت موجودة منذ الأزل لا يمكن أن تكون مستغنية عن مُوجِدٍ لها . ذلك أنها، كما نعرف ويعرف أدهم معنا، عمياء بكماء شلاء عاجزة عجزا تاما فلا إرادة لها ولا قدرة و لا توجّه، وكائنٌ مثلها لا يمكن أن يكون هو الموجود المطلق الذى لا أول له ولا آخر ولا يستطيع الزمان أو المكان أو الضعف أو العجز أو الخوف أو المرض أو الموت أن يَحُدّه ويقيده على أى نحو من الأنحاء، على عكس الوجود الإلهى الذى لا بد منه كى يستقيم أمر الكون وأمر العقل والمنطق على السواء، وإلا ظللنا نرجع إلى الوراء القهقرى دون جدوى ودون توقفٍ باحثين عن كائن يكون هو الكائن المطلق الذى لا يسبقه فى الوجود شىء، ويحتاج إليه كل كائن آخر فى الوقت الذى لاَ يحتاج هو إلى أى كائن سواه. ومرة أخرى نقول: أيهما هو الذى يقضى به المنطق إلها يُوجد ما سواه ولا يُوجده ما سواه؟ الله بكل صفات الكمال والقدرة المطلقة التى نعرفها ويوجبها العقل والمنطق أم المادة العمياء البكماء الشلاء العاجزة التى نراها ونلمسها ونشمها ونسمعها من حولنا ولا نتصور أبدا أنها يمكن أن تكون قد خلقتنا؟

وهناك أسئلة يتجاهلها الملاحدة تجاهلا، ألا وهى: من يا ترى الذى اقتضى دفع المادة العمياء البكماء الشلاء العاجزة فجزأها إلى تريليونات تريليونات الأجزاء بعد أن كانت فى بداءة أمرها كتلة سديمية واحدة، ونوعها كل هذا التنوع العجيب، وحركها بعد أن كانت ساكنة لا تريم؟ ومن الذى اقتضى

أن تكون هناك تلك الاحتمالات اللانهائية التى يشير إليها صاحبنا ؟ ومن الذى اقتضى أن يكون من بين تلك الاحتمالات اللانهائية احتمال انتظامها على النحو الذى هى عليه الآن؟ ثم من الذى اقتضى أنها متى ما وصلت إلى تلك الحالة أن تثبت عليها فلا تتحول عنها ؟ وقبل ذلك من الذى اقتضى أن يكون هذا النظام مباطنًا للكون أصلا؟ وقبل قبل ذلك من الذى خلق هذه المادة العمياء البكماء الصماء الشلاء العاجزة؟[1]

وهناك أسباب أخرى للإلحاد منها أن الملحدين يظنون أن الإيمان يصد الناس عن الانطلاق فى الحياة والاستمتاع بها، ويضع العقبات فى طريق تقدمهم، ويعلمهم الخنوع ويبث فى قلوبهم الحزن والكآبة ويحمّلهم خطيئة الإنسان الأول، فهم إذن يريدون أن ينعتقوا من إسار مثل هذه الأفكار والمشاعر. كما يتخذون من وجود المعاناة فى الدنيا دليلا على عدم وجود الإله[2]. بَيْدَ أن للإسلام وضعا آخر مغايرا تماما، إذ يوجب على المؤمن به طلب العلم والاستزادة دائما منه، ويحضه على الشجاعة فى مواجهة الحياة وبذل كل جهد مستطاع لاكتشاف أسرار الكون والمشى فى مناكب الدنيا لتحصيل الرزق والغنى والقوة، ويحفزه بكل سبيل إلى العمل والإبداع والإتقان، ويؤكد له فى كل مناسبة أن ابن آدم خطاء، لا بمعنى أنه لا ينفك من الذنب ومن ثم لا مهرب له من العقاب، بل بمعنى أن ذلك جزء من طبيعته وأن الخطأ متوقع منه ومغفور له. كل ما هنالك أن يتجه إلى ربه تائبا حتى لو عاود الوقوع فى الخطإ بعد توبته مرة بعد مرة بعد مرة. فالمهم ألا ييأس ويستسلم للخطإ يجترحه دون مبالاة. كما يعلم الإسلام من يؤمن به أن الاجتهاد فى العلم والعمل واجب مفروض لا يصح له التفصّى منه والكسل عنه. وهو إن وصل بصاحبه إلى الغاية المبتغاة أعطاه الله أجرين، أما إن أخطأ ولم يصل إلى شىء فإنه سبحانه لا يعاقبه ولا يحرمه بل يعطيه أجرا. كما يوضح له أنه إن اجترح سيئة فإنه يُعَاقَب على السيئة بمثلها إن تم العقاب، أما إن استغفر فيُمحَى ذنبه، بخلاف ما لو اكتفى بنية ارتكابها ثم لم يرتكبها فإنه يأخذ أجرا. أما الحسنة فجزاؤها بعشرة أمثالها إلى ما شاء الله. فإذا حدث ما جعله لا ينتقل بها من النية إلى العمل فإنه يأخذ أجرا واحدا... وهكذا دواليك. وفوق هذا فالإسلام لا ينفى ما فى الكون من معاناة. وإذا كان من صفات الله سبحانه الود والرحمة فمن صفاته أيضا أنه جبار قدير لا يُسْأَل عما يفعل. فالإسلام لا يقول بأن كل شىء فى الكون يتماشى مع رغبات البشر، ولا أن كل طلباتهم فى الدنيا مجابة. ذلك أن هناك حياة أخرى بعد هذه، وليست الدنيا نهاية المطاف. فينبغى من ثم أن توضع تلك الحياة الآتية فى الحسبان وألا يتصرف الإنسان على أساس أنه لا

---

[1] ما كتبته هنا عن إسماعيل أدهم منقول من كتاب لى بعنوان "أفكار مارقة" فى انتظار الطبع.

[2] "athéisme", Microsoft® Encarta® 2009 [DVD]. Microsoft Corporation, 2008, & Michael Martin, "Atheism", Microsoft® Student 2006 [DVD]. Redmond, WA: Microsoft Corporation, 2005.

يوجد إلا الحياة الأرضية. ثم إن الإلحاد يضفى على العالم معنى العبثية، ويفضى بالإنسان إلى اليأس من عالم لا يعرف له غاية، وينتهى كل شئ فيه بالموت الذى لا حياة بعده، وينظر البشر فوقهم وتحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم بحثا عن قوة أكبر منهم تعينهم على ما يقع خارج نطاق قدرتهم أو تبث فى قلوبهم العزاء فلا يجدون، وهو ما ينتهى فى كثير من الحالات إلى اليأس، الذى قد يجرّ إلى بخع النّفس. كما أن فرصة الالتزام الأخلاقى فى ظلال الإيمان أقوى، إذ على الأقل يراعى الإنسان حينئذ المبادئ الأخلاقية حتى فى حالة غياب القانون وممثليه أفضل مما يراعيها نظيره الملحد. ذلك أن المؤمن يشعر أن الله دائما معه يراقبه ويراقب ما يصنع حتى وهو خالٍ لا يرى أحدا من البشر حوله. وأيا ما يكن الأمر فإن المعضلات الاعتقادية التى تبحث عن حل تقل جدا عند المؤمنين عنها فى حالة الإلحاد. ومع هذا كله فلكل وجهة هو مُولِّيها، وكل إنسان حرٌ فيما يعتقد: فمن شاء فليؤمنْ، ومن شاء فليَكفُرْ. ذلك أن كل إنسان قدْ ألزمه اللهُ طائرَه فى عنقه، ولن تغنِيَ نفسٌ عن نفس شيئا.

ونعود إلى فيليب حِتّى فنراه يذكر أن البدو العرب فى أوائل القرن السابع للميلاد، وهو القرن الذى ظهر فيه الإسلام، كانوا يعبدون القمر ويستنكرون عبادة الشمس، إذ كانوا قوما رعاة يقطنون بلادا حارة ويستأنسون ببرودة الليل، وأنهم لو كانوا قوما زراعيين لعبدوا الشمس، التى تساعد النباتات على النمو والنضج، وأنه كانت هناك آلهة مختلفة على رأسها إله اسمه "الله" يلجأ العرب إليه فى الشدائد ويعدونه الخالق الرازق، وهو ما أصبح إلهَ الإسلام فيما بعد حين لم تعد عبادة الأصنام تفى بحاجات العرب الروحية، فضلا عن اضمحلال الحياة القومية لديهم[1].

ونبدأ بآخر شئ، وهو أن العرب كانوا يستنكرون عبادة الشمس. ولن نذهب بعيدا، إذ عندنا قوله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"[2]. وواضح من الآية الكريمة أن من العرب من كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها خلافا لما يقوله د. حتى. كذلك كان من عرب الجاهلية من يتسمى: "عبد شمس" بما يفيد أنهم كانوا يعبدون ذلك الجرم السماوى. وفى "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد على: "وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل، وأن أسماء الأصنام والآلهة، وإن تعددت وكثرت، إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي هو الشمس والقمر والزهرة. وهو رمز لعائلة صغيرة تتألف من أب هو القمر، ومن أم هي الشمس، ومن ابن هو الزهرة". ويقول أيضا: "وقد تعبّد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب. وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد في زمن لا نستطيع تحديده

---

[1] ص٢٠، ٢٣.

[2] فصّلتْ/ ٣٧.

لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب". ويقول: "وكانت العرب تسمي الشمس: "الإلهة" تعظيمًا لها كما يظهر ذلك من هذا الشعر:

تروحنا من اللعباء قسرًا * فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن مية فانعياه * تشق نواعم البشر الجيوبا

ويقال لها "لاهة" بغير ألف ولام"[1]

ثم كيف تكره أمة من الأمم الشمس، وهى تضيء لهم نهارهم، الذى فيه يفتحون عيونهم على الدنيا ويرون الأشياء من حولهم ويسعون وراء رزقهم ويباشرون أعمالهم، كما تمدهم بالطاقة، وتنضج لهم النبات، وتدفئهم حين يبرد الجو. وإذا كان العرب يشتغلون بالرعى فى البادية لقد كانوا يشتغلون بالزراعة فى المناطق الخصيبة كما هو الحال فى الطائف ويثرب واليمن وقطر مثلا، فهم محتاجون إذن فى الحالين للشمس. ولو كان كلام الباحث صحيحا ما وجدناهم منذ الجاهلية يشبهون حبائبهم وكرام رجالهم بالشمس بما يعنى أنها تحتل فى خيالهم وذوقهم مكانا كريما. يقول أبو مرقال الزفيان:

فأمرعت لما إليك أهدفت * أغر مثل الشمس إذ تشوفت

وقال السموأل بن عادياء:

عروب كأن الشمس تحت قناعها * إذا ابتسمت أو سافرًا لم تبسم

ويقول زهير بن أبى سلمى:

أو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

ويقول طرفة بن العبد:

ووجه كأن الشمس حلت رداءها * عليه نقي اللون لم يتخدد

ويقول عامر العدوانى:

أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت * لنورهم الشمس المنيرة والبدر

... وهكذا.

أما تصوير فيليب حتى لـ"الله" سبحانه على أنه كان فى الجاهلية مجرد إله من الآلهة فهو تصوير خاطئ، إذ كان العرب قبلا يعبدون الله لا يشركون به شيئا طبقا لما جاء به الأنبياء والرسل منذ بداية الخليقة بما فيهم أنبياؤهم كهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل، ثم دخل عليهم الشرك والأصنام، التى كانوا يؤكدون أنهم لا يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله زلفى. أى أنها فى نظرهم ثانوية الدور، بل مجرد واسطة للتقرب إلى الله، وأن الإله الحقيقى عندهم إنما هو الله تعالى. وهذا ما تشير إليه الآيات التالية: "ولئن

---

[1] د. جواد على/ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ط٢/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م/ ٦/ ٥٠- ٥١.

سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون"[1] ، "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون"[2] ، "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله"[3] ، "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله"[4] ، "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله"[5] ، "ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار"[6] ، "وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون"[7] ، "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون"[8] ، "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن

---

[1] العنكبوت/ ٦١.

[2] العنكبوت/ ٦٣.

[3] لقمان/ ٢٥.

[4] الزمر/ ٣٨.

[5] الزخرف/ ٨٧.

[6] الزمر/ ٣

[7] الزخرف/ ٢٦- ٢٨.

[8] البقرة/ ١٢٥- ١٣٣.

أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ"[١]، "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"[٢]، "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[٣]، "وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ"[٤]، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"[٥]، "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[٦].

وفى الشعر الجاهلى يتكرر ذكر الله الخالق الرازق الحافظ صاحب التقادير الذى يتجه إليه الناس فى أدعيتهم ومطالبهم. جاء فى شعر حاتم الطائى:

كلـــوا اليـــوم مـــن رزق الإلـــه وأيسِروا * وإنّ عـــلى الـــرحمن رزقكمـو غـــدا

وقال ثعلبة بن عمرو العبدى:

عَتَـادُ امرِئٍ في الحَـرْبِ لا واهِـنِ القُوى * ولا هُـوَ عَمّـا يَقْـدِرُ اللهُ صـارِفُ

وقال بشر بن عليق الطائى:

---

[١] آل عمران/ ٦٧– ٦٨.

[٢] الأنعام/ ١٦١– ١٦٤.

[٣] النحل/ ١٣٣.

[٤] الحج/ ٢٦– ٢٩.

[٥] الحج/ ٧٧– ٧٨.

[٦] الممتحنة/ ٤– ٥.

سَقى اللهُ رَبِّي غَيرَ نَزْرٍ مُصَرَّدِ * دِيارَهُما ساقي السَّحابِ وَسلما

وقال أعشى باهلة:

فإنْ سَلَكْتَ سَبِيلاً كُنْتَ سالِكَها * فاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مُنْتَشِرُ

وقال أفنون:

لَعَمْرُكَ ما يَدري امرُؤٌ كيفَ يَتَّقي * إذا هُوَ لم يَجْعَلْ لهُ اللهُ واقِيا

وقال الأعسر الضبي:

هلّا سألتِ، هَداكِ اللهُ ما حَسَبي * عِندَ الطِعانِ إذا ما احمرَّتِ الحدَقُ

وقال الحارث بن حلزة:

فَهداهُمْ بالأسْوَدَيْنِ، وأمرُ اللـ * ـهِ بَلْغٌ يَشْقى بِهِ الأشْقِياءُ

وقال أيضاً:

وفَعَلْنا بِهِمْ كَما عَلِمَ اللـ * ـهُ، وَما إنْ لِلحائِنينَ دِماءُ

وقال طفيل الغنوي:

أبى اللهُ أن نَدْعى إذا ما فَزِعْتُمو * وتُقْصى إذا ما تأمَنونَ وتُحْجَبُ؟

وقال المتنخل:

لا يُبْعِدِ اللهُ مِنّا مَعْشَراً شَهِدوا * يَومَ الأُمَيْلِحِ لا غابوا ولا جُرِحوا

وقال المسيب بن علس:

ألا تَتَّقونَ اللهَ يا آلَ عامِرٍ؟ * وَهَلْ يَتَّقي اللهَ الأبَلُّ المُصَمِّمُ؟

وقال النابغة الذبياني يخاطب النعمان بن المنذر:

ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أعْطاكَ سَوْرَةً * تَرى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ؟

وقال النابغة أيضاً:

فلمّا رأى أنْ ثَمَّرَ اللهُ مالَهُ * وأثَّلَ مَوجوداً وسَدَّ مَفاقِرَهْ

وقال تأبط شراً:

ألا تِلْكُما عِرْسي مُنيعَةُ ضُمِّنَتْ * مِنَ اللهِ إثْماً مُسْتَسِرّاً وَعالِنا

وقال ذو الإصبع العدواني:

اللهُ يَعْلَمُني واللهُ يَعْلَمُكُمْ * واللهُ يَجْزيكُمو عَنّي ويَجْزيني

وقال عبد يغوث الحارثي:

أحَقّاً عِبادَ اللهِ أنْ لَسْتُ سامِعاً * نَشيدَ الرِّعاءِ المُعْزِبينَ المَتاليا؟

وقال عمرو الطريد:

وأيُّ بِلادِ اللهِ أو أيُّ بُقْعَةٍ * سَلَكْتُ فلَمْ أسْفِكْ بِعَرْصَتِها دَما؟

وغير هذا كثير. ولست ممن يسكنهم هاجس الانتحال فيري في مثل تلك الأشعار زيفا وانتحالا. ولو ثبت أن بعضها لا يثبت على محك التمحيص، ففي الباقي غُنْيَة أيّ غُنْيَة، وبخاصة أن هذه الأشعار لا تنشئ شيئا لم يقله القرآن المجيد. أما القول بالانتحال فلا ألجأ إليه إلا إذا ثبت لي ثبوتا أنه لا مفر منه. ويمكن من يحب أن يرجع إلى الفصل الأول من كتابي: "الأدب العربي- نظرة عامة لبيير كاكيا- عرض ومناقشة"، الذي بسطت فيه رؤيتي لتلك القضية وبرهنت على أن ابن سلام، الذي يُضرَب به المثل في الاعتدال فيما يخص هذه المسألة، قد كان مغاليا جدا على عكس ما هو شائع ومستقرّ لدى الباحثين، وأن الاتهام بالانتحال ليس بالأمر السهل الذي يصح أن يمر به الباحث مر الكرام، بل ينبغي أن يتردد كل منا كثيرا قبل أن يقول بانتحال بيت أو نص شعري جاهلي.

كذلك لست أرافئ المستشرقين الذين يزعمون أن الرواة المسلمين قد عبثوا بأشعار الجاهلية فاستبدلوا بأسماء الأصنام دائما اسم "الله"، ومن ثم تكون تلك الشواهد غير صالحة لما استشهدتُ بها عليه. ذلك أن هذا يستلزم أن يكون اسم كل صنم موافقا لاسم الله من ناحية الوزن العروضي كـ"اللات" مثلا، التي قد يُقبَل من الناحية النظرية أن تكون قد حُذِفتْ من بعض الأشعار لحساب كلمة "الله"، إلا أن الواقع يرينا أن الأمر ليس بالسهولة التي تصورها، وإلا فماذا نصنع بالضمائر التي تعود على اللات في هذه الحالة، وهي ضمائر مؤنثة لا تصلح أن تستعمل له جل وعلا، ولو حولناها إلى ضمائر تذكير فسوف تكسر الوزن. ليس ذلك فقط، إذ لو أتى اسم "اللات" في نهاية البيت لم يصح استبدال اسم "الله" به كما هو واضح. كذلك هل أُثِر عن العرب أنهم كانوا يعتقدون أن اللات هي خالقتهم ورازقتهم مثلا حتى نقول إنهم، في الأشعار التي يذكرون فيها أن الله هو الخالق أو الرازق، كانوا يقصدون اللات، لكن المسلمين استبدلوا بها اسم "الله"؟ ثم لو كان هذا الافتراض السخيف صحيحا أكان علماء المسلمين يُجْمِعون على الصمت بشأنه فلا يفتحوا فمهم بكلمة عنه، وهم الذين لا يتركون أي موضوع بالغةً ما بلغت حساسيته إلا عرضوا له وبالتفصيل غير متحرجين من أي شيء؟

وأنا بعد لا أفهم لماذا يفعل علماء المسلمين هذا؟ أيريدون أن يعفوا على آثار الوثنية الجاهلية؟ لكنهم قد كتبوا عن هذه الوثنية كتبا كثيرة، وتحدثوا عنها في كتب التفسير وشروح الحديث والتاريخ والسيرة النبوية، بل أفردوا لأديان العرب في الجاهلية وعبادتهم للأصنام والأوثان كتبا خاصة أفاضوا فيها القول. فلِمَ يتحرجون إذن من ذكر أصنام الجاهليين في أشعار عرب ما قبل الإسلام؟ وإضافة إلى كل ما سلف أليست هناك أشعار جاهلية تتضمن أسماء أصنامهم كاللات والعُزّى ومناة ودُوَار . . . ؟ أفليس هذا دليلا على تهافت تلك النظرية التي يطرحها بعض المستشرقين الفارغين المغرمين بالذهاب مع الأوهام في أودية الضلالات؟ قال المتلمس يذكر اللات:

أطـــرَدْتني حَـــذرَ الهِجـــاءِ؟ ولا * والـــلاتِ والأنـــــصـــاب لا تئِل

وقال عمرو القضاعي في العُزّى:

أمـــا ودمـــاءٍ مـــائراتٍ تخـالـــهـــا * عـــلى قنة العزّى أو النسـر عندما
ومـــا قـــدّس الرهبـــانُ في كـــل هيكلٍ * أبيـــل الأبيليـــن المسيـــح بن مريـــما
لقـــد هـــزّ مني عامـــرٌ يوم لعلـــعٍ * حُســـامـــا إذا لاقى الضريبة صمّما

وقال درهم بن زيد الأوسي في العزى أيضا:

إني وربّ العـــزّى السعيـــدة واللـــ * ـــه الـــذي دون بيتـــه سَـــرِفُ

وقال أبو خراش الهذلي فيها كذلك:

لقـــد أنكحـــتْ أسمـــاءُ لحـــى بقـــيرةٍ * مـــن الأدم أهـــداهـــا امرؤ من بني غنم
رأى قـــذعـــا في عينـــهـــا إذ يـــسوقـــها * إلى غبـــغـــب العـــزّى، فوضـــع في القسم

وقال عبد العزى بن وديعة المزني يحلف بمناة:

إني حـــلفـــتُ يميـــنَ صـــدقٍ بـــرّةً * بمنـــاة عنـــد محـــل آل الخـــزرج

وقال امرؤ القيس مشيرا إلى دوار:

فعنّ لنـــا ســـربٌ كأنّ نعـــاجـــه * عـــذارى دوار في مُـــلاءٍ مُـــذيـــل

وقال شاعر عن الصنم يغوث:

وســـار بنـــا يغـــوثُ إلى مـــرادٍ * فنـــاجـــزناهـــمـــو قبل الصّباح

وقال بشر بن أبي خازم الأسدي ذاكرا إساف:

عـــليه الطـــير مـــا يدنون منـــه * مقـــامـــات العـــوارك من إسافِ

وقال الشّدّاخ الليثي مشيرا إلى مناف، وهو من أصنام الجاهليين:

تركـــت ابن الحـــريز عـــلى ذمـــام * وصـــحبته تلـــوذ بـــه العـــوافي
ولم يصـــرف صـــدور الخيـــل إلّا * صـــوامح مـــن أياتيـــم ضـــعـــافِ
وقـــرنٍ قـــد تركت الطـــير منـــه * كمعتنـــز العـــوارك مـــن منـــافِ

وقال خداش بن زهير العامري مشيرا إلى صنم آخر هو ذو الخلصة، ملقبا إياه بـ"المروة البيضاء":

وذكـــرتـــه بالله بـــيني وبينه * ومـــا بيننـــا مـــن مُـــدةٍ لو تذكرا
وبالمـــروة البيضـــاء يوم تبـــالةٍ * ومحبســـة النعمـــان حيـــث تنصّرا

وقال أحدهم في صنم يقال له: ذو الشّرى:

إذن لحـــللنا حـــول مـــا دون ذي الشّرى * وشـــجّ العِـــدا منـــا خميـــسٌ عرمرمُ

وقال زهير بن أبي سلمى في صنم الأقيصر:

حـــلفتُ بأنصـــاب الأقيصـــر جاهـــدا * ومـــا سُحقـــتْ فيـــه المقـــاديم والقمل

وقال ربيع بن ضبع الفزاري فيه أيضا:

فـــإنني والـــذي نـــغـــمُ الأنام لـــه * حـــول الأقيصـــر تسبـــيحٌ وتهـــليل

وقال أمية بن الأسكر في نُهم:

إذا لقِيتَ راعيين في غنم * أسيدَيْنِ يحلفانِ بنُهُمْ
بينهما أشلاءُ لحمٍ مُقتَسَمْ * فامْضِ، ولا يأخذكَ باللحمِ القَرَمْ

وقال زيد الخيل الطائي في صنم يقال له: عائم:

تخبِّر من لاقيت أنْ قد هزمتَهم * ولم تدرِ ما سيماهُمُ، لا، وعائم

وقال جعفر بن أبي خلاس الكلبي في صنم آخر اسمه سعير:

نفرَتْ قلوصي من عتائرَ صُرِّعَتْ * حولَ السُّعَيْرِ تزوره ابنةُ يَقدُمِ
وجموعُ يَذكُرَ مُهْطِعِين جنابَه * ما إن يُحيرُ إليهمو بتكلم

وقال أحد الشعراء يذكر سُوَاعًا:

تراهم حول قِبلهِمو عكوفا * كما عكفتْ هُذَيْلٌ على سُوَاعِ

وغير ذلك من الشواهد التي يعجّ بها كتاب "الأصنام" لابن السائب الكلبي.

وقد أورد ابن الكلبي مثلا أن قريشا كانت تطوف في الجاهلية بالكعبة وتقول: "واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيقَ العُلا، وإن شفاعتهن لتُرتجَى"[١]. ولو كان الرواة المسلمون يتحرجون من إيراد الأشعار التي تحتوي على أسماء الأصنام لقد كان أحرى بهم أن يحذفوا هذا النص الأخير الذي يتضمن تمجيد الجاهليين لذلك الثالوث الوثني. ومثله تمجيد أبي سفيان لهُبَل بعد انتصار قريش في أحد قائلا: "اُعلُ هُبَل"، الذي أورده الرواة المسلمون كما هو لم يفكروا في العبث به. ويزيده أهمية أنه قيل عقب هزيمة أُحُد، التي ليس كمثلها شيء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام رضي الله عنهم، ومع ذلك رواه المسلمون كما هو دون أي تعديل. بل إن المسلمين قد أبقَوْا على أسماء آبائهم وجدودهم التي تعبّدهم لهذا الصنم أو ذاك، كعَبْد مَناف وعبد اللات وعبد شمس وعبد وُدّ وعبد مناة وعبد العزى وعبد يغوث وعبد سُوَاع وعبد ياليل وعبد المَدَان وعبد الأشهل مثلا. ومثلها في ذلك زيد مناة، وزيد اللات، وتيْم اللات، وأوْس اللات وما أشبه. بل كان من هؤلاء الآباء والأجداد من يتسمى بـ"هُبَل" و"سَعْد". كذلك نراهم قد أبقَوْا على اسم "عبد المسيح" كما هو.

إذا عرفتَ هذا أمكنك أن تضع يدك على العُوَار في دعوى بعض المستشرقين القائلة بأن رواة الشعر الجاهلي قد استبدلوا اسم "الله" بأسماء الأصنام التي كان يعبدها العرب قبل الإسلام كلما وردت في نص شعري. قال د. جواد علي: "وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن رواة الشعر في الإسلام قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي مجد الأصنام والوثنية وأهملوه فلم يرووه فمات، وأن بعضا منهم قد هذب

[١] انظر كتابه: "الأصنام"/ تحقيق أحمد زكي باشا/ ١٩.

ذلك الشعر وشذّبه فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية، ورفع منه أسماء الأصنام، وأحل محلها اسم "الله" حيث يرد اسم الصنم. فما فيه اسم "الله" في الشعر الجاهليّ كان اسم صنم في الأصل"[١].

وقد تناول د. جواد على موضوع التحول من التوحيد إلى الوثنية فقال: "ذهب أهل الأخبار إلى أن العرب الأولى كانت على ملة ابراهيم من الايمان بإلهٍ واحدٍ أحدٍ اعتقدت به، وحجّت إلى بيته وعظّمتْ حُرَمَه وحُرْمَةَ الأشهر الحرم. بقيت على ذلك، ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسُوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم حتى أعادهم الإسلام اليه. ونظرية أن العرب جميعا كانوا في الأصل موحدين، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل ويليم شميد (Wilhelm Schmidt)، الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها، فرأى أن عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها إلى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود "القديم الكل" أو "الأب الأكبر"، الذي هو في نظرها العلة والأساس. فهو إلهٌ واحد. وتوصل إلى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيد، ثم ظهر من بعدها الشرك. وقد أطلق عليها في الألمانية مصطلح "Urmonotheismus"، أي التوحيد القديم. وبأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة. وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضا. فالشرك وعبادة الأصنام، بحسب هذه النظرية، نكوص عن التوحيد ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الإنسان فأبعده عن عبادة الله"[٢].

وفى كتاب "الأصنام" مثلا لابن الكلبى كلام يدور فى هذا المدار، إذ نقرأ فيه "أن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما لما سكن مكة ووُلِدَ له بها أولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفَوْا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضا فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش. وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعَن من مكة ظاعِنٌ إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحَرَم تعظيمًا للحرم وصبابةً بمكة. فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمُّنًا منهم بها وصبابةً بالحرم وحبًّا له. وهم بَعْدُ يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ثم سَلَخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبُّوا، ونسُوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره. فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم. وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوحٍ عليه السلام منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها. وفيهم

---

[١] د. جواد على/ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ١٢.

[٢] المرجع السابق/ ٦/ ٣٦.

على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البُدْن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه.

فكانت نزار تقول إذا ما أَهلّت: "لبيك اللهم، لبيك. لبيك، لا شريك لك. إلا شريك هو لك. تملكه وما ملك"، ويوحدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتم ويجعلون ملكها بيده. يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون"، أي ما يوحدونني بمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي. وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاجا قدَّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركْبهم. فيقولان: نحن غرابا عَكّ! فتقول عك من بعدهما: عكٌّ إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية! وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك ووقفت في المواقف نفرت في النفر الأول، ولم تُقِمْ إلى آخر التشريق. فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيب السائبة، ووصَل الوَصِيلة وبَحَر البَحِيرة وحمى الحامية، عمرو بن ربيعة، وهو لحَيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أبو خُزَاعة"[١].

وبالنسبة إلى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام نجد د. فيليب حتى يقول إن رسالته التى شعر أنه مكلف بأدائها تشبه رسالات أنبياء العهد القديم: فالله واحد أحد خلق الكون، وقدرته لا حد لها. كما أن ثمة حياة أخرى وجنة ينعم فيها الصالحون، ونارا يشقى بعذابها العصاة الطالحون[٢]. لكن ليست المسألة أنه عليه الصلاة والسلام شعر أو لم يشعر، بل أنه أيقن إيقانا مطلقا بأن الله قد اختاره ليكون نبيا ورسولا. وهذه واحدة، أما الثانية فهل صورة الله فى القرآن الكريم تشبه صورته سبحانه وتعالى فى العهد القديم؟ إننا نقرأ مثلا فى سفر "التكوين" عن "أولاد الله" و"بنات الناس"، وكأن الله قد اصطفى لنفسه الذكور، وترك الإناث للبشر. كما نقرأ فى ذات السفر أن آدم، بعدما أكل من الشجرة المحرمة، اختبأ فى مكان ما من الجنة حتى لا يراه الله، الذى لم يعد يراه فعلا، بل يسمع صوته فقط، ويسأله: أين أنت؟ كذلك نجد فى ذات السفر أن يعقوب عليه السلام اشتبك معه طوال الليل فى عراكٍ طوّقه يعقوب فيه بيديه فلم يستطع أن يفلت من قبضته إلا حين سدد له ضربة قوية فى فخذه جعلته يتركه لحال سبيله. ثم إن الله، حسبما يخبرنا كتبة العهد القديم، يندم على ما فعل ويحقد على بنى البشر لأنهم سوف يشاركونه العلم والمعرفة وفى سِفر "الخروج" يرى موسى الله من الخلف وهو مارّ أمامه... إلخ. أما ما قاله حِتى عن الحياة الآخرة والجنة والنار ووجود ذلك فى العهد القديم فكلام غير دقيق. وهذا هو العهد القديم بين يدى الدارسين فليقل لنا أين نجد الكلام عن الحياة الآخرة بنفس الوضوح والتفصيل الموجودين فى القرآن الكريم، أو أين

---

[١] ابن السائب الكلبى/ الأصنام/ تحقيق أحمد زكى باشا/ ط٣/ دار الكتب المصرية/ ١٩٩٥م/ ٦– ٨.

[٢] ص٢٥.

نجد الحديث فيه عن ملذات الجنة وآلام أهل النار. ولقد رجعتُ مثلا إلى مادة "آخرة- أخرويات (إسخاتولوجي)" فى "دائرة المعارف الكتابية" فلم أجد فيها إحالة إلى نص واضح قاطع يقول بأن هناك حياة بعد الموت، رغم المحاولات المتكررة لإثبات ذلك اعتمادا على إشارات عارضة أو غامضة يحاول محرر المادة أن يلويها ويُنطِقها بما ليس فيها. وعلى هذا فالقول بأن رسالة نبينا تشبه رسالات أنبياء العهد القديم (كما يصورها ذلك الكتاب) هو قول خاطئ.

وهذا نص ما نجده فى مادة "قام- قيامة" تحت عنوان جانبى هو "القيامة في العهد القديم": "لا توجد سوى إشارات قليلة للقيامة في العهد القديم، ولكن ليس معنى هذا أنها غير موجودة، بل موجودة ولكن ليست بصورة بارزة كما هي في العهد الجديد. لقد كان رجال العهد القديم رجالا عمليين جدا يركزون همهم على أن يقضوا حياتهم الحاضرة في خدمة الله، ولم يكن لديهم متسع من الوقت للتفكير في الحياة الآتية. ثم لا ننسى أنهم كانوا يعيشون على الجانب الآخر من قيامة المسيح، التي أعطت للقيامة معناها وأهميتها. وكانوا أحيانا يستخدمون فكرة القيامة للتعبير عن الرجاء القومي في ولادة الأمّة من جديد (ارجع مثلا إلى حزقيال ٣٧). وأوضحُ عبارة في العهد القديم عن القيامة هي التي جاءت في نبوة دانيال: "وكثيرون من الراقدين في تراب الارض يستيقظون: هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدي" (دانيال ١٢:٢و٣). ومن الواضح أنه يذكر قيامة الأبرار وقيامة الأشرار، كما يشير إلى النتائج الأبدية لأعمال البشر. وهناك بعض الفصول الأخرى التي تشير إلى القيامة، وبخاصة في سفر "المزامير" (ارجع مثلا إلى مز ١٥،٤٩:١٤،١١،١٦:١٠). ويدور جدل شديد حول المعنى الدقيق لقول أيوب: "أما أنا فقد علمت أن وليّي حي، والآخر على الأرض يقوم. وبعد أن يفنى جلدي هذا، وبدون جسدي، أرى الله، الذي أراه أنا لنفسي، وعيناي تنظران وليس آخر. إلى ذلك تتوق كليتايَ في جوفي" (أي ١٩:٢٥-٢٧). ولكن لا يمكن بأي حال نكرانُ أن ثمة إشارة إلى القيامة في هذه الاقوال. كما أن في بعض أقوال الأنبياء ما يشير إلى القيامة مثلما جاء في نبوة إشعياء: "تحيا أمواتك، تقوم الجثث: استيقظوا، ترنموا يا سكان التراب" (إش ٢٦:١٩. انظر أيضا ٢٥:٨). ويقول هوشع النبي: "مِنْ يد الهاوية أفديهم، من الموت أخلصهم. أين أوبَاؤك يا موت؟ أين شوكتك يا هاوية؟" (هو ١٣:١٤). ويقتبس الرسول بولس هذه الاقوال لتأكيد الغلبة النهائية للمؤمنين على الموت والهاوية: "أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟" (١كو ١٥:٥٥). فالعهد القديم يُعلِم بدرجات مختلفة من الوضوح بقيامة الأموات، وذلك بوحي من الله، وليس نقلا عن مصادر وثنية".

كذلك نقرأ فى كتاب فيليب حتى أن الهجرة إلى المدينة قد نتج عنها أن الرسول فى شخصية محمد قد تراجع إلى الخلف وحل محله السياسى رجل الدولة[١]. ومعنى هذا الادعاء فى أحسن الأحوال أن الرسول عليه السلام حين كان يمارس السياسة لم يكن يبالى بمبادئ الدين وقيمه، بل كان يتصرف تصرف

[١] ص٢٨.

الساسة فيكذب ويظلم ويجرى على سنة "الغاية تبرر الوسيلة" كما يفعل الحكام ورجال السياسة عادة. وهذا طبعا غير صحيح، وسيرته عليه السلام متاحة لمن يريد أن يعرف مدى صحة كلام حِتّى أو كلامنا. لا نكران فى أنه قد حارب وقاتل بما ينتج عن الحرب والقتال من إزهاق أرواح وتوزيع غنائم، لكن هذا لا يناقض مبادئ الدين، إذ الإسلام لا ينحصر فى المساجد والعبادات بمعناها التقليدى، بل يمارس نشاطه فى كل مناحى الحياة بما فيها المعارك وميادين القتال. كما أن عبارة حِتّى قد توحى بأن الرسول لم يعد يتلقى وحيا فى تلك الفترة التى قضاها فى المدينة، بل اقتصر عمله أو كاد على ممارسة شؤون الحكم. وهذا غير صحيح، فالوحى لم ينقطع عنه فى المدينة قط، بل ظل ينزل عليه إلى أن لقى ربه. والمساحة التى يحتلها القرآن المدنى كبيرة، وهى تشمل سُوَر "البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والحج والنور ومحمد والفتح والحجرات والمجادَلة والحشر والممتحَنة والطلاق والتحريم" على الأقل. وهذه السُّوَر تشكل قسما كبيرا من القرآن الكريم.

ويزداد الأمر شُنْعًا حين يزعم فيليب حِتّى أن النبى، عند فراغه من بنى قُرَيْظَة، الذين يخطئ مؤرخنا فيجعل غزوتهم عقب غزوة بدر، قد قام بتعريب الإسلام، أى جعله دينا قوميا بعد أن كان يتبع اليهودية والنصرانية من قبل، لكنه الآن قد قطع علاقته بهما. كيف؟ لقد كتب ما يُفهَم منه أنه عليه الصلاة والسلام كان يتخذ السبت، أى يجعل منه يوما للعبادة الجماعية ويكف فيه المسلمون عن العمل، فغيّره إلى الجمعة. وكان يستخدم البوق والجرس للدعاء إلى الصلاة فاستعاض عنهما بصوت المؤذن. كما حدد رمضان شهرا للصيام، وحوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فضلا عن جعل الحج وتقبيل الحجر الأسود شعيرة من شعائر الإسلام. وهذا نص كلامه فى أصله الإنجليزى[١] : " In this Medinese period the Arabianization, the nationalization of Islam was effected. The new prophet broke with both Judaism and Christianity; Friday was substituated for Sabbath; the call from the minaret was decreed in place of trumpets and bells; Ramadan was fixed as a month of fasting, the direction to be observed during the ritual prayer was changed from Jerusalem to Mecca, the pilgrimage to Kaaba was authorized and the kissing of the Black Stone_ a per-Islamic fetish_ sanctioned".

لكن ترجمة هذه الفقرة فى النسخة العربية قد خففت إلى حد ما من فداحة المعنى المفهوم من كلام حِتّى هنا. وإلى القارئ نص تلك الترجمة: "وفى هذه الحقبة من حياة النبى صار تنظيم الإسلام وحدة عربية قومية، فانقطعت صلة الإسلام بالديانتين: اليهودية والنصرانية، وخُصَّ يوم الجمعة بالصلاة الأسبوعية، وأقيم الأذان مقام النواقيس والأبواق، واصْطُنِعَ رمضان شهرا للصوم، وتحولت القبلة من بيت المقدس إلى مكة، وأُجيز الحج إلى مكة وتقبيل الحجر الأسود، وهما من فروض الدين المرعيّة فى الجاهلية"[٢].

---

[1] P. 29.

[٢] فيلب حتى/ العرب: تاريخ موجز/ إعادة ط٦/ دار العلم للملايين/ ١٩٩١م/ ٤١.

وهذا الذى قاله حتى غير صحيح. ولنأخذ الدعوة إلى الصلاة أولا. لقد كان المسلمون يصلون فى مكة سرا، وكان المشركون إذا اكتشفوهم وهم يصلون يعتدون عليهم. أما فى المدينة، وبعد أن صار للمسلمين دولة تحميهم، ومن ثم يستطيعون الصلاة والعبادة وهم آمنون، فقد طرح الرسول على الصحابة للمشاروة موضوع الطريقة التى يعلنون بها عن دخول وقت الصلاة كى يصل معهم إلى حل لها. وهذا حديث من الأحاديث النبوية التى تروى هذه الواقعة، ومنه يرى القارئ أن البوق أو الجرس لم يستعملا فى الإسلام قط للدعوة إلى تلك الشعيرة، بل أن الرسول كان يكره أن يستعمل أيا من هاتين الوسيلتين. يقول الحديث إن "النبي صلى الله عليه وسلم استشار الناس لما يهمهم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى. فأُرِيَ النداءَ تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له: عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب، فطرق الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا به فأذن. قال الزهري: وزاد بلال في نداء صلاة الغداة: "الصلاة خير من النوم"، فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمر: يا رسول الله، قد رأيت مثل الذي رأى، ولكنه سبقني". فمن هذا يتبين بكل وضوح أن اتخاذ المسلمين للناقوس أو الصُّور لم يقع بتاتا، وأن الرسول عليه السلام كره ذلك بمجرد أن عُرِض عليه الاقتراح به.

وإن جولة سريعة فى نصوص القرآن المكى لترينا أن الإسلام لم يَتَوانَ منذ البداية عن التنبيه إلى انحرافات اليهودية والنصرانية كلما وقع ما يدعو إلى ذلك. كما كان الصحابة فى هذا الموضوع أوفياء لدينهم غاية الوفاء، وهو ما تبدَّى مثلا حين كان على المهاجرين المسلمين فى الحبشة أن يقفوا أمام النجاشى وقساوسته ليقولوا رأى الإسلام فى عيسى، فتلَوْا عليهم دون أدنى تلجلج آيات سورة "مريم" التى تقول إنه عبد الله ورسوله وإنه لا يمكن أن يتخذ الله لنفسه ولدا، وذلك رغم ما كان يحيط بهم من الأخطار المبيرة آنذاك. ولقد كفر القرآن من يعبدون عيسى ويقولون عنه إنه ابن الله، ولعن أصحاب السبت وروى لنا ارتكاس بنى إسرائيل فى الكفر مرارا بدءا من أيام موسى فنازلا، ونفى بكل قوة أن يكون الله قد مسه لغوب بعد خلق السماوات والأرض على عكس ما يقول كتاب العهد القديم... إلخ. فكيف يزعم زاعم أن الرسول كان يجرى فى خطا اليهودية والنصرانية قبل أن يفكر فى تعريب الإسلام فى المدينة؟

وبالمثل يقال نفس الشئ عن زعم اتخاذ الرسول فى البداية يوم السبت عيدا أسبوعيا للمسلمين، إذ هو لم يحدث قط على أى نحو من الأنحاء ولا فكر صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه فى ذلك. ومرة أخرى نقرأ هذا الحديث النبوى الذى يوضح الموضوع ويرينا أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطئ بنى إسرائيل فى اختيارهم لهذا اليوم: "أضل الله عن الجمعة مَنْ كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد.

وكذلك هم تبعٌ لنا يوم القيامة. نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضيّ لهم قبل الخلائق".

أما الحج فالصواب فيه أنه شعيرة سماوية أمر الله سبحانه نبيه إبراهيم أن يؤذن بها في الناس كي يأتيه الناس رجالا ونساء ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات. ثم حدث ما يحدث كثيرا في مثل تلك الحالة حين تتطاول القرون ويدب العبث والفساد إلى المؤسسات والشعائر والعادات والتقاليد وما أشبه، فدخلت الحجَّ بعضُ الممارسات التي انحرفت به عن سواء السبيل. لكن بقيت منه رغم ذلك بعض الشعائر على أصلها. فلما جاء الإسلام نقى الحج من تلك الممارسات والانحرافات وأعاده كما كان. وليس في الحجر الأسود ولمسه أو تقبيله شيء سحري أو وثني كما توحي كلمة "fetish". بل أغلب الظن أنه من الأحجار التي بنى أو جدد بها إبراهيمُ وإسماعيل البيت الحرام. وليس في لمس الحجاج المسلمين له شيء من ذلك على الإطلاق. وعلى أية حال فاللمس ليس فريضة، بل هو سنة من السنن لا أكثر ولا أقل. وأُثِر عن عُمَر الفاروق رضي الله عنه قوله مخاطبا ذلك الحجر وهو يقبله: "إني أعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع. ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك". أما إذا كان للجاهليين اعتقاد وثني فيه فهذا مما لا يُسأل عنه المسلمون، إذ الإسلام إنما أتى ليجُبّ ما كان في الجاهلية من انحراف، وعلى رأسه الوثنية والخرافات.

ويبقى استقبال المسلمين الكعبة لدن أداء الصلوات. لقد كان الرسول في صلاته بمكة قبل الهجرة يستقبل الكعبة وبيت المقدس معًا كما يتضح من عبارة ابن هشام، الذي يقول إنه عليه السلام "كان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام". أي أنه كان يجمع بين التوجه إلي الكعبة وبيت المقدس معًا قبل الهجرة، لكنه لما انتقل إلي يثرب، التي تقع في شمال مكة بينها وبين الشام، وكان من المستحيل الجمع بين القبلتين، ظل يصلي إلي بيت المقدس وهو يتوق إلي أن يستدير إلي الجنوب، إلي الكعبة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، إلى أن استجاب الله لتطلعه وأذن له بالتوجه إلى الكعبة: "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"[1].

---

[1] البقرة/ ١٤٢– ١٤٤.

ولا ننس فى هذا السياق أن القرآن قد أكد وكرر منذ بداياته الأولى حتى النهاية أنه دين عالمى لم يأت للعرب وحدهم: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، "وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيرا ونذيرا". وهو ما قاله الرسول بدوره حين وضح أنه قد بُعِث إلى الناس كافة. كما كان صلى الله عليه وسلم واضحا وحاسما حين أعلن أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وحذر القرآن العرب من أنهم إذا تولوا ولم يتحملوا المسؤولية التى ألقاها الله على عاتقهم باعتبارهم منصة إطلاق الدعوة الجديدة إلى آفاق الأرض فلسوف يستبدل بهم قوما غيرهم، وأن الأمر أمر تقوى لا أمر عصبية جنسية أبدا: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم". فكيف يقول حِتّى إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد حول الإسلام فى المدينة المنورة إلى دين عربى؟ أيمكن أن يبنى الرسول أعمدة الدين الجديد بيمينه ثم يستدير فيهدم بشماله ما بنته يمينه؟ ويا ليت كاتبنا كان يقصد أن الإسلام كان دينا عالميا قبل ذلك، بل يقصد أنه كان دينا تابعا يجرى فى ركاب اليهودية والنصرانية. وليس هذا بمستغرب على فكر فيليب حِتّى، فقد رأيناه يعزو أصل اليهودية إلى اقتباس موسى عقيدة دينه فى الله من زوجته ابنة كاهن مدين.

ويقول حِتّى أيضا إن صلاة الجمعة اتخذت من صلاة الكنيس اليهودي نموذجا لها[١]. كيف؟ لا كيف، بل هى هكذا والسلام، وإلا فهل رأى الرسول كنيسا يهوديا قبل تشريع صلاة الجمعة؟ إن هذا التشريع قد تم قبل أن يهاجر عليه السلام إلى المدينة، وصلى الجمعة لأول مرة فى قُبَاء فور وصوله إليها عند الهجرة، أى قبل أن يرى كنيسا فى حياته. أم ترى هل حصل أي تطور فى ذلك التشريع؟ فما هو ذلك التطور يا ترى؟ ومتى حصل؟ بهذا يرى القارئ تخبط فيليب حِتّى.

وأخيرا فإذا كان المؤلف، ككل من لا يعتقد فى نبوة محمد عليه السلام، يرى أنه صلى الله عليه وسلم هو مؤلف القرآن، وإن كان رغم ذلك يستعمل أحيانا عبارات لو أُخِذتْ على ظاهرها لكان مؤداها أنه يصدق بتلك النبوة، فإننى أحب أن أقول كلمة سريعة هنا تبين للقارئ أن أسلوب القرآن يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب الحديث النبوى، وهو ما يدل، ضمن دلائل أخرى، على أن مصدر هذا غير مصدر ذاك. وأنا، حين أقول هذا، لا ألقى الكلام على عواهنه، بل خصصت له كتابا ضخما من سمائة صفحة قارنت فيه بين الأسلوبين فألفيت كلا منهما يتميز تميزا حاسما عن الآخر. والكتاب بعنوان "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية"، وهو متاح على المشباك. فهناك ألفاظ وصيغ وتراكيب وعبارات وصور وأبنية توجد هنا ولا توجد هناك، والعكس بالعكس. كذلك فقد عكفت أيضا على القرآن أدرسه لعلى ألمح فيه نفسا بشريا فلم أجد، بل وجدت علما مطلقا وروحا إلهيا ساريا بين دفتى ذلك الكتاب. ونظرت فى كل نصوصه لعلى أرى ملمحا من ملامح شخصية الرسول أو مشاعره أو أفكاره فلم يتيسر لى من ذلك شىء. كما أخضعت النظريات التى يحاول عن طريقها المستشرقون والمبشرون تفسير الوحى المحمدى

---

[١] ص٤١..

للدراسة العلمية مستعينا بمباحث الطب وعلم النفس فلم أجد فى كلامهم عن تأثره بمكنونات اللاوعى، أو عن إصابته بالصَّرْع والهلاوس والهستريا، ما يقنعنى على الإطلاق. وقبل هذا كله فوقائع حياة محمد جميعها تشهد له بالصدق فى دعواه النبوة، إذ لم يحدث قط أن استغلها لإحراز أى مكسب له أو لأحد من أهل بيته، كما لم يَدَّعِ يوما أنه فوق مستوى البشرية أو أنه مُعْفًى من الحساب والمساءلة يوم القيامة، فضلا عن اشتهاره بالصدق والأمانة والتواضع والسمو فوق التفاهات والصغائر والأحقاد طوال حياته. أضف إلى ذلك أنه لم يُبْدِ ضعفا فى يوم من الأيام خلال مسيرة الدعوة التى استمرت ثلاثة وعشرين عاما ظل فيها ثابتا على مبادئه لم يُدَاجِ أحدا أو يمالئه أو ينحَزْ إلى أى ظالم أو يُعِنْ أى مستبد أو يَخْشَ أحدا غير الله رغم تتالى البلايا والرزايا وتكاثُرِ الأعداء عليه من كل جانب وتكاثر المؤامرات على حياته طوال عمره. . .

ووقد وضعت فى ذلك دراسة عنوانها: "مصدر القرآن– دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى". وبالمناسبة فقيليب حتى، رغم كل شىء، لا يكفّ طوال الفصلين اللذين خصصهما فى كتابه للرسول وللقرآن عن إبداء الإعجاب بهذا الكتاب وبأسلوبه الساحر، وتأثيره القاهر على حياة المسلمين، ونتائجه الباهرة فى تاريخهم.

الفتوح الإسلامية

يَعُدّ فيليب حِتّى الفتوح الإسلامية الأولى إحدى أهم حادثتين فى أوائل العصور الوسطى، أما الأخرى فهى هجرة التيوتون، التى أسفرت عن انهيار الإمبراطورية الرومانية. ويضيف قائلا: لم يكن أحد ليصدق فى تلك الأوقات أن قوةً ستظهر من قلب بلاد العرب المجهولة فتكتسح الإمبراطوريتين: البيزنطية والفارسية فى غضون أعوام معدودات محرزةً انتصارا مدويا على كل منهما، ومُمْلخة من أولاهما كثيرا من البلاد الواقعة تحت إمرتها، ومُزيحَة الثانية من الوجود. ومن رأيه أن تلك الفتوح قد أنجبت أبطالا يصعب أن يوجد نظراؤهم فى العالم، فخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما يقول، لا يقلان موهبة إن لم يزيدا عن نابليون وهانيبال والإسكندر. وهو لا يعزو انتصارات العرب الكاسحة إلى العامل الدينى والحماسة الإيمانية وحدها، بل إلى ذلك وإلى التطلع للمغانم الحربية والرغبة فى الانتقال إلى بلاد أكثر تحضرا ورخاء وأحسن جوا ومُناخًا، فضلا عن وسيلة المواصلات السريعة التى كانت بحوزتهم ولم يكن الروم ولا الفرس يعرفونها، وهى الجمَل والحصان، إلى جانب الضعف الذى دب فى كيان الدولتين جَرّاء الحروب المتواصلة بينهما فترة طويلة، وكذلك المظالم السياسية والاقتصادية التى كان يقاسيها رعاياهما، والصراعات المذهبية التى كان نصارى الدولة الرومانية منغمسين فيها وأرهقتهم إرهاقا. وكان من نتيجة هذا، بالإضافة إلى كون الشاميين والمصريين أقرباءَ فى الدم لهم، أن رحَّب سكان الشام ومصر بالفاتحين الجدد. إلا أنه يعود فيقول إن كثيرا ممن دخلوا الإسلام من سكان تلك البلاد إنما فعلوا ذلك هربا من الجزية. ومع هذا نراه يؤكد أن الغالبية الساحقة لأهالى البلاد المفتوحة ظلت على دينها القديم قرنا أو قرنين قبل أن تتحول إلى الإسلام. ومن رأيه أن هذه الفتوح الإسلامية تشكل آخر حلقة فى الهجرات الساميّة التى انطلقت من بلاد العرب المجدبة إلى البلاد الخصيبة المحيطة بها. كما يؤكد أن الفتوح الإسلامية هى فى الواقع وليدة الظروف التى كانت تستجد على أرض الواقع، شأن كثير من حوادث التاريخ الكبرى، وليست بنت التخطيط المسبق[١].

وتثير آراء حِتّى هذه عددا من القضايا الهامة: فعلى سبيل المثال نراه يركز، عند الحديث عن العوامل المسؤولة عن انتصارات المسلمين فى فتوحهم الأولى، على الغنائم ونوع السلاح وضعف الإمبراطوريتين: الفارسية والبيزنطية والمظالم التى كان رعاياهما يرزحون تحتها... إلخ. بيد أننى أرى العكس هو الصحيح. أى أن العوامل الروحية والحماسة الإيمانية وطبيعة الدين الإسلامى نفسها هى المسؤولة بالدرجة الأولى عن تلك الانتصارات الباهرة، وبخاصة أنها لم تكن مجرد انتصارات عسكرية فحسب، بل كانت إيذانا بتغييرات حضارية عظيمة قلما تحدث فى التاريخ، إذ لم ينتصر العرب عسكريا وسياسيا فقط، بل انتصروا دينا ولغة وأدبا وعادات وتقاليد. بل لقد بلغ توفيق العرب فى هذا الشأن أن

---

[١] من ص ٤٦ فصاعدا.

ان معظم الكتّاب والمفكرين واللغويين والأدباء غير العرب فى الإمبراطورية الإسلامية يتعصبون للعرب لثقافة العرب ولغة العرب وشعر العرب أكثر مما يتعصبون لأممهم وثقافتهم االأصلية، بل ربما ضد هذا كله، كراما لخاطر الدين الذى حمله العرب إلى تلك الأمم رغم ترامى رقعة الإمبراطورية المسلمة فى ذلك الحين كثرة الأجناس التى تستظل برايتها .

قال الزمخشري مثلا: "فَرْقُكَ بين الرُّطَب والعَجْم فرْقٌ بين العرب والعجم"، قوله أيضا: "العرب نبعٌ صُلب المعاجم، والغربُ مَثَل للأعاجم"[١]. وهذا الخوارزمي الفارسي الأصل يقول: والله لأن أُهجَى بالعربية خير لي من أن أُمدَح بالفارسية". وفى كتاب "حضارة الاسلام" للمستشرق لنمساوى جوستاف إدموند جرونباوم (Gustave Edmund Grunebaum) نقرأ شكوى ألفارو لقسيس القرطبي من شبان النصارى فى الأندلس، إذ يقول: "يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب قصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء و الفلاسفة المحمديين، لا لتفنيدها بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق. فأين نجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي درس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وأسفا! إن شباب المسيحيين، الذين هم أبرز الناس مواهبَ، يسوا على علم بأي أدب و لا أية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة. وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب. وإنك تراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا ذُكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة التفاتهم. لقد نسي المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد في الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة! بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمه شعر العرب نفسهم"[٢].

والحق أننى لا أستطيع أن أعرف السبب الذى جعل حِنّى يقلل من شأن العامل الإيماني، فى الوقت لذى نعلم ويعلم هو معنا بل قبل كثير منا أن الجندى المسلم فى تلك المعارك كان يقاتل ونصبَ عينيه لتشرف بالجهاد فى سبيل الله ونيل مكرمة الشهادة. ونصوصُ القرآن الكريم والأحاديثُ المحمدية الشريفة التى تعلى من شأن الشهداء وتصف ما ينتظرهم من أجرٍ كريمٍ كثيرةٌ يعرفها القاصى والدانى، والمسلم وغير

---

[١] الرُّطَب معروف. والعَجْم: النوى. والنَّبع: شجر صلب تتخذ منه القِسِيّ بخلاف الغَرَب، فهو رخْوٌ سريع الانكسار.

[٢] جوستاف إ. فون جرونباوم/ حضارة الإسلام/ ترجمة عبد العزيز توفيق/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ مكتبة الأسرة/ ١٩٩٧م/ ٨١– ٨٢.

المسلم. قال تعالى: "وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ"[١]، "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ"[٢]، "فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"[٣]، "لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"[٤]، "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[٥]، "وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"[٦].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأبى سعيد الخُدْري: "يا أبا سعيد، من رَضِيَ بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله! ففعل. ثم قال: وأخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله. الجهاد في سبيل الله". ومن أحاديثه صلى الله علي وسلم فى هذا الأمر: "ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله. لا يناله إلا أفضلهم"، "والذي نفسي بيده لولا أن رجالا يكرهون أن يتخلفوا بعدي ولا أجد ما أحملهم ما تخلفت. لوددت أني أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل"، "ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد. يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة"، "الشهيد يُشفع في سبعين من أهل بيته"، "من جُرِح جرحا في سبيل الله جاء يوم القيامة ريحه

---

[١] آل عمران/ ١٥٧.

[٢] آل عمران/ ١٦٩- ١٧١.

[٣] النساء/ ٧٤.

[٤] النساء/ ٩٥- ٩٦.

[٥] التوبة/ ١١١.

[٦] الحديد/ ١٩.

كريح المسك، ولونه لون الزعفران، عليه طابع الشهداء . ومن سأل الله الشهادة مخلصا أعطاه الله أجر الشهيد، وإن مات على فراشه"، "القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بماله ونفسه في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يُقتل، فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة. ورجل فرق على نفسه من الذنوب والخطايا جاهد بماله ونفسه في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يُقتل، فتلك ممصمصة محت ذنوبه وخطاياه، إن السيف مَحّاءٌ للخطايا، وأُدخِل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يُقتل، فذلك في النار. إن السيف لا يمحو النفاق"، "مَنْ جهَّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومَنْ خلفه في أهله بخيرٍ فقد غزا"، "لما أُصيب إخوانكم بأُحُدٍ جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خُضر ترِد أنهار الجنة: تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش. فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا أنّا أحياءٌ في الجنة نُرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم. قال: فأنزل الله: "ولاتحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون" . . ."، "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، أُجاهد. قال: ألك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهِدْ"، "عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن، فقال: "هل لك أحدٌ باليمن؟" فقال: أبواي. قال: أذِنا لك؟ قال: لا . قال: ارجع إليهما فاستأذنهما . فإن أذِنا لك فجاهد، وإلا فبرَّهما"، "عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم. . . فعلم ما عليه، فرجع حتى أُهريقَ دمُه، فيقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي. رجع رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى أُهريقَ دمُه" . وعن أسلم أبي عمران قال: "غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم مُلصِقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدوّ فقال الناس: مَهْ، مَهْ. لا إله إلا الله! يلقي بيديه إلى التهلكة؟ فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأظهر الإسلام. قلنا: هَلُمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: "وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" . فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونُصلحها وندَع الجهاد . قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية" .

بل إن المستشرقين والمبشرين ليخشَوْن عقيدة الشهادة كل الخشية ويعملون بكل طاقتهم لمحو أثرها فى نفوس المسلمين معرفة منهم بأنها كفيلة بنسف مشروعهم الاستعمارى، الذى يتغيا استنزاف ثروات المسلمين وتفكيك دولهم وتحويلهم إلى عبيد تكتفى بالقليل والرديء من الطعام والشراب من تبن وبرسيم وماءٍ عَكِرٍ آسِنٍ كالسوائم سواء بسواء بحيث تترك لهم الجمل بما حمل فيصنعون بالبلاد والعباد ما يشاؤون دون حسيب أو رقيب. ومن هنا نراهم قد أوعزوا فى القرن قبل الماضى لبعض عملائهم فى الهند بإنشاء دين جديد بنبى جديد ينكر الجهاد ويزعم انتسابه رغم ذلك للإسلام هو دين القاديانية. ومن هنا

أيضا نراهم يسمون الجهاد: "إرهابا" لتبغيض الناس فيه وإشعارهم بأنهم حين يتحدثون عنه أو يمارسونه إنما يأتون عملا كريها غير متحضر فيخزون ويتقمعون ولا يفكرون فى الإتيان بأى شىء ينغص على سادة العالم حياتهم أو يقلل رفاهية عيشهم. فكيف تنقلب الآية هنا، ويصر فيليب حتى على أن دور العامل الإيمانى ثانوى بالنسبة للطمع فى المغانم والنعم التى تتمتع بها أهالى البلاد المفتوحة؟

وقبل ذلك نرى حتى يتغزل بمحاسن عقيدة الإسلام وبساطتها وسلاستها وبعدها عن الألغاز والتعقيدات، فلم ينسى هذا الآن ويتعامى عن أهميته العظيمة فى جذب القلوب إلى الدين الجديد، زاعما أن العامل الإيمانى لم تكن له فى الفتوح الإسلامية نفس الثقل الذى للعوامل الاقتصادية والحربية؟ كذلك ففى كلام د. حتى عن تفوق العرب على الروم والفرس فى بعض الجوانب الحربية مبالغة بل مناقضة للواقع. وعلى العكس مما قاله نرى أنتونى ناتينج وزير الخارجية البريطانى الأسبق يؤكد أن العرب كانوا متخلفين كثيرا فى التدريب وفى السلاح عن خصومهم من الفرس والرومان، وكان اختيارهم للقادة العسكريين فى بعض الأحيان يقوم على المصادفة المحضة، وخبرتهم فى القتال لا تستند إلا إلى المعارك القبلية، بيد أنهم كانوا يعوضون هذا النقص بالشجاعة الفائقة وعنصر المباغتة[1]. وكنت أود لو أخبرنا السياسى البريطانى بالسر الذى يكمن وراء تلك الشجاعة الفائقة. لقد كان هذا السر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والتطلع إلى ما عند الله قبل أى شىء آخر. ولا يشك المستشرق الفرنسى م. ج. ج. مارسيل فى أن النجاحات المتلاحقة التى حققها أتباع محمد إنما ترجع إلى القرآن أكثر مما ترجع إلى السيوف التى كانوا يحملونها، وإن لم يبرئ القرآن رغم ذلك من العيوب[2].

والآن إذا ألقينا نظرة سريعة على عقيدة الإسلام ألفيناها تدخل القلوب فى بساطة عجيبة لأنها تخاطب العقل السليم ولا تضع أية عقبة فى طريق من يعتنقها تمنعه من بلوغ أسمق مستويات الحضارة والسعادة فى الدنيا، بل على العكس تحث الشخص بكل سبيل على بلوغ تلك المستويات. وهذه الخصائص الكريمة هى المسؤولة بالدرجة الأولى عن النجاحات المتلاحقة الفذة التى أحرزه المسلمون فى فتوحهم. فهذه العقيدة تقوم على الإيمان بالله الخالق الرازق العليم السميع البصير الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا، والذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، والحى الذى لا يموت، والقيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، والأول والآخر والظاهر والباطن، والبر الرحيم، والقدير الفعال لما يريد، والغنى عن العالمين، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. والوحدانية فى الإسلام وحدانية مطلقة صافية نقية تمام النقاء لا تشوبها شائبة تحت أى مسمى أو مسوغ: فلا ثنوية ولا تثليث ولا تعدد آلهة فى أية صورة من الصور، ولا وساطة بين العبد والرب على

---

[1] Antony Nutting, The Arabs, Mentor Book, 1965, P. 45.
[2] M. J. J. Marcel, Égypte depuis la Conquête des Arabes jusqu'à la Domination Française, Firmin Didot Frères, Paris, 1848, P. 7.

أى وضع من الأوضاع، إذ الله أقرب إلى عباده من حبل الوريد، وهو السميع البصير، فما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا.

وهو سبحانه مطلق المشيئة فلا مُعَقِّب لإرادته ولا رادَّ لمشيئته، لكنه فى ذات الوقت قد وهب الإنسان قوة وإرادة وعلما وقدرة على الإنجاز والبناء فوق ما بنى السابقون بحيث يزداد البناء فى كل مجال ارتفاعا، وأعلمه أنه محاسبه يوم القيامة على ما أعطاه من مواهب وإمكانات ووفر له من عوامل تساعده على ذلك الإنجاز، فسائله عن عمره فيم صرفه، وعن شبابه فيم أفناه، وعن ماله فيم أنفقه، وعن صحته فيم استغلها، وعن عقله فيم استعمله . . . إلخ. وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعا للمذنب فلا يؤاخذه عليها بشىء إذا أقلع عما كان يجترح من موبقات وتاب وأناب. بل إنه ليسره سرورا عظيما توبة عبده كى يغفر له ويعفو عنه. كما أنه يجزى على الحسنة بعشر أمثالها، أما السيئة فبمثلها إن حاسب عليها. وهو لا يحاسب عليها من لم يفعلها، بخلاف الحسنة، فإنه يكرم صاحبها حتى لو لم ينفذها ما دام قد فكر فيها ونوى عملها ثم قام عائق منعه من ذلك. وفوق هذا فإنه إذا لم ينفذ السيئة التى كان يعتزم اقترافها فإنه عز وجل يكتب له بها حسنة. أما المحسن فإنه متى نوى عمل حسنة فإنها تُكتب له حسنة، فإذا عملها فعلا كُتِبَتْ له عشرًا . . . وهكذا. ومن شأن هذا كله أن يدفع المسلم دفعا إلى الإكثار من الحسنات والانتهاء عن السيئات أو محاصرتها فى أضيق نطاق بحيث لا يعملها إلا مضطرا بسائق من ضعفٍ مُلجئٍ أو إكراهٍ لا يمكن تجنبه. فإذا كان غير المسلم يندفع إلى عمل ما يصلح حياته بدافع الحاجة فإن المسلم يندفع إلى ذلك بدافعين: الحاجة من جهة، والرغبة فى إحراز الجنة والنجاة من النار من جهة أخرى. كذلك فإن الحساب فردى، إذ لا يؤاخذ إنسان بجريرة غيره، كما أنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.

وثم نقطة جديرة بالوقف إزاءها هنا، إذ لا بد من التنبيه إلى أن الحسنات لا تنحصر، كما يظن بعض الناس، فى العبادات، والصلاة والصيام بوجه خاص، مثلما لا تنحصر السيئات فى الزنا وشرب الخمر والربا والغيبة والنميمة مثلا، بل تمتد الحسنات فتشمل كل شىء، بدءًا من إماطة الأذى عن الطريق والابتسام فى وجه الجار والزميل، مرورًا بالسعى فى طلب العلم والإنتاج والإبداع وإتقان العمل والسهر لحراسة الممتلكات العامة والخاصة، وانتهاءً بتقديم النفس والمال جهادا فى سبيل الله ضد أعداء الأمة والملة. وفى المقابل فإن إهمال شىء من ذلك هو سيئة سوف يحاسَب عليها مرتكبها حسابا شديدا. وبهذه الطريقة يكسب المجتمع، وتفوز الأمة فوزا عظيما.

وفوق ذلك ففى الإسلام أن الناس جميعا ينتسبون إلى آدم، وأن أصلهم كلهم هو التراب: منه جاؤوا، وإليه يعودون بعد الممات، وأنه لا فضل لأمة من الأمم على غيرها ولا لفرد من الأفراد على سواه إلا بالتقوى والعمل الصالح. يستوى فى ذلك العرب وغير العرب رغم أن العرب هم الذين حملوا الرسالة ونشروها فى العالم، وبُعِث فيهم النبى ونزل القرآن بلغتهم. ومن ثم فالإسلام لا يتسامح مع أى لون من الوان العصبية: لا العصبية القبلية ولا العصبية القومية ولا العصبية الفردية، بل الكل سواسية كأسنان المشط.

وفضلا عن هذا فأمر التقوى ليس لأحد من البشر، بل لله سبحانه وتعالى، إذ هو الذى يفصل بين العباد يوم القيامة. فإذا أخذ العُجْبُ إنسانا وظن أنه ناج يوم القيامة وأنه أفضل من غيره فلقد يكون ذلك محبطا لعلمه ومُرْدِيًا له فى النار، وهو ما من شأنه أن يعلمنا التواضع واحترام الآخرين والتماس العذر لهم.

وهذه العقيدة، ببساطتها واستقامتها ورحابتها ومنطقيتها وإنسانيتها السامقة وجمعها بين المثال والواقع فى جديلةٍ محكمةٍ، جديرةٌ بأن تكفل للفرد والجماعة اللذين يعتنقانها السعادة والفلاح، فالله سبحانه ودود لطيف كريم عفو غفور، يحب عباده ويقوم على أمرهم لا يغفل عنهم طرفة عين، ويهديهم سبل السلام والسكينة والفلاح، ويريد لهم الخير ويقبل منهم العذر، ويودهم ويستر عليهم ويأخذهم فى كنفه ويحنو على ضعفهم ويتوب عليهم متى رجعوا عن خطئهم حتى لو تكرر الخطأ من جانبهم مرارا ومرارا. وهم يستمدون منه العون والقوة والثقة والأمل، ويرجون رحمته دائما ويطمئنون إليه ويتكلون عليه، ويدعونه فيستجيب لهم، ولا يجدون من دينهم ما يخالف العقل السليم، ولا يرون فيه إلا كل ما يتسق مع الحضارة الراقية، فينصرفون إلى العمل والجد والاجتهاد والإبداع يحدوهم الأمل والثقة فى ربهم والاطمئنان إلى بره ولطفه بهم ورحمته إياهم، لا يؤودهم توتر ولا حيرة ولا خوف أو تشاؤم، منتظرين على كل ما يفعلون أجرين لا أجرا واحدا: أجر الدنيا فلاحًا وسيادة فى الأرض وعزةً وقوةً واطمئنانا واستمتاعًا بنعم الله الجزيلة، وأجر الآخرة جنة وحريرًا وظلالاً وأشجارًا تجرى من تحتها الأنهار وحورًا عينًا وإخوانا محبين لهم ومحبوبين منهم ومتنًا غير مقطوعة ولا ممنوعة ورضوانا من الله أكبر. وكل ما فى الكون قد خلقه الله لهم لينتعموا به دون أن ينتظر منهم شيئًا إزاءه لأنه غنى عن العباد. وهم ممنوعون بأمر دينهم أن يشمخوا بأنوفهم على عباد الله، إذ الناس جميعا سواسية، بل هم إخوة من ذات الأم وذات الأب يجرى فى عروقهم نفس الدماء، وكلهم من صنع الله. وهو سبحانه سائلهم يوم القيامة عما قدمت أيديهم من خير أو شر، فهم لا يعيشون سبهللا دون مسؤولية وثواب وعقاب، بل كل شىء محسوب ومسجل إلى يوم معلوم. لكن الخطأ مسموح به رغم ذلك ومتوقع منهم على أساس أنهم بشر غير كاملين وأنهم خُلِقوا ضعفاء، وكل ما يراد منهم هو أن يبذلوا جهدهم فلا يتوانوا عن هذا البذل مع الاستعانة بالله والاطمئنان إلى عنايته بهم واستجابته لدعائهم ورحمته إياهم وتجاوزه عن أخطائهم ما داموا لا يصرون عليها ولا يرتكبونها عنادا وعصيانا. والحق أن عقيدة مثل هذه هى نعم العقيدة! إنها عقيدة كاملة متكاملة، وليس هناك عقيدة تساويها، فضلا عن أن تتفوق عليها. ومن شأنها أن تجتذب النفوس والعقول والضمائر وأن يقبل الناس على اعتناقها متى استبانت لهم على حقيقتها دون تضليل أو تزوير ممن يهمهم ألا يعرف الناس الحق ويتبعوه، وما أكثرهم!

وفيما يتعلق بالحروب التى يتعين على المسلمين أن يخوضوها مع أعدائهم يقول ربنا جل شأنه: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ"[١]، "الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ

---

[١] البقرة/ ١٩٠.

وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"[١]، "وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"[٢]، "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[٣]، "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ"[٤]، "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ"[٥]، "لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[٦]، "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً"[٧].

وقال رسول الله صلى الله علي وسلم: "أيها الناس، لا تمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"، "انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول

---

[١] البقرة/ ١٩٤.

[٢] الأنفال/ ٥٨.

[٣] الأنفال/ ٦١.

[٤] التوبة/ ١ – ٧.

[٥] النحل/ ١٢٦ – ١٢٨.

[٦] الممتحنة/ ٨ – ٩.

[٧] محمد/ ٤.

الله. لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة، ولا تغلُّوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، فإن الله يحب المحسنين"، "اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله. لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"، "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية يقول: لا تقتلوا شيخا كبيرا"، "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية قال لهم: لا تقتلوا وليدا ولا امرأة". وعن عبد الله بن عباس "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيوشه قال: لا تقتلوا الولدان"، وعن رباح بن ربيع "أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها، وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فمر رباح وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها . . . حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته فانفرجوا عنها. فوقف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما كانت هذه لتقاتل. فقال لأحدهم: الحق خالدا فقل له: لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا"[١]، وعن الأسود بن سريع: "خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، فلقينا المشركين، فأسرع الناس في القتل حتى قتلوا الذرية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى قتلوا الذرية؟ ألا لا تقتلوا الذرية! ألا لا تقتلوا الذرية! فقال رجل: يا رسول الله، أوليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال: أوليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها". وبعث أبو بكر رضي الله عنه الجنودَ نحو الشام، فـ"لما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودعهم حتى بلغ ثنية الوداع، فقالوا: يا خليفة رسول الله، أتمشي، ونحن ركبان؟ فقال: إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله. ثم جعل يوصيهم فقال: أوصيكم بتقوى الله. اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه. ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تجبنوا ولا تفسدوا في الأرض ولا تعصوا ما تؤمرون. فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء الله فادعوهم إلى ثلاث خصال، فإن هم أجابوك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم: ادعوهم إلى الإسلام. فإن هم أجابوك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين، وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية. فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله. ولا تغرقن نخلا ولا تحرقنها، ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة تثمر، ولا تهدموا بيعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء. وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له".

---

[١] الذرية: الصغار. والعسيف: الأجير.

فإذا نظرنا، على سبيل المقارنة، فيما جاء في العهد القديم خاصا بالكيفية التي ينبغي أن يتعامل بها بنو إسرائيل مع الآخرين في مثل هذه الظروف وجدنا الآتي: "[١]٣١وَقَالَ الرَّبُّ لِي: انْظُرْ. قَدِ ابْتَدَأْتُ أَدْفَعُ أَمَامَكَ سِيحُونَ وَأَرْضَهُ. ابْتَدِئْ تَمَلَّكْ حَتَّى تَمْتَلِكَ أَرْضَهُ. ٣٢فَخَرَجَ سِيحُونُ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ إِلَى يَاهَصَ، ٣٣فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا، فَضَرَبْنَاهُ وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ. ٣٤وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا. ٣٥لكِنَّ الْبَهَائِمَ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا، وَغَنِيمَةَ الْمُدُنِ الَّتِي أَخَذْنَا، ٣٦مِنْ عَرُوعِيرَ الَّتِي عَلَى حَافَةِ وَادِي أَرْنُونَ وَالْمَدِينَةِ الَّتِي فِي الْوَادِي، إِلَى جِلْعَادَ، لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ قَدِ امْتَنَعَتْ عَلَيْنَا. الْجَمِيعُ دَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا"، "[٢]١«ثُمَّ تَحَوَّلْنَا وَصَعِدْنَا فِي طَرِيقِ بَاشَانَ، فَخَرَجَ عُوجُ مَلِكُ بَاشَانَ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ فِي إِذْرَعِي. ٢فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ مِنْهُ، لأَنِّي قَدْ دَفَعْتُهُ إِلَى يَدِكَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ وَأَرْضَهُ، فَتَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلْتَ بِسِيحُونَ مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ الَّذِي كَانَ سَاكِنًا فِي حَشْبُونَ. ٣فَدَفَعَ الرَّبُّ إِلهُنَا إِلَى أَيْدِينَا عُوجَ أَيْضًا مَلِكَ بَاشَانَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ، فَضَرَبْنَاهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَارِدٌ. ٤وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ. لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ لَمْ نَأْخُذْهَا مِنْهُمْ. سِتُّونَ مَدِينَةً، كُلُّ كُورَةِ أَرْجُوبَ مَمْلَكَةُ عُوجٍ فِي بَاشَانَ. ٥كُلُّ هذِهِ كَانَتْ مُدُنًا مُحَصَّنَةً بِأَسْوَارٍ شَامِخَةٍ، وَأَبْوَابٍ وَمَزَالِيجَ. سِوَى قُرَى الصَّحْرَاءِ الْكَثِيرَةِ جِدًّا. ٦فَحَرَّمْنَاهَا كَمَا فَعَلْنَا بِسِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ، مُحَرِّمِينَ كُلَّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. ٧لكِنَّ كُلَّ الْبَهَائِمِ وَغَنِيمَةِ الْمُدُنِ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا"[٢]، "[٣]١٢«إِنْ سَمِعْتَ عَنْ إِحْدَى مُدُنِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَسْكُنَ فِيهَا قَوْلاً: ١٣قَدْ خَرَجَ أُنَاسٌ بَنُو لَئِيمٍ مِنْ وَسَطِكَ وَطَوَّحُوا سُكَّانَ مَدِينَتِهِمْ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا. ١٤وَفَحَصْتَ وَفَتَّشْتَ وَسَأَلْتَ جَيِّدًا وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ وَأَكِيدٌ، قَدْ عُمِلَ ذلِكَ الرِّجْسُ فِي وَسَطِكَ، ١٥فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ١٦تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاًّ إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ. ١٧وَلاَ يَلْتَصِقْ بِيَدِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُحَرَّمِ، لِكَيْ يَرْجعَ الرَّبُّ مِنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ، وَيُعْطِيَكَ رَحْمَةً. يَرْحَمُكَ وَيُكَثِّرُكَ كَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ، ١٨إِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْفَظَ جَمِيعَ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، لِتَعْمَلَ الْحَقَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلهِكَ"[٣]، "١٠«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، ١١فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. ١٢وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. ١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ

---

[١] تثنية/ ٢.

[٢] تثنية/ ٣.

[٣] تثنية/ ١٣.

والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً: الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمرك الرب إلهك، لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم، فتخطئوا إلى الرب إلهكم. «إذا حاصرت مدينة أياماً كثيرة محارباً إياها لتأخذها، فلا تتلف شجرها بوضع فأس عليه. إنك منه تأكل. فلا تقطعه. لأنه هل شجرة الحقل إنسان حتى يذهب قدامك في الحصار؟ وأما الشجر الذي تعرف أنه ليس شجراً يؤكل منه فإياه تتلف وتقطع وتبني حصناً على المدينة التي تعمل معك حرباً حتى تسقط» . وهي، كما يرى القارئ، نصوص تشرع الاستئصال وتفتنه، بل توجيه على التوسعين بها .. وهذه النصوص ليست إلا غيضاً من فيض، إذ لا تعدو أن تكون مجرد أمثلة قليلة، وإلا فالعهد القديم يعج بالكثير من أمثالها .. والفرق الهائل واضح تمام الوضوح بين مبادئ الإسلام ومبادئ العهد القديم في التعامل مع الآخرين، وبخاصة في ميدان الحرب.

وبالمثل لو قارنا السياسة التي كان يجري عليها المسلمون في التعامل مع الآخرين بما فعله الإسبان مثلاً، بعد توقيع المعاهدة بينهم وبين بني الأحمر وانتهاء الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، من تنكيل بالمسلمين وتعذيب لهم وتضييق عليهم وتفتيش لبيوتهم وضمائرهم وتنصير قسري أو تغريق وقتل وتشريد وطرد لهم من الأندلس كما هو معروف للجميع حتى انتهى الأمر بأن لم يعد هناك مسلم واحد في تلك البلاد، لو فعلنا ذلك لاستبان لنا الحق ساطعاً يشهد للإسلام بأنه دين عجيب ليس له ضريب في السماحة والإنسانية. لقد تم تنصير المسلمين في أسبانية أو طردهم أو قتلهم، ومن نجا من هذا كله كان عليه أن يخفي دينه لا يطلع عليه أحد من الإسبان. ولكنهم بمرور الأيام انقرضوا وصار الجميع نصارى، وانطوت صفحة الإسلام والمسلمين تماماً من شبه جزيرة أيبيريا بناء على تلك السياسة الاستئصالية التي تأخذ على عاتقها تطهير البلاد من المسلمين بحيث لا يبقى منهم أحد على الإطلاق رغم أن المعاهدة بين الطرفين تنص على احترام حرية المسلمين الدينية والسياسية والوفاء بحقوقهم الاقتصادية. أما حين كانت للمسلمين السيادة في الأندلس فلم يقع منهم ضغط قط على أي شخص لتحويله إلى الإسلام، ولم يصادروا حرية أي إنسان في الإيمان بما يشاء أو يطردوه من البلاد أو يأخذوا أمواله عنوة، فضلاً عن أن يقتلوه. لقد احترم المسلمون، طبقاً لتعاليم دينهم، أديان الآخرين وتركوا لهم حرية الاعتقاد والعبادة وخلوا بينهم وبين تطبيق شريعتهم لم يتعرضوا لهم بشيء. لكن لما دارت الأيام وشالت كفتهم ورجحت كفة الطرف الآخر لم يجد المسلمون رحمة من خصومهم، بل تم استئصالهم والقضاء على دينهم وفرغت البلاد منهم بالوسائل

" سفر التثنية/ ٢٠ .

البشعة التى أومأنا إليها . ومعروف كذلك ما فعله الأوربيون فى أمريكا بالهنود الحمر والمنهاج الذى اتبعوه حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم تقريبا فلم يبق منهم إلا عدد ضئيل أشبه ما يكون بعينات المتاحف. وبذلك صفت أمريكا لهم لا ينازعهم فيها أحد رغم أنها ليست بلادهم بل بلاد الهنود الحمر المسالمين الذين غدر بهم هؤلاء الجرمون المتوحشون. وهو ما فعله الجرمون الأوربيون بحذافيره أيضا بسكان أستراليا الأصليين.

الجزية

من بين ما تناوله د. فيليب حِتّى فى كتابه عن "تاريخ العرب" موضوع الجزية وأثرها فى دخول أهل البلاد المفتوحة فى الإسلام كبغية الهرب من دفعها. وهذا كلام متهافت. ذلك أن أهل الشام ومصر مثلا كانوا يدفعون من الجزية للدولة التى كانت تحكمهم أكبر كثيرا مما يدفعونه للمسلمين، ومع ذلك لم يفكروا فى التحول إلى مذهب الدولة التى تحتل بلادهم رغم أنها كانت دولة نصرانية مثلهم، إلا أن مذهبها يخالف مذهبهم. لقد كانوا يتحملون دفع الأموال الطائلة ويتحملون معها الاضطهاد القاسى الذى تنزله تلك الدولة بهم، ولا يفكرون فى ترك مذهبهم إلى مذهب آخر فى نفس دينهم. فكيف يقال الآن إن الجزية الإسلامية كانت السبب فى أن أهل البلاد المفتوحة تحولوا إلى الإسلام، وهى أقل كثيرا من جزية الرومان، فضلا عن أن المسلمين لم يؤثر عنهم أنهم اضطهدوا أحدا لدينه؟

ولكى نوضح الفرق بين الجزية والضرائب التى كان القبطى مثلا يدفعها للدولة البيزنطية نقول إن تلك الضرائب الأخيرة وصلت إلى خمسة وعشرين نوعا فرضها البيزنطيون لتغطية حروبهم الدائمة مع الدولة الفارسية. وكانت كل الأقاليم الواقعة تحت الحكم البيزنطي في حالة من الضياع والفقر ترزح تحت ترسانة من الضرائب. وفى المقابل فإن الجزية فى الإسلام مجرد مبلغ تافه فى العام لا يعجز أحد عادة عن تدبيره. وقد حسب د. نبيل لوقا بباوى نسبة الضريبة التى كان يدفعها المصريون فى عهد البيزنطيين إلى الجزية الإسلامية فوجدها ١٠ إلى ١[١]. ليس ذلك فقط، بل من المعروف أن الجزية يُعفَى منها الطفل والمرأة والشيخ والراهب والمريض والرقيق، فى الوقت الذى لا يُعفَى نظراؤهم المسلمون من الزكاة، التى هى أكبر من الجزية، زيادة على أنها ليست نوعا واحدا بل أنواعا مختلفة ما بين صدقة واجبة وتطوعية وصدقة فطر، وصدقة لكفارة اليمين، وأخرى لكفارة الظهار، وثالثة لكفارة الفطر فى رمضان. على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ الجزية تؤخذ ممن تجب عليه لقاء إعفائه من دخول الجيش حتى لا يُجبَر على محاربة أبناء دينه، زيادة على حماية الدولة له، على حين لا تعفى الزكاة المسلم من الخدمة العسكرية.

على أن كلام حِتّى ينقض بعضه بعضا، إذ أكد أن أغلبية أهالى البلاد المفتوحة لم يسارعوا إلى اعتناق الإسلام، بل ظلوا على أديانهم لقرون وقرون. ترى لم ظلوا طوال كل هاتيك تلك المدة يدفعون الجزية إذا كانت بهذه الفداحة التى يريد تصويرها بها؟ لو كان الأمر كما يزعم لسارعوا منذ اللحظة الأولى إلى تغيير دينهم والدخول فى الدين الجديد. أليس هذا ما يقتضيه المنطق؟ ثم ماذا يقول حِتّى فى إسلام

---

[١] انظر الباب الثالث الخاص بـ"الضرائب في الدولة الاسلامية والبيزنطية" من كتاب د. نبيل لوقا بباوى: "الأقباط: هل ساعدوا المسلمين فى فتح مصر؟". وانظر كذلك عرضا للكتاب بقلم محمد فتحى فى جريدة "الأهرام" المصرية بتاريخ ٨/ ١٠/ ٢٠٠٩م عنوانه: "في كتاب جديد: حرية العقيدة وعدالة الضرائب سبب إقبال الأقباط علي الفتح الإسلامي لمصر".

أهالى الدول التى لم تكن تقع تحت حكم المسلمين، ومن ثم لم تكن حكاية الجزية واردة بتاتا فى حالتها، كإندونيسيا مثلا؟ وماذا يقول حِتّى فى دخول الغربيين الآن بأعداد كبيرة نسبيا فى الإسلام رغم أنه لم تعد هناك جزية أصلا، بل رغم أنهم يعيشون سادة فى بلادهم، بينما المسلمون مضطهدون بوجه عام فى تلك البلاد، علاوة على أن العالم الإسلامى متخلف ضعيف تستغله الدول الغربية أبشع استغلال وتفرض عليه فى علاقاتها ومعاهداتها معه الشروط المهينة المذلة، وهو مما لا يمثل معه وضعُ ذلك العالم أىّ نوع من أنواع الضغط على الغربيين يدفعهم إلى اعتناق الإسلام، بل بالعكس يمثل عامل تنفير غالبا منهم ومما يتصل بهم، وعلى رأس ذلك دينهم المظلوم معهم. وأخيرا وليس آخرا فالجزية إنما تُنفق فى المصالح العامة. أى أن فائدتها تعود على دافعيها بوصفهم من رعايا الدولة، على حين تذهب الصدقات فى مصارفها المحددة التى لا يستفيد منها مؤديها أبدا. ومن هذا كله يتبين أن ما يقوله حِتّى لا يصمد على محك النظر والتمحيص. وللأسف فإن هذه الدعوى تتردد كثيرا فى كتابات طائفة من المستشرقين والمبشرين مع معرفتهم بكل هذه الملابسات التى أوردناها آنفا.

على أن حِتّى نفسَه يقول فى موضع آخر من كتابه، عند حديثه عن طبقات المجتمع فى الدولة الإسلامية، إن الطبقة الثالثة كانت تتألف من أبناء الديانات الأخرى من نصارى ويهود وصابئة، أى من أهل الذمة، وإنه مما لا يقبل الشك أن اعتراف المسلمين بكيان هؤلاء الناس بعد أن اشترط أن يلقوا السلاح ويؤدوا الجزية لقاء تمتعهم بالحماية الإسلامية كان أعظم ما أتى به الدين الجديد من تجديد فى الناحية السياسية، وإن حاول حِتّى فى ذات الوقت أن يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى ما يقول إن الرسول كان يكنه للكتاب المقدس من احترام، مع أن القرآن الكريم قد اتهم أهل الكتاب بالعبث بكتابهم وإفساد دينهم، فأى احترام إذن يتحدث عنه حِتّى؟ إن كان المقصود التوراة والإنجيل الأصليين فأين التوراة والإنجيل الأصليان؟ وإن كان المقصود التوراة والإنجيل اللذين فى أيدى الناس الآن فرأىُ الإسلام فيهما وفى أصحابهما معروف. إن الاحترام معناه، فى أقل تقدير، الموافقة على ما يقول الطرف الآخر ومباركته، فكيف يكون هذا فى الوقت الذى يختلف فيه الدينان اختلافا شديدا حول الصَّلب والتثليث من جهة، ونبوة محمد من جهة أخرى؟ ذلك أن الصَّلب والتثليث مرفوضان فى الإسلام، مثلما يرفض النصارى نبوة محمد عليه السلام. ولا ينبغى أن يكون هذا بابا إلى العداوة والكراهية من قِبَل أى من الطرفين تجاه الطرف الآخر، فالاختلاف بين الأديان فى واقع الحياة أمر طبيعى، وكل وما يعتقد، وليس من حق أحد أن يُكره أحدا على الإيمان بما يعتنقه هو. والإسلام يعطى أهل الكتاب وغيرهم الحق الكامل فى الاعتقاد بما يحبون أن يدينوا به مهما كان اختلافه مع كتاب الله وحديث رسول الله، ولا يصح أن يضيّق عليهم المسلمون فى

شيء أبدا. وقد أقر حتى إقرارا بالحرية التامة التى كان أهل الذمة يتمتعون بها فى تأدية شعائر دينهم وفى الاحتكام إلى شريعتهم ورؤساء طوائفهم فى ظل الدولة الإسلامية[١].

ولنطالع معا مادة "جزية" فى "الموسوعة العربية العالمية"، التى تقول: "الجزية مبالغ مالية تؤخذ من أهل الذمة لبيت مال المسلمين، وهي الخراج المجعول عليهم. والجزية على وزن "فِعْلة"، من "جَزَى يَجْزِي" إذا كافأ عما أُسْدِيَ إليه. فكأنها أُعطِيت جزاء ما مُنِحوا من الأمن بحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وعدم إيذائهم ما أَوْفَوا بعهدهم ولم ينكثوه. تؤخذ الجزية بموجب عقد يُبْرَم لتأمين من أجاب المسلمين إلى دفعها من الكفار وتعهّد لهم بالتزام أحكام الشريعة الإسلامية في الحدود . . . أما الذين تؤخذ منهم الجزية فهم أهل القتال. فأمّا الزَمِن[٢] والأعمى والمفلوج[٣] والشيخ الفاني والنساء والصبيان، والراهب الذي لا يخالط النساء فلا تؤخذ منهم. مقدارها الواجب دفعه أربعة دنانير من الذهب، أو ٤٠ درهمًا من الفضة، ولإمام المسلمين أن يجتهد في ذلك. أما زمن إخراجها فإنها تجب بحلول الحول على عقد الذمة المبرم. وتسقط الجزية عن الذمّي إن أسلم أو مات. والجزية تؤول لبيت مال المسلمين، وتصرف في مصالح الدولة العامة حسب تقدير الإمام لذلك".

على أن هناك من يقدرها بأقل من أربعة دنانير: ففى كل من كتاب "تاريخ ابن البطريق" وكتاب "فتح العرب لمصر" لألفرد بتلر أن الجزية على من يدفعها من المصريين كانت دينارين[٤]. وفى "فقه السنة" للسيد سابق أن النبى فرض على أهل اليمن دينارا واحدا، لكن عمر زادها على أهل الشام إلى أربعة لأنهم أقدر من اليمانيين. والعبرة، كما نقل عن مالك، ألا يكلف أحد فوق طاقته[٥]. ونقرأ فى مادة "Djizyah" بالطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" أن الجزية لا تفرض إلا على الذكر الحر البالغ القادر القوى، فلا تجب على الصغار ولا الشيوخ ولا النساء ولا العجزة ولا الرقيق ولا الشحاذين ولا المرضى ولا المجانين. بل لا تجب على الغرباء إلا إذا أقاموا فى البلاد إقامة دائمة. كما تُعفى أهل المناطق الحدودية منها لدى اشتراكهم فى حرب الأعداء حتى لو لم يكونوا مسلمين:

"A certain number of rules formulated during the 'Abbasid period appear to be generally valid from that time onwards. Djizya is only levied

---

[١] ص٨١– ٨٢.

[٢] أى المبتلى بمرض مستديم.

[٣] وهو المصاب بشلل نصفى.

[٤] أنظر ابن البطريق/ تاريخ ابن البطريق/ النص العربى مع ترجمة لاتينية/ ١٦٥٨م/ ٢/ ٣١٠، ٣١٨، ود. ألفريد ج. بتلر/ فتح العرب لمصر/ ترجمة محمد فريد أبو حديد/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ مكتبة الأسرة/ ١٩٩٩م/ ٣٩٣، ٣٩٤.

[٥] السيد سابق/ فقه السنة/ دار الكتاب العربى/ بيروت/ ١٣٨٩هـ– ١٩٦٩م/ ٢/ ٦٦٧.

on those who are/ male, adult, free, capable and able-bodied, so that children, old men, women, invalids, slaves, beggars, the sick and the mentally deranged are excluded. Foreigners are exempt from it on condition that they do not settle permanently in the country. Inhabitants of frontier districts who at certain times could be enrolled in military expeditions even if not Muslim (Mardaites, Armenians, etc.), were released from djizya for the year in question".

وقد سبق أن قرأنا ما قاله فيليب حِتِّى من أن الشاميين والمصريين، لكونهم أقرباء فى الدم للعرب[١]، قد رحبوا بالفاتحين الجدد. وهذه قضية على درجة شديدة من الأهمية، إذ ينتشر الآن فى بلادنا المحروسة

---

[١] إذا كان الشيء بالشيء يُذكَر فللباحث الآثارى أحمد عيد دراسة تستند إلى النقوش والمخطوطات وأسماء الأماكن فى بلاد العرب، واليمن على وجه التحديد، مع المقارنة بما جاء فى العهد القديم، عنوانها: "جغرافية التوراة فى جزيرة الفراعنة" (مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر/ القاهرة/ ١٩٩٦م). وفيها يحاول المؤلف من خلال النقوش الفرعونية إثبات أن أصل الفراعنة هم العماليق، الذين نزحوا من اليمن إلى شمال الجزيرة ثم إلى مصر فى هجرة عادية لا دخل للحروب أو الغزوات بها، وأنهم نقلوا معهم معتقداتهم وأسماء المواضع التى كانوا يسكنونها فى بلادهم الأولى. ويقول د. أحمد الصاوى مقدم الكتاب إن ما يطرحه المؤلف فى هذه الدراسة يتفق جزئيا والكثير من الكتابات العلمية التى تشير إلى وجود صلات واضحة بين الحضارة المصرية القديمة وبلاد العرب. وقدأقر مكرم عبيد بعروبة مصر والمصريين من قبل أن تكون هناك جامعة للدول العربية فى منتصف الأربعينات، إذ كتب فى مقال له عنوانه: "المصريون عرب" منشور بعدد إبريل ١٩٣٩م من مجلة "الهلال": "المصريون عرب، وتاريخ العرب سلسلة متصلة الحلقات. لا بل هو شبكة محكمة العقد. ورابطة اللغة والثقافة العربية والتسامح الديني هي الوشائج التي لم تفضها الحدود الجغرافية، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا، على الرغم من وسائلها التي تتذرع بها إلى قطع العلاقات بين الأقطار العربية واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية، التي لا ريب في أنها أعظم الأركان التي يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة في الشرق العربي. وأبناء العروبة في حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبني حضارة زاهرة. نحن عرب، ويجب أن نذكر في هذا العصر دائمًا أننا عرب. وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان. نحن عرب من هذه الناحية، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية في مصر وامتداد أصلنا السامي القديم إلى الأصل السامي الذي هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية. فالوحدة العربية حقيقية قائمة موجودة لكنها في حاجة إلى تنظيم، فتصير كتلة واحدة، وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة". فكما هو واضح يؤكد عبيد الأصل السامى للمصريين، وكذلك

بين قطاع من شركاء الوطن القول بأن المصريين لم يرحبوا بالفتح الإسلامى عند مجىء عمرو بن العاص إلى بلادهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال الأب بيجول باسيلى، الذى ألف كتيبا بعنوان "هل رحب الأقباط بالفتح العربى؟" زعم فيه أن الأقباط لم يرحبوا قط بالمسلمين حين فتحوا بلادهم. والكتاب متاح على المشباك لمن يريده. والحق أن الأقباط قد رحبوا بابن العاص رضى الله عنه ترحيبا كثيرا لأنه أنقذهم من رزايا ثقيلة فادحة، إلا أن اختلاف الليل والنهار يُنسِى. وإلى القارئ شهادات المؤرخين غير المسلمين:

فمثلا لدن تناول سعيد بن البطريق فى "تاريخه" لوقائع فتح العرب لمصر نجده يذكر وقوف المصريين إلى جانب الفاتحين ضد الرومان موردا تأكيد المقوقس لعمرو بن العاص أن المصريين مقيمون على الصلح الذى تم بينهم وبينه وأنهم سوف يصلحون للعرب الجسور والطرق. ثم يعقب على هذا بأن المصريين صاروا أعوانا للمسلمين ووقفوا معهم فى قتال الروم[1]. وبالمثل يتحدث ساويرس بن المقفع فى كتابه: "تاريخ البطاركة" عن تلك الفترة[2] فيصف هرقل بـ"الكافر"، معددا بعض الاضطهادات البشعة التى أنزلها الرومان بالمصريين من مثل قلع الأسنان والحرق بالمشاعل والتغريق فى نهر النيل فى زكائب مغفولة مثقلة، ومعللا سبب انهزامهم أمام المسلمين بخياناتهم وظلمهم وجبروتهم. وكان قد ألمح إلى الدين الجديد الذى جاء به نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه، فى الوقت الذى أصلى فيه الرومانَ نارا شاوية جراء ما لحق المصريين على أيديهم من التضييق والتعذيب. ثم يتطرق إلى دخول عمرو بن العاص مصر وإعادته الراهب بنيامين، الذى كان مختفيا من وجه الرومان فى البرية هربا من عذابهم الذى لا يحتمل، وبذله الأمان له وللرهبان وللأمة جميعها واستقباله وإكرامه إياه، وكيف كان هذا الحدث عيدا لجميع المصريين، إذ بدأ عهد مختلف على المصريين مارسوا فيه حريتهم الدينية دون أن يتعرض لهم أحد بأذى أو اضطهاد بسبب العقيدة أو المذهب[3]. وذلك كله بفضل عمرو بعد فضل الله سبحانه وتعالى.

وتحت عنوان "نياحة البابا بنيامين الأول الـ٣٨ (٨ طوبة)" يقول كتاب السنكسار الخاص بالكنيسة الأرثوذكسية: "فى مثل هذا اليوم من سنة ٦٥٦م تنيح الأب المغبوط القديس الأنبا بنيامين بابا الإسكندرية

اندماجهم مع الساميين العرب الذين هاجروا إلى مصر قبل ظهور الإسلام. وقد تناول المقريزى موضوع الهجرات العربية القديمة إلى مصر فى كتابه: "الإعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب".

[1] تاريخ ابن البطريق/ ٢/ ٣١٢- ٣١٣.

[2] ساويرس بن المقفع/ تاريخ البطاركة (تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادى حتى نهاية القرن العشرين من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع/ إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين)/ مكتبة مدبولى/ ٢٠٠٦م/ ١/ ٥٧٥ فصاعدا

الثامن والثلاثون. وهذا الأب كان من البحيرة من بلدة برشوط، وكان أبواه غنيين. وقد ترهّب عند شيخ قديس يسمى: ثاؤنا بدير القديس قنوبوس بجوار الإسكندرية. وكان ينمو في الفضيلة، وحفظ كتب الكنيسة حتى بلغ درجة الكمال المسيحي. وذات ليلة سمع في رؤيا الليل من يقول له: افرح يا بنيامين، فإنك سترعى قطيع المسيح. ولما أخبر أباه بالرؤيا قال له إن الشيطان يريد ان يعرقلك، فإياك والكبرياء. فازداد في الفضيلة، ثم أخذه معه أبوه الروحاني إلى البابا أندرونيكوس وأعلمه بالرؤيا، فرسَمه الأب البطريرك قسًا وسلمه أمور الكنيسة، فأحسن التدبير. ولما اختير للبطريركية حلت عليه شدائد كثيرة. وكان ملاك الرب قد كشف له عما سيلحق الكنيسة من الشدائد، وأمره بالهرب هو وأساقفته. فأقام الأنبا بنيامين قداسا وناول الشعب من الأسرار الإلهية، وأوصاهم بالثبات علي عقيدة آبائهم وأعلمهم بما سيكون. ثم كتب منشورا إلى سائر الأساقفة ورؤساء الأديرة بأن يختفوا حتى تزول هذه المحنة. أما هو فمضى إلى برية القديس مقاريوس ثم إلى الصعيد. وحدث بعد خروج الأب البطريرك من الكنيسة أن وصل إليها المقوقس الخلقدوني متقلدا زمام الولاية والبطريركية علي الديار المصرية من قِبَل هِرَقل الملك فوضع يده علي الكنائس، واضطهد المؤمنين وقبض على مينا أخ القديس بنيامين وعذبه كثيرا وأحرق جنبيه ثم أماته غرقا. وبعد قليل وصل عمرو بن العاص إلى أرض مصر وغزا البلاد وأقام بها ثلاث سنين. وفي سنة ٣٦٠ للشهداء ذهب إلى الإسكندرية واستولى على حصنها. وحدث شغب، واضطرب الأمن، وانتهز الفرصة كثير من الأشرار فأحرقوا الكنائس، ومن بينها كنيسة القديس مرقس القائمة على شاطئ البحر، وكذلك الكنائس والأديرة التي حولها ونهبوا كل ما فيها... أما عمرو بن العاص فإذ علم باختفاء البابا بنيامين أرسل كتابا إلى سائر البلاد المصرية يقول فيه: الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلام، فليحضر آمنا مطمئنا ليدبر شعبه وكنائسه. فحضر الأنبا بنيامين بعد أن قضى ثلاثة عشرة (!) سنة هاربا، وأكرمه عمرو بن العاص إكراما زائدا، وأمر أن يتسلم كنائسه وأملاكها".

وهذا إدوارد جيبون المؤرخ البريطاني المعروف يقول عن ترحيب المصريين: شعبًا وقادةً ورجال دين بعمرو بن العاص محرّرهم من الذل والاستعباد والاضطهاد والاستغلال بكل أنواعه، وانقلابهم على الرومان مضطهديهم ومستغليهم ومعذبيهم ومحتقريهم، وبغضهم لهم رغم اتفاقهم معهم فى الدين، ورضاهم بأن يدفع القادرون منهم للفاتحين الجدد دينارين فى العام يُعْفَى منهما الرهبان والنساء والصغار والشيوخ، بالإضافة إلى تضييفهم للمسلمين ثلاثة أيام حين يمرون بهم، وسعادتهم برجوع الراهب بنيامين من مخبئه فى الصحراء:

"The Arabs, after a glorious and profitable enterprise, must have retreated to the desert, had they not found a powerful alliance in the heart of the country. The rapid conquest of Alexander was assisted by the superstition and revolt of the natives: they abhorred their Persian oppressors, the disciples of the Magi, who had burnt the temples of Egypt, and feasted with sacrilegious appetite on the flesh of the god Apis. After a period of ten centuries, the same revolution was renewed by a similar cause; and in the support of an incomprehensible creed, the zeal of the Coptic Christians was equally ardent. I have already explained the origin and progress of the Monophysite controversy, and the persecution of the emperors, which

converted a sect into a nation, and alienated Egypt from their religion and government. The Saracens were received as the deliverers of the Jacobite church; and a secret and effectual treaty was opened during the siege of Memphis between a victorious army and a people of slaves. A rich and noble Egyptian, of the name of Mokawkas, had dissembled his faith to obtain the administration of his province: in the disorders of the Persian war he aspired to independence: the embassy of Mahomet ranked him among princes; but he declined, with rich gifts and ambiguous compliments, the proposal of a new religion. The abuse of his trust exposed him to the resentment of Heraclius: his submission was delayed by arrogance and fear; and his conscience was prompted by interest to throw himself on the favor of the nation and the support of the Saracens. In his first conference with Amrou, he heard without indignation the usual option of the Koran, the tribute, or the sword. "The Greeks," replied Mokawkas, "are determined to abide the determination of the sword; but with the Greeks I desire no communion, either in this world or in the next, and I abjure forever the Byzantine tyrant, his synod of Chalcedon, and his Melchite slaves. For myself and my brethren, we are resolved to live and die in the profession of the gospel and unity of Christ. It is impossible for us to embrace the revelations of your prophet; but we are desirous of peace, and cheerfully submit to pay tribute and obedience to his temporal successors." The tribute was ascertained at two pieces of gold for the head of every Christian; but old men, monks, women, and children, of both sexes, under sixteen years of age, were exempted from this personal assessment: the Copts above and below Memphis swore allegiance to the caliph, and promised a hospitable entertainment of three days to every Mussulman who should travel through their country. By this charter of security, the ecclesiastical and civil tyranny of the Melchites was destroyed: the anathemas of St. Cyril were thundered from every pulpit; and the sacred edifices, with the patrimony of the church, were restored to the national communion of the Jacobites, who enjoyed without moderation the moment of triumph and revenge. At the pressing summons of Amrou, their patriarch Benjamin emerged from his desert; and after the first interview, the courteous Arab affected to declare that he had never conversed with a Christian priest of more innocent manners and a more venerable aspect. In the march from Memphis to Alexandria, the lieutenant of Omar intrusted his safety to the zeal and gratitude of the Egyptians: the roads and bridges were diligently repaired; and in every step of his progress, he could depend on a constant supply of provisions and intelligence. The Greeks of Egypt, whose numbers could scarcely equal a tenth of the natives, were overwhelmed by the universal defection: they had ever been hated, they were no longer feared: the magistrate fled from his tribunal, the bishop from his altar; and the distant garrisons were surprised or starved by the surrounding multitudes. Had not the Nile afforded a safe and ready conveyance to the sea, not an individual could have escaped, who by birth, or language, or office, or religion, was connected with their odious name".

ولدينا أيضا جوستاف لوبون، المستشرق الفرنسي الذى استوقف نظره ما أبداه حَفَدةُ قدماء المصريين حين رآهم يقاومون نفوذ الأغارقة والرومان، ثم يعتنقون دين العرب ولغة العرب وحضارة العرب والذين صاروا عربا خالصى العروبة حتى لقد توارت أمام حضارة أتباع النبى الجديدة حضارةُ الفراعنه القديمة وحضارةُ اليونان والرومان، التى كانت قد غطت الحضارةَ الفرعونية فى بعض المدن، فكتب قائلا إن مصر، التى أكلتها الانقسامات الدينية ونهكتها مظالم الحكام، كانت تحقد أشد الحقد على سادتها الكثيين، وكانت تَعُدّ من يحررونها من أيدى قياصرة القسطنطينية منقذين، فحُفِظ هذا الشأن للعرب، الذين سرعان ما تشرب المصريون حضارتهم بعدما استعصوا على التغير طوال القرون التى تناوب احتلال

لادهم اليونانُ والرومانُ والفرسُ. وقد وقف لوبون منبهرا إزاء سياسة عمرو بن العاص وعدله وإنصافه وحكمته وحذقه وتسامحه وتركه أهل البلاد يمارسون شعائر دينهم بكل حرية دون أن يتعرض لشيء من عاداتهم أو تقاليدهم أو نظمهم، اللهم إلا عادتهم الهمجية فى إلقاء عروس حية فى النيل استجلابا لفيضانه، فضلا عن سماحه لهم ببناء كنائس فى الفسطاط ذاتها، وكل ذلك لقاء مبلغ زهيد من المال يساوى خمسة عشر فرنكا عن كل شخص (قادر على دفع الجزية)، وهو ما تقبله المصريون بالرضا والشكر، على عكس الرومان، الذين لم يستسلموا إلا بعد معارك حامية. وزاد لوبون فنفى عن المسلمين أسطورة إحراق المكتبة الإسكندرية متهما النصارى بأنهم هم الذين قاموا بها مثلما هدموا تماثيل الفراعنة. أما العرب فإن أخلاقهم، حسبما قال، تأبى هذا السلوك الهمجى الذى انتهى العلماء من إزالة وَصْمَته عنهم تماما بما لا يحتاج إلى مزيد.

وكعادتنا فى وضع النصوص الأصلية بين يدى القارئ بين الحين والحين كلما كان ذلك فى مكنتنا ها نحن أولاء نسوق النص التالى من كتاب لوبون فى أصله الفرنسى:

"Ce pays est un de ceux où ils ont séjourné le plus longtemps, fondé un de leurs plus importants empires et où leur influence a été la plus considérable. Rien n'est plus frappant que de voir ces descendants des antiques Egyptiens, qui avaient résisté à l'influence, si puissante pourtant des Grecs et des Romains, adopter la civilisation, la religion, la langue de leurs envahisseurs, au point de devenir complètement Arabes. En Perse et dans l'Inde, la civilisation arabe s'était mélangée à la civilisation ancienne, mais sans la détruire ; en Egypte, l'antique civilisation des Pharaons, de même que celle des Grecs et des Romains superposée à elle dans un petit nombre de villes disparut entièrement devant la nouvelle civilisation créée par les disciples du prophète…

Ensanglantée chaque jour par les dissensions religieuses, ruinée par les exactions des gouverneurs, l'Egypte professait une haine profonde pour ses tristes maîtres, et devait recevoir comme libérateurs ceux qui l'arracheraient aux mains des empereurs de Constantinople. C'est aux Arabes que fut réservé ce rôle…

Ce fut l'an 18 de l'hégire (639 de J.-C.) qu'Amrou, lieutenant du khalife Omar, pénétra en Egypte. Nous avons dit déjà combien sa conduite envers la population envahie fut habile. Laissant aux Egyptiens leur religion, leurs lois, leurs usages, il ne leur demanda en échange de la paix et de la protection qu'il leur assurait, que le paiement régulier d'un tribut annuel de 15 francs par tête. Ces conditions furent acceptées avec empressement. Il n'y eut qu'une partie de la population composée de Grecs, c'est-à-dire les soldats, les fonctionnaires et le clergé, qui refusa de se soumettre aux envahisseurs. Réfugiés à Alexandrie, ils y soutinrent un siège de quatorze mois qui coûta la vie à vingt-trois mille Arabes.

Malgré ces pertes importantes, Amrou se montra très indulgent pour les habitants de la grande cité ; il leur épargna tout acte de violence et ne chercha qu'à se concilier leur affection, en recevant toutes leurs réclamations et tâchant d'y faire droit. Il fit réparer les digues et les canaux et consacra des sommes importantes aux grands travaux publics. Quant au prétendu incendie de la bibliothèque d'Alexandrie, un tel vandalisme était tellement contraire aux habitudes des Arabes, qu'on peut se demander comment une pareille légende a pu être acceptée pendant si longtemps par des écrivains sérieux. Elle a été trop bien réfutée à notre époque, pour qu'il soit nécessaire d'y revenir. Rien n'a été plus facile que de prouver, par des citations forts claires, que, bien avant les Arabes, les chrétiens avaient

détruit les livres païens d'Alexandrie avec autant de soin qu'ils avaient renversé les statues, et que par conséquent il ne restait plus rien à brûler…

L'organisation qu'Amrou donna au pays qu'il venait de conquérir indiquait chez lui un esprit très sage. La population agricole fut traitée avec une équité qu'elle ne connaissait pas depuis longtemps. Il établit des tribunaux réguliers et permanents et des cours d'appel, mais ces tribunaux ne pouvaient juger que les musulmans. Si une des parties était un Egyptien, les autorités coptes avaient le droit d'intervenir. Il respecta les lois, les usages, les croyances des indigènes et n'interdit que la coutume qui voulait que, chaque année, une jeune et belle vierge fut enlevée de force à ses parents, et précipitée dans le Nil pour obtenir du dieu du fleuve une élévation suffisante des eaux au moment de l'inondation. La jeune fille fut remplacée par un mannequin de terre, appelé la fiancée, qu'on précipite encore aujourd'hui dans le fleuve au jour fixé pour la cérémonie. Cet usage, vieux peut-être de plus de soixante siècles, est un indice certain de l'existence de sacrifices humains dans la primitive religion égyptienne"[1].

وهذا نفسه هو ما نجده فى كتاب المستشرق البريطانى ستانلى لين بول: " A History of "Egypt in the Middle Ages"، إذ نقرأ فيه ما نصُّه: " There is very little evidence, however, to show that they were grossly ill-treated. 'Amr, the conqueror, received an embassy of monks, who asked for a charter of their liberties and the restoration of their patriarch Benjamin; he granted the charter and invited Muslims naturally favoured their allies of the exiled patriarch to return. The the national or Jacobite church, rather than the orthodox church of The governor Constantinople, which was still represented in Egypt. ."Maslama allowed the Copts to build a church behind the bridge at Fustat

كما نقرأ، عن ثمار السخط لدى المصريين جراء ظلم الرومان لهم واضطهادهم إياهم، ما يلى: " This wide-spread disaffection contributed to the easy triumph of the Arabs. It was first seen in the taking of Pelusium, when the patriarch, called by the Arabs 'Abu-Myamīn' (possibly meaning the banished Jacobite patriarch Benjamin), ."advised the Copts to support the invaders

وفى كتابها: "تاريخ الأمة القبطية وكنيستها" تصور مسز بُتْشَر تصويرًا حيًّا رغم إيجازه قدوم وفد من الرهبان حفاةً إلى عمرو بن العاص من دير وادى النطرون يريدون مقابلة ذلك الفاتح العظيم بغية التفاوض معه على تسليم البلاد للمسلمين لقاء التمتع بالحرية الدينية والشخصية وإعادة بطريقهم الأب بنيامين من منفاه الصحراوى إلى الإسكندرية بعدما قضى ابن العاص على سلطة الرومان فى مصر وخلص الأقباط من الظلم والاستعباد،، وهو ما تم على النحو الذى اتفق الطرفان عليه، وإن كان من الواضح الذى لا يمكن أن تخطئه العين بحال أن الكاتبة تتميز غيظا مما حدث، إذ كانت تفضل أن تحتل قوة أوربية البلاد المصرية على أن يفتحها المسلمون ويخلصوا أهلها من نير الاستعباد والاضطهاد والاستغلال[2].

---

[1] وانظر كذلك ترجمة عادل زعيتر للكتاب بعنوان "حضارة العرب"/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ سلسلة مكتبة الأسرة/ ٢٠٠٠م/ ٢٠٣- ٢١٩.

[2] انظر إ. ل. بتشر/ تاريخ الأمة القبطية وكنيستها/ ترجمة إسكندر تادرس/ مطبعة مصر/ ١٩٠١م/ ١٤٨- ١٤٩.

وبالمثل يؤكد يعقوب نخلة روفيلة صاحب كتاب "تاريخ الأمة القبطية" ترحيب المصريين بالعرب عند فتحهم لبلادهم وتعاونهم معهم فى حربهم ضد الرومان وإرشادهم إياهم إلى عوراتهم ومقاتلهم. وسوف أجتزئ بما قاله خلال تعرضه للحديث عن بناء الفسطاط من أنه "لما شرع عمرو فى بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين على عمارتها، ولا سيما رجال الحكومة، الذين كان معظمهم إن لم نقل: كلهم من الأقباط، فشيدوا بها القصور العالية والدور الرحبة والكنائس والديارات الواسعة والمتنزهات والبساتين النضرة. وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران. وهكذا أصبحت الفسطاط، بهمة الأقباط الذين بذلوا النفس والنفيس فى تشييدها، مدينة زاهية زاهرة تحاكى فى البهجة والرونق مدينة منف القديمة، التى شيدتها أيدى الملوك الفراعنة. وفى هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب فى ذلك الزمن حتى أباحوا لهم بناءَ كنائسَ ومعابدَ متعددةٍ فى وسط الفسطاط التى هى مقر جيش الإسلام، على حين أن المسلمين كانوا يصلون ويخطبون فى الخلاء أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد، الذى بناه عمرو بن العاص"[1].

وعن هذه الفترة أيضا من تاريخ مصر يؤكد إسكندر صيفى فى كتابه: "المنارة التاريخية فى مصر الوثنية والمسيحية" أن أهل مصر ناصروا عمرو بن العاص ضد الروم أبناء دينهم لما لاقوْه على أيديهم من الاضطهادات المذهبية ولما وفره لهم ذلك الفاتح العظيم من حرية دينية لم يكونوا يحلمون بها[2]. وذكر الكاتب من بين الاختلافات المذهبية بين الرومان والمصريين إيمان الأخيرين بأن المسيح لم يُصْلَب بل شُبِّه لليهود ليس إلا[3]. كما ذكر أن بطريق الإسكندرية فى عهد هرقل، واسمه تيودوروس، كان ممن يعتقدون بأن المسيح لم يُصْلَب بل شُبِّه لهم[4].

ويؤكد جرجى زيدان أن القبط كانوا، بسبب الظلم والضطهاد الواقعَيْن عليهم من قِبَل البيزنطيين، عونا للمسلمين على فتح مصر. كما يشير، ضمن أسباب أخرى أدت إلى نجاح الفتوح الإسلامية وترحيب البلاد المفتوحة بالعرب، إلى انقسام الفرس والروم فيما بينهم، وانحطاط الحياة الاجتماعية فى بلادهم، واشتعال الشحناء بينهم وبين أهل البلاد الأصليين، وخصوصا فى مصر حيث قاسى الأقباط مثلا سلطة الأجانب من فُرْس فإغريق فرومان أجيالا متطاولة فهان عليهم لهذا السبب الانتقال من سلطان إلى سلطان فرارا من الظلم والضغط. ومثلهم أهل الشام، الذين كان حظهم بنفس السوء، وكانوا يائسين من الاستقلال

---

[1] يعقوب نخلة روفيلة/ تاريخ الأمة القبطية/ ط٢/ تقديم د. جودت جبرة/ مطبعة متروبول/ ٢٠٠٠م/ ٥٠ وما بعدها.

[2] انظر إسكندر صيفى/ المنارة التاريخية فى مصر الوثنية والمسيحية/ المطبعة العصرية/ ٢٠٥- ٢٠٦.

[3] انظر ١٨٨- ١٨٩ من المرجع السابق.

[4] المرجع السابق/ ٢٠١.

مثلهم، فلم يهمهم أيضا أن يكون حاكمهم روميا أو عربيا. وربما فضلوا العرب على الرومان لأنهم أقرب إليهم لغة ونسبا وأخلاقا، فضلا عن أن الإنسان يتوسم الخير فى القادم المجهول أكثر مما يتوسمه فى الحاضر المعلوم، وبخاصة إذا كان الفرق بينهما ظاهرا كالفرق بين الروم والعرب: فالروم منحطون فاسدو الأخلاق والآداب، بخلاف العرب، الذين كانوا أوانئذ فى دور نموهم وفى إبان نهضتهم، وكان العدل والمساواة شرعتهم، إضافة إلى ما كان بين أهل هذين القطرين وبين حكامهم الرومان من الانقسامات الدينية. ونفس ما قاله عن النصارى فى البلاد المفتوحة يقال عن اليهود[١]. وهو يطرق هذا المعنى فى كتابه: "تاريخ مصر الحديث" إذ يقول ما نصه: "أما القبط فكانوا أعوانا للمسلمين فى كثير من احتياجاتهم حسب أمر المقوقس"[٢]. وفى روايته: "أرمانوسة المصرية" كذلك يهتم بإبراز ترحيب الأقباط بالفاتحين المسلمين.

وها هو ذا أيضا جواهرلال نهرو رئيس وزراء الهند الأسبق يؤكد فى إحدى رسائله لابنته أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند السُّبْقَى، تلك الرسائل التى جُمِعَتْ بعد ذلك فى كتاب سُمِّىَ بـ "Glimpses of World History"، أن العرب "كثيرا ما ربحوا الحرب دون قتال. . . وقد سَلَمَتْ لهم مصرُ بسهولة لأنها قد قاست كثيرا من استبداد الإمبراطورية الرومانية من الحروب الطائفية". وعَرَّج نهرو على أسطورة حرق العربِ لمكتبة الإسكندرية فنفاها نفيا حاسما: "وقد أُشِيع أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية، ولكن المعتقد الآن أن هذا مَحْض اختلاق، إذ إن للكتب عند العرب احتراما كبيرا يمنعهم أن يسلكوا هذا المسلك البربرى. ويحتمل أن يكون الإمبراطور ثيودوسيوس، إمبراطور القسطنطينية الذى حدثتكِ عنه، هو المسؤول عن هذا الخراب أو جزءٍ منه لأنه لم يكن راضيا عن الكتب الوثنية الإغريقية القديمة التى كانت تتضمن الأساطيرَ والفلسفةَ اليونانيةَ القديمة. وقد أُحْرِقَ جزءٌ من المكتبة قبل ذلك بزمن طويل إِبَانَ حصار يوليوس قيصر للإسكندرية". وفى نهاية الرسالة يقول إن "العرب كانوا فى بداية يقظتهم متقدين حماسا لعقيدتهم، وإنهم كانوا مع ذلك قوما متسامحين لأن دينهم يأمر فى مواضع عديدة بالتسامح والصفح. وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس. أما مسلمو أسبانيا فإنهم تركوا للجالية المسيحية الكبيرة هناك حرية العبادة التامة. وكانت صلات المسلمين مع الهند، التى لم يحكموا منها إلا السِّنْد، صلات ودية. والواقع أن أبرز ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الفرق الشاسع بين تسامح العرب المسلمين وتعصب النصارى الأوربيين"[٣].

---

[١] انظر جرجى زيدان/ تاريخ التمدن الإسلامى/ منشورات مكتبة الحياة/ بيروت/ ١/ ٤٧، ٧٣- ٧٤.

[٢] جرجى زيدان/ تاريخ مصر الحديث مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم/ مكتبة مدبولى/ ١٩٩٩م/ ٨٦.

[٣] جواهرلال نهرو/ لمحات من تاريخ العالم/ ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين/ ط٢/ المكتب التجارى/ بيروت/ ١٩٥٧م/ ٢٧- ٢٨، ٣١.

ولدانيال رُوبْس، الروائى وأستاذ التاريخ وعضو الأكاديمية الفرنسية، كتاب ضخم من أربعة عشر مجلدا بعنوان "Histoire de l'Église" تحدث فى المجلد الثالث منه عن الفتوح الإسلامية مؤكدا أن طوائف من أهل البلاد التى فتحها العرب قد تحالفت معهم ضد اضطهادات هرقل إمبراطور بيزنطة. ومن هؤلاء البطريق القبطى بنيامين، الذى أعاده عمرو بن العاص من مخبئه فى الصحراء، فعقد معه اتفاقا أعيدت إليه بمقتضاه أموال الكنيسة القبطية، وضمن له تعاون النصارى مع المسلمين. ويؤكد الكاتب أيضا أن النصارى، حتى فى الحالات التى لم يتعاونوا فيها مع العرب تعاونا صريحا، قد انقادوا إليهم انقيادا أشبه بالاتفاق، فلم يقفوا إلى جانب الرومان ضدهم، إذ كانوا يعانون الويلات على أيدى هؤلاء الرومان أنفسهم، وهو ما حدث فى مصر، وكذلك فى الشام، الذى استعرب برضا ودخل موظفوه فى خدمة الفاتحين الجدد دون ممانعة. أما ما كان لا بد من وقوعه فى ميدان المعارك من عنف فهو، حسبما يؤكد الكاتب، أخف كثيرا مما اجترحته أيدى الجرمان فى الغرب، نافيا أى أساس لما يشاع افتراء وزورا من أن المسلمين قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية، ومشيرا أيضا إلى أن المسلمين قد حرروا النصارى وساعدوهم فى بناء كنائسهم[1].

وفى "The Arabs in History" لبرنارد لِيوِسْ نقرأ ما كتبه ذلك المستشرق اليهودى، الذى لا يمكن أبدا أن يتهمه متهم بالانحياز للمسلمين، أن الأقباط كانوا من السخط على سادتهم الرومان وحكمهم الاستبدادى بحيث كانوا على استعداد لمساعدة الفاتحين العرب: "The Copts were intensely dissatisfied with Greek rule and ready to help the invaders". ولم يكتف لِيوِسْ بذلك، بل عرّج على أسطورة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية، فنفاها بقوة مؤكدا أن الدراسات الجادة المدققة انتهت إلى تفنيدها تماما، علاوة على أن مكتبة السيرابيوم كان قد تم تدميرها قبل مجيء العرب إلى مصر بزمن طويل[2].

ولننصت إلى كلامه وهو يتحدث فى هذا الموضوع بلغته الأم: "A story common in many books tells that after the Arab occupation of Alexandria the Caliph ordered the destruction of the great library of that city on the grounds that if the books contained what was in the Qur'an they were unnecessary, whereas if they did not they were impious. Critical scholarship has shown the story to be completely unfounded. None of the early chronicles, not even the Christian ones, make any reference to this tale, which is first mentioned in case the great library of the Serapeum had the thirteenth century, and in any

---

[1] انظر Daniel Rops, Histoire de l'Église, Grasset, Paris, Tome 3, P 284. وقد ترجم نصرى سلهب هذا الكلام الهام بأسلوبه الجميل فى كتابه: "فى خُطى محمد"/ ط٢/ دار الكتاب اللبنانى/ ١٩٧١م/ ٢١٦-٢١٧.

[2] Bernard Lewis, The Arabs in History, Oxford University Press, 2002, P. 53.

already been destroyed in internal dissensions before the coming of the Arabs.".

كذلك يقرر أنتونى ناتنج بقوة أن قبط مصر قد مالوا مع المسلمين وأبدوا تعاطفهم نحوهم، إذ عانوا على أيدى البيزنطيين أفظع ألوان الاضطهاد بسبب اختلاف المذهب ورفضهم التنازل عن عقيدتهم فى المسيح لحساب عقيدة الإمبراطور البيزنطى. كما كان الرهبان الأقباط يعذبون ويسامون الجلد بالسياط، وأغرق بطريقهم فى البحر بعدما وضع فى زكيبة مقفلة ربطت بها بعض الأثقال، ومن ثم مثل لهم المسلمون، الذين طارت شهرتهم فى الآفاق بأنهم متسامحون مع أهل الديانات الأخرى، تقدما ملموسا[1].

وعلى ذات المنوال يؤكد د. نظمى لوقا أن قبط مصر "كانوا يتوسمون فى العرب الخير لما سمعوه عن فتوحهم فى الشام وأنهم حافظوا على الكنائس والديور، وتركوا للأهالى الحرية كاملة، ولم يقسروا أحدا على شىء يتصل بعقيدته أو ملته، وأنهم يجلون القسوس والرهبان ويحمون الصوامع والهياكل والصلبان. وهذا نقيض ما أرهق القبط من قيرس والى هرقل، الذى سام القبط العذاب ليحملهم على ملة من المسيحية تخالف ملتهم، وأشاع فيهم العسف والقتل. ورأى القبط من سيرة العرب فى شهور حرب الفتح كيف فعلوا مثل ذلك بالأقاليم التى وقعت فى مصر تحت حكمهم، فلم يقتضوا من أحد غير الجزية المعقولة. وتلك فى نظرهم حالة ما كانوا ليحلموا بخير منها. فلا ضير عليهم أن يخلف الحاكمُ الجديدُ الحاكمَ القديمَ، فهم على الحالين محكومون، ولكنهم عسيون الآن أن يجدوا الأمن والدعة والراحة وحرية العبادة بعد العسف والخوف والاستبداد ومصادرة العقيدة. ولا يفوتنا فى هذا المقام أن العصر لم يكن فى أى مكان عصرَ عصبياتٍ قومية، فالحكم الرومانى الطويل أقرّ فى النفوس أن الناس بين حاكم ومحكوم، وأن الحاكم قد يكون من غير جنس المحكوم. فالعصبية القومية لم تكن قد تفشّت بعد. ولذا انتفت الغضاضة من استبدال العرب بالرومان"[2]. ثم يمضى لوقا فى الفصل التالى فيفند خرافة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية، تلك الخرافة التى يرددها الأغبياء الموتورون رغم أن العلماء الأعلام من مستشرقين وعرب قد انتهوا جميعا إلى أنها حكاية سخيفة لا تثبت على محك التمحيص.

ومن لبنان نأتى إلى الكاتب النصرانى نصرى سلهب فنجده يقول ذات الكلام وأكثر: "إذا كان لنا أن نجرى مقارنة بين ما كان يحصل فى الماضى السحيق أو القريب بل فى الحاضر وبين ما فعله المسلمون المنتصرون لتبيّن لنا أنهم كانوا بين الشعوب أكثرهم رحمة ورفقا وتسامحا. ولسنا بحاجة إلى أن نورد الأدلة على ذلك، بل حسبنا أن نعيد إلى الأذهان ما فرضه الألمان على فرنسا من مبالغ كثيرة مرهقة على إثر سقوط باريس عام ١٨٧٠، وما فرضه الحلفاء من تعويضات على ألمانيا نفسها على إثر انتصارهم عليها عام ١٩١٨، وما اتخذته الدول مجتمعة من إجراءات بحق ألمانيا واليابان مثلا". ثم يضرب مثالين اثنين من

---

[1] Anthony Nutting, The Arabs, Mentor Book, 1965, P. 60.

[2] د. نظمى لوقا/ عمرو بن العاص/ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر/ سلسلة "أعلام العرب"/ العدد ٩١/ ١٩٧٠م/ ١٨٥.

الحرب العالمية الثانية فيقول: "كانت الحربِ قد أشرفت على الانتهاء، واتضح للجميع أن اليابان فى حالة احتضار موشكة أن تلقى السلاح، فإذا بخصمها[1] يلقى على مدينتين فيها: هيروشيما وناكازاكى قنابل ذرية أدت إلى قتل آلاف الناس، وحرق الآلاف وتشويه آلاف من رجال ونساء وأطفال وعُجّز ومرضى. كما تسببت بمحو المدينتين من جذورهما، فلم يبق فيهما من يُخبر وُيُنبئ. وكان النازيون خلال الحرب نفسها يلقون بالأسرى والمعتقلين جماعاتٍ فى الأوراتين أو فى غرف الغاز الخناق، ويلجأون بهذه الأساليب إلى القتل الجماعى، فإذا الضحايا تسقط بالمئات والآلاف بل بعشرات الآلاف. وإذا صح أن المسلمين فى فتوحاتهم قد لجأوا إلى شىء من العنف بحق شعوب البلدان التى فتحوها فلا بد أن يكون هنالك أسباب بررت ذلك العنف. فالحروب ليست رَشْق ورودٍ ونثر فلٍ وياسمين، ولا هى رَشّ ماء الزهر والعطور . . . إنها مع الأسف حديدٌ يُدمِى ويُميت، ونارٌ تحرق وتزهق الروح. بل إنها سلاسل تقيد الحرية بل تمحوها أحيانا وتحجزها . إنها دمار وخراب، وويلات ومصائب تنصبّ على الغالب والمغلوب فى آن معا . لقد خاض بعضُ رؤساء الكنيسة، بعضُ البابوات، حروبًا وقادوها بأنفسهم، فأشرفوا على القتل والدمار. وكانوا أحيانا منتصرين، وأخرى خاسرين".

ثم يضيف قائلا: "واضح وثابت أن مسيحيى الشرق وجدوا فى الفاتحين المسلمين منقذين لهم من البيزنطيين لأن هؤلاء الأخيرين، وهم مسيحيون، مارسوا على رعاياهم المسيحيين اضطهادا شبه مستمر لأسباب تمتّ بصلةٍ وتُفضى إلى المعتقدات والإيمان. ومن الثابت أيضا أن مسيحيى الغرب قد تعرضوا لاضطهادات وأعمال عنف من قتل وتشريد وحَجْر حرية لا يعرف التاريخ لها مثيلا إلا نادرا، وأن أعمال العنف المشار إليها قد مارسها وقام بها مسؤولون مسيحيون أراقوا دماء إخوتهم فى الدين لا لسبب إلا لأن هؤلاء المساكين أرادوا أن يكونوا مسيحيين وفق قناعتهم وإيمانهم. وموجة الاضطهاد تلك، بل الموجات، قد جرفت فى تيارها الصاخب يهودا ومسلمين لإرغامهم على اعتناق الدين المسيحى أو قِصاصًا لهم لكونهم غير مسيحيين. ولو كان لنا أن نورد الأمثلة والأدلة على صحة هذا الرأى لاقتضى عشرات الصفحات. لذلك نكتفى بمقاطع عرّبناها تعريبا كاد أن يكون حرفيا، وهى تدل دلالة صريحة على أن المسيحيين كانوا أحيانا كثيرة ضحايا إخوانهم فى الدين، وأن المسلمين أظهروا من التسامح الدينى ما لم يظهره شعب منتصر عبر التاريخ"[2]. ثم يمضى سلهب موردا بعض نصوص تبرهن على صدق ما يقول.

---

[1] يقصد الخصم الأمريكى.

[2] نصري سلهب/ فى خطى محمد/ ط٢/ دار الكتاب اللبنانى/ بيروت/ ١٩٧١م/ ٢٠٨- ٢١٠، ٢١٧.

ويقدم ألبرت حورانى عدة أسباب لهذا النجاح الذى لقيه العرب فى كسب قلوب الشعوب التى فتحوا بلادها، فيقول إن أهل تلك البلاد بوجه عام لم يكونوا يبالون بجنسَ من يحكمهم أو دينه ما دام يوفر لهم الأمان ولا يرهقهم بالضرائب ويحترم دينهم ويتركهم يمارسون حياتهم غير متعرض لشىء من عاداتهم ونظامهم الاجتماعى، وهو ما توفر فى الحكم العربى. كما أن سكان المناطق فى جنوب العراق والشام، الذين كانوا يخضعون لحكم اللخميين والغساسنة العرب، آثروا الحكم العربى على حكم الفرس والرومان[1].

وفى مقال له بجريدة "الشعب" المصرية بتاريخ ٢١ مارس ١٩٨٧م عنوانه: "بالحوار والتحرك الشعبى وليس بالأمن المركزى" يقرر د. ميلاد حنا أن الإسلام حين دخل مصر فى خلافة عمر بن الخطاب "كان دخوله بترحيب من أهلها . . . وظل الإسلام ينتشر فى الشعب الواحد فى مصر تدريجيا لعدة قرون إلى أن كان الأزهر، فصار منارة للفكر الإسلامى، واشترك فى صياغة الفقه والفكر والتشريع. ولم يكن فى مصر فى أية مرحلة من تاريخها الطويل إلا لغة واحدة لشعبها الواحد: سادت الهروغليفية قرون الفراعنة إلى أن تطورت اللغة فكتب المصريون الهروغليفية بحروف يونانية مع ألفاظ جديدة، فسادت اللغة القبطية لغة واحدة لشعب واحد قرونا طويلة إلى أن حلت اللغة العربية لغة واحدة لشعب واحد لما يزيد الآن على ألف عام".

وفى تناوله لهذا الموضوع يقرر المستشار إدوار غالى الذهبى أن اللقاء الأول بين الصحابى الجليل عمرو بن العاص والبطريق القبطى بنيامين سنة ٦٤٠م كان لقاء مودة، وأن عمرا أكرم البطريق وأمّنه. وهو يستشهد على هذا ضمن ما يستشهد بما أوردناه آنفا عن ساويرس بن المقفع فى "تاريخ البطاركة"، وكذلك بما ورد فى كتاب السنكسار، الذى يذكر أنه فى اليوم التاسع من شهر طوبة (١٧ يناير) تحتفل الكنيسة بذكرى البابا بنيامين وأن العرب جاؤوا إلى مصر وفتحوها بقيادة عمرو بن العاص، الذى قرّب إليه رؤساء القبط وأحسن معاملتهم، فاتجه المصريون إلى إصلاح شؤون كنيستهم بعدما اختل نظامها وتفرق شملها. وكان أولئك الرؤساء قد قدموا إلى ابن العاص وأعلموه بخبر اختفاء البابا بنيامين طالبين عودته إلى كرسيه، فاستدعاه عمرو ومنحه الحرية الدينية وأعاد له الكنائس التى كان قد اغتصبها البطريق البيزنطى وأمره أن يتصرف فى أمورها كما يريد. فطابت لذلك قلوب النصارى وشكروا صنيع عمرو إليهم. وكانت النتيجة أن النصارى المصريين وقفوا إلى جانب المسلمين ضد أى محاولة من قِبَل الرومان لاستعادة مصر، وكذلك ضد أى غزو غربى فى أى وقت من الأوقات قديما وحديثا. كما ذكر المستشار الذهبى أنه قد بُنِيَتْ فى مصر كنائس كثيرة بعد الإسلام بدءا من السنوات الأولى لدخولها فى حكم المسلمين، وأن جميع الكنائس الموجودة فى مدينة القاهرة ينطبق عليها قبل غيرها هذا الكلام على أساس أن القاهرة نفسها لم تكن

---

[1] Albert Hourani, A History of the Arab Peoples, The Pelknap Press of the Harvard Press, Cambridge & Massasuchetts, 2002, P. 23-24.

موجودة قبل العصر الفاطمى، فكل مبانيها بما فيها الكنائس إذن لا يمكن أن تكون قد بُنِيَتْ قبل الإسلام، بل ولا قبل العصر الفاطمى[١].

ويؤكد د. نبيل لوقا بباوى أن الأقباط قد رحبوا بالمسلمين رغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم مسيحيون مثلهم، إلا أنهم قد لقوا على أيديهم العقاب ألوانا وأشكالا لم تعرفها البشرية من قبل بعد انقسام الديانة المسيحية إلى ملتين: كاثوليكية وأرثوذكسية، فضلا عما كانوا يفرضونه عليهم طوال الوقت من ضرائب باهظة ينون تحتها ولا يستطيعون النهوض بها. وقد مضى د. بباوى يستعرض تاريخ مصر على مدار القرون المتتابعة فى عهد الرومان والاضطهادات البشعة التى أوقعها هؤلاء (وأوقعها كذلك الفرس فى الفترة القصيرة التى حكموا فيها مصر) بالمصريين ورجال دينهم وبطارقتهم.. إلى وصل إلى الفتح الإسلامى على يد القائد العظيم عمرو بن العاص، الذى وضع حدا لهذا العذاب الجبار بفتحه الكريم لمصر وأعطى النصارى الحرية الدينية كاملة. وهو يُرْجِع هذا التسامح وهذه الرحمة إلى ما كان الرسول الكريم صلوات الله وسلاماته عليه قد أوصى به أصحابه، إذ بشرهم بأنهم سوف يفتحون مصر، فعليهم أن يعاملوا أهلها معاملة كريمة طيبة لأن لهم فيهم نسبا وصهرا، مشيرا بذلك إلى أن هاجر أم أبيهم إسماعيل مصرية، كما أن مارية أم ابنه إبراهيم مصرية. ونصوص الأحاديث التى أوردها د. نبيل هى: "الله فى قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدّة وإخوانا فى سبيل الله"، "استوصوا بهم خيرا، فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله"، "ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما". وواضح من هذه النصوص أنها تنبأ بفتح مصر ودخول أهلها فى الإسلام أفواجا بحيث لم يبق الآن منهم على النصرانية إلا نحو خمسة بالمائة ليسوا كلهم مصريين دمًا.

وينتهى بباوى إلى التأكيد بأنه "بعد ذلك الاستعراض التاريخى من واقع أمهات الكتب المسيحية لا يستطيع أحد أن يؤيد ما يقوله المستشرقون بأن الإسلام انتشر بحد السيف فى مصر، بل الحقيقة أن أهل البلاد من الأقباط الأرثوذكس فى مصر كانت لديهم رغبة قوية فى هزيمة الجيوش البيزنطية الرومانية. لذلك قام الأقباط الأرثوذكس بإرشاد قوات عمرو بن العاص فى كل تجولاتها فى مصر لتخليصهم من حمامات الدم والمقابر الجماعية التى كانت ينصبها الجنود الرومان للأقباط الأرثوذكس فى مصر والشام"، وأن "المسيحيين فى مصر لقوا أشكال العذاب بكل أنواعه على يد الدولة الرومانية. ولم تدع الدولة البيزنطية أمامهم إلا خيارين: الخيار الأول هو عبادة الأوثان، أى عبادة الإمبراطور، والخيار الثانى هو القتل. وبعد أن أصبحت الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة البيزنطية وضعوا المسيحيين فى مصر أمام خيارين: الخيار الأول القتل، والخيار الثانى هو ترك عقائدهم الأرثوذكسية فى الديانة المسيحية واتباع العقائد الكاثوليكية. لذلك حينما أتى عمرو بن العاص وعرض تخليصهم من عذابهم على أن يدفعوا الجزية

---

[١] انظر إدوار غالى الذهبى/ معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى/ مكتبة غريب/ ١٩٩٣م/ ١٣١- ١٤٢.

أو ضريبة الدفاع مقابل الدفاع عنهم وتخليصهم من ظلم الدولة الرومانية على أن يباشروا عقائدهم بحرية تامة حسب معتقداتهم الدينية فى طبيعة السيد المسيح رحبوا بذلك"[١].

ويرى المؤلف أن "أهم شيء فى مبادئ الشريعة الإسلامية التى تطبق على غير المسلمين بعد دخول عمرو بن العاص هو حرية العقيدة لغير المسلمين فى مصر تطبيقا لمبدإ "لا إكراه فى الدين" الوارد فى القرآن الكريم دستور المسلمين. وعلى ذلك تطبق على غير المسلمين فى مصر شرائع ملتهم فى نطاق الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق لأنها مسائل مرتبطة بالعقائد وشرائع الملة. . . وقد بنيت كنائس كثيرة بعد دخول الإسلام مصر فى القرن الأول الهجرى".

أما بالنسبة إلى الجزية التى فرضها عمرو على المصريين فكانت دينارين على الفرد. وكانت نسبة من يدفعون الجزية أقل من ثلاثين بالمائة منهم، إذ كان يُعْفَى منها القصَّر والنساء والشيوخ والعجزة والمرضى والرهبان. وهذان الديناران هما شئ ضئيل جدا إزاء الضرائب التى كان الرومان يجبونها منهم ولا يرحمون فيها أحدا، إذ كانت تفرض على البشر وعلى الحيوانات والبيوت والأثاث والزراعة والمحاصيل والتجارة، بل على الموتى أيضا، بحيث لا يصرَّح بدفن ميت إلا إذا دُفِعَتْ عليه الضريبة. "لذلك فإن الأقباط الأرثوذكس فى عهد الدولة الإسلامية شعروا بكرامتهم وإنسانيتهم عكس ما حدث لهم من إخوانهم المسيحيين البيزنطيين" على حد تعبيره. ثم ينقل عن ساويرس بن المقفع ما سجله فى كتابه: "سِيَر الآباء البطاركة" من ابتهاج الأقباط بعودة الأنبا بنيامين، الذى كان مختفيا فى الصحراء هربا من اضطهاد البيزنطيين، وبانتعاش المذهب الأرثوذكسى فى ظل الحكم العربى[١].

هذا ما قاه د. بباوى مشكورا لالتزامه حقائق التاريخ. أما إذا كان للبعض رأى آخر فهم ورأيهم، على أن يعرفوا أن أسلاف المسلمين كانوا نصارى أو وثنيين فى ذلك الوقت، وكل ما فى الأمر أن أسلافهم قد اختاروا دين محمد، وهم سعداء أشد السعادة أنْ كتب الله لهؤلاء الأسلاف، ولهم من ثَمَّ، اعتناق الإسلام. فهم ينظرون إلى فتح عمرو بن العاص لبلادهم على أنه لحظة سعيدة من لحظات الدهر المجيدة، ويشكرون الله تعالى على هذه النعمة التى منحهم إياها، مع احترامهم لشركائهم فى الوطن الذين بَقُوا على نصرانيتهم ولم يختاروا التحول إلى دين النبى العربى الكريم. وكل وما اختار، فلا ينبغى لأحد أن يكره الطرف الآخر على ما لا يحب، كما لا ينبغى لأحد أن يزيف التاريخ ويلوى عنقه إلى ما يَهْوَى ضاربا بحقائقه عُرْض الحائط.

---

[١] د. نبيل لوقا بباوى/ انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء/ دار البباوى للنشر/ ١٤٩- ١٦٣. وللدكتور بباوى كتاب آخر فصَّل فيه هذه القضية تفصيلا واسعا هو: "الأقباط: هل ساعدوا المسلمين فى فتح لمصر؟".

وبالنسبة إلى المظالم البشعة التى كان يوقعها البيزنطيون على الأقباط يقول د. بباوي: "ذكر ابن العبري.. في كتابه: "مختصر الدول" أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية بعد أن استأذن الخليفة عمر بن الخطاب، وأن هذا الحريق استغرق ستة أشهر. وبالبحث وجدت أن ذلك الخبر ورد في "دائرة المعارف البريطانية" في الطبعة الحادية عشرة، ثم حُذِف من "دائرة المعارف البريطانية" في الطبعة الرابعة عشرة بعد أن تأكد المحققون من عدم صدق هذا الخبر. وهذا التناقض في أخبار "دائرة المعارف البريطانية" أوجد عندي فضولا علميا كباحث علمي محايد لمعرفة الحقيقة في حرق مكتبة الإسكندرية. والحقيقة أن مصر كانت تحكمها الدولة الرومانية البيزنطية، وكان معظم شعب مصر من الأقباط الأرثوذكس، وكانت الدولة الحاكمة الرومانية، وعلي رأسها هرقل، يدينون بالملة الكاثوليكية. وفي عام٦٣٠م أصدر الإمبراطور هرقل قرارا بأن كل الولايات التابعة للدولة الرومانية، ومنها مصر، لابد أن تدين بدين واحد وملة واحدة هي الملة الكاثوليكية. وعلي ذلك رفض أقباط مصر تغيير ملتهم من الأرثوذكسية إلي الكاثوليكية. لذلك تعرضوا لأبشع أنواع العذاب، وقام الجنود الرومان بحرق مِنياس الأخ الأصغر للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الأرثوذكس حتى الموت أمام البطريرك. لذلك هرب الأنبا بنيامين إلي الصحراء لمدة ثلاثة عشر عاما. وكان الجنود الرومان يعذبون الأقباط الأرثوذكس بقتلهم في زيت مغلي أو وضعهم علي نار هادئة حتى الموت. وآخر ابتكارات الجنود الرومان أنهم أحضروا من القسطنطينية آلات خاصة لتقريب فروع الشجر، وكانوا يربطون الأقباط من أرجلهم وأيديهم في فروع الشجر ويجعلون الآلات تترك فروع الشجر فيتمزق جسد القبطي إلي أربعة أجزاء. وقد ذكر المؤرخ ساويرس ألوان العذاب الذي كان يتلقاه الأقباط علي أيدي الجنود الرومان. وفي عام٦٤٠ دخل عمرو بن العاص مصر بأربعة آلاف جندي عن طريق العريش ثم بلبيس ثم عين شمس ثم حصن بابليون، ثم توجه إلي الإسكندرية وحاصرها لمدة أربعة عشر شهرا، ودخل الإسكندرية في عام٦٤٢"[١].

وفى موقع كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشى بالإسكندرية، وفى القسم الخاص بـ"تاريخ مصر عبر العصور"، نقرأ تحت عنوان "مصر تحت الخلافة الإسلامية" أنه "نتيجة للضرائب الباهظة التى كان الرومان يفرضونها على المصريين وسوء معاملة الرومان لهم لم يُبدِ المصريون مقاومة تذكر تجاه الفتح العربى. كما وافق الأقباط على دفع الجزية فى مقابل حماية المسلمين لهم ومنحهم حرية العقيدة... وقد بدأت الديانة الإسلامية واللغة العربية تدريجيا تحل محل الديانة واللغة القبطية حتى أصبحت مصر دولة عربية إسلامية كبيرة".

---

[١] د. نبيل لوقا بباوى/ هل أحرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندرية؟/ جريدة "الأهرام" المصرية/ ٢١ رجب ١٤٢٤هـ- ١٨ سبتمبر ٢٠٠٣م.

ويؤكد ج. ج. سوندرز (J.J.Saunders) فى كتابه: "A History of Medieval Islam"
ما قلناه وقاله كثيرون غيرنا من أن الأقباط قد رحبوا بالفتح الإسلامى ترحيبا شديدا، وإن ظهر الآن من ينكر ذلك ويزعم أنهم كانوا رافضين لذلك الفتح الميمون، كارهين دخول المسلمين بلادهم، وكأن إنكار الحقائق القاطعة يجدى فتيلا: " Thus the reign of Christ and of Caesar came to an end in the land of the Nile. The Copts viewed without regret the departure of their persecutors: their Patriarch Benjamin, who for thirteen years had been hiding in remote convents from the imperial police, was welcomed by Amr in Alexandria and assured that his people would in future enjoy full religious liberty, and when in 645 the Byzantines landed an army in the Delta and tried to reconquer the country, the native Christians actively joined in repulsing them"[١].

وقد أورد المستشرق م. ج. ج. مارسل الاتهام بالتمرد والانفصال الذى وجهه بعض المؤرخين إلى المصريين ورَمْوَهم فيه بالخيانة والردة لتعاونهم مع العرب ضد الرومان وتسليمهم مصر لهم[٢]. والمقصود اتهام الكتّاب النصارى للمصريين بأنهم قد غدروا بالرومان إخوانهم فى الدين، باتخاذهم جانب ناس على غير ملتهم واطمئنانهم إليهم وتعاونهم معهم ونصرتهم إياهم على نصارى مثلهم. ولا ريب أن هذا دليل فى الغاية من القوة والصلابة على ترحيب المصريين بالفتح الإسلامى على خلاف ما صرنا نسمعه بأخَرَة ممن يتجاهلون عن عمد وعناد أن الغالبية الساحقة من أحفاد المصريين القدامى من نصارى ووثنيين هم مسلمو مصر[٣]، الذين يشعرون بالمنة الكبيرة تجاه عمرو بن العاص، ذلك الصحابى الجليل الذى كرمته الأقدار وكرمتهم من خلاله حين كتبت فتح مصر ومِن ثم اعتناقها الإسلام على يديه المباركتين رضى الله عنه.
والآن مع ما قاله المستشرق المذكور بنصّه وفصّه فى لغته الأصلية:
"Les contemporains de ce grand événement, et les historiens postérieurs, copiant les rapports inéressés des premiers, ont accusé de révolte et de désertion les peuples de l'Égypte, se soumettants volontiers aux

---

[1]J.J.Saunders, A History of Medieval Islam, Routledge London and New York, 2002, P. 53.
[2] M. J. J. Marcel, Égypte depuis la Conquête des Arabes jusqu'à la Domination Française, Firmin Didot Frères, Paris, 1848, P. 4.
[٣] لا يزيد عدد العرب الذين فتحوا مصر عن أربعة عشر ألفا بجال، ولم يَبْقَوْا كلهم رغم ذلك فيها، بل تجاوز جزء منهم الحدود غربا مواصلين الفتوح. أما عدد المصريين آنذاك فكان ستة ملايين طبقا لما ذكره ابن البطريق فى تاريخه. ولا ندرى أهذه الملايين الستة هى كل عدد المصريين أم عدد من يدفعون الجزية فقط، إذ إن كلام ابن البطريق غير واضح فى هذه النقطة بما فيه الكفاية، وإن كان قوله إن الجزية قد بلغت اثنى عشر ألف ألف معناه أن هذا عدد دافعى الجزية وحدهم لا كل السكان. وأيا ما تكن الحقيقة فلا شك أن العرب الذين استقروا بمصر لم يكونوا بالنسبة إلى سكانها سوى نقطة فى بحر زاخر. انظر تاريخ ابن البطريق/ ٢/ ٣١٠.

Arabes; de trahison et presque d' apostasie, les personnages influents de la nation cophte qui coopérèrent à cette soumission".

وقريبٌ من ذلك الكلام العبارةُ التى وصف بها هربرت جورج ويلز العالم والروائى والمؤرخ البريطانى المشهور طريقة تحول مصر من أيدى الرومان إلى أيدى العرب، إذ قال إن "مصر قد انتقلت على نحو سلبى تقريبا من أيدى الرومان إلى أيدى العرب: Egypt passed almost passively from Greek to Arab" . يقصد أنه لم تكن هناك مقاومة تُذْكَر ضد الفاتحين المسلمين[1].

وفى نسخة "الويكيبيديا" الإنجليزية نجد فى مادة "Muslim conquest of Egypt" أن المصريين ألِفُوا الحكم الإسلامى أفضل من نظيره الرومانى وأكثر تسامحا، إذ فى مقابل الجزية والطعام لجيش الفاتحين تم إعفاء نصارى البلاد من الخدمة العسكرية وتركوا أحرارا يمارسون شعائر دينهم وأمور حياتهم كيفما يشاؤون: " The Copts did find the Muslims more tolerant than the Byzantines. In return for a tribute of money and food for the troops of occupation, the Christian inhabitants of Egypt were excused from military service and left free in the observance of their religion and the administration of their affairs" .

والآن إلى د. عفاف لطفى السيد مارسُت (أستاذة تاريخ الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس)، التى تؤكد أيضا فى كتابها: " A History of Egypt From the Arab Conquest to the Present" أن القبط كانوا يقاسون على أيدى الرومان اضطهادا شديدا بسبب اختلاف مذهبهم الدينى عن مذهب الدولة الرومانية والضرائب الباهظة التى كان عليهم أن يؤدوها ذليلين للدولة، التى أرهقتها حروبها مع الفرس، فكان عليهم أن يدفعوا هم الثمن، فضلا عن الفساد والظلم اللذين كانا ضاربين أطنابهما فى كل أنحاء البلاد وشعور الغربة الذى كانوا يحسونه تجاه البيزنطيين. لذلك كان ترحيبهم بالمسلمين ترحيبا عظيما، إذ فتحوا أذرعهم لهم، ومدوا يد التعاون نحوهم، وكان هذا الترحيب وذلك التعاون عاملا هاما فى السرعة والسهولة التى فتح بهما المسلمون البلاد بعدة آلاف قليلة. وبدلا من أن يصنعوا ما كان دَيْدَن الغزاة أن يفعلوه في تلك الأزمان من نهب وسلب وتنكيل بأهالى البلد المفتوح واستعباد لهم اكتفَوْا بجزية صغيرة لا تكاد تذكر. تقول المؤلفة ما نصه:

"During the reign of Umar, the second caliph of the Arabs, Arab armies under the leadership of Amr ibn al-As invaded and conquered Egypt in 639 AD. Egypt was then a province of the Byzantine empire, ruled by a governor residing in Alexandria, the capital city. The inhabitants of Egypt, who were Monophysite Christians known as Copts, differed from the Melkite Christian Byzantines, who regarded monophysitical sects as heretical and treated them accordingly. The difference stemmed from disagreement over the nature of Christ. The Copts believed in his divine nature, while the Byzantines believed he was both human and divine. In consequence the Egyptians suffered from religious discrimination and persecution at the hands of their rulers, in addition to having to put up with a heavy burden of taxation to defray the

[1] H. G. Wells, The Outline of History, Cassel & Company, London- New York- Toronto- Melbourne, 1920, P. 328.

expenses incurred through constant warfare between the Byzantines and their major rivals, the Sassanian empire. In brief, the population of Egypt resented the Byzantine domination of their country, and the burden of heresy that was laid upon them; they also resented the heavy taxation imposed upon them. Alienation of the population from their rulers was the hallmark of that period, as it was to be during successive periods due to differences in language, religion or ethnicity between rulers and ruled. Such alienation may not have mattered much to the population when government was efficient and administration just, but it was to become more important during periods of misrule and exploitation.

The Arab armies, numbering about eight thousand horsemen, Egypt an easy matter, for the native rulers cooperated with the new conquerors against their Byzantine overlords and helped open up the country to them. The Egyptians believed the Arabs would be more tolerant rulers than the Byzantines and would impose a lighter tax burden on them. The Greek presence in Egypt was then relatively weak as the empire was busy fighting the Arabs on other fronts, and had already lost its Syrian provinces to the Arabs in 636. The major battle between Arabs and Byzantines took place at Heliopolis and was decisive in opening the rest of Egypt to the Arabs. Rather than sacking the country and enslaving the population – a common practice in those days – the country was made to pay tribute and the prisoners were released, for the caliph Umar said, 'Tribute is better than booty; it lasts longer.' The Egyptians were offered a choice between adopting Islam as their religion, or retaining their religion and paying a poll tax. When they opted for the latter, an agreement was drawn up between the Arab conquerors and the population which read: 'In the name of God, the merciful, the compassionate, this is the amnesty granted to the people of Egypt, to their religion, their goods, their churches and crosses, their lands and waters, nothing of which shall be touched or seized from them.' In return the Egyptians were expected to pay a land tax when the Nile waters reached a level that presaged a good harvest, that is when it reached 16 cubits; otherwise the taxes were remitted. The further obligation of offering three days' hospitality to Muslims was also imposed"[1].

وبعد هذه الجولة التى قد يظن البعض أنها زادت عما ينبغى أود ان أقول إننى تعمدت التطويل تعمدا حتى لا يتعلل متعلل بأننى لم أصنع أكثر من اصطياد نص من هنا أو من هناك. كما كنت حريصا طوال الوقت على ألا أستشهد بكلام أى مسلم. ومن هنا لم يكن بين كل من أوردت رأيه فى هذه القضية من ينتمى إلى دين محمد عليه الصلاة والسلام. وأغلبهم، كما يلاحظ القارئ، من النصارى، وبعضهم يهودى، وأحدهم هندوسى. وتبقى عفاف لطفى السيد، وهى مسلمة، ولكن لا بد من التنبه إلى أنها تعيش فى أمريكا، وتشتغل أستاذة فى جامعة أمريكية، وكتابها مطبوع فى مطبعة جامعة كمبردج. ولا أريد أن أشير إلى أبيها أحمد لطفى السيد وتوجهه الغربى وثنائه على الاحتلال البريطانى فى الوقت الذى كان يعادى فيه العثمانيين المسلمين، ويرفض مناصرة المصريين لإخوانهم المسلمين الليبيين فى كفاحهم ضد الغزو الإيطالى أوائل العقد الثانى من القرن العشرين. ومن بين من أوردت آراءهم أيضا فى القضية التى بين

---

[1] Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, A History of Egypt From the Arab Conquest to the Present, Cambridge University Press, 2007, P. 1-2. وكان الكتاب قد طبع للمرة الأولى فى ١٨٨٥م.

أيدينا مفكرون عالميون كإدوارد جيبون وهربرت جورج ولز، وبعضهم يناصب العرب والمسلمين العداء الشديد كبرنارد ليوسْ المعروف بمؤامراته القاتلة ضد العرب ووحدة بلادهم، ومعظم الباقين لا يهمهم العرب فى قليل أو كثير، وعدد منهم أساتذة متخصصون فى التاريخ كجيبون وفيليب حِتى ودانيل روبس، وبعضهم من أهل السياسة كجواهَرلال نهرو وأنتونى ناتنج، وبعضهم من رجال القضاء كالمستشار إدوار غالى الذهبى، وبعضهم من رجال الدين كساويرس بن المقفع، وبعضهم من الأساتذة الجامعيين. كما حرصت على أن يكونوا من المنتمين إلى بلاد مختلفة، فمنهم من هو مصرى (ساويرس بن المقفع ونظمى لوقا وميلاد حنا وإدوار غالى الذهبى ونبيل بباوى وكتّاب المقالات فى موقع كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشى بالإسكندرية)، ومنهم من هو لبنانى (فيليب حِتى ونصرى سلهب)، ومنهم من هو هندى (جواهرلال نهرو)، ومنهم من هو أمريكى (برنارد لويس)، ومنهم من هو بريطانى (مسز بُتشَر وهربرت جورج ولز وأنتونى ناتنج)، ومنهم من هو فرنسى (م. ج. ج. مارسل ودانييل روبس)، ومنهم من هو ألمانى (جوستاف فون جرونباوم)... وهكذا.

ولا يمكن أن يُتهَم أى منهم بالانحياز للعرب والمسلمين، إذ العرب والمسلمون منذ وقت طويل وحتى الآن قابعون فى أدنى دركات الضعف والمذلة، ولا قيمة لهم فى دنيا السياسة أو الأيدلوجيات، بل الكل يطمع فيهم ويستهزئ بهم ويراهم طُعْمَة سائغة تغرى بالنهش والافتراس. وسلهب مثلا لبنانى نصرانى، والنصارى فى لبنان ذوو نفوذ كبير لا يحوج أيا منهم إلى التودد إلى المسلمين. أما بالنسبة إلى الذهبى وبباوى المصريين فصحيح أن عدد النصارى فى مصر قليل بل قليل جدا، فهو يدور حول نسبة خمسة بالمائة، إلا أن للكنيسة تأثيرا قويا فى مسار السياسة الداخلية. ولا يمكن أن يقال عن أيهما إنه كان يحاول التقرب إلى حسنى مبارك مثلا، إذ لم يُعرَف عن مبارك اهتمام بالإسلام، بل كانت الكنيسة تجد فيه حليفا ممتازا لها يتخذ دائما جانبها مهما فعلت حتى إنه لم يصنع أي شيء للقس الذى وصف المسلمين بأنهم ضيوف بكل ما تعنيه هذه الكلمة من أبعاد عميقة وخطيرة، بل مضت الكلمة وكأن شيئا لم يكن. كما أن بباوى قد أظهر من الاهتمامات العلمية التى تبدت فى حصوله على درجة الدكتورية أكثر من مرة ما يجعل من الصعب القول بأنه يجامل المسلمين بما يكتبه فى هذا السبيل. وفوق هذا فأولهما مستشار وقور لم يعرف عنه أنه حاول يوما التلزق بالمسؤولين، ولا يستطيع أحد من ثم التشكيك فى نيته. أما الثانى فأستاذ بكلية الشرطة والحقوق. ومن هنا نرى أن تلقيب أقباط المهجر له بـ"الابن الضال" هو تلقيب مجحف، فالرجل لم يَضِل، بل قال ما يمليه عليه ضميره بكل تجرد. أما المستشار إدوار غالى الذهبى فقد صرح فى مقدمة كتابه بأنه كانت عنده أفكار خاطئة عن الإسلام لم يخلصه منها إلا قراءاته المكثفة فيه، وهو ما خرج منه بأن الإسلام دين العدالة والمساواة والرحمة والمودة وحسن المعاملة للبشر جميعا، وخاصة لأهل الكتاب منهم. ثم إن بعضهم قد قالها صريحة: أن المسلمين لا يخلون من العيوب، فهم فى بداية المطاف

ونهايته بشر من البشر، لكنهم رغم هذا أفضل من غيرهم من الفاتحين وأدنى إلى العدل والإنصاف والتسامح وأقل عيوبا.

ولكي يتيقن القارئ من صحة هذه المقارنة بين معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة ومعاملة غيرهم لمن يحتلون بلادهم أنقل هذه السطور من مقال لمروان عادل عنوانه: "هذه حضارتهم": "في نظري أن الحضارة الغربية هي حضارة النفاق. ولو كنت مختارا لها اسما لما وجدت خيرا من "حضارة النفاق". هل سمعت في التاريخ عن دولة تقصف قرى دولة صغيرة مثل فيتنام وتحرق أطفالها وتلقي لهم بالقنابل في ألعاب الأطفال تحت شعار "تحرير فيتنام"؟ هل سمعت في التاريخ عن حضارة تغزو الدول الأخرى تحت عنوان "حرية الإنسان" وتعتبر موت أطفال العراق وفلسطين "مخاضا من أجل ولادة شرق أوسط جديد"؟ هل سمعت عن حضارة تثور من أجل حق النساء المسلمات في ألا يختن، وفي نفس الوقت تدعم إسرائيل في تشريد ألوف النساء الفلسطينيات وقتل أزواجهن وأبنائهن؟ هل سمعت عن حضارة في التاريخ تدعي حماية حقوق الإنسان في أي مكان على وجه الأرض وتلقي بالحبوب في المحيط لتحافظ على سعرها في الوقت الذي يموت فيه الألوف جوعا في إفريقيا؟ هل سمعت في حياتك بحضارة تدعي الحرية والمساواة بين أتباع كل الديانات ثم تمنع نصف دولها النقاب في الأماكن العامة في فرنسا وهولندا وبعض الولايات الألمانية وفي مقاطعة كندية؟ هل سمعت عن حضارة تهاجم الدول الإسلامية من أجل السماح بحرية العبادة في الوقت الذي يكون فيه بناء المساجد في أكثر من نصف دول أوروبا يحتاج إلى تصاريح خاصة؟ هل سمعت في حياتك عن حضارة تدعي احترام حقوق الإنسان في الوقت الذي يدعمون فيه الطواغيت في دول العالم الثالث؟ هل سمعت في حياتك عن حضارة تقتل المدنيين من أهل ليبيا بربطهم بالحبال وقذفهم من الطائرات كما فعلت إيطاليا مع ليبيا أثناء الثورة السنوسية؟ هل سمعت في حياتك عن دولة شعارها "حرية، إخاء، مساواة" تقتل مليونا من أهل الجزائر كما فعلت فرنسا؟ هل سمعت في حياتك عن حضارة تسحق مدينة كاملة اسمها "هيروشيما"، رغم أن الحرب كانت قد قاربت على الانتهاء، لتجربة القنبلة والتأكد من فاعليتها، ولإرسال رسالة للعالم ولو على حساب مئات الألوف من البشر؟ إذا كان ذلك يثير اشمئزازك دعني أذكرك بحقيقة مروعة هي أن القنبلة الأولى كانت من النوع الانشطاري، ولكنهم أرادوا تجربة قنبلة ذرية من النوع الاندماجي أيضا ليعرفوا قدرة كل واحدة منهما، لاختيار واحدة للمضي قدما في أبحاثها وإيقاف البحث في النوع الآخر، ومن ثم تم قصف مدينة قريبة تشبه هيروشيما من حيث المساحة وعدد السكان، وهي ناجازاكي، بقنبلة اندماجية! لا تعجب حين تقرأ عن الولايات المتحدة التي تفننت في اختراع الأسلحة البيولوجية التي لا تميز بين مقاتل وجندي ورجل وامرأة وشاب! لا تعجب حين تسمع عن الأسلحة المحرمة دوليا وتعرف أن من حرمها هو من اخترعها وصنعها وطورها ويملكها ويستخدمها في حروب العراق وأفغانستان! لا تعجب حين تسمع عن انتهاكات أبو غريب وجوانتانامو من سيدة النظام العالمي الجديد وحامية حمى حقوق الإنسان! لا تعجب حين تعرف أن كل أجهزة التعذيب

التي تستخدمها الأنظمة القمعية الديكتاتورية في المعتقلات إنما هي من منتجات الحضارة الغربية وأنها تباع علينا وعلى الإنترنت أيضا، وتحصل هذه الدول على ضرائب أيضا من بيعها! لا تعجب حين تعرف أن السياط التي تلهب ظهور الأبرياء مستوردة من هذه الدول، وأن الكلابشات والقيود التي يقيد بها هؤلاء مستوردة من أوروبا، وأن قنابل الغاز والعصي المطاطية كلها مستوردة من الدول الغربية!"[1].

[1] بتصرف عن مقال للكاتب بعنوان "هذه حضارتهم" بجريدة "المصريون" الضوئية في ٢٦/ ٩/ ٢٠١١م.

بين عمرو بن العاص ونابليون بونابرت: مقارنة

رأينا كيف قارن حِتّى بين بعض القادة المسلمين فى ذلك العصر، عصر الفتوح الإسلامية، وأمثالهم من القادة السياسيين والعسكريين الغربيين كالإسكندر ونابليون، مقارنة كانت فى مصلحة الأولين. وكنت قد قرأت لجرجى زيدان فى كتابه: "تاريخ التمدن الإسلامى" أن صدر الإسلام قد اختص برجال توفرت فيهم خصال العصر، وأن ذلك العصر قد امتاز بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم، وأنه إذا كان قواد نابليون قد نبغوا إثر الثورة الفرنسية فقد نبغ قواد الصدر الأول للإسلام إثر واقعة الفيل، التى أراد الأحباش بها السطو على الكعبة، وحركت ساكن العرب فأظهرت من قواهم بالضغط والاحتكاك، فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة قواد العالم فى الحرب والدهاء والسياسة والحكمة كأبى بكر وعمر وعلى وخالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وحمزة بن عبد المطلب ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية والمغيرة بن شعبة... إلخ. كما يقول إن هؤلاء الرجال لو ظهروا فى العصر الحديث لكانوا من عظماء الناس الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم كما يتمثل الإفرنج ببونابرت وكرومويل وبسمارك وجلادستون وغيرهم[١].

وفى رأيى أن اولئك الرجال هم أفضل من نظرائهم الغربيين كثيرا رغم ما قد يبدو لبعض الناس من غرابة فى هذا الحكم، إذ الناس متأثرون فى استغرابهم هذا بتفوق الغرب فى السياسة والاقتصاد والإدارة وأمور الحرب فى هذا العصر تفوقا شديدا، ولا يصمد للمقارنة برجاله عموما إلا القليلون جدا من رجال الأمم الأخرى المعاصرة بحيث يظن الناس أن الغربيين كانوا هكذا طوال تاريخهم، وأنهم سيظلون هكذا إلى يوم الدين، وأن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبا بكر وعلى بن أبى طالب لا يستطيعون أن يطاولوا الرموز الغربية فى السياسة والإدارة وما إلى هذا مثلما لا يستطيع ابن حيان أو ابن الهيثم أو ابن سينا أو الخوارزمى أو الرازى مثلا أن يطاول نظيره من علماء الغرب فى العصر الحديث. وهم فى هذا الوهم يتصورون أنه ما لم يكن الشخص مرتديا قبعة وبدلة فهو متخلف، وما دام أبطال العرب القدماء كانوا يلبسون عقالا، ويحملون سيفا، ويركبون الناقة، ويستعملون أيديهم فى تناول الطعام فإنهم، دون أدنى ريب، متخلفون عن أولئك الغربيين، الذين يحاربون بالدبابة والقنبلة والمدفع، ويتنقلون أثناء معاركهم بالطائرة والسيارة الجيب والغواصة، ويستخدمون فى طعامهم الملعقة والشوكة والسكين. وهى بلا ريب نظرة خاطئة، فالغربيون كانوا متخلفين إلى وقتٍ جدّ قريب، ولم يتقدموا إلا بالاستقاء من حضارة المسلمين، التى قدمت للعالم فى حينها أعظم ثمرات الفكر والعلم والفنون، والتى استفادت بدروها كأية حضارة أخرى ناشئة من الحضارات السابقة عليها، ثم مالت إلى الشحوب، ثم انتهى أمرها إلى ما نعرفه كلنا من تخلف

---

[١] انظر جرجى زيدان/ تاريخ التمدن الإسلامى/ ١/ ٦٧– ٦٨.

بسبب الخمول والبلادة والخنوع والرضا بالقليل والشعور بالهوان والإخلاد إلى الكسل والاستسلام، على العكس تماما من أسلافهم فى عصر النبى وما بعده بقرون.

ثم إن التقدم مسألة نسبية، فمكتشف النار لا يقل فى مضمار التطور الحضارى عن مكتشف قانون الجاذبية أو مكتشف الميكروب ودوائه مثلا. ومثل ذلك يصدق على الإنسان الأول فى فجر التاريخ حين ترك كوخه وسار بعيدا عن مسكنه وشاهد ما لم يره من قبل، فهو لا يقل فى أهميته الحضارية عمن اكتشف القطب الشمالى بل لا يقل أهمية عن أول من وصل إلى القمر . . . وهكذا . وليست العبرة بالملابس وأدوات الطعام ووسائل الاتصال وما إلى ذلك، فهذه كلها أدوات مادية تكتسب أهميتها مما يكمن خلفها من مجهود عقلى هو الذى أدى إلى صنعها . وهذا المجهود العقلى واحد فى كل الحالات رغم اختلاف ثماره، التى قد تضلل بعض الناس وتوهمهم أن كل شىء أو كل شخص معاصر هو أفضل من أى شخص أو أى شىء قديم، ناسين أن ما هو معاصر الآن سوف يصير مع الزمن قديما حتى لتصبح الدبابة والغواصة والقنبلة والطائرة أدوات متخلفة عما ستكون البشرية قد اخترعته وأصبحت تستخدمه، وأخذت تنظر عنده إلى هذه الأشياء نظرة احتقار واستصغار، وحتى ليُضحِى الرجلُ الغربيُّ رمزُ التقدم والتفوق حاليًا مثالَ التخلف والتلكؤ كما كان أسلافه إلى وقت غير بعيد، وذلك حين تنهض الشعوب العربية والإسلامية وتسترد عافيتها وتجتهد وتبدع وتتوثب حيويةً كما كان أجدادها يفعلون قبل أن يدور الزمن دورته ويصيروا متخلفين.

أما كيف يَفضُل أولئك الرجالُ المسلمون الذين ذكرهم حتى وزيدان نظراءهم من الغربيين فسوف يتضح هذا من المقارنة بين فتح مصر على يد عمرو بن العاص وبين الغزو الفرنسيى لمصر على يد نابليون بونابرت وكليبر ومينو. وهو مجرد مثال واحد من أمثلة كثيرة: فمثلا لم يتم الغزو الفرنسى لمصر إلا بناء على تقارير أعدها جواسيس ودبلوماسيون فرنسيون من أعلى طراز يستعينون بأحدث الوسائل فى عصرهم، على حين لم يكن شىء من ذلك متوفرا فى حالة الفتح الإسلامى لمصر، بل كان هناك فقط عمرو بن العاص، الذى اقترح على الخليفة ذلك الفتح وزينه له، فى الوقت الذى كان الخليفة مترددا، وظل كذلك حتى آخر لحظة، إذ أرسل له وهو فى الطريق رسالة تأمره بأن يرجع أدراجه إذا لم يكن قد تجاوز الحدود المصرية.

وفى حالة الغزو الفرنسى كان هناك جيش عرمرم قوامه ٢٨ ألف جندى وضابط مهيَّئين لهذا الغزو بالتعليم والتدريب العاليين، وكان هناك أسطول مجهز تجهيزا تاما لتلك العملية، فضلا عن جيش مواز من المستشرقين العلماء فى كل ميادين المعرفة: الطبيعية منها والإنسانية، فضلا عن مطبعة وآلات علمية من كل نوع تمثل آخر ما تفتقت عنه الثقافة والصناعة الغربية فى ذلك الوقت، وهو ما لم يكن له أى وجود فى فتح مصر. وعلى رأس كل ذلك نابليون بونابرت، الذى صدع الفرنسيون وما زالوا يصدّعون بعبقريته أدمغتنا بحسبانه من الفلتات العسكرية التى نادرا ما يجود الدهر بمثلها، ومعه مساعدوه الذين لا يقلون عنه كثيرا

فى الموهبة. لكن على الجانب الإسلامى لا نرى شيئا من ذلك، فلا ضباط ولا جنود بالمعنى الذى نفهمه من تينك الكلمتين، بل رجال وشبان متحمسون لم يتخرجوا كالفرنسيين من كليات أو معاهد أو أكاديميات ولم يتدربوا يوما تدريبا عسكريا، ولا يتجاوز عددهم أربعة آلاف، وإن جاءتهم أثناء المعارك التى دارت بينهم وبين جيوش الرومان بعض الأمداد. بل إن عمرو بن العاص لم يسبق له قبل دخوله الإسلام أن اشترك فى حرب. كما أن الحروب القليلة التى خاضها ضد قوات الإسلام قبل أن يعتنقه كانت أشبه ما تكون بالمعارك القبلية التى لا تعدّ شيئا مذكورا إزاء الحروب الحديثة لا فى تخطيطاتها ولا فى أسلحتها.

وإذا كانت الحملة الفرنسية قد خلفت لنا فى وصف مصر عشرين مجلدا ضخما مصوغة بأسلوب علمى بلغ الغاية من الدقة، مع الاستعانة بالخرائط والتصاوير والإحصاءات، ولم تترك شاردة ولا واردة فى مصر من ناحية التاريخ أو الجغرافية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الدين أو اللغة إلا وفصّلت فيها القول تفصيلا، وكتب كل موضوع من موضوعاتها مؤلفٌ متخصصٌ فيه اعتمد بدوره على ما كُتب فى ذلك الموضوع من مصادر ومراجع، فإن كل ما وصلنا عن وصف مصر هو تلك السطور المعدودة التى تضمنتها رسالة عمرو بن العاص للخليفة ابن الخطاب، وهى سطور أقرب إلى الشعر منها إلى الوصف العلمى. ومع هذا فإن سطور عمرو ترتبط بالتوفيق الناصع الكامل الذى لاقاه المسلمون فى فتح المحروسة، بينما لم يكن وراء مجلدات "وصف مصر" إلا الفشل الذريع الشامل. وهذا إذا كانت رسالة عمرو للفاروق عمر صحيحة تاريخيا، أو على أقل تقدير: قد وصلت إلينا فى صيغتها الأصلية.

ويتكون كتاب "وَصْفِ مصر" من ٢٠ مجلدًا تمت كتابتها وتجميعها إبان الحملة الفرنسية على مصر، إذ اصطحب نابليون بونابرت معه فريقا من العلماء من كافة التخصصات وصل عددهم نحو ٢٦٠ عالما ليسجلوا ملاحظاتهم. وبعد عودة الفريق إلى فرنسا قام وزير الداخلية آنذاك جان أنطوان شبتال في ١٨ فبراير ١٨٠٢م بتشكيل لجنة من العلماء والملاحظين قامت بنشر جميع المواد العلمية الخاصة بالحملة، ومنها ١٠ مجلدات للوحات، وأطلس خرائط، و٩ مجلدات للدراسات العلمية. أما وصف عمرو لمصر فها هو ذا كما أورده ابن تغرى بردى فى كتابه: "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة"، وإن كنا نظن أن يد البلاغة قد لعبت على مر الأيام بالنص الأصلى إذا صح أنه له فعلا، إذ من المؤكد أن أسلوب عمرو أبسط من ذلك كثيرا: "قال بعض المؤرخين إنه لما استقر عمرو بن العاصي رضي الله عنه على ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنْ: صِفْ لِي مصر. فكتب إليه: "ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر. اعلم، يا أمير المؤمنين، أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء. طولها شهر، وعرضها عشر. يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر. يخط وسطها نيل مبارك الغزوات، ميمون الروحات. تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر. له أوان يدر حلابه، ويكثر فيه ذبابه. تمده عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا ما اصْلَخَمَّ عجاجه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل وُرْق

الأصائل. فإذا تكامل في زيادته، نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته، وطما في درته. فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب. لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم. فإذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى، وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء. والذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها، في عمل جسورها وترعها. فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال. والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل".

وفى ابن تغرى بردى أنه "لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لله درك يا بن العاص! لقد وصفت لي خبرا كأني أشاهده". ويقول د. حسن إبراهيم حسن إن هذا الخطاب قد تُرجم إلى الفرنسية، وعلق عليه الكاتب الفرنسى أوكتاف أوزان فى صحيفة "Le Figaro" بأنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وإنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه. ثم زاد فاقترح تدريسه فى جميع مدارس الدنيا حتى يتعلم التلاميذ والطلاب منه قوة الوصف ومتانة التعبير وصحة الحكم على الأشياء وكيفية تنظيم الدول وسوْسِها"[١].

ومُضِيًّا مع المقارنة بين الفتح الإسلامى لمصر والحملة الفرنسية عليها نقول إن نابليون بونابرت قد التجأ فى غزوه لمصر إلى الخداع الحقير، فقد تظاهر أمام أهليها كذبا ونفاقا بأنه مثلهم مسلم، وأنه إنما جاء بجيشه لتحريرهم من المماليك. وبالمناسبة فقد كان يصحب الجيشَ الفرنسىَّ مجموعةٌ كبيرةٌ من البغايا مهمتهن الترفيه عن الضباط والجنود، أما عمرو وصحبه فلم يكونوا يعرفون مثل ذلك الدنس الخلقى والاجتماعى والإنسانى. ذلك أن عمرو بن العاص هو ابن الإسلام. لهذا لم يعرف جيشه هذا العهر الغربى. كما صارح رضى الله عنه أسلافنا منذ البداية ببضاعته العقيدية وعرّفهم أنه إنما جاءهم بدين التوحيد. إنه لا يعرف الأساليب النابليونية الكاذبة، بل الأسلوب الإسلامى المستقيم. ولقد مضى نابليون فى سُنّة الخداع والكذب إلى الدرجة التى كان يلبس ملابس علماء الإسلام فى مصر ويشهد صلوات الجمعة مع المسلمين، ولئن لم ينطل شيء من ذلك على أهلينا الكرام، الذين هبوا ثائرين عليه رافضين ألاعيبه الدنسة، وظلوا فى ثورة متصلة حتى استطاعوا آخر المطاف أن يدحروا الجيش الفرنسى بعد ثلاث سنوات كان ذلك الجبان قد فر أثناءها من مصر تحت جنح الظلام وتركها للمجرم كليبر، الذى اغتاله البطل

---

[١] انظر د. حسن إبراهيم حسن/ تاريخ عمرو بن العاص/ مكتبة مدبولى/ سلسلة "صفحات من تاريخ مصر"/ العدد ٣٤/ ١٩٩٦م/ ١٩٤.

المسلم الحر سليمان الحلبى ليتولى مقاليد قيادة الجيش الفرنسى وإدارة شؤون البلاد من بعده جاك مينو، الذى أعلن إسلامه وتزوج من امرأة رشيدية مسلمة. ولكن ذلك كله لم يدخل عقول المصريين، فلم يتوقفوا عن الثورة. وكان أنْ رَحَلَ الفرنسيونَ فى النهاية عائدين من حيث أتَوْا يجللهم الخزى والفشل والعار. وقد ارتد ذلك الوغد مينو، الذى كان قد تسمى بعد تظاهره بالإسلام باسم "عبدالله"، إلى النصرانية مرة أخرى بعد عودته إلى فرنسا، ثم لم يكتف بذلك بل خدع زوجته المصرية المسلمة بأن تنصير طفلهما لا يناقض الإسلام، مستعينًا بمستشرق لئيم مثله أقنعها بصحة هذا الأمر، مستغلا فى ذلك غربتها فى فرنسا وسذاجتها، وزاد فكان يعاملها معاملة سيئة غاية السوء. ويقال إنه قد انتهى الأمر بها إلى انخداعها بكلامه وتحولها إلى النصرانية باعتبار أن الأديان كلها واحدة[١].

---

[١] فى كتاب حمدى البطران: "مصر بين الرحالة والمؤرخين" أن الزوجة، واسمها زبيدة، كانت شابة، فى الوقت الذى كان مينو يقترب من الخمسين. وقد سُمِّىَ الولد باسم سليمان مراد جاك مينو. ولما تم جلاء الجيش الفرنسي عن الإسكندرية طلب لها مينو الإذن بالسفر إلى فرنسا والتقى بها هناك. وقد أساء ذلك الوغد معاملتها وتنكر لها واستبدل بها بعض الراقصات. كما كتب الطهطاوى فى كتابه: "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" أنه عندما سافر إلى العاصمة الفرنسية عام ١٨٢٦م شاهد عددا كبيرا من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنسيين، وندر وجود أحد من المسلمين بينهم، إذ كان المسلمون إما ماتوا وإما تنصروا، وإن كان أيضا قد شاهد امرأة عجوزا باقية على الإسلام. وسمع في مرسيليا أن مينو رجع عن إسلامه إلى النصرانية، وأن زوجته لما وضعت ابنها أراد مينو أن يعمده، لكنها رفضت. فحاول أن يقنعها بأن الأديان مآلها جميعا واحد، لكنها أصرت على الرفض. فما كان منه إلا أن أحضر لها المستشرق دي ساسي، طالبا منها أن تسأله، فاستشهد لها الثعلب الماكر بقوله تعالى: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (سورة البقرة/ ٦٢)، موهما إياها أن الآية تسوى بين الأديان جميعا، على حين أن الآية بكل وضوح تشترط، إلى جانب العمل الصالح، الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو ما لا يتم إلا بالإيمان بكل الأنبياء والكتب السماوية، وفى المقدمة سيدنا محمد والقرآن كما هو مذكور فى القرآن نفسه. فعندئذ صدَّقَتْه وأَذِنَتْ بتعميد ولدها. ويقول الطهطاوى إنه سمع أنها قد تنصرت فى نهاية المطاف أيضا.

أما عمرو فنجح فى فتحه لمصر، التى اعتنقت الإسلام وتبنت اللغة العربية وثقافة العرب والمسلمين وتخلت تماما عن لغتها وثقافتها بمحبة واقتناع تحوّلا مع الزمن إلى عشقٍ ووَلَهٍ حتى بَزّتْ مصرُ فى ذلك بلادَ العرب نفسها، وأصحت هى حامية حمى الإسلام والعروبة بعدما دحرت الصليبيين والتتار. أى أنه فى الوقت الذى نجح فيه عمرو وحده فى قيادة فتح مصر نجد أن ثلاثةً من أكابر قواد فرنسا بل أوربا كلها يفشلون فشلا ذريعا فى مجرد البقاء فى مصر، فضلا عن طبعها بالطابع الفرنسى لغة وثقافة ودينا إلى الأبد كما حصل فى حالة الفتح الإسلامى. كذلك فعمرو لم يفتح مصر وحدها، بل فتح فلسطين، وشارك فى فتح الشام من قبل، زيادةً على فتحه طرابلس من بعد. فانظر أيها القارئ الكريم وتأمل، ولسوف تتحقق فعلا أن الأمر كما قلت لك من أن عمرو بن العاص أفضل كثيرا من أولئك الساسة والقادة العسكريين الذين قارنهم به كل من جِنّى وزيدان.

فتح مصر إذن وانطباعها بالطابع العربى الإسلامى يعود الفضل فيه إلى عمرو ورجاله بعد الله سبحانه، عمرو ورجاله الذين رباهم رسولنا الكريم على عينه فأحسن التربية. وإذا كان الغزو الفرنسى قد فشل فشلا ذريعا حتى لقد فقدت القوات الفرنسية نصف رجالها على أيدى أجدادنا الأبطال، فها هى ذى ثمار الفتح الإسلامى بل بركاته وأفضاله وهباته الكريمة لا تزال قائمة حية فى كل مكان رغم كل ما مرت به مصر من مؤامرات من القوى الدولية الكبرى ضد الإسلام منذ أول يوم. كذلك لم يحترم الفرنسيون دور العبادة الإسلامية قط حتى لقد دنس الضباط والجنود الفرنسيون الملاعين الجامع الأزهر نفسه بخيولهم، التى أوطأوها إياه وتركوها تبول وتروث بداخله بعدما ربطوها فى قبلته، علاوة على فظائعهم الأخرى من تقتيل للرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وهتك للأعراض، وتحريق للمنازل، ومصادرة للأموال، وموالاة لفرض الضرائب الباهظة. أما المسلمون فلم يمسُّوا كنيسة أو معبدا بأى أذى، واحترموا دين المصريين رغم إيمانهم بأن كل دين ما عدا دين الإسلام غير مقبول عند الله. وكانت الجزية لا تتجاوز دينارين عن كل فرد نظير أمرين: حمايته، وإعفائه من الخدمة العسكرية، التى لم يكن يصح ولا يليق أن ينخرط فيها غير المسلم حتى لا يجد نفسه وقد تعين عليه أن يواجه أبناء دينه فى الحرب. فانظر إلى الفرق العظيم بين الفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو، الذى كان يمثل دولة ناشئة بدائية لا تملك من إمكانات الدول شيئا له قيمة على الإطلاق، وبين الغزو الفرنسى، الذى تعاقبَ على قيادته ثلاثة من كبار رجال فرنسا، وفشلوا جميعا أمام شعب متخلف عن فرنسا بأشواط شاسعة، بخلاف الوضع فى الفتح الإسلامى، إذ قام به عدة آلاف من الجنود البدائيين ضد دولة الروم: أمريكا ذلك العصر.

وحتى تكتمل الصورة لا بد أن نوضح للقارئ ما نبهنى ابنى إلى أنه لا يصح أن نُغفِل فى هذا السياق، سياق الموازنة بين نابليون وبين المجاهد العظيم عمرو بن العاص، ما يعرفه التاريخ من أن الانتصارات التى حققها نابليون فى أول حياته العسكرية قد انتهت فى آخرها إلى هزائم مريرة فقدت فيها فرنسا كل شىء، وفقد هو معها كل مجده وكرامته، إذ تم أسره ونفيه خارج فرنسا ذليلا مهانا حيث مات

ميتة تعيسة، وكأنك يا أبا زيد ما غزوت! أما إنجازات عمرو بن العاص وانتصاراته الباهرة المجيدة فقد بقيت كلها لا لسنوات معدودة ثم ذابت مثلما تذوب رَغاوَى الصابون كما هو الحال فيما حققه نابليون في حروبه، بل لقرون وقرون، وسوف تستمر إلى ما شاء الله. وقضى الرجل عزيزا لم يمس كرامته سوء، ولم يستطع الأعداء معه شيئًا، إذ كانوا قد اندحروا اندحارا نهائيا أمام ضرباته الساحقة، رضى الله عنه وأرضاه.

تقول مادة "نابليون الأول" في نسخة "الويكيبيديا" العربية عن هذا الجانب من حياة القائد الفرنسي: "خاضت الإمبراطورية الفرنسية نزاعات عدة خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر عُرِفتْ باسم "الحروب النابليونية". . . وأحرزت فرنسا انتصارات باهرة في ذلك العهد على جميع الدول التي قاتلتها، وجعلت لنفسها مركزًا رئيسيًا في أوروبا القارية، ومدت أصابعها في شؤون جميع الدول الأوروبية تقريبًا حيث قام بونابرت بتوسيع نطاق التدخل الفرنسي في المسائل السياسية الأوروبية عن طريق خلق تحالفات مع بعض الدول، وتنصيب بعض أقاربه وأصدقائه على عروش الدول الأخرى. وشكل الغزو الفرنسي لروسيا سنة ١٨١٢ نقطة تحول في حظوظ بونابرت حيث أصيب الجيش الفرنسي خلال الحملة بأضرار وخسائر بشرية ومادية جسيمة لم تمكن نابليون من النهوض به مرة أخرى بعد ذلك[١]. وفي سنة ١٨١٣ هزمت قواتُ الائتلاف السادس الجيشَ الفرنسيَّ في معركة الأمم. وفي السنة اللاحقة اجتاحت هذه القوات فرنسا ودخلت العاصمة باريس وأجبرت نابليون على التنازل عن العرش، ونفَوْه إلى جزيرة ألبا. وهرب بونابرت من منفاه بعد أقل من سنة وعاد ليتربع على عرش فرنسا، وحاول مقاومة الحلفاء واستعادة مجده السابق، لكنهم هزموه شر هزيمة في معركة واترلو خلال شهر يونيو من عام ١٨١٥. واستسلم بونابرت بعد ذلك للبريطانيين، الذين نفَوْه إلى جزيرة القديسة هيلانة، المستعمرة البريطانية، حيث أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته. وأظهر تشريح جثة نابليون أن وفاته جاءت كنتيجة لإصابته بسرطان المعدة على الرغم من أن كثيرًا من العلماء يقولون بأن الوفاة جاءت بسبب التسمم بالزرنيخ".

أرجو أن تكون صورة عمرو بن العاص وعظمته قد تجلت من خلال هذه المقارنة السريعة التي لم أتوقف فيها إلا عند الخطوط العامة. رضى الله عن عمرو بن العاص رضى واسعا، وجازاه عنا نحن المصريين خير الجزاء، فإن له في أعناقنا جميعا لدَيْنًا كبيرًا. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

---

[١] فقد نابليون من رجاله حَوالَىْ نصف مليون في روسيا وحدها. قارن ذلك بالعدد الصغير الذي خسره عمرو بن العاص في كل معاركه، ودعنا من الثمار العظيمة التي جناها المسلمون من وراء هذه المعارك مقارنة بالفشل الفادح الذي مُنِيَتْ به فرنسا على يد قائدها المغوار.

قال فى حق عمرو رضى الله عنه: "ابنا العاص مؤمنان"، أى عمرو وأخوه هشام، و"عمرو بن العاص من صالحى قريش. ونعم أهل البيت: أبو عبد الله، وأم عبد الله، وعبد الله"[١].

وقسْ على الغزو الفرنسى محاولة الإنجليز احتلال مصر بقيادة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧م، أى بعد اندحار الفرنسيين بأعوام خمسة ليس إلا، تلك المحاولة التى مُنِيَت بالفشل التام وخروج أصحابها أذلاء مهانين مدحورين أمام بسالة سكان رشيد، الذين لم يمكنوا أولئك المجرمين من النفوذ إلى مصر عبر مدينتهم مستعينين بالله سبحانه وبطلقات الرصاص الذى انهمر دفعة واحدة فوق رؤوس الأوباش الإنجليز وهم متناثرون كالدجاج الدائخ فى شوارع المدينة، وأهل رشيد يرددون اسم الله الكريم من فوق مئذنة الجامع الكبير، ليعود أوغاد بريطانيا بعد مرور خمسة وسبعين عاما لاحتلال البلاد إثر طائفة من الأحداث المريبة والخيانات العجيبة، ولكنهم لا يستطيعون البقاء فى مصر سوى سبعين عاما خرجوا بعدها، بينما الإسلام والعروبة والثقافة الإسلامية العربية راسخة على مدار أربعة عشر قرنا فى أرض المحروسة، وخالدة إلى الأبد إن شاء الله. وكل ذلك، بعد الله سبحانه، بفضل عمرو بن العاص وجنوده النبلاء الكرام، رضى الله عنهم وأرضاهم. ولا ريب فى أن هذا هو أقوى رد على من يزعمون أن المصريين لم يبسطوا ذِرَاعَىِ الترحيب لعمرو ورجاله. ترى لماذا أصر المصريون على خروج الفرنسيين ثم الإنجليز من بعدهم من بلادهم، ولم يدخروا تضحية ولا بذلا فى هذا السبيل حتى دحروهم رغم أن مصر دولة ضعيفة متخلفة فقيرة، على حين كان العكس هو الصحيح فى الفتح الإسلامى الكريم؟ ولماذا أقبلوا على الدين الذى جاء به عمرو، واللغة التى كان يتكلمها عمرو، والثقافة التى كان يتثقف بها عمرو، ورفضوا لغة الإنجليز والفرنسيين وثقافتهم ودينهم رغم كل هذا؟

وأخيرا أحب أن أورد شهادة أحد الكتاب بالقسم الخاص بمدينة الإسكندرية فى كتاب "وصف مصر"، إذ وصف ابنَ العاص، إعجابا به وبمقدرته العسكرية والسياسية، بأنه "عمرو الرهيب"[٢]. وهذه الشهادة فى سياقنا الحالى هى أهم شهادة من نوعها لأن قائل هذا واحد ممن اشتركوا فى الحملة الفرنسية، تلك الحملة التى تحققنا، من خلال المقارنة بينها وبين فتح مصر على يد عمرو بن العاص، أنها فى الرَّغام، أما الفتح الإسلامى ففى السماء السابعة. وشهد شاهد من أهلها!

---

[١] أرجو، إذا وهبنا الله حفيدا آخر غير خالد، الذى اخترت له اسم الصحابى الكبير خالد بن الوليد، والذى ألقبه وهو لا يزال رضيعا بـ"الفيلسوف الصغير"، أن نسميه بمشيئة الله: "عَمْرًا" تحيةً متواضعةً لابن العاص المجاهد الصنديد، وتقربًا إلى الله بحبه، وردًّا على من يحاول من الأقزام التطاول على الصحابى الجليل، ومنهم الشيوعى الوقح القبيح الوجه والبدن واللسان الذى تسافه قبيل هلاكه على ذكرى عمرو بن العاص، فختم الله له بأسوإ الأعمال وذهب إلى حيث ألقت غير مأسوف عليه.

[٢] انظر كتاب "وصف مصر"/ ترجمة زهير الشايب/ ٣/ ٢٧٩.

هذا، ولا بد أن ألفت النظر هنا إلى شيء غاية فى الأهمية، وهو أن المسلمين فى البلاد التى فتحها العرب هم من أهل البلاد المفتوحة، اللهم إلا نسبة جد ضئيلة لا تكاد تذكر. ذلك أن العرب الذين كانوا يدخلون تلك البلاد إنما كانوا يدخلونها بآلاف معدودة ليس إلا. وماذا تكون تلك الآلاف المعدودة فى بحر الملايين المتلاطم من سكان كل بلد؟ لقد دخل عمرو بن العاص مصر مثلا أول ما دخلها بأربعة آلاف جندى أو أقل، ثم جاءته على سبيل المدد بضعة آلاف أخرى. ثم إن هؤلاء جميعا لم يستقروا فى مصر إلى الأبد، بل مضى بعضهم يفتح البلاد غربا. أقول هذا لأعالج خطأ صرنا نسمعه هذه الأيام مؤداه أن المسلمين فى مصر ليسوا مصريين فى الحقيقة، بل هم عرب انتقلوا إلى مصر عند الفتح، ثم استقروا فيها ولم يعودوا إلى بلادهم منذ ذلك الحين. والآن عليهم، فى رأى من يزعمون هذا، أن يعودوا من حيث أتوا، أى إلى بلاد العرب، أو "جزيرة المعيز" كما يسميها بعض هؤلاء الزاعمين. وهذا أمر خطير سوف تكون له عواقبُ وخيمة. فالإسلام فى نظر هؤلاء ليس دينا مصريا، بل دينا أتى من خارج الحدود. ونسى هؤلاء أن الدين المصرى الأصيل الذى نعرفه هو وثنية الفراعين، وأن النصرانية هى أيضا دين أتى من خارج الديار، مثلها مثل الإسلام سواء بسواء[1].

وكثير من الناس للأسف ينظرون إلى مسلمى الأندلس بنفس العين، ويَرَوْنَ فيما فعله الملكان الإسبانيان فرديناند وإيزابلا من إعادة شبه جزيرة أيبريا نصرانية كما كانت قبل مجىء العرب إليها أمرا عاديا ليس فيه ما يمكن أن يؤخذ عليهما، بما فيه طرد المسلمين من البلاد أو قتلهم أو تنصيرهم قسرا. ومقطع الحق أن المسلمين الذين كانوا يعيشون فى شبه جزيرة أيبريا إنما كانوا أوربيين حتى أولئك الذين كانوا يحملون أسماء عربية لا نستثنى منهم مع مضى الوقت أولاد الحكام أنفسهم. ذلك أن العرب الخلص هناك كانوا نسبة صغيرة جدا كما هو معروف، فهم نقطة فى بحر من أهل البلاد، ثم تزوج كثير منهم من السكان المحليين فنشأ جيل مختلط، ثم تزوج كثير من هذا الجيل المختلط من السكان المحليين أو من أمثالهم من الجيل المختلط فصارت نسبة الدم العربى مع مرور الزمن ضئيلة جداً ضئيلة. . . ويؤكد هذا فيليب حتى، إذ يقول إن أهالى البلاد المفتوحة قد تزاوجوا بالعنصر الفاتح فاختلط بهم الدم العربى حتى ضاع بين

---

[1] ما نراه ونسمعه ونكتوى به الآن من مزاعم خاطئة عن الإسلام والمسلمين بما يستتبع ذلك من نفى المصرية عنهم والادعاء بأن النصارى وحدهم هم أصحابُ البلد حدث مثله فى أوائل القرن المنصرم، ثم انتهت الخصومة بين الفريقين إلى الوضع الذى كان سائدا من قبل، وضع التفاهم والمجاملة ومراعاة كل طرف لمشاعر الآخر. ونرجو أن ينتهى الخلاف الحادث الآن بين الأغلبية المسلمة وشركاء الوطن إلى ما انتهت إليه الخصومة التى اشتعلت قبل نحو ١٠٠ عام. انظر فى التاريخ المفصل لتلك الخصومة د. محمد محمد حسين/ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر/ ط٧/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م/ ١/ ١٢٥- ١٥١.

العناصر[١]. ويوضح هذا فى موضع آخر قائلا إنه باعتناق الفرس والسريان والقبط والبربر الدين الجديد وتزاوجهم بالعرب لم يعد لقومية المسلم أهمية، إذ صار كل من أسلم وتحدث بالعربية عربيا بغض النظر عن جنسه الحقيقى[٢].

ولتوضيح هذه النقطة أسوق ما ذكره د. أحمد أمين فى كتابه: "ضحى الإسلام" من أن أم الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور بربرية، وأم الرشيد سَبِيَّةٌ من خَرْشَنَة، وهى بلدة قرب مَلَطية، وأم المأمون فارسية، وأم الواثق أَمَة تسمى: قراطيس، وأم المتوكل أَمَة تسمى: شجاع. . . وهكذا[٣]. وأما مسلمو الأندلس فإنهم، كما هو الحال فى أى بلد آخر فتحه المسلمون، قد أتَوْا من أن معظم أهل البلاد اعتنقوا الإسلام مع الأيام مثلما حدث فى مصر وغيرها. وكثيرا ما تساءلت أمام طلابى: إلى أى مدى يمكننا أن نعد ولادة بنت المستكفى مثلا عربية؟ فأما من ناحية الجنس فربما لم يكن يزيد ما فى عروقها من دم عربى للأسباب التى وضحتها على عشرة فى المائة، أما أنها عربية الثقافة واللغة والأدب والعادات والتقاليد فهى عربية عريقة. ولا يصح أن ننسى أن أمها أَمَةٌ من أهل البلاد، شأنها فى ذلك شأن كثير من الخلفاء الأمويين وأبنائهم وبناتهم فى الأندلس.

وعلى هذا الأساس فالذين نُفُوا من الأندلس أو نُصّروا كَرْهًا أو تم تعذيبهم وقتلهم هم أسبانٌ خُلَصاءُ الأسبانيةِ أو ذوو نسبةِ دمٍ أسبانيةٍ عالية. ومن ثم فالحديث عن الاضطهاد الذى يقال إنه وقع بالمصريين فى ظل الحكم الإسلامى هو كلام غير دقيق. فمثلا بالنسبة إلى الادعاء الخاصّ بإجبارهم إلى اعتناق الإسلام فإن من بَقِىَ على نصرانيته منهم دليل لا يُدْحَض على أن أسلافهم لم يتعرضوا للإكراه الدينى المزعوم، وإلا ما بَقوا على نصرانيتهم. وأما المسلمون الذين يُدَّعى أن أجدادهم قد دخلوا فى الإسلام برغم أنوفهم فإنهم لا يَشْكُون من شىء بتاتا حتى لو ثبت أن هذا صحيح، وما هو بصحيح أبدا، بل يعتزون بدينهم ويَعَضون عليه بالنواجذ، ويَرَوْن أن الله قد أكرمهم بانتسابهم إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم، ويُكِنّون للصحابى الجليل عمرو بن العاص رضى الله عنه محبة خاصة لأنه كان، بعد الله سبحانه وتعالى، السبب فى تعرّفهم إلى هذا الدين، واعتناقهم له وتشرّفهم به من ثَمّ. ولهذا يَسْتَحْلُون اسم "عمرو" ويكثرون من تسمية أبنائهم بهذا الاسم المحبوب. وكما لا يتدخل المسلمون، وهم نحو خمسة وتسعين بالمائة من السكان، فى عقائد شركائهم فى الوطن أو يقولون إن هؤلاء الشركاء ينبغى أن يغادروا البلاد لأن دينهم غير مصرى، ولأن نسبة منهم تنتمى إلى جنسيات أخرى كاليونان والأرمن والشوام والقبارصة وما إلى ذلك، فينبغى أن يراعى إخوان الوطن هذا المبدأ، وبخاصة إذا كان المسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة.

---

[1] Philip Hitti, The Arabs: A Short History, P. 81.
[2] P. 84.

[٣] انظر د. أحمد أمين/ ضحى الإسلام/ مكتبة الأسرة/ ١/ ١٩٩٧م/ ٢٩.

ومن ثم فليس من الحقّ، ولا من اللياقة، فى شىء أن يقال إن مسلمى مصر ضيوف كما صرح بذلك بعضهم منذ فترة غير بعيدة. والمفارقة فى الأمر أن من قال ذلك لا يشبه فى ملامحه ولا فى لون بشرته المصريين الأصلاء كما لاحظ من علقوا على كلامه من المسلمين. لكننا لا نقف عند هذه الملاحظة الأخيرة، بل نقول إن صدر مصر يتسع للجميع. والعبرة أن نفهم ذلك ونتصرف جميعا على مقتضى الحكمة والوطنية والكياسة بدلا من الرعونة والاستفزاز الذى لا ثمرة له غير إحراق الوطن. وبالمناسبة فرغبة بعض من ينتسبون إلى الأقلية بمصر فى التحكم فى سير الأمور فى البلاد تمثل النقيض التام لمبادئ الشورى والديمقراطية. وقى الله مصرنا الحبيبة شرور الفتن ما ظهر منها وما بطن! ووقى الله سائر البلاد العربية التى تتردد فى جنباتها هى أيضا مثل هذه الدعوة!

حريق مكتبة الإسكندرية

لدى مناقشتنا للموضوع الخاص بحرق مكتبة الإسكندرية ينبغي أن نتناوله أولاً من ناحية الرواية التى نقلته لنا حتى ندرك مدى معقولية مثل هذا الخبر أساسا، ثم ننظر فى نص الرواية ذاته لنرى مبلغ ما فيه من تماسك ومنطقية، ثم نتناول الأمر من الناحية النظرية لمعرفة موقف الإسلام من إحراق الكتب، وبخاصة الكتب الموجودة فى المكتبات العامة، ثم رابعا نناقش الأمر فى ضوء ما نعرفه عن شخصية كل من ابن الخطاب وابن العاص، ثم خامسا نعالج المسألة من الزاوية التاريخية. والآن نشرع بالنظر فى النص من ناحية الرواية. وأول ما يلفت النظر فيها أنها لم تظهر إلا بعد فتح مصر بأكثر من خمسة قرون، لم يذكرها ذاكر لا من المسلمين ولا من أعداء المسلمين طوال تلك الفترة المتطاولة. فأين كانت الرواية كل هذه المدة؟ هل يعقل أن يقع أمر جلل كهذا دون أن يكتب عنه أحد شيئًا على مدار تلك القرون إلى أن يأتى عبد اللطيف البغدادي والقفطى وأبو الفرج العبرى (ق٦- ٧هـ) فيشيروا إلى حكاية الحرق هذه؟ هل يمكن أن يختفى كل هاتيك القرون مثل هذا الخبر التاريخى الذى لو كان وقع لعرفت به الدنيا كلها وسجلته وتناقلته واستغربته وأنكرته، ورغم ذلك كله لا تعرف الدنيا عنه شيئًا ولا تسجله ولا تتناقله ولا تستغربه ولا تنكره، ثم فجأة يكتب عنه البغدادي والقفطى وابن العبرى بعد ما يزيد على خمسة قرون؟ فما مصدرهم فى هذه الحكاية؟ هل يا ترى يصح أن نقبل مثل ذلك الخبر كما هو بعوراته وسوآته دون أن نقف إزاءه لنتساءل من أين أتى، ومن أتى به، وفى أية ظروف أتى به، وكيف وصل للبغدادي والقفطى وابن العبرى دون الناس جميعا . . . إلخ؟ بكل يقين لم ينزل عليهم به وحى من السماء، فمن إذن أخبرهم به؟ ولماذا سكتوا فلم يحاول أى منهم أن يناقش هذه النقطة، وهو يعرف أنه أول من تناول الأمر؟ إن مثل ذلك الخبر لم يكن ليصح أن يمر على هؤلاء الكتاب دون أن يقلبوه على كل وجوهه فيذكروا لنا مصدره وقائله والظروف التى سمعوا به فيها؟ إن مثل ذلك الخبر ليس مما يصح تسجيله بهذه الخفة واللامبالاة التى سجله بها هؤلاء الثلاثة. إنه اتهام خطير لا يُقبَل من أى إنسان إلقاؤه هكذا دون التثبت من صحة مصدره والظروف التى سمعه فيها. وكل من البغدادي والقفطى وابن العبرى ليس بالكاتب التافه الذى يمكن الاعتذار عنه بأنه قد ساق ما سمع دون تمحيص. لقد كان هناك كتاب نصارى مثل ثيوفانس (البيزنطى) ويحيى بن عَدِيّ (العربى) ويوحنا النقيوسى وابن البطريق (المصريين) مثلا قبل هؤلاء الثلاثة بزمن طويل، وكلهم كان يهمه تشويه صورة الإسلام والمسلمين ورجالاتهم الكبار بكل سبيل، أفلو كان ذلك الخبر صحيحا أكان هؤلاء جميعا، وأشباههم كثيرون، يسكتون عنه فلا يشيروا إليه من قريب أو من بعيد؟

ومن هنا فلا معنى لما قاله جرجى زيدان، الذى يفترض أن المصادر الإسلامية المبكرة تكلمت عن هذا الموضوع، لكن المسلمين بعد تمدنهم حذفوا هذا الكلام تصورا منهم أنه يسىء إلى دينهم وكبار

رجالهم[١]. إنها حجة غير مقبولة البتة لأن السكوت عن هذا الموضوع لا يقتصر على المصادر الإسلامية وحدها كما رأينا، فضلا عن أن المسلمين، على العكس مما يقول، كانوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا وسجلوها وأفاضوا فيها القول مهما كان من إساءتها إليهم حتى إننا لنشكو مُرَّ الشكوى من هذا الأمر الذى يستغله خصوم الإسلام الآن، وأرى أن المسلمين المتقدمين ما كانوا ليبالوا به أدنى بالة، إذ كانوا من القوة والعافية والثقة بأنفسهم وبدولتهم وتاريخهم ورجالهم بحيث ما كانوا ليفكروا فى هذه الاعتبارات. ولو افترضنا أنهم فعلا قد تصوروا فيما بعد أنها مسيئة إليهم لقد كان فى مناقشتهم لها وردهم على ما جاء فيها مندوحة واسعة بدلا من حذفها. ومعروف أن مناقشة الفكرة بفكرة مثلها كانت سُنّة المسلمين، وإلا فكيف وصلت إلينا كتب الملاحدة والشكاكين من المنتسبين إلى الإسلام، وكذلك كتب الفرق المختلفة التى يكذب بعضها بعضا وتتصور كل فرقة أنها هى وحدها الصواب؟ بل كيف وصلت إلينا كتب اليهود والنصارى التى هاجموا فيها الإسلام؟ وحتى لو غضضنا النظر عن ذلك وقلنا إن الحذف قد حصل فهو خاص بالنسخ الجديدة، أما القديمة فبقيت على حالها، اللهم إلا إذا زعمنا كذبا وبهتانا أنه كان هناك من يتولون رقابة المخطوطات، وأنهم قد داروا على جميع من عندهم نسخة من الكتاب المراد التخلص منه، فأعطوا كلا منهم نسخة جديدة وأخذوا منه القديمة ودمروها بحيث لا يتبقى منها أى أثر. ولنفترض أننا غضضنا البصر عن هذا أيضا أمن الممكن أن يتواطأ على ذلك المسلمون والمنتسبون إلى الإسلام جميعا سُنّة وخوارج ومعتزلة ومتصوفة وملاحدةً ومنافقين، ودعنا من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس الذين كانوا يستظلون بظل الدولة الإسلامية آنذاك. ولا تنس الشيعة وكتابهم ومؤرخيهم، فما كانوا ليفلتوا مثل تلك الفرصة الخطيرة دون أن ينتهزوها ليشوهوا صورة عمر بن الخطاب، الذى لم يتركوا مثلبة إلا وألصقوها به وافتروا عليه المفتريات التى لا تدخل العقل كما يعرف ذلك كل أحد، وكذلك عمرو بن العاص، الذى اتخذ جانب معاوية ضد على بن أبى طالب فلم يشفع له عندهم شىء من حسناته، وما أكثرها! لكننا ننظر فلا نلفى أحدا منهم ينبس ببنت شفة واحدة فى هذ الموضوع! ولو كان عَمْرٌو وعُمَرُ قد أحرقا مكتبة الإسكندرية لطنطنوا بالزراية عليهما والمقارنة بين هذين الكارهَيْن للكتب والمكتبات وبين عَلِىّ بن أبى طالب باب مدينة العلم كما يصفونه، ولكن الشيعة لم يفعلوا، فما معناه؟ ثم فلنفترض أننا غضضنا النظر أيضا عن كل ما قلناه، فلم يا ترى ترك المسلمون ما كتبه عبد اللطيف البغدادى والقفطى فلم يحذفوه ما دام الحذف عندهم سهلا إلى هذا المدى؟

ثم بعد الانتهاء من خطوتنا الأولى نثنى بتحليل النص ذاته. وسوف أنقل ما كتبه كل واحد من الثلاثة الذين أوردوا فى كتبهم هذه الحكاية: فأما البغدادى فعبارته شديدة الإيجاز وتسير على النحو التالى: "وفيها (أى فى دار العلم التى أنشأها الإسكندر الأكبر بمدينة الإسكندرية) كانت خزانة الكتب

---

[١] انظر جرجى زيدان/ تاريخ التمدن الإسلامى/ ٣/ ٤٩.

التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه"[١] .ولا ينبغى أن يفوتنا أن البغدادى كان مارا بمصر، إذ كان رحالة يجوب البلاد، ولم يكن من أهلها .

وأما ما كتبه القفطى فهو متاح فى المادة المخصصة ليحيى النحوى من كتابه: "تاريخ الحكماء"، وهو يجرى هكذا: "يحيى النحوى المصرى الإسكندرانى تلميذ شاوارى. كان أسقفا فى كنيسة الإسكندرية بمصر، ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث لما قرأ كتب الحكمة واستحال عنده جَعْل الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدا. ولما تحققت الأساقفة بمصر رجوعه عزَّ عليهم ذلك، فاجتمعوا إليه وناظروه، فغُلِب وزُيِّف طريقُه، فعزَّ عليهم جهله[٢] واستعطفوه وآنسوه وسألوه الرجوع عما هو عليه وترك إظهار ما تحققه وناظرهم عليه، فلم يرجع، فأسقطوه من المنزلة التى هو فيها بعد خطوب جرت. وعاش إلى أنْ فتح عمرو مصر والإسكندرية، ودخل على عمرو، ورأى له موضعا، وسمع كلامه أيضا فى انقضاء الدهر، ففُتِن به وشاهد من حججه المنطقية، وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أُنسَةٌ ما هَالَهُ. وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه. وكان لا يكاد يفارقه، ثم قال له يحيى يوما: إنك قد أحطت حواصل الإسكندرية وختمتَ على كلِّ الأصناف الموجودة بها: فأما ما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لكم به فنحن أولى به، فأمُرْ بالإفراج عنه. فقال له عمرو: وما الذى تحتاج إليه؟ قال: كُتُب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية" . ثم مضى يصف ما فيها من الكتب، ذاكرا من أنشأها ومن اعتنى بها . . . ف"قال (عمرو): لا يمكننى أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرَّفه قول يحيى الذى ذكرناه واستأذنه ماذا يصنع فيها . فورد إليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيه ما يوافق كتابَ الله ففى كتاب الله عنه غِنًى. وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه، فتَقَدَّمْ بإعدامها . فشرع عمرو بن العاصِ فى تفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدها . وذُكِرَت عِدّة الحمامات يومئذ، وأُنسِيتُها، فذكروا أنها استُنفِدَتْ فى مدة ستة أشهر. فاسمع ما جرى واعجب!"[٣] .

ويبقى ابن العبرى، الذى كان يضع كلام القفطى أمام عينيه وهو يسطر ما كتبه، والذى لا يوجد فى النسخة السريانية من كتابه النص التالى الذى يتناول الموضوع ذاته: "وفى هذا الزمان (أى فى خلافة عمر بن الخطاب) اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بـ"غرماطيقوس"، أى النحوى. وكان إسكندريا

---

[1] عبد اللطيف البغدادى/ رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر أو كتاب "الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"/ ط٢/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٩٨م/ ٩٨.

[2] كيف يقول مسلم عن مثل ذلك الراهب الذى لم يكن يؤمن بالتثليث إنه "غُلِب وزُيِّف طريقُه، فعزَّ عليهم جهله"؟

[3] جمال الدين القفطى/ تاريخ الحكماء/ كتب خانه آصفية سركار/ حيدر أباد دكن/ ٣٥٤– ٣٥٦.

يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة ساوري. ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع، فأسقطوه عن منزلته. وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية. ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يوما: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها: فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد إليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيه ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى. وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه، فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، فاستوقدت في مدة ستة أشهر. فاسمع ما جرى واعجب"[١].

وبعدما أوردنا ما قاله كل من الثلاثة نشرع على بركة الله في التحليل، فنقول: من المعروف أن يوحنا النحوي لم يكن عربيا، فلم يكن يعرف العربية من ثم، مثلما لم يكن ابن العاص مصريا، وعليه لم يكن يعرف اللغة المصرية، كما لم يكن يعرف أية لغة أخرى غير العربية يمكنه التخاطب من خلالها مع يوحنا النحوي، فكيف إذن كانا يتفاهمان؟ الحق أن أقصى ما يمكن أن نتخيله هو أن يكون يوحنا النحوي قد التقط بعض الكلمات والعبارات الأولية العربية في تلك الأشهر القليلة جدا التي انقضت ما بين دخول العرب مصر وفتحهم الإسكندرية يستطيع بها أن يتبادل مع العرب التحية وما إلى ذلك من الموضوعات البسيطة التي لا تحوج صاحبها ولا مستمعها إلى التبحر في اللغة كما يحدث للواحد منا حين يذهب إلى بريطانيا مثلا أو فرنسا، ولا يكون قد ألم بشيء ذي قيمة من لغة ذلك البلد، اللهم إلا بضع كلمات وعبارات تساعده على طلب الطعام أو السؤال عن الطريق مثلا. وقد جعلتُ يوحنا هو الذي يتعلم لغة العرب لأنهم هم الفاتحون، فمن الطبيعي أن يتعلم هو المصريَّ لغة عمرو لا العكس. أما الكلام في الفلسفة والعلوم الطبيعية والمفاهيم الفلسفية والعلمية الدقيقة فهذا هو المستحيل بعينه. فلو زدتَ على ذلك أن ابن العاص لم يكن مؤهلا بطبيعة ظروفه الثقافية أن يتابع مثل تلك المناقشات، كما لم تكن العربية قد تأهلت بعد لتسع الفلسفات والعلوم بمصطلحاتها الكثيرة المعقدة ونظرياتها ومفاهيمها العالية التي لم يكن للعرب بها أي عهد

---

[١] غوريغوريوس بن أهرون المعروف بـ"ابن العبري"/ مختصر تاريخ الدول/ تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي/ ط٢/ دار الرائد اللبناني/ بيروت/ ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م / ١٧٥- ١٧٦.

وبالتالى لا يمكن المترجم، لو كان هناك مترجم، أن ينقل هذه المصطلحات والمفاهيم إلى العربية، لتبين لنا أن جريان مناقشة بين ابن العاص ويوحنا النحوى فى الموضوعات التى ذكر القفطى وابن العبرى أنهما كانا يتناقشان فيها أمر لا يتصوره من كان فى رأسه مُسْكة من عقل. ثم هل كان وقت ابن العاص، فى تلك الأيام المضطربة المملوءة بالقتال والمعاهدات والمؤامرات والترقب والقلق والتوجس ويُصْنَع فيها التاريخ صناعة، ليسمح بمثل تلك الجلسات والمناقشات الترفية، إن كان أمثاله فى ذلك الحين يميلون إليها ؟

كذلك كان يوحنا، كما يُفهَم من كلام القفطى وابن العبرى، قريبا جدا من دين المسلمين، إذ هو لا يؤمن بالتثليث ولا بالصليب، فمن المستبعد أن يرفض عمرو له طلبا كهذا كان يستطيع على الأقل أن يحققه له جزئيا فيتركه يأخذ من كتب المكتبة الإسكندرانية ما يكفى استعماله الشخصى مثلا دون أن يضر المسلمين ولا شخصه هو فى شىء بدلا من أن يعقد المسألة كل هذا التعقيد الذى تصوره الرواية، وفى نفس الوقت يتألف قلبه ولا يخزيه أمام الآخرين ممن يدينون بالصليب والثالوث. على أن الطريف فى المسألة هو أن يوحنا إنما تحدث عن حاجته هو وأمثاله إلى تلك الكتب، لنفاجأ بابن الخطاب يتحدث كما لو كان العرض المقترح هو أن يستعملها المسلمون. ولكن ما دام لن يستعملها المسلمون، بل المصريون، فما معنى أن يقول إنها إن كانت توافق القرآن ففى القرآن غُنْيَة عنها، وإن كانت تخالفه فلا يصحّ للمسلم قراءتها ؟ إن ابن العاص يسأله عن شىء، فيجيبه هو عن شىء آخر لم يُسْتَفْتَ فيه ولا كان مطروحا أصلا للبحث. وفى أمثال العرب: "أُريها السُّهَا، وتُرينى القمر" ! ليس ذلك فحسب، إذ كان العرب لا يقدرون أصلا على استعمال المكتبة لأنهم لم يكونوا فى ذلك الطور من تاريخهم الثقافى مؤهَّلين للنظر فى كتبها ولا حتى لقراءتها بمجرد قراءة لجهلهم اللغة المصرية أو اليونانية التى كُتِبَتْ بها . أى أنها، لو أبقى ابن العاص عليها، لن تشكل لهم أى ضرر على الإطلاق. كما يلفت النظر فى كلام يوحنا قوله لعمرو: "ما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع به فنحن أولى به"، فهل من المتصور أن يجرؤ يوحنا، مهما كان قربه من عمرو، على مخاطبة الفاتح المنتصر بهذه اللهجة، وكأنه كان قادرا على أن يعارض العرب فى شىء ؟ وهل كان يوحنا من أهل السياسة حتى يفكر فى مفاوضة ابن العاص على هذا النحو؟ فمن فوّضه يا ترى فى الحديث عن أهل الإسكندرية؟ ودعنا من مصر كلها . بل هل كان هناك مجال للمفاوضة، وقد استسلمت الإسكندرية وتم الصلح وأُقِرَّت شروطه واتفِق فيه على كل شىء يتعلق بها ؟ ثم لماذا يتكلف عمرو مشقة متابعة نقل الكتب من المكتبة إلى حمامات المدينة بدلا من الأمر بحرقها فى مكان واحد ؟ ولقد قام رفيق العظم بحساب الكتب التى تلزم لإيقاد النار فى حمامات الإسكندرية الأربعة الآلاف على أساس أن كل حمام يلزمه فى اليوم مائة مجلد، فوجد أن عدد الكتب فى مكتبة الإسكندرية ينبغى أن يكون اثنين وسبعين مليون مجلد . وأى مكتبة فى العالم تحتوى على هذا القدر من الكتب كما يقول بحق؟[١] فإذا علمنا أن

---

[١] انظر رفيق العظم/ أشهر مشاهير الإسلام فى الحروب والسياسة/ ط٢/ دار الفكر العربى/ ١٩٧٢ - ١٩٧٣م/ ٥٧٢ .

الرقوق، التى كانت تكتب عليها الكتب فى الغالب أوانذاك، لا تقبل الاشتعال كما يقول ألفرد بتلر فى الفصل الذى خصصه من كتابه عن فتح مصر لهذا الموضوع تبين لنا أن المسألة كلها لا تعدو أن تكون زوبعة فى كستبان لا فى فنجان إن كان للزوابع أن تهيج فى الفناجين والكستبانات!

وهذا كله إن كان عمرو بن العاص ويوحنا النحوى قد تعاصرا، اللهم إلا ثلاث سنوات تبدأ من ولادة عمرو وتنتهى بوفاة يوحنا، ودعنا من فرق المسافة ما بين مصر والحجاز، ومن فرق الثقافة ما بين فيلسوف مصرى وبين قائد عسكرى عربى كل ما يقدر عليه هو القراءة والكتابة. أما والنحوى قد مات، وعمرو حديث عهد بالولادة[1]، فمن المضحك القول بأنه كان بينهما بعد ذلك بعشرات السنين كلام بشأن المكتبة أو أى شىء آخر. ذلك أن الموتى لا يتكلمون، فضلا عن أن يتناقشوا فى الفلسفة والعقائد والمذاهب الدينية. أم هناك من يجادل فى تلك الحقيقة؟ ولقد تركت هذه المعلومة لآخر لحظة حتى يشعر القارئ بتفاهة الاتهام شعورا قويا لا ينساه مدى الدهر. أما لو كنت ألقيتها له منذ الوهلة الأولى لما أدرك قيمتها كما ينبغى، إذ إن ما نحصل عليه بعد تعب وصعوبة أقوى رسوخا فى الذاكرة وأبلغ برهنة على ما نريد مما لو كنا حصلنا عليه بسهولة.

ومع ذلك كله فلسوف نمضى مع الاتهام نناقشه وكأننا لم نقم الدليل على سخفه ونسفناه نسفا. ولم لا؟ إنها لفرصة لعرض عظمة الإسلام ورجاله. وكم من نقمة حوت فى طيها نعمة بل نعما! أما بالنسبة إلى شخصية ابن العاص وابن الخطاب فقد كان كل منهما من القارئين الكاتبين القلائل فى مكة قبل الإسلام، فلم يكن أى منهما بالذى يجهل قيمة القراءة والكتابة والكتب. ولم يعرف عن أى منهما تنطع ولا تنطس دينى من أى نوع. لقد كانا من رجال الدول الكبار الواسعى الأفق بحيث لا يمكن أن يتصورهما الإنسان واقفين ولو للحظة واحدة أمام موضوع المكتبة بوصفه يمثل أية مشكلة على الإطلاق: فأما ابن الخطاب فكان حاكم دولة عبقريا قوى الشخصية يغوص إلى أعماق الإسلام فى بصيرة نادرة وعقل متفتح وقلب

---

[1] ولد ابن العاص عام ٥٧٣م (انظر المادة الخاصة به فى "الويكيبيديا" العربية والإنجليزية، وكذلك "الموسوعة العربية العالمية"، التى أخرت ولادته عاما آخر)، ومات يوحنا النحوى فى عام ٥٧٠م (انظر مادة "John Philoponus" فى كل من "Stanford Encyclopaedia of Philosophy" و"الويكيبيديا" فى طبعتها الإنجليزية مثلا). وقد تنبه ألفرد بتلر إلى هذه الحجة المزلزلة قبل ذلك بوقت طويل فى كتابه: "Arab Conquest of Egypt". لكنه لم يسق تواريخ وفاة يوحنا وميلاد عمرو بن العاص كما فعلت أنا هنا، بل اعتمد شيئا من التقريب والتخمين. أما د. محمد حسين هيكل فقد جعل عمر يوحنا عند فتح مصر مائة وخمسا وثلاثين سنة (انظر كتابه: "الفاروق عمر"/ ط١٠/ دار المعارف/ ٢٠٠٠م/ ٢/ ١٧١). ومن الواضح أنه مجرد افتراض جدلى بأن يوحنا كان لايزال أوانذاك على قيد الحياة.

شجاع مقدام لا يعرف سُخف الصغار من ضيقى الأفق الذين ينظرون إلى الدنيا والناس والذين من ثَقب إبرة، بل كانت له آراؤه واجتهاداته اللوذعية العجيبة[١]. وكان طُلعَة يحب معرفة ما عند الآخرين، فكان يذهب على أيام النبى إلى اليهود ويخالطهم وينظر فى كتبهم، وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم قد نهاه عن ذلك، لكن لا بد فى ذات الوقت من مراعاة أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بحرق مثل تلك الكتب فى يوم من الأيام. كما ظل رضى الله عنه يروى شعر الجاهلية ويسمعه بعد الإسلام دون أى تحرج. والمعروف أنه كان عليما بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها وسائر أمثالها. والآن أليس معنى ذلك كله إدراكه أن الثقافة غير محصورة بين دفتى المصحف رغم أن فى القرآن تبيانا لكل شىء؟ بكل تأكيد فى القرآن تبيان لكل شىء، لكن من ناحية الخطوط العامة، ومن ثم لا يحتوى من التفصيلات إلا على القليل. ولو كان عُمَر بهذا الضيق فى التفكير لانتهز الفرصة التى واتته على طبق من ذهب من تلقاء نفسها ولصلى فى كنيسة القيامة وصيَّرها، أو أوعز لرجاله أن يصيّروها، مسجدا حين عرض عليه صفرنيوس بطريق القدس أن يؤدى فيها الصلاة لدُنُوّ دخول وقتها وهو هناك، لكنه رضى الله عنه رفض وأصر على الصلاة خارجها رهبة أن يأتى المسلمون من بعده فيستولوا عليها ويجعلوها مسجدا بحجة أن عمر صلى فيها. فهل من يصل فى نبله وتجرده وكرمه وسعة أفقه وشفقته على عقائد المخالفين واحترامه لدور عبادتهم إلى هذا المدى البعيد يمكن أن يتدهدى إلى حضيض الغشم الذى تدّعيه تلك الرواية الفاشلة فيأمر بحرق مكتبة لا

---

[١] من ذلك مثلا أنه كان يرى قتل محاربى بدر بدلا من اتخاذهم أسرى والحصول على فدية منهم، على خلاف أبى بكر، ونزل القرآن يعضد موقفه. وكان من رأيه ألا يصلى النبى عليه السلام على زعيم المنافقين بالمدينة حين مات، على حين كان الرسول يميل إلى الصلاة عليه، لعل وعسى، إذ لم يكن القرآن قد حسم النهى عن الصلاة على الرجل. ثم نزل القرآن بكلام شديد فى حق كبير المنافقين ناهيا النبى بصورة قاطعة عن أن يصلى عليه. كما أوقف رضى الله عنه حد السرقة فى عام المجاعة. بل إنه هدد سيد الغلامين اللذين سرقا الناقة وذبحاها وأكلاها فى تلك الظروف بأنهما إذا عادا لمثل ذلك فسيكون العقاب من نصيبه هو بدلا منهما لأنه يجوّعهما، فهو إذن المتسبب فى السرقة، أما هما فمضطران، وليس على المضطر عقوبة. ومن ذلك أيضا أنه رأى ذات يوم شيخا يهوديا يسأل الناس، فأعطاه من الصدقات كفقراء المسلمين، قائلا إنه ممن يستحقون الصدقة لأنه من المساكين، أى فقراء أهل الكتاب. ثم زاد فأسقط عن أمثاله الجزية. كما فرض عطاءً لكل مولودٍ لقيطٍ كالابن الشرعى سواء بسواء. وحين عزم على القدوم إلى الشام سمع بأن بها طاعونا، فاتخذ قراره بعدم الذهاب، مما أثار استغراب بعض الصحابة فسألوه: أتفر من قضاء الله؟ فكان جوابه العبقرى: نعم أفرّ من قضائه إلى قضائه. وقطع الشجرة التى تمت عندها بيعة الرضوان بين النبى وصحابته عندما رأى بعض الناس يتبركون بها، مخافة من توثينها . . .

تضره ولا تضر المسلمين فى شىء ؟ ثم إن المكتبات لم تكن بالنسبة لعُمَرَ وعَمْرو شيئا جديدا، إذ كان عند بعض الصحابة كتب، كسعد بن عُبَادة مثلا، الذى كانت له مكتبة خاصة صغيرة تحتوى، ضمن ما تحتوى، على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

ثم هل يصح أن نصدق ما نسب إلى عمر فى حق مكتبة الإسكندرية، وهو الذى كان يقول للقاضى عند تعيينه: "إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به، ولا يلفتنّك عنه الرجال. فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها . فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فى سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به. فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الرأيين شئت: إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدّم فتقدّم، وإن شئت أن تأخّرَ فتأخّرْ. ولا أرى التأخير إلا خيرا لك" ؟ ترى إذا كان ممكنا فى رأيه ألا يجد القاضى فى كتاب الله، بل ولا فى سنة رسول الله، حكما دينيا فى مسألة ما، فكيف يتصور أن فى القرآن ما يغنى عن مكتبة كمكتبة الإسكندرية فيها من علوم الدنيا ما ليس من أمور الوحى؟ كذلك أنشئت فى عهد الفاروق رضى الله عنه دواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة، والبريد وبيت المال وبيت سك النقود وما إلى ذلك، وأوكل الإشراف على بعضها لغير العرب. فهل مثل هذا الرجل يمكن أن يأمر بحرق مكتبة للسبب الذى نعرفه؟

وأما ابن العاص فكان واحدا من كبار قادة الإسلام. كما كان سفيرا لقريش إلى النجاشى، وللرسول إلى مَلِكَىْ عُمان ابنى الجلندى. وكان كذلك تاجرا صاحب جولات داخل بلاد العرب وخارجها، وزار مصر فى الجاهلية ورأى ما هى عليه من عمران وحضارة. ومن المؤكد أنه قد عرف ما للكتاب هناك من قيمة. وكان رجلا أريبا دوخ خصومه فى ميدانى السياسة والحرب، وفتح الأقطار

---

[١] انظر مقالا منشورا بموقع "جمعية آل البيت الخيرية" عنوانه: "تاريخ المكتبات عند المسلمين- خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد (بيت الحكمة) أنموذجا" . ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أن عمر إنما كان فى ذهنه، حين أمر بحرق المكتبة، قوله تعالى: "ونزلنا عليك الكتاب تِبيانًا لكل شىء"، إذ لا يعقل أن يكون عمر أقل فهما لتلك الآية ممن سأل فى مصر فى العصر الحديث من قِبَل بعض المشككين: أين نجد فى القرآن الجواب عن السؤال الخاص بعدد الأرغفة التى تنتجها أفران القاهرة؟ فرد بأن الجواب موجود فى قوله تعالى: "واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" . فالقرآن لم يغفل الجواب عن مثل هذا السؤال، إذ بين لنا أين نجده. وكل ما هو مطلوب منا فى هذه الحالة أن نذهب إلى المتخصصين المسؤولين عن أفران القاهرة ونسألهم عن ذلك، وسوف يمدوننا بالجواب المطلوب لأنهم أهل الذِّكر فى هذه النقطة.

وساسها خير سياسة. ومثل ذلك الشخص لا يمكن أن يكون بهذا التنطع أو ضيق الأفق. ولو كان عمرو رضى الله عنه قد أحرق مكتبة الإسكندرية لكان مثلا قد قام بينه وبين ابنه عبد الله حوار بهذا الشأن، إذ سبق أن أصاب عبدُ الله يوم معركة اليرموك، التي كان أبوه أحد قوادها الكبار، زاملتّين (أى ناقتين محملتّين) من كتب أهل الكتاب فأخذهما للانتفاع بما تحملانه من كتب. فإذا علمنا أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان من الرجال المتحرجين فى دينهم، أفيكون الأب، وهو رجل سياسة مضرَّس، أشد تحرجا من الابن؟ فما كانت حادثة حرق المكتبة إذن لتمر مرور الكرام على هذا النحو دون أن يقوم بشأنها أخذ ورد بين الأب وابنه لو كانت صحيحة، ومعروف أنه كثيرا ما قامت محاورات بين عمرو وعبد الله فى مختلف الأمور، أو دون أن يقيم المؤلفون القدامى، وبخاصة رجال الحديث وشراحه، مقارنة بين تصرف الأب والابن ويحاولوا التوفيق بين العملين المتناقضين. بل هل كانت قصة الزاملتين لتفوت على عمر دون أن يؤاخذ عليها عبد الله بن عمرو ما دام الفاروق متشددا فى هذا الموضوع إلى ذلك الحد؟ أم ترى أن قصة كهذه يبلغ من شيوعها أن يستفيض ذكرها فى كتب المؤرخين والمفسرين والمحدثين وكتب الأدب ثم لا تصل إلى أذن عمر رضى الله عنه؟ فما معنى سكوت عمر عن ذلك؟ ولنلاحظ أنها لم تنتظر عدة قرون حتى تظهر على السطح كقصة حريق المكتبة، بل هى موجودة منذ وقت مبكر. وإن فى النص المنسوب لابن العبرى لشيئا مهما ليس من اليسير المرور عليه فى صمت. ذلك أن يحيى النحوى أخذ فى مدح المكتبة والملوك الذين أسسوها وأمدوها بالكتب العلمية المختلفة وأبدى من ضروب الوله بالكتب وما تحويه من علوم وفنون ما كان من شأنه تليين قلب الجماد ذاته، فهل كان عمرو من جمود المشاعر وانغلاق الذهن بالمكانة التى لم تؤثر فيه معها كلمات الفيلسوف المصرى المشغوف بالكتب ومطالعتها الحريص على إنقاذها من يد البطش والتدمير؟ أويترك عمرو للقبط صلبانهم سالمة لا يمسها ماسٌّ طبقا للمعاهدة التى أُبرمَتْ بين الطرفين ويأمر بإحراق مكتبة تحوى كنوز العلم وذوْب عقول العلماء؟ ثم يا ترى هل رجع ابن العاص إلى عمر فى الصلبان ليأخذ رأيه؟ أم هل أرسل إليه يستفتيه فى التماثيل والأصنام المنتشرة فى جميع المعابد القديمة؟ بالطبع لا. إذن فلماذا يجعل من الحبة قبة فى أمر المكتبة، وهى لا تهم الدولة فى قليل أو كثير لا فى السياسة ولا فى المال ولا فى أحوال الاجتماع؟ كذلك كان ابن العاص يراجع عمر فيما يختلف معه بشأنه كما هو الحال مثلا حين اقترح عمرو عليه فتح مصر، ولم يكن ابن الخطاب متحمسا، فظل يلح عليه حتى وافق أخيرا. وتكررت مخالفته حين بعث له الخليفة، وهو فى الطريق إلى مصر، برسالةٍ حزَرَ منها عمرٌو قبل أن يفتحها أنه يريد منه الرجوع، فلم يفتحها إلا بعد أن اطمأن إلى أنه تجاوز الحدود المصرية وصار داخل الأراضى المصرية، فعندئذ فتح الخطاب، الذى كان يعرف مسبقا أن فيه أمرا بالعودة إذا لم يكن قد تجاوز هو ومن معه حدود مصر، أما لو كانوا قد تجاوزوها فليمضوا على بركة الله. ثم تكررت المخالفة فى مسألة حفر الخليج فى مصر، إذ كان عمر يريد الحفر، على حين كان هو وكبار رجال الدولة المسلمون فى مصر يرَوْن العكس. . . إلخ. فلماذا نراه هنا ينزل على رأى عمر فى الحال دون مراجعة أو

محاولة لعرض وجهة نظر أخرى فى مسألةٍ وَجْهُ الحق فيها واضحٌ، ويحتاج أن يراجع بشأنه الخليفة ولا ينزل على رأيه دون أَخْذٍ ورَد؟

وأما من الناحية المبدئية فإن الإسلام يُعْلِى من شأن العلم والكتب والعلماء إعلاء عجيبا حتى لقد أقسم الله بالقلم والكتابة فى كتابه الكريم، وهو قسَمٌ لو تعلمون عظيم، ولم يُسوِّ بين من يعلمون ومن لا يعلمون بتاتا، وكانت أول آية نزلت من القرآن هى "اقرأ"، التى تكرر الأمر بالقراءة فى الآيتين التاليتين لها، مع التذكير بدور القلم فى عملية التعلم وأنه جل شأنه خالق هذا الدور. كما ورد فيه عدة مرات ذِكر الكتب بوصفها حجة تحسم النزاع. ولم يحدث أن أمر الله نبيه محمدا عليه السلام بالاستزادة من شىء إلا من العلم: "وقُل رَبِّ زِدْنِى عِلمًا". وجعل النبىُّ الكريمُ العلماءَ ورثة الأنبياء، وجعل مِداد العلماء يوزن بمداد الشهداء، وجعَل فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، وجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، على حين أن كل ما استطاعت الحضارة الحديثة فى أوج تألقها أن تصل إليه هو تقريرها التعليم حقا للفرد، وهو ما يعنى أن بمكنته طلب العلم أو إهماله دون أن يكون عليه حرج أى حرج، بخلاف ما لو أهمله فى حالة كونه فرضا من الفروض الدينية كما هو معلوم. كذلك أمر صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن يظلوا يطلبون العلم من المهد إلى اللحد. ومعروف أنه اتفق مع أسرى بدر على أن يطلق سراح كل من يعلم منهم عشرة أولاد من مسلمي المدينة. فكيف نصدق أن عمر، الذى كان يفهم الدين فهما عميقا يغوص به إلى أعمق أعماقه، يمكن أن يكون قد أصدر أمرا بإحراق مكتبة الإسكندرية، وهى التى إن لم ينفع المسلمين بقاؤها فلن يضرهم هذا البقاء فى شىء، وبقاؤها ينفعهم بكل تأكيد، إذ كانت تحتوى، ضمن ما تحتوى، على كتب الطب والرياضيات والكيمياء والطبيعة والأحياء... وما إلى ذلك. كما أن إحراق المكتبة لن يحل المشكلة لأنه كانت هناك بكل تأكيد مكتبات خاصة فى البيوت والأديرة تؤدى على نحو مصغر نفس الدور الذى كانت تؤديه مكتبة الإسكندرية العامة، فضلا عن المحلات التى تبيع الكتب.

ثم لو كان عمر قد أمر فعلا بإحراق مكتبة الإسكندرية كما تزعم الرواية المتهافتة لكان أولى به أن يدمر المعابد الوثنية، التى كانت ولا تزال منتشرة فى أرجاء البلاد، وعليها الصور والكتابات، وكذلك الأصنام التى تملأ جنباتها، ومعها معابد اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وكتبهم ما دام القرآن قد خطأ هؤلاء الناس واتهمهم فى عقائدهم وذكر أنهم عبثوا بكتبهم وحرفوا أديانهم. لكننا ننظر فنجد أنه لم يمس من هذه ولا من تِيكَ ولا من تلك شيئا ولا اقترب من صلبان النصارى أو فكر مجرد تفكير فى تحطيمها رغم أن دينه يرفضها. ثم كيف يفكر عمر أو غيره بتدمير مكتبة يملكها المصريون فى الوقت الذى نعرف فيه أن الخمر التى يملكها النصرانى مثلا لا يجوز للمسلم أن يريقها أو يكسر جرارها، وإلا لغرِم ثمنها رغم أنها فى الإسلام محرمة؟ ذلك أن العبرة تكمن فى أنها عند النصارى حلال شربها وبيعها وشراؤها، فهى إذن مال متقوَّمٌ يضمنه من يتلفه حتى لو كان قد فعل هذا يريد القربى إلى الله. وعلى كل حال فكيف أقدم

المسلمون منذ وقت مبكر على ترجمة أمثال الكتب التى تضمها مكتبة الإسكندرية دون أن يثور فى ذلك الوقت جدل بشأنها ؟ ولقد كان المسلمون يعلون من شأن الكتاب إلى حد بعيد، وكانت المكتبات الخاصة والعامة منتشرة فى كل مكان عندهم. ولم نسمع قط أن أحدا من العلماء استخدم الحجة المنسوبة إلى عمر فى رفض التعامل مع تلك الكتب. بل ولم نسمع أن النبى طلب من أى نصرانى أو يهودى آمن به وترك دينه القديم أن يتخلص من كتبه الدينية. وكان هناك من مسلمى الجيل الأول من ينظر فى التوراة والإنجيل ليستجلى بعض الأمور الموجودة فى تفسير القرآن، ولم نر من ينكر ذلك عليهم.

يقول د. نبيل لوقا باوى: "ومن المعلوم كذلك أنه في عهد عمر بن الخطاب في ربيع الثاني من العام السادس عشر من الهجرة في عام ٦٣٧م تم فتح بيت المقدس، وكان بيت المقدس به مكتبة كبيرة. ولو كان من عادة المسلمين حرق المكتبات لحرقوا مكتبة بيت المقدس. وكذلك تم فتح دمشق في العام الرابع عشر من الهجرة في عام ٦٣٥م، وكان بها مكتبة كبيرة، ولم يتم حرقها. وقد تم فتح دمشق بمعرفة أبو عبيدة بن الجراح. والثابت كذلك أنه تم فتح الشام في العام الثالث عشر من الهجرة في عام ٦٣٤، وكان بها مكتبة كبيرة، ولم يتم حرقها، فلم يكن من عادة المسلمين والعرب حرق المكتبات. ففي أثناء غزوة يهود خيبر لنقضهم عقد الصحيفة في العام السابع الهجري في عام ٦٢٨، وبعد انتصار الرسول والمسلمين علي سلام بن مشكم زعيم خيبر، كان من الغنائم صحائف التوراة وكتب اليهود: أمر الرسول بتسليمها إلي يهود خيبر. وهذا يدل علي أنه ليس من سياسة الإسلام حرق كتب ومكتبات الآخرين، وإلا كانوا قد أحرقوا كل المكتبات في بيت المقدس وفي دمشق وفي الشام. ولذلك فإن خبر أو واقعة أن عمرو بن العاص هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية بعد استئذان الخليفة عمر بن الخطاب واقعة مكذوبة، ولا أساس لها من الصحة لأن التاريخ ثابت، والتاريخ لا يكذب"[١].

ويؤكد المستشرق ج. ج. سوندرز أن هناك إجماعا بين الكتاب المحدثين بأن المسلمين لم يحرقوا مكتبة الإسكندرية وأن القصة التى تزعم هذا هى قصة بغير أساس: "With the Arab occupation of Alexandria is associated the famous story of the burning of its library. According to this tale, Amr asked Omar what should be done with the thousands of books there, and received the answer: 'If these volumes of which you speak agree with the Koran, they are useless and need not be preserved: if they disagree, they are pernicious and should be destroyed.' They were therefore fed to the furnaces of the city baths. Modern critics are almost unanimous in rejecting the story, which is found in no author, Muslim or Christian, who wrote within 550 years of the Arab conquest. It is first referred to in a description of Egypt by Abd al-Latif, (1162–1231), compiled about 1202. There is some evidence that the Arabs burnt the Zoroastrian sacred books in Persia, which to them would be heathen writings, unlike the Jewish and Christian scriptures, and out of this in some

---

[١] د. نبيل لوقا باوى/ هل أحرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندرية ؟/ جريدة "الأهرام" المصرية/ ٢١ رجب ١٤٢٤هـ- ١٨ سبتمبر ٢٠٠٣م.

confused way the Alexandrian story may have arisen. See E.A.Parsons, The Alexandrian Library, London, 1952."[1].

وعلى كل حال فإن مكتبة الإسكندرية كانت قد اختفت من الوجود قبل دخول المسلمين إلى الإسكندرية بزمن طويل. يوضح ذلك د. نبيل لوقا بباوى اعتمادا على ما كتبه فى هذا الصدد ألفرد بتلر: "والحقيقة المؤكدة أن عند دخول عمرو بن العاص للإسكندرية لم تكن مكتبة الإسكندرية موجودة حتى يحرقها لأنه، بالبحث العلمي والتاريخي، ثبت أن مكتبة الإسكندرية تم إحراقها عن آخرها في عام ٤٨ ق.م في زمن الإمبراطور يوليوس قيصر إمبراطور الدولة الرومانية، ففي عام ٤٨ ق.م حضر يوليوس قيصر إلى الإسكندرية لفك النزاع القائم على حكم مصر بين كليوباترا وأخيها بطليموس الصغير. وقد أحس بطليموس الصغير أن الإمبراطور يميل إلي نصرة كليوبترا عليه نظرا لجمالها . وفي أثناء وجود الإمبراطور يوليوس قيصر في القصر الملكي في الإسكندرية حاصره بطليموس الصغير بجنوده. لذلك طلب يوليوس قيصر النجدة من قوات من بلاد أخرى تابعة للإمبراطورية الرومانية. وكان يوجد ١٠١ سفينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أمام مكتبة الإسكندرية، وأمر يوليوس قيصر بحرق المائة سفينة حتى لا تستفيد منها القوات المحاصرة له، وامتدت نيران حرق السفن إلى مكتبة الإسكندرية فأحرقتها كلها . وقام بقتل بطليموس الصغير، وعين كليوبترا ملكة علي مصر، وأشرك معها في الحكم أخاها الأصغر بطليموس الرابع عشر. ومن هذا السرد التاريخي يتضح أن الذي حرق مكتبة الإسكندرية هو يوليوس قيصر دون قصد"[2].

وينبغى أن نذكر فى هذا السياق أنه قد أُنشِئَتْ فى الإسكندرية مكتبة أخرى أصغر، لكنها كذلك قد تم تدميرها قبل الفتح الإسلامى بأكثر من قرنين على أيدى متعصبة النصارى حسبما فصّل القول فى ذلك أيضا بتلر، الذى يضيف أننا لو افترضنا رغم كل هذا وجود بقية من كتب مكتبة الإسكندرية عند فتح عمرو رضى الله عنه لها لقد كان من شروط الصلح أن المسلمين لا يحق لهم دخول المدينة إلا بعد مرور أحد عشر شهرا، وهى مدة كافية تماما لنقل الكتب إلى بلاد الروم حيث لا يعوق من يريد نقل شىء منها أى عائق، إذ كان البحر مفتوحا تماما فى وجه أية سفينة طوال تلك المدة، وكان إغراء نقلها عظيما نظرا لأهميتها لمن يريد قراءتها، أو لغلوّ أثمانها بالنسبة لمن يفكر فى بيعها.

وبالمناسبة فبتلر لم يكن يحب العرب ولا كتب ما كتب عن مكتبة الإسكندرية دفاعا عنهم. وللرجل كتاب عن ذكرياته فى بلاط الخديوى توفيق، حيث كان يشتغل مدرسا لأولاده، قرأته فى أكسفورد فى سبعينات القرن الماضى فوجدت مؤلفه لا يعجبه شىء فى أخلاق الناس هناك ولا فى تصرفاتهم،

---

[1] J.J.Saunders, A History of Medieval Islam, Routledge London and New York, 2002, P. 53, n. 3.

[2] د. نبيل لوقا بباوى/ المرجع السابق.

وينظر إليهم من عَلٍ، ولا يُظهر أي تعاطف معهم على الإطلاق. واسم الكتاب هو: " Court life in Egypt" . ومع ذلك فالحق يستلزم أن نذكر إلى جانب هذا أن المؤلف، في آخر هامش للفصل الذي خصصه لمناقشة هذه القصة من كتابه عن فتح مصر، قد أشاد بالحس الحضاري الراقي لدى العرب المتمثل في حبهم العجيب للعلم واستكثارهم من اقتناء الكتب واحترامهم لها وحفاظهم عليها، وقارن بينهم وبين الفرنسيين والإنجليز في هذه النقطة ففضلهم على هؤلاء وأولئك، وجعل منهم مثلا يُحتذى. وأشار في هذا الصدد إلى كتاب المستشرق الفرنسي سِيدِيُو، الذي قال كلمة حق في حق العرب والمسلمين: "Histoire Generale des Arabes" .

وفي "Encyclopaedia Britannica" (ط٢٠١١م) نقرأ عن مكتبة الإسكندرية ومُتْحَفها ما يلي: " The museum and library survived for many centuries but were destroyed in the civil war that occurred under the Roman emperor Aurelian in the late 3rd century AD" . وقد بحثت في مادتي "عمرو بن العاص" و"مكتبة الإسكندرية" بتلك الموسوعة فلم أجدها تشير أية إشارة إلى أسطورة حرق عمرو بن العاص لها. إذن فلا المكتبة المزعوم إحراقها على يد عمر وعمرو كانت موجودة في ذلك الوقت ولا يوحنا النحوي أيضا. وبهذا يثبت ثبوتا قاطعا أن الأمر كله ليس سوى أسطورة بائسة أبدعها عقل سخيف، وكررتْ ما فيها من زعمٍ بائسٍ عقولٌ أشد إغراقا في البؤس والسخف والتنطع.

وممن ينفون هذه القصة كذلك المستشرق الفرنسي جاستون فييت[١] بناءً على أن أقدم من أشار إليها هو عبد اللطيف البغدادي، الذي أتى بعد فتح الإسكندرية بمائتي سنة كما يقول، في الوقت الذي لا نجد المؤرخين العرب الثقات كالكندي وابن عبد الحكم والطبري قد أتوا على ذكرها بأي سبيل[٢]. وممن نفاها أيضا صاحب مادة "عمرو بن العاص" في طبعة ٢٠٠٨م من موسوعة "الإنكارتا" الفرنسية، إذ كتب قائلا: " Une légende erronée rapporte qu'Amr ibn al-As aurait brûlé la bibliothèque d'Alexandrie" . بل لقد كان جرجي زيدان قبلا ممن رفضوها وفندوها، ثم عاد عن هذا الرفض بحجة أنه ظهرت له فيما بَعْدُ شواهدُ تدل على أنها صحيحة وقال بأنها قد أُحْرِقت فعلا، غير متنبه إلى أنه لم يحدث قط أن التقى عمرو بن العاص ويوحنا النحوي لأن يوحنا قد مات، وعمرو لا يزال ولدا صغيرا يعيش في مكة، ولا يزيد عمره عن ثلاث سنوات تقريبا حسبما وضحنا، وأن المكتبة كانت قد اختفت من الوجود قبل فتح عمرو لمصر بنحو قرنين.

---

[١] انظر رفيق العظم/ أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة/ ٥٧٧.

[٢] انظر ما كتبه زهير الشايب في هذا الموضوع في كتاب "وصف مصر" لعلماء الحملة الفرنسية/ ترجمة زهير الشايب/ دار الشايب للنشر/ ١٩٨٤م/ ٣/ ٣٣٦ بالهامش.

وعلى العكس من جرجى زيدان كانت الطبعة الحادية عشرة من "الموسوعة البريطانية" فى البداية، طبقًا لما يقوله د. نبيل لوقا بباوى، تتهم عَمْرًا رضى الله عنه بإحراق المكتبة، إلا أننى حين رجعت إلى مقالة "Amr-ibn-el-Ass" فى تلك الطبعة، وهى متاحة على المشباك لكنْ بعد تحديثها مواكبة للعصر، ألفيتها تنفى عنه وعن عمر بن الخطاب ذلك الاتهام مؤكدة أن مثل هذا العمل البربرى لا يتسق وشخصية كُلٍّ منهما، وتذكر أبا الفرج بن العبرى بوصفه المصدر الأول لتلك الخرافة مع إبرازها لنصرانيته وللقرون الستة التى تفصل بينه وبين عمرو، وكأنها تريد تحميله مسؤولية إشاعتها: "To `Amr acting on Omar's command has been attributed the burning of the famous Alexandrian library. Not only is this act of barbarism inconsistent with the characters of Omar and his general, but the earliest authority for the story is Abulfaragius (Barhebraeus), a Christian writer, who lived six centuries later."

وفى ختام هذه الرحلة العلمية المرهقة والممتعة فى آنٍ أود أن أضيف أن لبرنارد لِيوِسْ مقالا أشار فيه إلى ما كتبه المستشرق الفرنسى كازانوفا فى تفسير سببِ ظهور هذه القصة فى الزمن الذى ظهرت فيه، وهو أن صلاح الدين أراد أن يدمر الكتب الإسماعيلية التى يعتمد عليها الشيعة الفاطميون فى حكم البلاد الواقعة تحت سلطانهم، فأحب أن يقول للناس إنه حين يصنع هذا لا يأتى بدعة منكرة، بل سبقه عمر بن الخطاب ذاته. ودليله على ذلك أن عبد اللطيف البغدادى، وهو أول من أشار إلى حريق مكتبة الإسكندرية، كان من المحبين لصلاح الدين والمتحمسين له، كما كان والد جمال الدين القفطى، ثانى متناول للقصة، أحدَ قضاة صلاح الدين. لكن ثمة سؤالا يلح على الذهن هو: لو كان هذا هو السبب أكان أولئك الذين لهم مصلحة فى نشر هذه القصة بين جماهير المسلمين يكتفون بسطر أو بفقرة عارضة فى كتاب لا تقرؤه الجماهير؟ الواقع أنه فى مثل تلك الحالة لا يصلح إلا إصدار عدة كتب تخصَّص كلها لذلك، مع تكليف خطباء المساجد بالحديث فى الأمر وإقناع الناس بصحة ما صنعه صلاح الدين، واستحثاث الفقهاء لإصدار فتاوى تحلله. وتكون النتيجة أن تكثر الكتب والخطب والفتاوى فى ذلك الموضوع. ثم هل كان الناس فى مصر وغيرها من البلاد التى يحكمها الفاطميون مُولَهين بحبهم بحيث يرى صلاح الدين أو من يحبونه ويريدون الدفاع عنه وجوب اللجوء إلى هذا السبيل؟ لقد كان الخلفاء الفاطميون شيعيين باطنيين يحكمون رعايا سنيين لا يكرهون أن يختفوا عن أعينهم وتختفى معهم كتب مذهبهم. والطريف أن لِيوِسْ قال فى هذا السياق إن صلاح الدين قد أصدر أوامره ببيع كتب الفاطميين فى مزاد علنى. وهذا ليس تصرف من يريد القضاء على التراث الفكرى والعقيدى لخصومه، بل هو إشاعة له بين الجماهير بدلا من إبقائه، كما كان الحال قبل ذلك، محصورا داخل جدران المكاتب العامة. كذلك لو كان كلامه صحيحا

لما ردد قصة حرق عمرو بأمر من عمر لمكتبة الإسكندرية المؤرخ المصرىّ الكبيرُ تقى الدين المقريزى[1]. ذلك أنه من سلالة الفاطميين، الذين يقول ليوسُ إن صلاح الدين ومشايعيه قد اخترعوا قصة حرق المكتبة لتسويغ ما صنعه بتراثهم فى مصر. ولن تفوته هذه الغاية البغيضة إلى قلبه، ومن ثم لن يساعد أعداء الفاطميين على بلوغها: فإما فنّدَ القصة وبيّن مراميها، وإما خرج بالصمت عن لا ونَعَمْ. أما أن يشارك فى اللعبة التى تعمل على تسويغ الإساءة إلى أسلافه فأمر غير متصوَّر فى حق ذلك المؤرخ الكبير. ثم كيف عرف المسلمون بمكتبة الإسكندرية يا ترى رغم أنها كانت قد زالت من الوجود قبل ذلك بزمن طويل، ولم يكن فيها كتب يمكنهم قراءتها لأنها لم تحتوِ على أى كتاب بالعربية؟ على كل حال هذا نص الفقرات الأربع الأخيرة من مقال ليوسْ، وهى التى تهمنا هنا:

"Myths come into existence to answer a question or to serve a purpose, and one may wonder what purpose was served by this myth. An answer sometimes given, and certainly in accord with a currently popular school of epistemology, would see the story as anti-Islamic propaganda, designed by hostile elements to blacken the good name of Islam by showing the revered Caliph 'Umar as a destroyer of libraries. But this explanation is as absurd as the myth itself. The original sources of the story are Muslim, the only exception being Barhebraeus, who copied it from a Muslim author. Not the creation, but the demolition of the myth was the achievement of European scholarship, which from the 18th century to the present day has rejected the story as false and absurd, and thus exonerated the Caliph 'Umar and the early Muslims from this libel.

But if the myth was created and disseminated by Muslims and not by their enemies, what could possibly have been their motive? The answer is almost certainly provided in a comment of Paul Casanova. Since the earliest occurrence of the story is in an allusion at the beginning of the 13th century, it must have become current in the late 12th century—that is to say, in the time of the great Muslim hero Saladin, famous not only for his victories over the Crusaders, but also—and in a Muslim context perhaps more importantly—for having extinguished the heretical Fatimid caliphate in Cairo, which, with its Isma'ili doctrines, had for centuries threatened the unity of Islam. 'Abd al-Latif was an admirer of Saladin, whom he went to visit in Jerusalem. Ibn al-Qifti's father was a follower of Saladin, who appointed him Qadi in the newly conquered city.

One of Saladin's first tasks after the restoration of Sunnism in Cairo was to break up the Fatimid collections and treasures and sell their contents at public auction. These included a very considerable library, presumably full of heretical Isma'ili books. The break-up of a library, even one containing heretical books, might well have evoked disapproval in a civilized, literate society. The myth provided an obvious justification.

---

[1] كتب المقريزى فى كتابه: "المواعظ والآثار" عن عمود السوارى بالإسكندرية: "وفيه خزانة كتب أُحرقها عمرو بن العاص بإشارة من عمر بن الخطاب رضى الله عنه". وأرجو من القارئ أن يتنبه إلى أن المقريزى إنما ينقل عبارة عبد اللطيف البغدادى بنصها، وفى نفس سياقها بالضبط، وهو الكلام عن عمود السوارى ودار العلم التى كانت هناك. وإلى القارئ الكريم نص عبارة البغدادى مرة أخرى: "وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه".

According to this interpretation, the message of the myth was not that the Caliph 'Umar was a barbarian because he destroyed a library, but that destroying a library could be justified, because the revered Caliph 'Umar had approved of it. Thus once again, as on so many occasions, the early heroes of Islam were mobilized by later Muslim tradition to give posthumous sanction to actions and policies of which they had never heard and which they would probably not have condoned.

It is surely time that the Caliph 'Umar and 'Amr ibn al-'As were finally acquitted of this charge which their admirers and later their detractors conspired to bring against them"[1].

على أن د. محمد حسين هيكل، على العكس من هذا كله، يفترض أن يكون الشيعة هم مصدر هذه الرواية المسيئة لعمر. أما أين دليله على ذلك فلا دليل، بل هو مجرد تخمين. لكن لو كان الشيعة هم مصدرها لأثبتوها فى كتبهم بجوار المعايب الأخرى المثلثة التى يرمون بها الفاروق، ولم يكتفوا بمجرد الكلام غير المثبت فى الأوراق[٢]. أما العقاد فله رأى آخر فى تفسير ظهور هذه الفرية فى ذلك الوقت، وهو أن عصر الحروب الصليبية كان عصر حزازة بين الإسلام وخصومه وأن أولئك الخصوم كانوا يعرفون قيمة الكتاب وأن إحراقه معابة لا يمكن تسويغها، على عكس الحال فى أيام عمر، التى لم تسمع بتلك الفرية خلالها، إذ كان إحراق الكتب وقتذاك مسألة اعتيادية لا شىء فيها. وكانت مصر وأخبارها شيئا هاما فى تلك الأيام.. إلى آخر ما قال العقاد[٣]، الذى كعادته قد استقصى فأحسن الاستقصاء فى وقت كتابته لـ"عبقرية عمر" منذ عشرات السنين. إلا أننى لا أستطيع موافقته على ما قال رغم إكبارى له إكبارا عظيما، فإن الخصومة بين الإسلام والعالم الغربى لم تنقطع فى يوم من الأيام. كما أن الصليبيين كانوا من الجهل والفدامة بحيث لا يسهل عليهم أن يفكروا فى أمر إحراق المكاتب بوصفه سبة يحاولون تلطيخ عمر بها.

والآن، وقد انتهينا من فضح ما فى أسطورة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية من سخف، تحول إلى وقائع حقيقية أحرقت فيها الكتب، ولكنها كتب المسلمين، بل أحرق فيها المسلمون أنفسهم دون أى ذنب جنوه، ودون أية شفقة أو رحمة. وهى وقائع ليس عليها أى خلاف من أى باحث. وسوف أكتفى فى هذا الصدد بإيراد مقال للدكتور على منتصر الكتانى بعنوان "الاضطهاد والتنصير فى الأندلس (١٤٩٢-١٥٦٨م)"[٤]:

---

[1]Bernard Lewis, Lost History of the Lost Library, The New York Review of Books, the June 14, 1990 issue

[٢] انظر د. محمد حسين هيكل/ الفاروق عمر/ ٢/ ١٧٠. وعبارته بنصها هى: "ولعل هذه الأسطورة نجمت فى بيئات الشيعة".

[٣] انظر العقاد/ موسوعة عباس العقاد الإسلامية/ دار الكتاب العربى/ بيروت/ ١٣٩١هـ- ١٩٧١م/ ٢/ ٥٠٢.

[٤] مجلة "الداعى" الشهرية الصادرة عن دارالعلوم- ديوبند/ محرم - صفر ١٤٣١ هـ: ديسمبر ٢٠٠٩ م- يناير- فبراير ٢٠١٠م.

"بعد استسلام غرناطة عين الملكان الكاثوليكيان الكونت دي تانديا حاكمًا عليها، وإيرناندو دي طلبيرة مَطرانًا لها. وبعد الاحتلال استقر أبو عبد الله في أندرش مع أتباعه وأهله مدةً، لكنه أجبر بعد ذلك على التنازل عن ضياعه في البشرات وأملاكه في غرناطة مقابل ثمن إجمالي قدره واحد وعشرون ألف دوقة قشتالية من الذهب الخالص. وغادر البلاد في أوائل أكتوبر سنة ١٤٩٣م بأهله وأتباعه، والتحق به عدد كبير من وزرائه وقواده، واستقروا معه في حاضرة فاس عاصمة المغرب.

وهاجر عددٌ جَمٌّ من كبار أهل غرناطة وقوادها وفقهائها وعلمائها وساداتها وأعيانها. وهاجر أحد قواد الجيش الأندلسي الغرناطي أبو الحسن علي المنظري إلى جنوب سبتة، واستأذن من السلطان أبي عبد الله الوطاسي إعادة بناء مدينة تطوان الخربة، فنقل إليها عددًا كبيرًا من المهاجرين الأندلسيين. واعتنق النصرانية طواعية بعد الاحتلال جماعة من الأمراء والأعيان: الأميران سعد ونصر ابنا السلطان أبي الحسن وأمهما ثريا، والأمير يحيى النيار ابن عم أبي عبد الله الزغل وزوجه وابنه، ومعظم آل بنيغش بما فيهم الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش والوزير يوسف بن كماشة، وغيرهم كثير.

ثم تحولت سياسة الدولة الأسبانية من الاعتدال إلى الغدر الفاضح ضد أهل غرناطة. وأول الغدر تحويل مسجد غرناطة الأعظم إلى كتدرائية. ثم نظمت الكنيسة فرقًا تبشيريةً لتنصير المسلمين. وفي سنة ١٤٩٩م استدعى الطاغية الكاردينال سيسنيروس ليعمل على تنصير الأندلسيين بصرامة أكبر. فابتدأ فورًا بتحويل أكبر المساجد إلى كنائس، والضغط بالوعد والوعيد على وجهاء المدينة وفقهائها ليتنصروا. فقامت ثورة عارمة في حي البيازين، ثم انتقلت سنة ١٥٠٠م إلى جبال البشرات بقيادة إبراهيم بن أمية. فلاحق الجيش الثوار وحاصرهم، ثم قضى عليهم بعد شهور، وقتل معظمهم، واسترق أبناءهم ونساءهم. ثم قامت ثورة أخرى أواخر سنة ١٥٠٠م حول بلدة بلفيق ووادي المنصورة بمنطقة ألمرية، فقضِيَ عليها بنفس الهمجية والقساوة. وكذلك حصل لثوار منطقة رندة بين يناير وأبريل سنة ١٥٠١م.

وتابعت الدولة والكنيسة سياسة التنصير القسري بإشراف الملكين الكاثوليكيين، فتم تعميد جميع الأهالي بالقوة بين سنتي ١٥٠٠ و١٥٠١م. ثم صدر مرسوم بتحويل جميع المساجد إلى كنائس. وفي ١٥٠١/١٠/١٢م صدر مرسوم آخر بإحراق جميع الكتب الإسلامية والعربية، فأحرقت آلاف الكتب في ساحة الرملة بغرناطة، ثم تابع حرق الكتب في جميع مدن وقرى مملكة غرناطة. ثم صدر الأمر بمنع استعمال اللغة العربية ومصادرة أسلحة الأندلسيين، الذين أصبحوا يسمونهم بـ"المورسكيين". ويعاقب المخالف لأول مرة بالحبس والمصادرة، ولثاني مرة بالإعدام. فاستغاث الأندلسيون مرةً أخرى بسلطان المغرب أبي عبد الله الوطاسي، وبسلطان مصر الأشرف قانصوه الغوري، وبالسلطان بايزيد العثماني دون جدوى.

ثم استعملت الكنيسة والدولة جهازًا جهنميًا لمتابعة الأندلسيين ومحاربة كل مظاهر الإسلام في حياتهم، ألا وهو محاكم التفتيش. أسست الكنيسة الكاثوليكية هذه المحاكم في إيطاليا وفرنسا وألمانيا لتقصي أخبار الناس ومتابعتهم إن خالفوا أفكار وأعمال الكنيسة. ثم أُنشئت في أديرة الفرانسيسكان والدومينيكان محاكم ثابتة

يترأسها الأساقفة بسلطة مطلقة، فطاردت العلماء والمفكرين، وشردت وأحرقت منهم الجم الغفير. وأُنشئت أول محكمة تفتيش سنة ١٢٤٢م في أراغون، وسُمِّيت بـ"الديوان القديم". وفي سنة ١٤٥٩م أصدر ملك قشتالة إنريكي الرابع أمرًا ملكيًا للأساقفة بالبحث والاستقصاء في دوائرهم عن المضمرين لأفكار مخالفة للكثلكة. وفي ١١/ ١٤٧٨م (قبل سقوط غرناطة) أصدر البابا مرسوما بإنشاء محكمة التفتيش في أسبانيا. وطالبت المحكمة الجميع بالتحول إلى جواسيس للكنيسة. وفي ٢/ ١٤٨٢م توسعت المحكمة من ٣ مفتشين من القساوسة إلى عشرة، فاستصدر الملكان الكاثوليكيان مرسومًا بابويًا لتعيين المفتشين السبعة الجدد. وفي سنة ١٤٨٣م صدر مرسوم بابوي بإنشاء مجلس أعلى لديوان التفتيش يتكون من أربعة أعضاء أحدهم المفتش العام رئيس المجلس، وهو توركيمادا، معترف الملكين. وكان رجلاً ظالما متعصبًا لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، مع ترف في الحياة وفساد في الأخلاق. وخَلَفَ توريكمادا بعد وفاته سنة ١٤٩٨م القسُّ دِيسا، أُسقف جيان.

تبدأ محكمة التفتيش عملها بتبليغ شخص. فإن كان معروفًا يُستدعَى لتقديم شهادته التي تعتبر "تفتيشًا تمهيديًا" تُعرَض نتائجه على "رهبان مقررين" معظمهم من الجهلة المتعصبين الذين يتجه قرارهم إلى الإدانة غالبًا. فيُقبَض على المتهم ويُسجَن دون أن يعرف السبب، ويُمنَح ثلاث جلسات إنذار في ثلاثة أيام متوالية يُطلب منه فيها الاعتراف بذنب لا يدري ما هو. فإذا اعترف عُوقِب بدون رحمة ولا شفقة. وإذا لم يعترف، أو لم يدر بماذا، يحال إلى التعذيب حتى يعترف بأي شيء أو يموت تحت العذاب. وكانت ضروب التعذيب تصل إلى درجة من الوحشية لا تخطر على بال. وإذا اعترف المتهم بغير التهم الموجهة إليه تلصق به تلك التهم على أي حال. وبعد المرافعة والاستجواب يُرفع الموضوع إلى القساوسة المفتشين ليعطوا رأيهم من جديد تمهيدًا للحكم النهائي، الذي يكون غالبًا الإدانة. ويمكن للمتهم أن يعلن التوبة ويطلب العفو من البابا مقابل أموال طائلة إن كانت له أموال. وإذا حُكِم على المتهم بالبراءة، وقليلاً ما يكون ذلك، فإنه يُعطى شهادة بطهارته من الذنوب تعويضًا على ذهاب ماله وشرفه وصحته ظلمًا وعدوانًا.

أما إذا كانت الإدانة بتهمة كبيرة فيؤخَذ المتهم من السجن دون أن يدري مصيره، ويمر بـ"مرسوم الإيمان"، فيلبس "الثوب المقدس"، ويوضع في عنقه حبل، وفي يده شمعة، ويؤخذ إلى الكنيسة للتوبة ثم إلى ساحة التنفيذ. وهناك يتلى عليه لأول مرة الحكم: سجن مؤبد، ومصادرة كاملة للأموال، أو الإعدام حرقًا بالنار في حال الكفر الصريح. أما إذا كانت التهمة صغيرةً فيحكم عليه بالسجن لمدة محدودة، وبغرامة مالية، ويسمون ذلك: "حكم التوفيق".

كانت أحكام الإعدام بالنار كثيرةً ضد المسلمين، وتكون في مهرجانات عظيمة يتفرج فيها القساوسة ورجال الدولة والأهالي، وأحيانا الملك وكبار رجال دولته. وكان يُحرَق المتهمون جماعيًا في مواكب الموت للترهيب، وأحيانًا عائلات بأكملها بأطفالها ونسائها. وكانت محاكم التفتيش تحاكم الموتى فتنبش قبورهم، وتتابع الغائبين وتعاقب أهلهم. وكان أعضاؤها يتمتعون بالحصانة الكاملة. وكانوا غالبا

ذوي أخلاق سافلة لا يتورعون عن ارتكاب الموبقات والجرائم ضد ضحاياهم. وهكذا أُخضِع الأندلسيون لهذه المحاكم الإجرامية منذ إعلان تنصيرهم القسري سنة ١٤٩٩م.

ولما أُخمِدت الثورات وأُلغِيَ الإسلام رسميًا لم يجد الأندلسيون بُدًّا، أمام عجزهم عن الدفاع وضياع أملهم في النجدة، سوى التظاهر مكرهين بقبول دين النصارى، والحفاظ على الإسلام سرًّا يقومون بشعائره من صلاة وصيام، ويحاشي المنكرات، ويعلمون أبناءهم، ويفعلون ما يجبرون عليه من التردد إلى الكنائس وتعميد الأطفال. وعملوا جهدهم للتكيف مع هذا الوضع الشاذ الحرج الخطر إلى أن يأتي الله بفرج من عنده.

وتحولت الكنيسة والدولة من أمل تنصير المسلمين الفعلي بالتبشير إلى أمل تنصيرهم بالإكراه والعنف والقوة، فجدِّدَت القوانين الجائرة والإجراءات الصارمة. ففي سنة ١٥٠٨م جدِّدَت لائحة ملكية بمنع اللباس الإسلامي. وفي سنة ١٥١٠م طبِّقَت على الموريسكيين ضرائبَ خاصة اسمها: "الفارضة". وفي سنة ١٥١١م جددت الحكومة قرارات بمنع السلاح عنهم، وحرق ما تبقى من الكتب الإسلامية، ومنع ذبح الحيوانات. وجُدِّدَ ذلك في سنتي ١٥١٢م و١٥١٣م. ودام الاضطهاد إلى أن مات فرناندو سنة ١٥١٦م موصيًا خَلَفه كارلوس الخامس بمتابعة سياسته نحو الإسلام.

واجه كارلوس الخامس الموريسكيين بشيء من اللين في أول أمره، لكن في سنة ١٤٢٣م أصدر مرسومًا جديدًا يحتم فيه تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من أبى التنصير، وعقاب كل من خالف الأمرين بالرق مدى الحياة. فاشتكى الموريسكيون إلى الملك من جور هذا القرار، فانتقل الملك سنة ١٥٢٦م إلى غرناطة لمتابعة الموضوع، وندب محكمة كبرى برئاسة المفتش العام لترى فيما إذا كان تنصير المسلمين قسرًا: صحيحًا وملزمًا أم لا، فقررت المحكمة ألا مطعن في تنصيرهم. فأصدر الملك قرارًا بمنع خروجهم من أسبانيا وصرورة تنصير أبنائهم، وقضى بالإعدام على كل من تنكر للنصرانية. وقرر القانون منع التخاطب بالعربية وكتابتها، وأجبر الموريسكيين على تعلم الأسبانية، وأمر بهدم الحمامات وبأن تبقى بيوت الموريسكيين مفتوحة على الدوام ليرى الجميع ماذا يجري فيها... إلخ. فالتمس الموريسكيون من الملك مرةً ثانية الرأفة، ودفعوا له من أجل ذلك ثمانين ألف دوقة ذهبية، فوافق على تأجيل تنفيذ هذه الإجراءات لمدة أربعين سنة مقابل دفع ضريبة سنوية. وهكذا وصل الموريسكيون مع كارلوس الخامس إلى توازن، لكن محاكم التفتيش واصلت تعسفها، خاصة في سنة ١٥٢٩م.

وخَلَف كارلوس الخامس بعد موته سنة ١٥٥٥م ابنه فليبي الثاني، الذي كان متعصبًا ضعيف الشخصية أمام الرهبان: ففي سنة ١٥٦٠م منَع الموريسكيين من اقتناء العبيد. وفي سنة ١٥٦٣م منعهم من جديد من امتلاك الأسلحة. وفي سنة ١٥٦٤م ألغى حصانة الذين يقيمون منهم في أراضي النبلاء. وفي سنة ١٥٦٦م، بعد مضي أربعين سنة على الاتفاق مع كارلوس الخامس، قرر تطبيق قراره بكل صرامة، وفرض على المخالفين أقصى العقوبات من السجن والنفي والتعذيب والمصادرة والإعدام حرقا. فأذيع هذا

القانون الغاشم في جميع أنحاء مملكة غرناطة في ١/ ١/ ١٥٦٧م، وتولى إذاعته موكب من قضاة محاكم التفتيش تتبعهم الطبول والزمور. وبدأت الحكومة في تطبيق هذا القانون بكل صرامة، فهُدِمت الحمامات، وملئت السجون، وتناثرت جثث المسلمين في شوارع غرناطة وقراها. ولم تفد المورسكيين أية شفاعة، فأخذوا يفكرون في الثورة المسلحة من جديد.

أما البرتغال فتوسعت على حساب الأراضي الإسلامية في الأندلس من إمارة صغيرة تأسست شمال غرب البلاد، فاحتلت براغة سنة ١٠٤٠م، ثم قلمرية سنة ١٠٦٤م حيث نقلت عاصمتها. ثم احتلت الأشبونة سنة ١٠٩٣م فنقلت إليها العاصمة، ثم يابورة سنة ١١٦٦م، وقصر بني دانس سنة ١٢١٧م، وشلب، وجميع غربي الأندلس سنة ١٢٤٩م. وبهذا استقرت حدود البرتغال على ماهي عليه اليوم. وعند احتلال الأراضي الإسلامية صادر البرتغاليون كل أراضي المسلمين وأملاكهم، فهاجر عدد كبير منهم، واستقر بعضهم الآخر في بلادهم كمُدجَّنين. فلما أعلنت أسبانيا أمرها بتنصير المسلمين سنة ١٤٩٩م تبعتها البرتغال سنة ١٥٠٢م، فهاجر عدد منهم إلى شمال المغرب، وبقي بعضهم الآخر كمسلمين سرًّا في البلاد، ثم هاجر عدد كبير آخر سنة ١٥٤٠م إلى المغرب. وبقي الباقون تحت نفس المصير الذي أصاب إخوانهم داخل الدولة الأسبانية.

ودخل عدد كبير من المسلمين تحت حكم قشتالة كمُدجَّنين بعد سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥م، ثم مرسية وقرطبة وإشبيلية في القرن الثالث عشر الميلادي، فوقع الملك الفونسو الرابع سنة ١٢٥٨م قانونا فرض فيه قيودًا على المسلمين في كل المجالات، وشجع التنصير بينهم دون إرغامهم عليه. فثار المسلمون سنة ١٢٦١م من شريش غربا إلى مرسية شرقا، فقضى القشتاليون بمساعدة الأراضغونيين على الثورة سنة ١٢٦٦م، وفرّقوا في مرسية بين السكان المسلمين والنصارى حيث ظل حي الرشاقة الإسلامي تحت حكم وجهاء بني هود إلى سنة ١٣٠٨م.

وتوالت القرارات التعسفية ضد المسلمين في قشتالة في سنة ١٣٤٨م، و١٣٦٨م، و١٣٧١م: منها إجبار المسلمين على وضع شارات مميزة في ثيابهم، ومنعهم من الوظائف النبيلة، ومعاقبة المخالف بالمصادرة والسجن والتعذيب. وفي سنة ١٣٨٧م فرقوا في المسكن بين المسلمين والنصارى، وأجبروا المسلمين على الركوع للصليب، وجُدِّد القرار سنة ١٣٨٨م. وفي سنة ١٤٠٨م منعوا المسلمين من الأكل مع النصارى، وعاقبوا المخالفين، وقرروا إجراءاتٍ أخرى متشددةً للتفريق بين الفئتين في كل المعاملات. وفي سنة ١٤٢٢م أُصْدِر أمر بالإعدام على من يمنع مسلمًا من اعتناق النصرانية تبعته قرارات مالية مجحفة بالمسلمين سنة ١٤٣٥م، و١٤٣٨م. وأصدرت الملكة إيسابيلا سنة ١٤٧٦م مرسومًا تلغي فيه ما تبقى من المحاكم الشرعية، وتحدد ملبس المسلمين. وفي سنه ١٤٨٠م أصدرت مرسومًا أكدت فيه استرقاق المسلمين القادمين من غرناطة، وفرقت بين سكن المسلمين والنصارى.

وفي سنة ١٥٠٢م قرر الملكان الكاثوليكيان قتل المسلمين الرافضين التنصير في قشتالة أو طردهم خارج البلاد. كما أصدرا أمرًا بمنع مسلمي قشتالة من الاتصال بمسلمي مملكة غرناطة. ثم أصدرا أمرًا في نفس السنة

بتنصير جميع مسلمي قشتالة وليون وإخراج من يرفض التنصير. وفي سنة ١٥١٥م أصدر الملك مرسومًا يحرّم فيه على المتنصرين حديثًا في أية جهة من مملكة قشتالة أن يخترقوا أراضي مملكة غرناطة أو يتصلوا بأهلها. وعقوبة المخالف الموت والمصادرة.

وقع أول المسلمين في يد النصارى بمملكة أراغون عند سقوط برشلونة ومنطقتها سنة ٩٦٠م، ثم تكاثروا بعد سقوط سرقسطة سنة ١١١٨م، وميورقة سنة ١٢٢٠م، ويابسة سنة ١٢٣٥م، وبلنسية سنة ١٢٣٨م، ومنورقة بالجزر الشرقية سنة ١٢٨٦م. ضمنت معاهدة استسلام بلنسية صيانة المسلمين وأموالهم وعقيدتهم ولغتهم العربية والشريعة الإسلامية. ولكن ملك أراغون غدر بكل عهوده فور امتلاك المدينة، فصادر مساجدهم وحَوَّلهم إلى شبه أرقاء بعد جمعهم في أحياء خاصة بهم. وفي سنة ١٢٣٨م شرع الملك قوانين مجحفة، فثار المسلمون سنة ١٢٥٤م، واستولوا على عدد من الحصون بين شاطبة ودانية ولقنت. ولم يستطع الملك القضاء عليهم إلا سنة ١٢٥٧م بمساعدة أوروبا كلها بأمر من البابا. ثم تتالت القوانين المجحفة الظالمة سنة ١٢٦٨م، فثار المسلمون مرةً ثانيةً عام ١٢٧٦م، وحرروا أربعين حصنًا وتمركزوا في شاطبة، ودامت الثورة إلى سنة ١٢٧٧م.

ثم تتابعت القوانين الظالمة: سنة ١٢٨٣م تمنع المسلمين من الوظائف النبيلة، وسنة ١٣٠١م تنزل بعض الضمانات القانونية التي أعطيت لهم من قبل، وسنة ١٣٢٨م تجعلهم تحت رحمة الإقطاعي النصراني وكأنهم عبيد له، وسنة ١٣٤٢م، و١٣٧٠م تمنعهم من الهجرة إلى غرناطة والمغرب، وسنة ١٣٧١م، و١٣٨٩م، و١٤٠٣م تمنعهم من فداء الأسرى المسلمين وتعاقب المخالفين بالاسترقاق. وفي سنة ١٤١٨م صدر قانون يحدد تحرك المسلمين في المملكة، ويجعل أحياء المسلمين تحت إشراف مراقب نصراني ويمنع الأذان تحت طائلة الإعدام. وفي سنة ١٤٢٨م صدر قانون يجعل القضاء بين المسلمين بين يدي الإقطاعي النصراني، وكذلك التحكم في تحركاتهم.

وبعد سقوط غرناطة ساءت حالتهم، ولكن السادة الإقطاعيين عارضوا في إجبارهم على التنصير خوفًا على مصالحهم الزراعية. ولكن منذ سنة ١٥١٢م ابتدأت جماعات من النصارى المتعصبين تغير على القرى الإسلامية وتقتل وتحرق وتسبي دون رادع، ونصّروا قهرًا عددًا كبيرًا من المسلمين. وفي سنة ١٥٢٥م قررت الدولة والكنيسة في أراغون أن الذين أجبروا على التنصير هم نصارى وجب عليهم أن يعيشوا كذلك، وإلا وجب على محاكم التفتيش أن تعاملهم معاملة المرتدين. ثم قرر الملك إجبار جميع المسلمين على التنصير. وبعد أن استرجع المسلمون الملك عن هذا القرار وافق منحهم مهلة عشر سنين مقابل غرامة قدرها أربعون ألف دوقة ذهبية، وخفف عليهم إبانها شروط التنصير.

لكن اليأس دخل نفوس المسلمين فثاروا في منطقتي سرقسطة وبلنسية إلى ضفاف نهر شقر، فنظمت الدولة الأراغونية جيشًا من المتطوعين النصارى من كل أوروبا لمحاربة المسلمين، وتكوّن جيش ضخم بقيادة الملك كارلوس الخامس نفسه، فقضى على الثورة أواخر سنة ١٥٦٢م، فقتل الجم الغفير من

المسلمين، واسترق عددًا كبيرًا منهم، وأجبر الباقين على التنصير، كما فرّ عدد من المجاهدين إلى الجزائر والمغرب. فتابع الباقون في البلاد حياتهم المزدوجة بين الإسلام في السر، والنصرانية في العلانية.

وعملت الدولة الأسبانية بشطريها: أراغون وقشتالة على قطع الصلة بين المسلمين في المناطق المختلفة، خاصة بين مسلمي مملكة بلنسية ومملكة غرناطة. ففي سنة ١٥٤١م حرمت على مسلمي غرناطة التزوج إلى بلنسية، وحرمت الهجرة من بلنسية إلا بترخيص ملكي مقابل غرامة باهظة[١].

العرب والشعوبيون

من القضايا التى تعرض لها د. حتى فى كتابه عن "تاريخ العرب" قضية الموالى، الذين يقول إنهم كانوا يمثلون الطبقة الثانية بعد طبقة العرب الفاتحين، وإنهم كانوا يعانون من شوفينية العرب، إذ رفض العرب أن يُسَوُّوهم بأنفسهم رغم ما يثبته الإسلام لهم من حقوق، وإنهم لهذا كانوا يدركون أنهم يحتلون أحط المراتب الاجتماعية فى الدولة الإسلامية، مما دفعهم إلى تأييد حركات الشيعة فى العراق، والخوارج فى فارس، وغير ذلك. ثم يستمر قائلا إن هؤلاء الموالى كانوا أبناء ثقافة عريقة، ومن ثم لا عجب أنْ كانوا أول من أقبل فى البيئة الإسلامية على الدروس العلمية والفنون الجميلة وأنْ تفوقوا على المسلمين العرب الآتين من الصحراء في ميدان الثقافة، فقد دخل هؤلاء الفاتحون الأمصار التى غنموها خالين من كل تراث علمى. كذلك تحدث حتى عن بذور التقدم العلمى التى ألقيت فى التربة فى عصر الأمويين، ونبتت وازدهرت حتى صارت أشجارا باسقة فى عصر العباسيين. ثم عرض سريعا إلى مسألة ذوبان الموالى فى العنصر الفاتح نتيجة التزاوج بين العنصرين لدرجة ضياع الدم العربى بين عناصر الدولة فى العصر العباسى حيث زال ذلك الحاجز المنيع الذى وضعه الأمويون بين العرب والأعاجم، ولم تعد العروبة هى عروبة الدم فقط، بل عروبة الثقافة كذلك. فكل من اعتنق الإسلام وتحدث العربية فهو عربى مهما كان جنسه الأصلى. وهذا الحدث، فى نظره، من أشد الأمور خطورة فى تاريخ الحضارة الإسلامية. ذلك أننا حين نقول: "الطب العربى" أو "الفلسفة العربية" أو "الرياضيات العربية" فليس معنى هذا أنها من إنتاج مؤلفين عرب ينتمون إلى الجزيرة العربية، بل معناها أنهم ينتمون إلى الثقافة العربية، وإن كانوا قد استقوا ما كتبوه من مصادر إغريقية أو آرامية أو هندية أو فارسية... إلخ[1]. فلدينا هنا إذن قضيتان: الأولى هى ما بات يعرف بـ"الشعوبية"، والثانية مدى مساهمة العرب الأصلاء فى الحركة الثقافية أيام الدولة الإسلامية.

فأما كلمة "الشعوبية" فهى مصدر صناعى يدل على نزعة ظهرت على استحياء شديد أيام الأمويين ثم استشرت على عهد الدولة العباسية، وكانت تقوم على مفاخرة الشعوب الأعجمية، وفى مقدمتها الشعب الفارسى، للعرب، الذين فتحوا بلادهم. وهى مفاخرة تستند إلى ما كان عليه العرب فى الجاهلية من بداوة وتخلف وحياة خشنة غليظة[2] لقاء ما كان لتلك الشعوب من حضارة قديمة. وكانت

---

[1] انظر الفصل المعنون بـ"Social and Cultural Life Make a Start" بدءا من ص٧٩.

[2] لم يكن العرب كلهم فى الجاهلية بدوا خشنى الطباع والحياة، بل كانت هناك حضارات متقدمة يوما فى جنوب البلاد. إلا أن الشعوبيين يتجاهلون هذه الحقيقة. على أن البدو أنفسهم كانوا يَتَحَلَّوْن ببعض القيم والتقاليد السليمة رغم كل شىء، إذ كانت فيهم بقايا من دين إبراهيم وغيره من الأنبياء، بالإضافة إلى ما استنبطوه بأنفسهم.

الغالبية الساحقة من أصحاب البلاد المفتوحة مسلمين مخلصين لدينهم لا يرون من فرق بينهم وبين العرب، ولا يجدون فى حكم العرب لهم ما يستوجب السخط والتمرد والمعايرة، بل الحب والأخوة والتعاون على الخير، فكلا الفريقين مسلم تجمعه بالفريق الآخر أواصر الدين والثقافة. ولكن كان هناك من يسمَّون بـ"الشعوبيين"، ومنهم معتدلون يقولون إن كل ما يريدونه هو التسوية بينهم وبين العرب[١] انطلاقا مما ينادى به الإسلام من أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن الله خلق الناس جميعا من تراب، وجعل مصيرهم فى نهاية الأمر إلى تراب كما كانوا، وقسمهم سبحانه إلى شعوب وقبائل ليتعارفوا لا ليتناكروا. ولكن كان هناك أيضا من أزروْا على العرب وعملوا على إهانتهم، ولم يكادوا يتركون شيئا فى ماضيهم إلا نالوا منه وحقّروه، بما فى ذلك الشعر والخطابة والكرم والغيرة على الأعراض مما كان العرب القدماء يعتزون به اعتزازا كبيرا. فهم، فى نظرهم، بدو متخلفون لم تكن لهم حضارة ولا دول ولا ملوك يفاخرون بهم. كما أنهم من سلالة هاجر الأمة من خلال ابنها إسماعيل، أما هم فينتمون إلى سارة الحرة لأنهم أولاد ابنها إسحاق. بل إن بعضهم، وهم قلة جدُّ قليلة، كان يكره الإسلام وما جاء به من سلوك طاهر كريم، ويؤثر الزندقة والمجون والخمر وما إلى ذلك من ألوان الانحراف. ومن بين الشعوبيين، حسبما يذكر المؤلفون، إسماعيل بن يسار النَّسائى ذو الأصل الفارسى، وأبو عبيدة اللغوى، وهو من أصل فارسى يهودى، وعلاّن الشعوبى الفارسى الأصل، وسهل بن هارون، وبشار بن بُرْد، وأبو يعقوب الخريمى، وهو من أصل تركى، وأبو الأصلع الهندى، وعبد الله بن طاهر[٢].

أما كاتب مادة "الأدب العربى" فى "الموسوعة العربية العالمية" فقد استعمل كلمة "الشعوبية" لا بوصفها مصدرا صناعيا بل بوصفها صفة تدل على من كانوا ينزعون هذه النزعة. ومن ثم كانت الشعوبية لديه هم "أولئك القوم الذين عادَوُا العرب، ولم يَرَوْا فيهم إلا بدوًا ورعاة غنم وسكان خيام، ومجرد قبائل لم

---

[١] شعر بعض العرب أوانذاك بتميزهم بوصفهم فاتحين أرسلهم الله بدين التوحيد والرحمة لإنقاذ هذه الشعوب مما كانت فيه من وثنية وشرك وما كانوا يقاسونه من مظالم واستبداد. وكان ذلك يشيع فى البادية وبين الولاة كما يقول د. أحمد أمين، أما فى سائر الأمة فلم يكن لذلك وجود، وبخاصة فى ميدان العلم حيث كان العالم يُحترم لعلمه وتقواه، مثلما لم تكن الشعوبية تشيع بين جميع الأعاجم، بل كانت غالبيتهم تقدر العرب تقديرا عظيما وتعرف لهم فضلهم وأن الله قد اختارهم لحمل الرسالة ونشرها فى العالمين،كما كانت الشعوبية تركز كثيرا من كراهيتها على الأمويين (انظر د. أحمد أمين/ ضحى الإسلام/ مكتبة الأسرة/ ١٩٩٧م/ ١/ ٤٥، ٤٨).

[٢] انظر د. محمد نبيه حجاب/ مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى/ مكتبة نهضة مصر/ ١٣٨١هـ- ١٩٦١م/ ١- ٧، ود. شوقى ضيف/ العصر العباسى الأول/ ط١٦/ دار المعارف/ ٢٠٠٤م/ ٧٤- ٧٩.

يجمعهم دولٌ منظَّمة مثل غيرهم من الأمم كالروم والفرس. ويعكس تيار الشعوبية حقد الشعوب المغلوبة على الأمة العربية التي حباها الله برسالة الإسلام، وحقق لها الغلبة على أعداء هذه الرسالة. ومن أشهر دعاة الشعوبية: علاَّن الشعوبي وسهل بن هارون وبشّار بن بُرْد وأبو نواس". لكن الكلمة تقبل المعنيين جميعا.

وتحت عنوان "chuubiyya" قدم معجم لاروس الأدبى: "Dictionnaire de la Littérature" تعريفا لهذا المصطلح فقال إنها كلمة عربية مأخوذة من "شُعُوب"، التى هى مفرد "شَعْب"، وتعنى فى التاريخ الإسلامى نزعة غير عربية فى العموم قام بها أمثال سهل بن هارون (فى المشرق) وابن غرسية (فى الأندلس) ممن عملوا على إبراز ثقافتهم القومية وتذكير العرب فى المقابل بأصولهم المتواضعة وحياتهم القديمة المتقشفة، وهو ما اهتم الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه فى مؤلفاتهم بالرد عليه وتفنيده: "Mot arabe tiré du pluriel (chu'ub) de cha'b (peuple) et désignant, dans l'Islam médiéval, aussi bien en Andalousie qu'au Proche-Orient, un mouvement généralement supporté par des non-Arabes (Sahl Ibn Harun, Ibn Gharsiya), lesquels, pour mieux affirmer leur culture propre, entendent rappeler aux Arabes leurs origines fort modestes (vie fruste et sans éclat dans le désert). Des auteurs comme al-Djahiz, Ibn Qutayba ou Ibn 'Abd Rabbih se sont attachés, eux, à leur donner la réplique, transposant ce débat dans leur production littéraire"[1].

ويفصل كاتب المادة فى "Encyclopaedia of Arabic Literature" الكلام فى ذلك قائلا إن "الشعوبية" اتجاه ثقافى وأدبى ظهر فى أوائل العصر العباسى، وأرجع اشتقاقها إلى قوله تعالى: "يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا"، مما يفيد تساوى البشر جميعا عند الله جل وعلا. وفى رأيه أن هذه الحركة قد نشأت أولا بين الخوارج، الذين كانوا يركزون على مقياس التقوى لا على الانتماء إلى جنس أو قبيلة معينة، ثم انضم إليها فى العصر العباسى بعض الموالى من ذوى الأصل الفارسى أو النبطى اعتراضا على التفرقة الاجتماعية والثقافية التى كان يمارسها معهم العرب، مطالبين بالتسوية بينهم وبين الفاتحين، وإن طمح عدد كبير منهم إلى أن تكون لهم الأفضلية عليهم نظرا إلى ما كان لهم قبلا من ماض حضارى مجيد لقاء الوضع البائس الذى كان يعيش فيه العرب قبل الإسلام. ثم يمضى الكاتب مؤكدا أن الحركة لم تكن ضد الإسلام، ليعود عقيب ذلك فيقول إنها قد شجعت نزعة الشك نحو الثقافة العربية والإسلام. ومن هنا نشأت حركة مضادة للشعوبية بين المدافعين عن العروبة، الذين لم يكونوا كلهم بالضرورة عربا، إذ كان فى الجاحظ مثلا عرق زنجى، كما كان ابن قتيبة ذا أصل فارسى. وقد ذكر الكاتب من الشعوبيين سهل بن هارون وأبا عبيدة، الذى عمل فى مؤلفاته على بعث مخازى العرب فى الجاهلية. ثم هدأت هذه الحركة، كما يقول، فى القرن الرابع الهجرى حين تشربت الثقافة

---

[1] http://www.larousse.fr/archives/litterature/page/239#t172431

الإسلامية بعض العناصر من ثقافة الفرس. أما فى الأندلس فيذكر الكاتب أن الحركة قد ظهرت متأخرة حين تمزقت البلاد إلى دويلات صغيرة يحكمها أمراء الطوائف، الذين كان بعضهم بربرا، وبعضهم صقالبة. ومن أمثلة الأدب الشعوبى هناك رسالة ابن غرسية فى القرن الخامس الهجرى، وإن لم تكن لها أهمية تذكر. وهذا نص المادة فى أصلها الإنجليزى:

"The name of a cultural and literary trend discernible in the early 'Abbasid period, especially in the third/ninth century. The term derives from Koranic usage, in which the divine creation of shu'ub ('peoples') and qaba'il ('tribes') is mentioned, all being equal in the sight of God. The original partisans of the shu'ub seem to have been the Kharijis, with their emphasis on piety, rather than race or membership of a particular family, as the test of true belief. But by 'Abbasid times, certain non-Arab elements, and especially mawali or clients of Persian and 'Nabataean' (i.e. Iraqi Aramaic) origin, began to protest against the social and cultural discrimination against them by the Arabs. They demanded, first of all, equal treatment, but many passed on to claim superiority, because of the past glories of ancient Persian or Babylonian civilization, over the Arabs, with their miserable bedouin background in pre-Islamic times. The movement was not really anti-Islamic, but it did encourage a certain skepticism towards Arab culture and to the religion of Islam which was inextricably bound up with it. Hence a fierce anti-Shu'ubi reaction was engendered among the defenders of the Arab tradition, not all of whom were necessarily of unalloyed Arab blood; al-Jahiz had Negro blood in his veins, and Ibn Qutayba was of arabized Persian stock. Leading Shu'ubis included Sahl ibn Harun, the director of the caliph al-Ma'mun's Bayt al-Hikma ('House of Wisdom'), although the great philologist and historian Abu 'Ubayda, who did so much to recover the literary heritage of the ancient Arabs and to record their religious traditions under Islam, often considered a Shu'ubf, was probably one in the earlier Khariji sense, concerned to ridicule Arab social pretensions but with no particular concern to vaunt the Persians. By the fourth/ tenth century the controversy had died down, when the mainstream of Islamic culture and literature had absorbed enough of the Persian tradition in ethics and statecraft to disarm the partisans of the Shu'ubiyya but not to damage the essentially Arab-Islamic basis of the faith. A certain so-called Shu'ubi literature appeared in Muslim Spain at a later date, when al-Andalus had dissolved into petty principalities or ta'ifas representing to some extent ethnic groupings like the Berbers and Saqaliba or 'Slavs'; a notable example of it is the epistle of the fifth/eleventh-century poet and secretary Ibn Gharsiya (Garcia). But this was of minor importance, and its few exponents tended to repeat cliches adopted from the earlier Islamic East".

وفى "دائرة المعارف الإسلامية" نرى كاتب المادة، بعدما ذكر أن معظم الشعوبيين كانوا من الفرس، يضيف قائلا إن منهم آراميين (يقصد النبط) وبربرا وقبطا، وإن لم يورد اسم أى من هؤلاء، اللهم إلا ابن وحشية. ثم يشير إلى جولدتسيهر وعَزْوِه (فى كتابه: "دراسات محمدية") ظهور تيار الشعوبية إلى ما كان العباسيون، حسب قوله، يمارسونه من تمييز حاد ضد العرب، وأيضا إلى أولئك الفرس الذين لم يدخل الإسلام فى قلوبهم والذين أعادوا اكتشاف وعيهم القومى واجدين حافزا قويا فى الدول المستقلة فى الجناح الشرقى من الإمبراطورية الإسلامية، وإن سارع قائلا إنه من الصعب وجود أى تعاطف لدى الشعوبيين تجاه الثورات التى كانت تشب ضد السلطة المركزية، وبخاصة أن الشعوبية كانت تشيع بين الشعراء وكتاب الدواوين ممن يهمهم وجود دولة مركزية قوية. وفى آخر المقالة يشير إلى أن مصطلح

"الشعوبية"، وإن توارى عن الاستعمال منذ وقت طويل، قد بُعِث كرة أخرى فى العصر الحديث مع ظهور دعوة القومية العربية حيث شاب استعماله المبالغة، وأصبح مثارا للإدانة، فضلا عن أنه لا يصح فى نظره استعمال هذا المصطلح القديم الدال على الخصوصية مقابلا للقومية العربية، التى ليست لها عالمية الإسلام.

ونبدأ المناقشة، وسوف نناقش أولا ما قاله فيليب حِتّى من أن الموالى كانوا يدركون أنهم يحتلون أحط المراتب الاجتماعية فى الدولة الإسلامية، وتقسيمه الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى إلى أربع أدناها طبقة الأرقاء. فهل يعقل أن تكون طبقة الموالى، وهم المسلمون الجدد من أبناء البلاد المفتوحة الذين قال هو نفسه إنهم يحتلون المرتبة الثانية بينما يحتل الذميون والرقيق الطبقتين: الثالثة والرابعة على التوالى، أدنى من طبقتى أهل الذمة والرقيق؟ لا ريب أن هذا خطأ من حِتّى يدل على أنه لم يكن يراعى الدقة والتمحيص، ومن ثم كان من السهل وقوعه فى تناقض واضح كهذا. أما زعمه بأن أبناء البلاد المفتوحة قد تفوقوا على العرب فى ميدان الثقافة فسوف نناقشه عندما يحين أوان الحديث عن نسبة العرب إلى غير العرب بين العلماء. لكن إذا كان الدم العربى قد انصهر مع الدم غير العربى حتى ضاع بين عناصر الدولة غير العربية كما قال حِتّى ذاته، فكيف بالله يمكن الادعاء بأن غير العرب قد فاقوا العرب فى التحصيل الثقافى والإبداع العلمى؟ ذلك أنه، طبقا لكلامه، لم يعد هناك عرب وغير عرب أصلا، فكيف يكون هناك عرب وغير عرب فى المجال العلمى إذن؟ بل إنه ليقول إن العروبة لم تعد هى عروبة الدم، بل عروبة الثقافة. أى أنه لا يهم الجنس الذى ينتمى إليه العالم فى الدولة الإسلامية، بل المهم أنه ينتمى إلى الثقافة الإسلامية العربية، فلم يثير إذن تلك المسألة؟ كذلك ذكر سيادته أن النهضة الثقافية الإسلامية قد بدأت منذ العهد الأموى، وهذا بكل المقاييس وقت مبكر، وهو ما يحسب للإسلام وللعرب بكل تأكيد.

ولا ريب أن الإسلام، كما أشار حِتّى، قد سوى تماما بين البشر. ولا ريب أيضا أن شيئا من الخلل كان يعكر صفو العلاقة بين بعض العرب وبعض غير العرب رغم ذلك، وكان ينبغى أن يتناسى الفريقان اختلافاتهما العرقية ويتذكرا أخوتهما الإسلامية ويكونا يدا واحدة. لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه. وبوجه عام أرى أن الفريقين كليهما قد أخطآ فى حق أنفسهما وفى حق دينهما كما سوف نوضح فى حينه. أما السبب فى أن النزعة الشعوبية لم يكن لها أى وجود تقريبا فى الدولة الأموية فذلك لأن تلك الدولة كانت عروبية المنزع بحيث لم يجرؤ أحد على أن يفخر بأعجميته أو ينال من العرب، وإن كان شاعر كإسماعيل بن يسار النسائى قد شذ عن ذلك، فافتخر بفارسيته فى قصيدة يمدح بها الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، إلا أن رد فعل الخليفة تجاه ذلك الشعر كان عنيفا.

وهذا يقودنا إلى النظر فى شىء من كتابات بعض من اتهموا بالشعوبية لنرى إلى أى مدى يمكن أن تنطبق هذه التهمة عليهم. ونبدأ بإسماعيل بن يسار وما قاله فى قصيدته المشار إليها توًّا:

إني وَجَدِّكَ ما عودي بذي خَوَر * عند الحِفاظِ ولا حَوْضي بمَهْدومِ
أَصْلي كَريمٌ، ومَجْدي لا يُقاسُ بِهِ * ولي لِسانٌ كَحَدِّ السَّيْفِ مَسْمُومِ
أَحْمي بِهِ مَجْدَ أَقْوامٍ ذوي حَسَبٍ * مِن كُلِّ قَرْمٍ بتاجِ المُلْكِ مَعْمُومِ
جَحاجِحٍ سادَةٍ بُلْجٍ مَرازِبَةٍ * جُرْدٍ عِتاقٍ مَساميحٍ مَطاعيمِ
مَنْ مِثْلُ كِسْرى وَسابورِ الجُنودِ مَعًا * والهُرْمُزانِ لِفَخْرٍ أو لِتَعْظيمِ؟
أُسْدِ الكَتائِبِ يَوْمَ الرَّوْعِ إن زَحَفوا * وَهُمْ أَذَلُّوا مُلوكَ التُّرْكِ والرُّومِ
يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الماذِيِّ سابِغَةً * مَشْيَ الضَّراغِمَةِ الأُسْدِ اللَّهاميمِ
هُناكَ إنْ تَسْأَلي تُنْبَيْ بِأَنَّ لَنا * جُرْثُومَةً قَهَرَتْ عِزَّ الجَراثيمِ

وهى القصيدة التى يقولون إن هشاما حين سمعها غضب وأمر بغطه فى بركة الماء حتى كادت روحه تزهق، ثم أمر بإخراجه ونفيه إلى الحجاز. وسواء كان هذا هو رد فعل الخليفة فعلا أو كانت فى الرواية مبالغة، فإنى أتساءل: هل فى فخر الإنسان بجنسه الذى ينتمى إليه من حرج؟ ترى لو كان ابن يسار عربيا وافتخر بآبائه وأجداده العرب على هذا النحو أكان الخليفة يغضب منه، فضلا عن أن يعاقبه؟ الجواب: كلا. إذن فلم الغضب من فخر الشاعر بفارسيته؟ لقد أجلتُ فكرى فى الأمر بجياد تام مؤمنا بأن الفخر بالفرس كالفخر بالعرب سواء بسواء، وإن أدنا هذا فينبغى أن ندين ذاك أيضا. لكنى عدت فرويت فى الأمر لأتنبه إلى أن الفخر هنا ليس بآباء الشاعر وأجداده الفعليين، بل بكسرى وكبار رجال دولته، وكانوا كبار الوثنية الفارسية ورموزها، فكيف تطاوع المسلمَ نفسُه على الفخر بهم على هذا النحو؟ وإذا لم يكن أى من كسرى أو سابور أو الهرمزان أبا أو جدا للشاعر أو يمت له بأى نوع من القرابة فليس لذلك من معنى إلا أنه افتخر بهم دلالة على أنه لا يزال يحن إلى دولة الفرس ويراها جديرة بالعزة والنصر، وفى هذا من المغزى ما فيه.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن كسرى هو الذى هزمه المسلمون فى حرب قريبة، وسابور سلف له، وأن الهرمزان، فى بعض الروايات على الأقل، أحد شركاء اغتيال الفاروق رضى الله عنه فى مؤامرة قومية هى فى واقع الأمر وحقيقته خيانة عظمى، كان الأمر مخزيا لا جدال فيه. ليس ذلك فحسب، بل إن الشاعر ليحقّر المسلمين من طَرْفٍ خفى، إذ يؤكد أن أصل الفرس ومجدهم قد قهر غيره من الأمجاد والأصول. وهو ما ينافى التاريخ، الذى يقول، وكان وقتذاك حديث عهد بالقول، إن المسلمين هم الذين قهروا الفرس لا العكس. ومع هذا كله فلقد كانت للشاعر مندوحة فى أن ينظم مثل هذا الشعر بعيدا عن الخليفة، دَعْكَ من أنه قد نظمه ليمدحه به، فأين المدح فى هذا؟ إنه فى الواقع هجاء، وإن لم يكن هجاء مباشرا. صحيح أن الإسلام لا يحبذ أصلا مثل هذا اللون من المدح الذى يتقرب فيه الشاعر إلى الحكام ويناقفهم ويغطى على عيوبهم ويرفعهم فوق قدرهم كثيرا، مما من شأنه أن يغشى بصائرهم ويمد لهم

فى حبال الغرور فلا يمكنهم رؤية عيوبهم وإصلاح أنفسهم. لكن ذلك موضوع آخر، فضلا عن أن كلا من الخليفة والشاعر يتحملان تبعته لا الخليفة وحده.

ولو تناسينا وتجاهلنا هذا جميعه فهل من السهل أن نتجاهل الشعور العام الذى لم يكن يتقبل هذا بسهولة؟ ترى هل يصح أن أقف أمام قصر الحاكم فى أعرق بلد ديمقراطى، لا بل داخل القصر، لا بل أمام الحاكم ذاته وهو جالس على كرسى المُلْك، وأذهب فأمجد تاريخ أعدائه وكبار رجالهم ورموزهم القومية على هذا النحو، ثم إذا ما ثار الناس علىّ وهاجوا وماجوا وتعرضوا لى بالأذى قلت: أين الديمقراطية؟ الحق أنه ينبغى أن يراعى كل منا السياق الذى يحيط به، إذ نحن لا نعيش فى المطلق، بل على الأرض، وبين البشر. ثم هل استفز الشاعرَ أحدٌ كى يفتخر بكسرى وسابور والهرمزان على هذا النحو، وأمام خليفة المسلمين؟ إن ثمة أصولا وقواعد لكل شىء، ومنها الشعر والفاوه، وبخاصة شعر المديح، وعلى وجه أخص أمام الخلفاء، وتزداد خصوصيته حين تكون الدولة فى أوج عزها ومجدها، ولا بد أن يراعى كل هذا. أما التغشمر بهذه الطريقة فهو حمق. والحمد لله أن اكتفى الخليفة بما صنعه مع ابن يسار! لقد كان ابن يسار مجدودا بحق!

أما مع بشار فالوضع مختلف، إذ استفزه أحد الأعراب استفزازا سخيفا جلب به على نفسه وبنى جنسه من الأعراب (ليس العرب بل الأعراب) أمثاله هجاء بلغ الغاية فى الشدة. وتقول الرواية إن صاحب المنزل الذى شاهد ما حدث، وسمع القصيدة الكاوية التى أنشدها ابن برد فى الهجوم على الأعراب (الأعراب لا العرب) قد أقام للشاعر العذر وقرّع الأعرابى على سخفه ورأى ما نزل به حقا لا يصح مؤاخذة الشاعر به. تقول القصة حسبما جاء فى كتاب "الأغانى": "دخل أعرابي على مَجْزَأة بن ثور السَّدُوسي، وبشار عنده، وعليه بِزّة الشعراء، فقال الأعرابي: مَن الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر. فقال: أمولى هو أم عربي؟ قالوا: بل مولى. فقال الأعرابي: وما للموالي وللشعر؟ فغضب بشار وسكت هنيهة، ثم قال: أتأذن لي أبا ثور؟ قال: قل ما شئت يا أبامعاذ. فأنشأ بشار يقول:

خليلِي، لا أنام على اقتسار * ولا آبى على مَوْلًى وَجَار
سأخبِر فاخر الأعراب عني * وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كُسِيتَ بعد العري خزًّا * ونادمتَ الكرام على العُقار
تُفاخِر يا ابن راعيةٍ وراعٍ * بني الأحرار؟ حَسْبُك من خَسَار
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قَراحٍ * شَركتَ الكلب في ولَغ الإطار
تريغ بخطبةٍ كَسْر الموالي * وينسيك المكارمَ صيْدُ فار
وتغدو للقنافذ تدّريها * ولم تعقل بدُرّاج الديار
وتتشح الشمال للابسيها * وترعى الضأن بالبلد القفار
مُقامُك بيننا دَنَسٌ علينا * فليتك غائب في حَرّ نار

وفخـــرك بيـــن خنـزيـــر وكلب * عـــلى مثـــلي من الحـدث الكبـــار

فقال مجزأة للأعرابي: قَبّحك الله! فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك!".

ولنلاحظ أن مجزأة هذا عربى لا مولى من الموالى، لكنه اتخذ جانب بشار لأنه رآه صاحب حق. ولنلاحظ أيضا أن الأعرابى قد تحرش بالشاعر تحرشا، إذ كان على بشار بزة الشعراء، ومع هذا تجاهل الأعرابى ذلك وسأله سؤال المستفِزّ المحقِّر: من الرجل؟ ولم يكتف بذلك، بل أتبع السؤال الأول بسؤال آخر تفضح فيه الرغبة فى الاحتكاك والاستفزاز. بل إنى لا أستبعد أن يكون ذلك الأعرابى قد دخل البيت وهو يعلم أن المنشد هو بشار، لكنه أراد إحراجه والتنقص من شأنه، وظن أنه سوف يفحم بهذه الطريقة الشاعر الكبير. وهناك جانب فى الموضوع لم يتنبه إليه هذا الأعرابى وأمثاله، ألا وهو أن حياة العربية إنما تقوم على إبداع بشار وأمثاله، فاللغة ليست كيانا هيوليا، بل تتجسد فى النصوص، وعلى رأسها نصوص الشعراء والكتاب، ومنهم بشار. فالعربية إذن مدينة لبشار. فكيف يقال له إنك مولى لا تحسن الشعر؟ فمن يحسنه إذن يا ترى؟ والعبرة فى العروبة، كما سبق القول غيرَ بعيد، بالثقافة لا بالدم. فبشار بهذا الاعتبار عربى أكثر من ذلك الأعرابى. وهل كان ذلك الأعرابى شاعرا رغم عروبته البيولوجية؟ فأين إذن شعره يا ترى؟ ولو نفينا الشعراء الموالى من كتاب الشعر العربى لقلت صفحاته قلة مزعجة. وليس فى هذا تنقصٌ من الشعراء العرب، بل وضعٌ للأمور فى نصابها، فلا شك أن اللغة العربية قد اكتسبت الكثير بانتشارها واتخاذ الأعاجم إياها لغة لهم يكتبون وينظمون بها، ولقد كانت حَرِيّة أن تخسر الكثير لو أنها ظلت محصورة فى الجزيرة العربية. بل إن التاريخ العربى ليذكر بشارا فى أبرز صحائفه معتزًّا به رغم كل ما يمكن أن يؤخذ عليه من معايب، أما ذلك الأعرابى الذى حاول النيل منه وتحقيره فقد أهمله التاريخ إهمالا حتى إن أحدا لا يعرف له اسما ولا رسما سوى أنه مجرد أعرابى!

لقد خلق الله البشر، وخلق فيهم حب النفس وإيثارها على سواها وتفضيل كل ما يتعلق بها على ما لدى غيرها من عقل أو أهل أو وطن... فمن الطبيعى جدا أن نحب أوطاننا ونتعصب لها ونراها أجمل الأوطان. وليس فى هذا ما يعاب بتاتا. إنما المشكلة فى عدم وقوفنا عند هذا الحد وتجاوزه إلى تحقير الآخرين وما عندهم. صحيح أن جانبا من حبنا لأوطاننا يتبدى فى النظر إلى الأوطان الأخرى على أنها أقل منه. وهذا أيضا أمر طبيعى ما وقف عند هذا الحد ولم يتجاوزه إلى مجابهة أصحاب الأوطان الأخرى به، وبدون داعٍ. فما بالنا إذا اتخذ الإنسان منا ذلك هِجِّيرَى له لا يكف عنه فيظل يتغنى به ليل نهار، لا مع نفسه أو مع أهل وطنه فقط، بل فى مواجهة أهل الأوطان الأخرى؟ وما بالك إذا لم يعتدل الإنسان فى تقليل شأن الأوطان الأخرى، بل مضى على غلوائه مقللا بل محقرا من شأنها وشأن شعوبها؟ إن من الناس من يظن أن العصبية الوطنية شعور كريه. وهو رأيٌ فطيرٌ ومتسرع، فلا حياة دون عصبية وتعصب، إذ العصبية هى وقود الحياة الذى لولا هو ما رامت موضعها. والعقلاء لا يجدون فى العصبية الشخصية أو الأسرية أو الوطنية ما يعاب، بل التغالى فيها والتعامى عن حق الآخرين فى التعصب

بدورهم لأنفسهم وأسرهم وأوطانهم هو المكروه. ويمكن أن يحب كل منا وطنه ويرى فيه أجمل الأوطان وأفضلها دون أن يتمادى فيعتدى على مشاعر الآخرين، الذين لا بد أنهم ينظرون إلى أوطانهم بنفس العين التى ينظر هو بها إلى وطنه. وبهذا تسير سفينة الحياة. إن العصبية، شأنها شأن أية عاطفة أخرى، لازمة ونافعة ما التزمت حدود الاعتدال وراعت أن للآخرين عاطفة تملى عليهم حب وطنهم مثلما لنا هذه العاطفة، أما إذا انفلتت جامحة لا تلوى على شىء فإنها تتحول من وقود يُسَيِّر سفينة الحياة إلى نار تحرق تلك السفينة. إنها تنتقل من خانة العصبية الوطنية إلى خانة الشوفينية، تلك العاطفة المقيتة. الأعرابى إذن محق فى حبه للعرب واعتبارهم أفضل الأمم، لكنه تخطى الحدود حين حقر من شأن بشار وأمته بل الأمم جميعا التى تخضع للعرب فى ذلك الوقت. وبشار، فى اعتداده بنفسه وبالأمة التى يعتزى لها، مصيب هو أيضا. وهو، فى القصة التى نحن بصددها، لم يبدأ أحدا بالعدوان، بل رد عدوان الأعرابى، فلا ملام إذن عليه[1].

كذلك فموقف الشعوبيين من العرب قد تجاوز المعقول والمقبول حين وضعوا نصب أعينهم تحقير كل شىء لدى العرب فى حاضرهم وفى ماضيهم بما فيه الشعر والخطابة بل بما فيه الإمساك بالعصا أثناء إلقاء الخطبة. وقد يكون مقبولا أن يرى هؤلاء تراثهم الشعرى خيرا مما لدى العرب من شعر، أما أن يُزْرُوا على شعر العرب كله فحكم لا قيمة له. ومثله معايرتهم العرب بأنهم لم تكن لهم دول ولا ملوك يفاخرون بهم. ذلك أن العرب كان لهم شيوخ قبائل، وهؤلاء يقومون مقام الملوك عند الأمم الأخرى، إذ كانت القبيلة هى الوحدة السياسية عند عرب الشمال. لكن إذا جئنا للجنوب فقد كانت فيه دول يحكمها ملوك، وكانت لهذه الدول حضارة عظيمة تحدث عنها التاريخ حديثا بديعا. على أن شيوخ القبائل لم يكونوا يمارسون الاستبداد حيال رجال قبيلتهم على عكس ما كان الملوك يفعلون فى تلك الأزمنة. وعلى أية حال فإذا كان العرب لا يعرفون الدول والملوك فى القديم فإنهم يعرفونها الآن بخلاف الشعوبيين، الذين لم تعد لهم دول ولم تعد لهم ملوك، بل صاروا خاضعين للعرب، لا سياسة فقط، بل دينا ولغة وثقافة، وكل هذا دون أى إجبار من جانب العرب كما هو معروف. كما أن الحروب بين أولئك الملوك الذين يتفاخر بهم الشعوبيون وبين غيرهم من الملوك كانت دُوَلاً: فتارة ينتصرون، وتارة ينهزمون. أما المسلمون فلم يكونوا أوانئذ يعرفون إلا الانتصارات، بل ظلوا كذلك ردحا طويلا جدا من الزمن. مشكلة الشعوبيين إذن أنهم كانوا يعيشون فى الماضى، الذى ولى وصار فى خبر "كان"، على حين كان العرب يعيشون فى الحاضر، وكان ذلك الحاضر مجيدا فخيما. لكن ما كان يصح لهم أن يتمادَوْا فى ذلك الشعور وأن يعرفوا أن تلك

---

[1] تناولتُ دعوى شعوبية بشار بشىء من التفصيل فى كتابى: "بشار بن برد- الشخصية والفن" (دار الفردوس/ ١٤٣١هـ- ١٤٣١هـ- ٢٠١١م/ ٨٦- ٩٢).

منة الله عليهم، وأنهم إلى وقت قريب لم يكن لمعظمهم شيء من هذا المجد الذى جعل لهم دولة ذات شأن وخطر فى العالم. والطريف أننا نحن العرب الآن نلتفت كثيرا إلى الماضى، لا لأخذ العبرة بل للتغنى به دون محاولة النسج على منوال الأسلاف، ناسين أن مياها كثيرة قد جرت فى النهر منذ كانت لنا أمجاد، فربانا إذا غنى منا المغنون رفعوا عقيرتهم بالمباهاة بانتصاراتنا المدوية وإنجازاتنا فى ملاحم الحروب مهددين الأعداء تهديدا مقعقعا، مع أن مثل تلك الإنجازات والانتصارات قد غابت عن حياتنا منذ فترة طويلة. فهذا مثل هذا.

وعندنا أيضا ابن المقفع. ولسوف أكتفى ببعض ما رددتُ به على المستشرق الإيطالى جابريلى فى بحثٍ مشباكى لى عنوانه: "كلمة فى عقيدة ابن المقفع"، إذ قلت إننى أختلف مع ف. جبريلى (F. Gabrieli) كاتب مادة "عبد الله بن المقفع" فى "The Encyclopaedia of Islam" فى قوله إن ابن المقفع قد عمل، من خلال ما ترجمه من الأدب الهندى والفارسى، على تسليط الضوء على كنوز قومه ورد اعتبار دينهم، الذى تراجع إلى الظل بعد الفتح الإسلامى لبلاده، وإن بالمستطاع كذلك عدّه رائدا للشعوبية رغم أنه لم يترك لنا شيئا فى هذا المجال. ذلك أن ابن المقفع، بإعلانه التحول من دين الأجداد والآباء إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم بمحض اختياره التام، خير تكذيب لمثل تلك السخافات. ثم هل من يمجد المولى جل جلاله كل هذا التمجيد الموجود كما صنع ابن المقفع فى كتبه يمكن أن يكون زنديقا يريد أن يكون الأمر لدين الفرس بدلا من دين التوحيد؟ أم هل من الممكن أن يكون ابن المقفع ممن يكرهون دين محمد، وهو الذى سمى ابنه محمدا وتكنّى به؟ لقد كانت أمامه منادح فى مئات الأسماء الأخرى، إلا أنه تركها جميعا واجتبى لابنه اسم النبى العربى. أوليس لهذا دلالته التى يصح الاستئناس بها فى سياقنا هذا على الأقل؟

وفضلا عن هذا فقد أعلى ابن المقفع من شأن العرب لافتا النظر إلى ما أنجزوه فى باب الحضارة والثقافة والسياسة على غير مثال سابق نظرا إلى أنهم كانوا أُمّة أُمّيّة، إذ بلغوا ما بلغوه فى غضون زمن قصير جدا مما لم يقع لأية أمة من قبل. وهذا نص كلامه، وهو موجود فى كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "إنّ العرَب حَكمت على غير مِثال مُثّل لها ولا آثار أُثِرَت. أصحاب إبل وغنَم، وسكان شَعَر وأَدَم. يَجودُ أحدُهم بقُوته، ويتفضّل بمَجْهوده، ويُشارك فى مَيْسوره ومَعْسوره، ويَصِفُ الشيء بعقله فيكون قُدْوَة، ويَفعله فيَصِير حُجّة، ويُحسّن ما شاءَ فيَحْسُن، ويُقبِّح ما شاء فيَقْبُح. أدّبَتْهم أنفسُهم، ورفعتهم هِمَمُهم، وأعْلتهم قلوبُهم وألسِنَتهم. فمَن وَضع حَقّهم خَسِر، ومَنْ أنكر فضلهم خُصِم". وقد أورد ابن عبد ربه هذا الكلام فى ثنايا قصة طويلة بعض الشىء نجدها أيضا عند أبى حيان التوحيدى فى الليلة السادسة من "الإمتاع والمؤانسة"، مع بعض الاختلافات الهامشية التى لا تقدم ولا تؤخر. قال: "ثم حضرته ليلة أخرى فأول ما فاتح به (الوزيرُ البُوَيْهِىّ أبو عبد الله العارض) المجلس أن قال: أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟ قلت: الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند. وثلاث من هؤلاء

عجم، وصعبٌ أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة مع جوامع مآلها، وتفاريق ما عندها.

قال: إنما أريد بهذا الفرس. فقلت: قبل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي أروي كلاما لابن المقفع، وهو أصيل في الفرس، عريقٌ في العجم، مفضل بين أهل الفضل. وهو صاحب "اليتيمة" القائل: تركتُ أصحاب الرسائل بعد هذا الكتاب في ضحضاح من الكلام. قال: هات على بركة الله وعونه. قلت: قال شبيب بن شبة: إنا لوقوفٌ في عَرْصَة المِرْبَد، وهو موقف الأشراف ومجمع الناس، وقد حضر أعيان المصر، إذ طلع ابن المقفع، فما فينا أحد إلا هش له وارتاح إلى مساءلته، وسُررْنا بطلعته. فقال: ما يقفكم على متون دوابكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بعث الخليفة إلى أهل الأرض يبتغي مثلكم ما أصاب أحدا سواكم. فهل لكم في دار ابن برثن في ظل ممدودٍ، وواقيةٍ من الشمس، واستقبال من الشَّمال، وترويحٍ للدواب والغلمان، ونتمهد الأرض فإنها خير بساط وأوطؤه، ويسمع بعضنا من بعض فهو أمدّ للمجلس، وأدَرّ للحديث؟ فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دوابنا في دار ابن برثن نتنسم الشمال، إذ أقبل علينا ابن المقفع فقال: أي الأمم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفُرْس، فقلنا: فارس أعقل الأمم. نقصد مقاربته، ونتوخى مصانعته. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها. هم قوم عُلِّموا فتعلموا، ومُثِّل لهم فامتثلوا واقتدَوْا، وبُدِئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه. ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدانٌ وثيقة، وهم أصحاب بناء وهندسة لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما. قلنا: فالصين. قال: أصحاب أثاثٍ وصنعة، لا فكر لها ولا روية. قلنا: فالترك. قال: سباعٌ للهِراش. قلنا: فالهند. قال: أصحاب وَهْم ومخرقة وشعبذة وحيلة. قلنا: فالزنج. قال: بهائمُ هاملة. فرددنا الأمر إليه. قال: العرب. فتلاحظنا وهمس بعضنا إلى بعض، فغاظه ذلك منا، وامتُقِع لونه، ثم قال: كأنكم تظنون فيّ مقاربتكم! فوالله لوددت أن الأمر ليس لكم ولا فيكم، ولكن كرهت إن فاتني الأمر أن يفوتني الصواب. ولكن لا أدعكم حتى أبين لكم لمَ قلتُ ذلك، لأخرج من ظِنَّة المداراة وتوهُّم المصانعة. إن العرب ليس لها أوّل تؤمُّه ولا كتابٌ يدلها.

أهل بلد قفر ووحشةٍ من الإنس. احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض، فوسموا كل شيء بسِمَته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في رَطْبه ويابسه، وأوقاته وأزمنته، وما يصلح منه في الشاة والبعير. ثم نظروا إلى الزمان واختلافه فجعلوه ربيعيا وصيفيا، وقيظيا وشتويا. ثم علموا أن شربهم من السماء فوضعوا لذلك الأنواء. وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازله من السَّنَة. واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها، فسلكوا بها البلاد. وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر، ويرغبهم في الجميل، ويتجنبون به الدناءة، ويحضهم على المكارم، حتى إن الرجل منهم، وهو في فجٍ من الأرض، يصف المكارم فما يُبقي من نعتها شيئا، ويسرف في ذم المساوئ فلا يقصر. ليس لهم كلام إلا وهم يتحاضون به على اصطناع المعروف، ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد. كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلمون ولا يتأدبون، بل نحائزُ مؤدَّبة، وعقول عارفة. فلذلك قلت لكم:

إنهم أعقل الأمم، لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم. هذا آخر الحديث. قال: ما أحسن ما قال ابن المقفع! وما أحسن ما قصصتَه وما أتيتَ به! هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبَط".

فهل قائل هذا الكلام يمكن اتهامه فى دينه أو القول بأنه شعوبى يعمل على تدمير قوة العرب ودولة الإسلام وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء؟ ومع هذا فالدكتور محمد نبيه حجاب يشك فى نسبة هذا الكلام إلى ابن المقفع، وإن كان قد أضاف أنه حتى لو ثبتت صحته فإنه لم يقله من قلبه، بل أراد به تملق العرب ليس إلا، أو يكون مجرد أسلوب من أساليب الجدل النظرى لأنه فى الواقع إنما كان يبغض العرب، وإن لم يقدم الدكتور أى دليل على تنقص كاتبنا من شأن العرب سوى أنه ترجم بعض التراث الأدبى الفارسى، إذ يؤكد أنه إنما صنع هذا كى يبين لهم أن قومه أفضل منهم[١]، وهو ما يذكرنا بالمثل القائل: "عنزة ولو طارت"! أى أنه دخل البحث وفى نيته إدانة ابن المقفع بأى شكل ومهما ثبتت براءته.

وممن ذُكِروا بين الشعوبيين أيضا أبو يعقوب الخُرَيمىّ، مع أن الرجل لم ينل من العرب، بل كل ذنبه أنه وُلِّىَ القيادة العسكرية فى بعض الغزوات، فلم تطب نفوس أشراف العرب بذلك رغم ما أبلاه فى نصرة الإسلام، وكل حجتهم أنه مولى صُغْدِىّ، مما دفعه إلى أن ينظم شعرا فى ذلك يحتج به ويعاتب. وهذه هى القصة كما وردت فى مادة "صُغْد" فى "معجم البلدان" لياقوت الحموى: "إسحاق بن حسان بن قوهي الخرمي، وأصله من الصغد، وأقام بمرو. وكان صَحِبَ عثمان بن خريم القائد، وكان يلي أرمينية، فسار خاقان الخزر إلى حربة، وعسكر ابن خزيم إزاءه وعقد لأبي يعقوب على الصحابة وأشراف من معه، فكرهوا ذلك، فقال الخرمي:

أبالصُّغْد بأسٌ أن تعيّرني جُمْلُ * سفاها؟ ومن أخلاق جارتنا الجهلُ
هُمُو، فاعلموا، أصلي الذي منه مَنْبتي * على كل فرع في التراب له أصلُ
وما ضرّني أنْ لم تلدني يحابرٌ * ولم تشتمل جرمٌ عليَّ ولا عُكْلُ؟
إذا أنت لم تحْمِ القديمَ بحادثٍ * من المجد لم ينفعك ما كان من قبلُ

وقال أيضا:

رَسَا بالصغد أصلُ بني أبينا * وأفرُعُنا بمرو الشاهجان
وكم بالصغد لي من عمٍّ صِدْقٍ * وخالٍ ماجدٍ بالجوزجان"

---

[١] انظر د. محمد نبيه حجاب/ مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى/ مكتبة نهضة مصر/ ١٣٨١هـ - ١٩٦١م/ ٤٠٨ وما بعدها.

ولست وحدى الذى ينفى عن الخرمى الشعوبية، بل ينفيه عنه كذلك أستاذى الدكتور شوقى ضيف، طيب الله ثراه، قائلا إنه لم يكن ينطلق فى شعره هذا من منطلق شعوبى، بل من مبادئ الإسلام وقيمه التى تحض على التسوية. وهناك أيضا المستشرق شارل بلا صاحب مقال "الخرمى" فى الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam"، فهو ينكر أن يكون ذلك الشاعر شعوبيا بحال من الأحوال. أما د. مصطفى الشكعة، رحمه الله، فترجّحَ رأيه بين تشعيب الخرمى، أى نسبته إلى الشعوبية، وبين تبرئته منها[١].

وبالنسبة إلى ابن غرسية الأندلسى فليس هناك أدنى شك فى شعوبيته، مثلما ليس هناك أى عذر له فى هجومه الضارى على العرب، ذلك الهجوم الذى تجاوز فيه لا حدود الدين وحده، بل حدود اللياقة والإنسانية جميعا، وذلك حين هاجم السيدة هاجر، كما يفعل كثير من الشعوبيين ومبغضى المسلمين، يريدون أن يقولوا إن العربَ حَمَلة الإسلام الأوائل وفاتحى البلاد من حولهم هم من سلالة أَمَةٍ، أما الأمم الأخرى فمن أولاد سارة الحرة. وهو، فى هذا السبيل، يقول فى حق السيدة هاجر كلاما قاسيا لا يستطيع المسلم أن يتسامح فيه أو يتناساه أبدا. كما أن ابن غرسية لم يخلف لنا شعرا، بل نصا نثريا لم يصلنا عنه سواه لا فى شعوبية ولا فى غيرها. ويتسم أسلوبه بالعنف الملتهب والاهتمام الشديد بالمحسنات البديعية، وبخاصة الجناس والسجع اللذان يستعملهما بطريقة تبدو جديدة أو شبه جديدة، مع الاحتفاظ بالقوة وشدة الأسر والجاذبية رغم ذلك. ولى دراسة صدرت منذ سنتين فى حوالَىْ ١٠٠ صفحة عن ابن غرسية ورسالته الغريبة التى تكاد تنفرد عن النصوص النثرية والشعرية فى الأندلس باتجاهها الشعوبى، ومعها الرسائل التى أُلِّفَتْ فى الرد عليه وتفنيد أقواله. واسم الدراسة هو "رسالة ابن غرسية الشعوبية والرسائل التى ردت عليها– دراسة مضمونية وأسلوبية"[٢].

---

[١] لصاحب هذه السطور فصل تناول فيه الترجمة للخرمى وتقويم شعره ومناقشة دعوى شعوبيته فى كتابه: "شعراء عباسيون" (دار الفكر العربى/ ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م/ ١٣١ فما بعدها)، فيرجع إليه.

[٢] وممن تناولوا رسالة ابن غرسية وشعوبيته ابن بسام/ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة/ ط٢/ دار الثقافة/ بيروت/ ١٣٩٣هـ– ١٩٧٩م/ ٣/ ٢/ ٧٠٤، وابن سعيد/ المغرب فى حلى المغرب/ تحقيق د. شوقى ضيف/ ١٩٥٣– ١٩٥٥م/ القاهرة/ ٢/ ٤٠٦، ومحمد عبد الله عنان/ دولة الإسلام فى الأندلس/ ط٤/ مكتبة الخانجى/ القاهرة/ ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م/ ٢/٢٠٤– ٢٠٨، وعبد السلام هارون/ نوادر المخطوطات/ ط٢/ مصطفى البابى الحلبى/ ٣/ ٢٣١– ٢٣٣، ٢٦٤، ود. إحسان عباس/ تاريخ الأدب الأندلسى– عصر الطوائف والمرابطين/ ط٦/ دار الثقافة/ بيروت/ ١٩٨١م/١٧٠– ١٧٦، ود. عمر فروخ/ تاريخ الأدب العربى/ دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٩٨١م/ ٤/ ٦٨٣، ود. شوقى ضيف/ عصر الدول

وهذا الشعوبي قليلا ما تورد اسمه الدراسات التى تتناول هذا الموضوع، إذ تركز على شعوبيى المشرق العربى، وبالذات الفرس منهم. كذلك يهمل معظم من كتبوا فى تلك القضية أن الشعوبية ليست مقصورة على الأعاجم وحدهم، بل يُشْرِكُهم فيها أيضا بعضُ العرب. وقد ذكر د. أحمد أمين بين هؤلاء الشعوبيين القائد العسكرى قَحْطَبَة بن شبيب الطائى أحد نقباء الدعوة العباسية الاثنى عشر من أهل مَرْو. ومن كلامه الذي استشهد به على توجهه الشعوبى، الذى لا يحتمل شكا ولا تأويلا فى نظره، خطبتُه فى أهل خراسان فى شهر ذى القعدة عام ثلاثين ومائة: "يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا يُنصَرون على عدوّهم بعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدّلوا وظلموا، فسخط الله عزّ وجل عليهم، فانتزع سلطانهم، وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم، واسترقوا أولادهم. فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد، وينصرون المظلوم، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البرّ والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشدّ عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر. وقد عهد إليّ الإمام أنكم تلقَوْنهم في مثل هذه العدّة فينصركم الله عزّ وجل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم".

والحق أن الخطبة تخلو من النزعة الشعوبية، إذ ليس فيها انتصارٌ للعجم على العرب، بل كان الرجل معتدلا تماما ومحايدا تماما، فقد ذكر لكل من الفريقين حسناته التى مكّنته فى الأرض، وسيئاته التى أدالت منه. وواضح أنه إنما يعمل من أجل وصول العباسيين إلى الحكم لا من أجل الأعاجم، وإن كان استغل كراهية الفرس للعرب فى تأجيج تحمسهم لقتالهم، فكأنه اتخذهم أداة للوصول إلى غرضه لا أكثر ولا أقل. ومن أجل ذلك لا نعده فى الشعوبيين على عكس ما يرى د. أحمد أمين، الذى اتهمه بأنه "يحقّر العرب ويعظّم الفرس فى لهجة غريبة"، وأنه "فارسى أكثر من الفرس أنفسهم"، إذ الواقع أنه كان يحقّر الأمويين من أجل مصلحة العباسيين[1].

والإمارات- الأندلس/ دار المعارف/ ١٩٨٩م/ ٤٧٢- ٤٧٩)، و Göran Larsson, Ibn García's Shu'ūbiyya Letter- Ethical and Theological Tensions in Medieval al-Andalus, Brill, 3003، ومادة "Ibn Gharsiya" فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "الويكيبيديا". وقد ترجم الرسالة ومعها الردود التى كتبت ضدها جيمس مونرو سنة ١٩٧٠م (James T. Monroe (tr.): The Shu'ūbiyya in al-Andalus: the risāla of Ibn Garcia and five refutations. (University of California Publications. Near Eastern Studies, Vol. 13.) viii, 105pp. (Berkeley, etc.: University of California Press, 1970).

[1] انظر د. أحمد أمين/ ضحى الإسلام/ مكتبة الأسرة/ ١٩٩٧م/ ١/ ٥٢.

ومَن تظهر فى كتاباتهم من العرب نزعة شعوبية ابن خَلدون، الذى تتسم بعض أحكامه عنهم بالتسرع والخفة والخلط بين أعراب عصره فى بلاد المغرب، وهم البدو، وبين العرب بوجه عام. وهو دليل على خطإ ما نقرؤه فى كثير من المباحث والدراسات التى تعالج الشعوبية والشعوبيين من أن صوت الشعوبية قد خفت فى القرن الرابع الهجرى. فها هو ذا ابن خلدون، وقد جاء فى القرن الثامن، وله كلام مجحف عن العرب يتسم بالتعجل والخلط والتعميم. كما أن العصر الحديث شهد وما زال يشهد نزعة شعوبية جامحة لعلها أخطر من الشعوبية القديمة يشترك فيها كتاب يحملون أسماء عربية إسلامية، ويحطبون فى حبل القُوَى الكبرى المعادية للعرب والمسلمين ويستقوون بها، وإن كان بعضهم قد تراجع عن شعوبيته وأقر بجموح مواقفه السابقة واعتذر عنها وعدل من آرائه وأفكاره.

ومن ثم فإن قول كاتب مادة "الشعوبية" فى "The Encyclopaedia of Islam" تعليقا على عودة استعمال ذلك المصطلح فى العصر الحديث إنه لا يصح استعمال مثل هذا المصطلح القديم ذى الدلالة الضيقة فى مقابل "القومية العربية"، التى ليست لها سعة عالمية الإسلام، هو قول مردود عليه، فالشعوبيين المحدثون يكرهون العروبة كما كان شعوبيو الماضى يكرهونها، تعبيرا عن كراهيتهم للإسلام فى الوقت الذى لا يقدرون أو لا يجرؤون على الإفصاح عن ذلك. ولدينا مفهومان: أولهما واسع، وثانيهما ضيق. والأول هو الإسلام، والثانى هو الشعوبية، وإن كان الأول يتخذ على ألسنة شعوبيينا المحدثين مظهر العروبة. ولكن حين يجد الجد تظهر الحقيقة دون مواربة كما هو الحال الآن حين نسمع بعضا من كارهى العروبة يعلنون صراحةً كراهيتهم للإسلام ويتنادَوْن بتطهير البلاد منه لأنه دين أجنبى أتى من خارج الحدود، ناسين أن الدين الثانى فى البلاد هو أيضا دين أجنبى أتى من خارج الحدود، إلا أنهم لا يقتربون من هذه الحقيقة. كما أنهم يتجاهلون أن الغالبية الساحقة من أهالى البلاد العربية الحقيقيين مسلمون، وهذه الأغلبية تعتز بدينها ولا تفكر أبدا فى تغييره، ولا يقبلون من أحد أن يتحدث نيابة عنهم، فألسنتهم فى أفواههم لا تعجز عن النطق بذلك لو كانت تريده.

وفى مطالع القرن العشرين نشأت فى تركيا جمعية الاتحاد والترقي، وهي الجمعية التي شاركت في الإطاحة بالخلافة وعملت على تتريك الشعوب التي انضوت تحت لواء الدولة العثمانية. ولما تولى أتاتورك مقاليد الحكم فى ذلك البلد واستقرت له الأمور بدّل نظام كتابة اللغة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، وعمل على منع الاحتفال بالأعياد الدينية الإسلامية، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بدلا من يوم الجمعة، ومنع الحج. بل لقد منع أيضا إذاعة الموسيقى الشرقية من الإذاعة، واستبدل بها الموسيقى الغربية.

وفى مصر كان هناك أحمد لطفى السيد ود. محمد حسين هيكل ومحمد عبد الله عنان ود. طه حسين وسلامة موسى يقاومون فكرة القومية العربية ويدعون إلى القومية المصرية الضيقة والانسلاخ من كل

ما هو عربى والاستخفاف به[١]. وقد عمل طه حسين فى ذلك الوقت على إلحاق مصر بأوربا وسلخها عن محيطها العربى الإسلامى، زاعما أننا يجب أن نحذو حذو الأوربيين فى كل شىء وأن نأخذ الحضارة الأوربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها، مؤكدا بالباطل أننا غربيون بحجة أن اليونان كان لها مستعمرات فى بلادنا قبل ألف عام من ميلاد المسيح[٢]. كذلك كتب طه حسين فى جريدة "كوكب الشرق" عام

---

[١] انظر د. محمد محمد حسين/ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر/ ط٧/ مؤسسة الحياة/ بيروت/ ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م/ ٢/ ١٣٦- ١٥٤، وأنور الجندى/ الأدب العربى الحديث فى معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج/ مطبعة الرسالة/ ١٩٥٩م/ ٥١٢- ٥١٣، والفصل الأول من كتاب الجندى أيضا: "رجال اختلف فيهم الرأى" حيث بين المؤلف كيف كان لطفى السيد يدعو إلى العامية متمثلة فى تسكين الكلمات وإلغاء الإعراب، ويكره التضامن العربى الإسلامى فى الوقت الذى يجد فيه اللورد كرومر معتمد الاحتلال البريطانى فى مصر ويتعاون مع ذلك الاحتلال ويعلن رضاه التام عنه. وفى كتاب أنور الجندى: "المعارك الأدبية فى الشعر والنثر والثقافة واللغة العربية والقومية العربية والحضارة" (مطبعة الرسالة/ ١٨ فصاعدا) تصوير لجانب من المعركة التى دارت بين الدعوة إلى عروبة مصر وفرعونيتها بين اثنين من دعاة الفرعونية فى ذلك الوقت، وهما د. محمد حسين هيكل ومحمد عبد الله عنان، وبين بعض المؤمنين بأن مصر لا يمكن أن تكون إلا عربية. وعن فرعونية مصر لدى طه حسين يمكن القارئ الرجوع إلى كتاب أنور الجندى: "المعارك الأدبية فى الشعر والنثر والثقافة واللغة العربية والقومية العربية والحضارة" (ص٥٨ فصاعدا)، والفصل الخاص بطه حسين من كتابه: "رجال اختلف فيهم الرأى". والملاحظ أن بعضهم قد أعلن رجوعه عن موقفه هذا المناهض للعروبة، مثل الدكتور هيكل، الذى عاد عن ذلك الاتجاه ونحا منحى إسلاميا كان من ثماره المباركة مجموعة كتبه القيمة عن النبى وخلفائه والدولة الإسلامية ومنزل الوحى، الذى زاره لأداء فريضة الحج، وأشار فى مقدمة كتابه عنه إلى اتجاهه القديم، معلنا انخلاعه منه. وفى مقالاته التى يضمها كتابه: "فى أوقات الفراغ" تتبدى بعض جوانب من نزعته الفرعونية واضحة.

[٢] وضع طه حسين فى الدعوة إلى ذلك كتابه: "مستقبل الثقافة فى مصر". ولى فى تفنيد دعاوى د. طه فى ذلك الكتاب بحث مفصل عنوانه: "طه حسين بين العولمة والسفسطة" أرجو أن يظهر قريبا ضمن كتابى: "أفكار مارقة". وهناك ردود أخرى سبقتنى بها عدد من الكتاب أمثال زكى مبارك وسيد قطب وساطع الحصرى ومحمد محمد حسين يمكن القارئ أن يجدها فى موضعها من كتاب "طه حسين فى ميزان العلماء والأدباء" لمحمد مهدى الإسلامبولى. ومن المعجبين كطه حسين إعجابا أعمى بالغرب د. حسين فوزى، الذى نقرأ له فى التمهيد لكتابه: "سندباد عصرى" الكلمات التالية: "درجت على

١٩٣٣م أن "المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وضروب من العدوان جاءتهم من الفُرْس واليونان، وجاءتهم من العرب والترك والفرنسيين" . وقد رد عليه عدد من المفكرين المصريين والعرب وسفهوا كلامه وبينوا ما فيه من شعوبية وكراهية للعرب والعروبة والإسلام، وفى ذات الوقت وافقه على رأيه بعض الكتاب الآخرين[١] . وكان سلامة موسى يُزْرِى باللغة العربية ويَسِمها بالتخلف والبداوة قائلا إن تعلمها والكتابة والقراءة بها تبعثر وطنيتنا المصرية وتشربنا روح بغداد بدلا من الروح المصرية وتجعلنا نهتم بالتاريخ العربى عوضا عن التاريخ المصرى. كما دعا موسى إلى استعمال العامية المصرية فى التأليف ونبذ اللغة الفصحى، زاعما أن العامية أدق من الفصحى، تلك اللغة الراقية المتحضرة التى وَسِعَتْ الثقافة العربية الإسلامية، وهى واحدة من أرقى ثقافات العالم، طوال أربعة عشر قرنا . وفى ذلك الوقت أيضا رأينا عبد العزيز فهمى يدعى أن كتابة اللغة العربية بحروفها المعروفة ينقصها الكثير الذى لا يمكن تداركه إلا من خلال اصطناع الحروف اللاتينية . وواكب هذا بل سبقه جهود الغربيين للقضاء على الفصحى وإحلال العامية محلها . ومن هنا نلاحظ كثرة المؤلفات الاستشراقية التى تأخذ على عاتقها دراسة اللهجات المحلية فى كل قطر عربى . بل إن بعض الحكومات الأوربية الاستعمارية قد أقدمت على جعل التعليم فى البلاد العربية التى تحتلها بلغاتها هى كما هو الحال فى ليبيا أيام الاستعمار الإيطالى، وفى مصر فى أوائل الاحتلال البريطانى، وفى الجزائر وتونس والمغرب فى عهد الاستعمار الفرنسى[٢] .

كما اطلعتُ فى المشباك لصباح الموسوى، وهو ناشط إيرانى من الأحواز العربية، على مقال بعنوان "فكر الشعوبية في مناهج المدرسة الصفوية" يؤكد فيه أن الاتجاه الشعوبى لم يخفت أو يسكت مع القرن

حب الغرب والإعجاب بحضارة الغرب، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوربا، فتمكنت أواصر حبى، وتقوت دعائم إعجابى. فلما ذهبت إلى الشرق عدت إلى بلادى، وقد استحال الحب والإعجاب إيمانا بكل ما هو غربى" . ولكن هناك كتابا آخرين كانوا معجبين بالغرب إعجابا مفرطا ثم ارتدوا فى نهاية المطاف إلى قواعدهم سالمين كمحمد حسين هيكل وإسماعيل مظهر .

[١] انظر أنور الجندى/ المعارك الأدبية فى الشعر والنثر والثقافة واللغة العربية والقومية العربية والحضارة/ مطبعة الرسالة/ ١٧ وما بعدها .

[٢] انظر د. محمد محمد حسن/ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر/ ط٧/ مؤسسة الحياة/ بيروت/ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م/ ٢/ ١٣٦ - ١٥٤، وأنور الجندى/ الأدب العربى الحديث فى معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج/ ٥٦٥ وما بعدها إلى نهاية الفصل، وكذلك الفصول الخاصة بأحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى من كتابه: "رجال اختلف فيهم الرأى"، ومَبْحَثَىْ "معركة القومية العربية" و"معارك اللغة العربية" من كتابه أيضا: "المعارك الأدبية" .

الرابع الهجري، بل ظل متأججا بين الفرس حتى الآن. وهذا ما قاله نصا: "الآداب أحد أهم عناصر ثقافة الشعوب، وربما هي مصدرها الأول. والآداب، بما فيها الشعر والقصة والخطبة والحكاية والمثل والكتابة جميعها، مرآة صادقة تعكس الخلفيات النفسية والأخلاقية للشعوب، وتعتبر مقياسا لتحضرها. وعادة ما يكون الأدباء هم حلقة الوصل الأولى التي تربط بين الشعوب فكريا وثقافيا، وذلك لما يقدمونه من صور جمالية تخلو من الأمراض النفسية وعُقد التمييز العنصري والتفرقة الطائفية، وتركز على إظهار جوانب الشفافية و الأحاسيس المرهفة في الإنسان والطبيعة.

إلا أن الحركة الشعوبية اتخذت من الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها تجاه العرب والإسلام خاصة. وكان الشعر أحد أهم فروع الآداب المستخدمة في هذا الإطار لكونه الأكثر التصاقا في عقول القراء والمستمعين، والأسهل حفظا في الذاكرة. ومن هنا نرى أن السلطان محمود الغزنوي احد أمراء الحركة الشعوبية، عندما حاول أن يؤجج مشاعر العداء الفارسي ضد الإسلام والعرب، كلف الشاعر الشعوبي أبا القاسم الفردوسي (٣٢٩- ٤١١هـ) بكتابة قصائد شعرية يمجد فيها تاريخ فارس وحضارتها، ويشتم فيها العرب وحضارتهم الإسلامية ويحط من شأنهم. وقد تعهد له بأن يعطيه وزن ما يكتبه ذهبا إن هو فعل ذلك.

وعلى هذا الأساس وضع الفردوسي ملحمته التي تخلو من أي شاعرية، وأسماها: "الشاهنامه" (ملك الكتب)[١]، واضعا جُلها في شتم العرب وتحقيرهم، وتمجيد الفرس وملوكهم. وراح العنصريون الفرس يحفظون أبنائهم و يغذونهم بهذه القصائد وغيرها من الأشعار العدائية إلى يومنا هذا. ومن نماذج الأشعار العدائية ضد العرب التي دونها الفردوسي في ملحمته الأبيات التالية:

زشير شتر خور دن وسو سمار
عرب را بجايي ر سيده است كار
كه تاج كيانرا كند آرزو
تفو باد بر جرخ كردون تفو

وتعني ترجمتها: "مِنْ شُرْب لبن الإبل وأُكل الضب بلغ الأمر بالعرب مبلغا أن يطمحوا في تاج الملك! فتبا لك أيها الزمان وسحقا!".

وليعقوب ليث الصفارين، وهو أحد أمراء الشعوبية ومن المتمردين على الدولة العباسية، أبيات مشابهة أرسلها للخليفة المعتمد العباسي يقول فيها:

أنا ابنُ الأكارمِ من نسْلِ جَمْ * وحائزُ إرْثِ مُلوكِ العَجَمْ
ومَاحِي الذي باد من عِزّهم * وعفى عليه طوال القِدَمْ

---

[١] "ملك الكتب" أم "كتاب الملوك"؟

فـقـل لبنـي هـاشـم أجمعـين: * هلمّـوا إلى الخلـع قـبـل النـدم
فـعـودوا إلى أرضكـم بالحجـا * ز لأكـل الضبـاب ورعـي الـغنم

وقد أصبح التهكم والاستهزاء بالعرب وتحقيرهم سيرة الشعوبيين طوال القرون الماضية. ولم تقتصر وسائلهم في التعبير عن عدائهم للعرب على هذا الباب من الآداب فقط، بل إنهم سعَوْا في استخدام القصص والحكايات وسيلة للحط من منزلة العرب وتأليب روح العداء في نفوس الأجيال الفارسية اللاحقة ضدهم.

وكانت الحملة الشعوبية ضد العرب انطلقت بعدما أخذت الحضارة الإسلامية تزدهر وتنتشر بواسطة اللغة العربية التي طغت على لغة الأقوام والشعوب التي فتح الإسلام ديارها. فالعربية، إضافة إلى كونها لغة القرآن الكريم، فإنها أصبحت فيما بعد لغة الفقه والآداب وعلوم الطب والصناعة. وكانت مدارس نيسابور وبخارى وسمرقند في القرنين الأول والثاني وحتى القرن الثالث عربية خالصة. وقد وضع أساطين علوم الفلسفة والطب والصناعة من أبناء تلك الديار من أمثال البيروني والرازي والبخاري وغيرهم جميع مصنفاتهم باللغة العربية، وهذا ما أثار الشعوبيين وأغاظهم حيث إنهم، وكما يقول ابن حزم الأندلسي، كانوا يسمون أنفسهم: الأحرار والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم. فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكان العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا، تعاظم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة. وقد اتخذ الصراع بين العرب والشعوبية ألوانا مختلفة.

وللوقوف في وجه انتشار اللغة العربية وللتهوين من شأن العرب والانتقاص منهم ترجم الشعوبيون الشديدو العصبية كتبا في مناقب العجم وافتخارهم، ورجْم العرب بالمثالب وتحقيرهم. ومن جملة ما وضعوه في هذا الشأن يمكن أن نستشهد بعدد من الكتب، ومنها كتاب "مثالب العرب" لهشام بن الكلبي. كما ألف أبو عبيدة معْمَر بن المثنى، وهو من يهود فارس، كتبا كثيرة تعرّض فيها للعرب منها كتاب "لصوص العرب" وكتاب "أدعياء العرب". وألف علاّن الشعوبي كتاب "الميدان في مثالب العرب". وتماشيا مع هذا التوجه فقد ظهر شعراء وكتّاب آخرون في عصور متتالية مواصلين النهج الشعوبي الذي اختطه أسلافهم.

لقد استمرت المدرسة الشعوبية، التي كان من أعمدتها الفردوسي والخيام وأبو مسلم الخراساني وبابك الخرّمي و الرّوْدكي ومحمود الغزنوي ويعقوب ليث الصفارين، تتناقل أفكارها بين أحفادهم جيلا بعد جيل حتى وصلت إلى الصفويين الذين ألبسوها ثوبا جديدا، وهو الطائفية. لقد لبس الصفويون ثوب التشيع وادّعَوْا النسب العلوي رغم أن المؤرخين الفرس أنفسهم يؤكدون أن إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة وعميد الأسرة الصفوية، ولد من أم أرمنية وأب أذري، وكان جده صفي الدين الأردبيلي شيخ طريقة صوفية سني، إلا أن المصلحة القومية والروح العنصرية دفعتهم إلى التلبس بلباس التشيع، وذلك لكي يضمنوا بقاء مدرستهم وانتشار أفكارها العنصرية. وقد دأب الصفويون على شتم العرب بحجة الثأر لأهل

البيت. وقد أمروا كُتَّابهم ووُعَّاظهم بوضع الروايات والكتب التي ملؤها الشتم واللعن للصحابة والخلفاء والقادة العرب الذين كانت لهم القيادة في فتح بلاد فارس ونشر الإسلام في ربوعها.

ومن جملة ما وضعته المدرسة الصفوية كتاب "بحار الأنوار" لمؤلفه محمد باقر المجلسي، الذي جاء بمائة وعشرين مجلدا دون فيه المجلسي ما طلبه الصفويون من الروايات والقصص التي تساعد على نشر فكر الشعوبية المرتكز على الفتن والتفرقة العنصرية والطائفية. وقد جاء هذا الكتاب وهو يحمل بين دفتيه أفحش الجمل وأغلظها ضد الرموز العربية الإسلامية. ومن الكتب الأخرى التي وضعت في هذا الشأن كتاب "مفاتيح الجنان" لصاحبه عباس القمّي، وهو أيضا من الكتب ذات التوجه الشعوبي المحمَّل بالسباب والطعن بصحابة النبي (صلعم) والعرب عامة، وذلك كله بحجة الدفاع عن أهل البيت. إلا أن هؤلاء الشعوبيين عادوا الإمام علي وتجنّوا عليه بزعمهم الانتساب إلى مدرسته. وخير من كشف ضغينتهم وأوضح حقيقتهم هو شاعرهم جعفر بن محمد الرودكي السمرقندي (٣٢٩ هـ)، الذي قالها بصراحة:

عمر بشكست بشت هجبران عجم را
برباد فنا داد رگ وريش جم را
اين عربده وخصم خلافة زعلي نسيت
با آل عمر كينه قديم أست عجم را

وترجمتها أن هذا الصراع والعداوة ليس دفاعا عن حق علي في الخلافة، لكنها البغضاء والعداوة لعمر، الذي كسر ظهر العجم وهد حضارتهم.

وهكذا بقيت المدرسة الصفوية الشعوبية على دَيدَنها. فكلما أرادت أن تكيل الشتم والسب للعرب لجأت إلى اتخاذ الدين والمذهب غطاء لنفث سمومها. وها هو شيخ السبابين وأحد كبار دهاقنة الحوزة الشعوبية صاحب كتاب "سيد المرسلين" يفرد أكثر من مائة صفحة في كتابه المذكور لسب العرب، ويدعي أن ما حمله القرآن من تحذير ونذير إنما هو موجه للعرب على وجه الخصوص، وأن الأقوام التي أنزل الله عليها الغضب وأبادها كانت أقواما عربية، وقد سميت بـ"العرب البائدة"، والمعنيون بالجاهلية هم العرب تحديدا. هذه مدرسة الشعوبيين، وهذه سمومهم الفكرية التي غرزوها في عقول أبنائهم وغزَوْا بها عقول وأفكار العديد من أبناء أمتنا تحت يافطة "الولاء لأهل البيت". ولكن ترى هل يأتي اليوم الذي يصحو فيه العرب الذين تبوّئوا بفكر وثقافة الشعوبية الصفوية من غفلتهم ويعودون إلى الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التي تشكل فكر وثقافة أهل بيت النبي وصحبه البررة عليهم السلام جميعا؟"[١].

---

[١] http://www.diwanalarab.com/spip.php?article3908. هذا ما ذكره صباح الموسوي، وقد رد أحدهم على هذا الكلام المنشور بتصرف في موقع آخر باسم غازي إسماعيل الدوسري قائلا: "المنتدى منبر علمي يحضره

النخبة، وليس كل من هب ودب ممن يصدق كل ما تقع عليه عيناه. كتابك يفتقر للأدلة العلمية، وليس إلا جهلا ينم عن حقد دفين، ربما لما يعانيه العراق، ولكنْ لا يجوز خلط الأوراق. وهذه تعليقات سريعة: "ومن هنا نرى أن السلطان محمود الغزنوي أحد أمراء الحركة الشعوبية، عندما حاول أن يؤجج مشاعر العداء الفارسي ضد الإسلام والعرب. . .": بالرغم من أنني أبغض محمود الغزنوي هذا، لأنه أحرق كتب الفلاسفة ومخالفيه من غير السنة حتى كتب العلوم، إلا أن علماء السنة أثنوا عليه. انظر موضوعا كاملا حوله في "عزة الإسلام والسنة في عهد السلطان محمود بن سبكتكين" (http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=11429) . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكان في أيام المتوكل قد عز الإسلام حتى أُلزم أهل الذمة بالشروط العُمَرية، وأُلزموا الصغار، فعزَّت السُّنة والجماعة، وقُمِعَت الجهمية والرافضة ونحوهم، وكذلك في أيام المعتضد والمهدي والقادر وغيرهم من الخلفاء الذين كانوا أحمد سيرة وأحسن طريقة من غيرهم، وكان الإسلام في زمنهم أعز، وكانت السُّنَّة بحسب ذلك" (مجموع الفتاوى/ ٤/ ٢٢). "رغم أن المؤرخين الفرس أنفسهم يؤكدون أن إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة وعميد الأسرة الصفوية، ولد من أم أرمنية وأب أذري، وكان جده صفي الدين الأردبيلي شيخ طريقة صوفية سني، إلا أن المصلحة القومية والروح العنصرية. . .": هذه صنائع السياسة، ولا علاقة لها بلغة فارسية أو كردية. وليس ذنب الشعب أن تُوَجَّه اتجاهاته. بالمناسبة هل ترضى أن يقال: هو صوفي سني؟ يمكن كتابة الكثير بلا أدلة. "ومن الكتب الأخرى التي وُضِعَتْ في هذا الشأن كتاب "مفاتيح الجنان" لصاحبه عباس القُمي، وهو أيضا من الكتب ذات التوجه الشعوبي": الكتاب كتاب دعاء، وأقل ما فيه التوجه الشعوبي. فجميع الأدعية الواردة فيه كتبت بالعربية، ويقرؤها الفارسي باللغة العربية. بالله عليك أية شعوبية هذه؟ "وعلى هذا الأساس وضع الفردوسي ملحمته التي تخلو من أي شاعرية، وأسماها: "الشاهنامه" (ملك الكتب)": لا أعتقد أنك قرأت بيتا من "الشاهنامه" بلغته إن كنت تفقه الفرق بين الألف والواحد في الفارسية. وحيث إنني استخرجت من الشاهنامه بعض ما يفيدني كباحث في تاريخ الطب واستمتعت بقراءة بعضه كتبت موضوعا باسم "عملية الولادة القيصرية من ديوان الفردوسي" (http://www.wata.cc/forums/showthread.php?p=521656)، وهو كاف للرد على ما ذكرت. "الحركة الشعوبية في ايران اتخذت من الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها تجاه العرب والإسلام خاصة": وهل تعتقد أن مقالك هذا يزرع الحب والإخاء بين العرب والفرس؟ أم ترى أنه يهدي لهم الإسلام بفهم سليم؟ إن كنت لا تعلم فاعلم أن تلامذة المدارس في إيران تَعَلَّم العربية من المرحلة الإعدادية باعتبارها لغة القرآن. ولا أرى الكم الهائل ممن كتب بالعربية من شعراء وعلماء وأدباء من بلاد فارس إلا دليلاً على صغر الـ"شعوبية" هذه حجما، ولا

وعن الشعوبية الحديثة كذلك يكتب د. بكرى شيخ أمين فى مقاله: "بين شعوبية القدماء وشعوبية المعاصرين" عما يدعيه بعض المستشرقين كإرنست رينان وشبنجلر وجولدتسيهر ولويس ماسنيون وجويدى من أن العقلية العربية والمسلمة عقلية غير مبدعة، فهى تستطيع أن تتعلم ما عند الآخرين، أما الإبداع والإتيان بشىء جديد يدل على استقلال فكرى فكلاَّ. فهى على العكس من العقلية الآرية الأوربية، التى فطرت على الإبداع والإتيان دائما بالجديد. ثم يمضى د. بكرى فيذكر بعضا من الأسماء العربية التى تورطت فى ترديد هذا السخف السخيف فى مصر ولبنان وسورية وغيرها من بلاد العرب كمحمود عزمى وعبد العزيز فهمى وطه حسين وسلامة موسى. ومن كلام موسى فى هذا الصدد يورد كاتبنا قوله: "كلما ازددتُ خبرة وتجربة وثقافة توضحتْ أمامي أغراضي في الأدب كما أزاوله. فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلحق بأوربا. وكلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني. . . أنا كافر بالشرق، ومؤمن بالغرب . . . اعتقادنا بأننا شرقيون بات عندنا كالمرض، ولهذا المرض مضاعفات"[١]. وفى لبنان نلفى أنيس فريحة ومارون غصن وسعيد عقل مثلا يدعون بكل قواهم إلى هجر الفصحى وإحلال العامية محلها. كما يشير د. بكرى إلى إيثار كثير من اللبنانيين الشعوبيين التحدث فى بيوتهم بالفرنسية أو الإنجليزية[٢] بدلا من العربية، وأيضا إلى بعض الفضائيات

شك أن له عدلا من يعاني التعصب من العرب". منقول عن موقع http://www.wata.cc/forums/archive/index.php/t-67203.html.

[١] لسلامة موسى كتاب اسمه: "البلاغة العصرية واللغة العربية" لم يترك فيه نقيصة فى الدنيا إلا ألصقها بلغة القرآن، زاعما أنها تبعث على ارتكاب الجرائم وتؤدى بصاحبها إلى الجنون، وأنها تفتقر إلى الدقة، ولا تخاطب العقل، بل تعمل على تهييج المشاعر والعواطف. كما أبدى نفوره البغيض لاهتمام الكتاب المصريين برموزنا التاريخية العظيمة من أمثال خالد بن الوليد. وهو يأتى إلى كل ما هو موجود فى كل اللغات فلا يجد فيه عيبا إلا بالنسبة للغة العربية وحدها. بل إنه ليلصق مسؤولية تخلفنا العلمى فى العصر الحديث باللغة، وكأنها السبب فى تخلفنا، مع أن كثيرا من الدول الإفريقية تستعمل الإنجليزية والفرنسية مثل أصحابهما الأصليين فى بريطانيا وفرنسا المتقدمتين علميا وصناعيا، ومع ذلك فإن تلك الدول متخلفة أشد من تخلف العرب بمراحل. كما نراه يربط دائما بين مجتمعاتنا العربية الإسلامية والمجتمعات البدائية المتوحشة.

[٢] بالمناسبة لم يكن طه حسين يتكلم فى بيته إلا بالفرنسية، ولم يحاول زوجته أن تتعلم العربية قط رغم أنها قد عاشت فى مصر عشرات السنين، وكان زوجها أستاذا للعربية وآدابها، وكذلك وزيرا للمعارف زمنا فى مصر زعيمة الدول العربية. بل كان لولديهما اسمان فرنسيان لا يناديان فى المنزل إلا بهما.

اللبنانية التى تصطنع العامية مستعينة بما يثير الشهوات من مذيعات متبرجات متكسرات يعملن بكل طاقتهن فى إشعال غرائز المشاهدين حتى تؤتى المؤامرة أكلها . ونضيف نحن أن عدوى هذا الاتجاه قد انتقلت إلى مصر، إذ فى مصر الآن فضائيات لا تستخدم الفصحى إطلاقا حتى فى قراءة نشرة الأخبار. كما أن فى "الويكيبيديا" قسما مخصصا لما يسمى: "اللغة المصرية"، وما هى إلا خليط من اللهجات العامية المصرية لا يستعمله أحد بهذه الطريقة. ولا أدرى هل من حق الويكيبيديا أن تقدم على تخصيص قسم لمثل هذا الهراء الذى يسىء إلى مئات الملايين من العرب والمسلمين. وبالمثل يذكر بكرى شيخ أمين من الشعوبيين الجدد فى العالم العربى يوسف الخال وعبد الوهاب البياتي وأدونيس وأمثالهم ومناصريهم من النقاد والإعلاميين، وكذلك المجلات التى تنشر دعوتهم، مثل "شعر" و"مواقف" و"حوار"، شارحا كيف يتخذ هذا التيار مواقف عدائية من التراث تنصبّ على كل ما هو عربي وإسلامي منه، وكيف تتجلى مواقفهم المعادية للتراث من خلال أفكار مسبقة كالإصرار على الحداثة المنفصلة تمام الانفصال عن ذلك التراث مع محاربة كل ما يتصل بالقومية أو بالدين أو اللغة العربية الفصحى والسعي لتحطيم هذه اللغة، التي هي الحصن الحصين لحماية الأدب والتراث بعامة[1].

ويشير د . عبد الرحمن السليمان فى مقال له بعنوان "الشعوبية الجديدة" إلى بعض من يعرفهم من المشاركين فى منتدى "ملتقى المبدعين والأدباء العرب" من شوَامّ وعراقيين يَدْعُون بدعوات شعوبية، ذاكرا أسماءهم[2]. وقد وقع لى مؤخرا كتيب بعنوان "الشعوبية: أسبابها ودوافعها" من تأليف باحثة تُدعَى: بشار أيهن تعمل بكل سبيل على التقليل من شأن العرب ورفع الأعاجم عليهم فى كل شىء، منطلقة من شعوبية مغالية تواكبها محاولة فاشلة لإقناعنا رغم ذلك أنها لا تعمل على إثارة الأحقاد ولا تشويه صورة العرب، مع أن الكتاب كله قائم على تلك الإثارة وهذا التشويه حتى إنها لتؤكد بغشم أهوج دون أى دليل، بل دون أن تناقش الأمر، بل دون أن تتظاهر بذلك أمام القراء، أن العرب قد أُحرقوا فعلا مكتبة الإسكندرية. والباحثة لا تأتى بأى شىء جديد، بل تردد فقط ما كان الشعوبيون القدماء يقولونه فى حق العرب كما هو بعُجَره وبُجَره، مضافا إليه مزيد من الحقد. وقد لاحظت أن الباحثة، حين تريد معايرة العرب بماضى الأمم الأخرى المتحضرة لم تجد إلا اليونان فحسب، مع أنه كان بمكنتها أن تذكر مصر وبلاد الرافدين مثلا. إلا أنها، فيما يبدو، حريصة على ألا تبرز فى هذا السياق اسم أى بلد اعتنق الإسلام. وفى ذات الوقت نراها حين تذكر العرب تقصرهم على أهل البادية مع أن العرب كانت لهم فى جنوب الجزيرة العربية بلاد ذات حضارات عظيمة، إلا أنها قد تجاهلتها . كذلك أرجو من القارئ التنبه إلى العبارة التالية: "إن الشعوب التى كان العرب قد حكموها وتحكموا بمصائرها كانت تتألم حين ترى أن من كانوا دونهم فى مكان سحيق ومن كانوا موضع استهانتهم وازدرائهم لهمجيتهم وتوحشهم قد أصبحوا سادة

---

[1] http://www.wata.cc/forums/archive/index.php/t-1589.html

[2] http://www.almolltaqa.com/vb/archive/index.php/t-808.html

عليهم، بل ويرغمونهم على إحدى اثنتين: إما أن يؤمنوا بما جاؤوهم به من "نظام حياة وتفكير" أو أن يدفعوا جزية قاهرة ترمز إلى إذلالهم فى أوطانهم"[١]، وكيف تبدت الباحثة فيه كلمة "الإسلام" مستعيضة عنها بعبارة "ما جاؤوهم به من نظام حياة وتفكير"، بما يدل على أشياء فى النفس، فضلا عن تصويرها للجزية بما يشوهها تشويها تاما رغم أنها أفضل مرات ومرات مما كانت الشعوب فى منطقتنا مثلا تدفعه لدولة الرومان، وبما يتجاهل أنها تشريع قرآنى لا بشرى كما تقول عبارتها، ورغم أنها تُدفَع لقاء حماية دافعيها من أى عدوان يمكن أن يقع عليهم ولقاء إعفائهم من التجنيد، فضلا عن أنه يجب على المسلم فى المقابل أن يدفع الزكوات والصدقات، وهى أكثر بكثير من الجزية كما هو معلوم. إن الباحثة تذكر العرب دائما بماضيهم الجاهلى وباحتقار الفرس لهم فى ذلك الوقت ولا ترى فى الفاتحين المسلمين إلا بدوا همجا جفاة رغم أنهم فى ذلك الحين سرعان ما صاروا قادة وسادة للعالم. ترى لماذا تغضب الباحثة إذن حين يحتقر العربُ الفرسَ بدورهم عندما واتتهم الفرصة؟

---

[١] ص٧. والكتاب منشور على المشباك دون تاريخ أو دار نشر. وهو مكتوب بنفس الروح التى كان الشعوبيون الغلاة فى العصر العباسى يُسَوِّدون بها كتبهم. وقد أملت هذه الروح على صاحبتها، لدن إيرادها أسماء العلماء المسلمين الذين أرادت مفاخرة العرب بهم، أن تتجاهل عروبية العرب منهم بالقول مثلا إنهم خراسانيون مثلا أو أسبان، مخفية حقيقة نسبهم العربى ومستبدلة به النسب إلى بلد السكن فى الوقت الذى تحرص فيه أشد الحرص على أن تذكر قومية العالِم غير العربى صراحة. كما لاحظتُ أنها لا تنص على ديانة أى من هؤلاء العلماء إلا إذا كانوا غير مسلمين (ص٣٢ فما بعدها). وهكذا أسلمت الباحثة نفسها تماما للنزعة الشعوبية القديمة وكأننا لا نزال نعيش فى العصر العباسى، ناسية أن مياها كثيرة قد جرت فى النهر طوال كل هاتيك القرون. وبالمناسبة هل كان هناك شىء اسمه "أسبانيا" فى ذلك الوقت؟ أرأيت، أيها القارئ، كيف تملى الشعوبية على الباحثة ما تكتبه حتى فى نسبة العلماء وفى تسمية البلاد! وبالمناسبة أيضا فإن كل العلماء المسلمين تقريبا كانوا يقرون بالفضل للعرب متمثلا فى اعتزازهم بلغتهم وبالقرآن الذى نزل بلغتهم وبالرسول الذى هو واحد منهم، وبلغ هذا الاعتزاز أن عددا من العلماء ذوى الأصل الفارسى كانوا يؤكدون أنهم يؤثرون أن يُهجَوْا بالعربية على أن يُمدَحوا بالفارسية. بل إن كبار من ردوا على الشعوبيين وسفهوا مقالاتهم هم من الأعاجم، كابن قتيبة وابن عبد ربه وأبى حيان التوحيدى والبلاذرى والقاضى أبى حامد المروروذى مثلا، وكانوا يتقربون إلى الله بتلك الردود. وبالمناسبة كذلك فهذه الحضارة هى حضارة عربية رغم أنها لم تقم على أكتاف العرب وحدهم، إذ العروبة هنا هى العروبة الثقافية، وهى الأمر المهم، لا العروبة الجنسية.

ويتناول عثمان علوشي الشعوبية عند بعض الأمازيغ قائلا عن "حركة الثقافة الأمازيغية" بالمغرب إنها "حركة عنصرية شعوبية تعتبر العرب مستعمرين، ويعتبرون العربية لغة غازية يجب دحرها والاستغناء عنها. وأنا متأكد أن أحدهم سيأتي ويهاجمني بقوله لي إنني لست إلا عربيا أو "عروبيا" أتى من الجزيرة العربية واستعمر "بلاد تمزيغت". والحال أنني أمازيغي حتى النخاع: وُلدتُ في قمم جبال الريف، وأتحدث الريفية بطلاقة مع أفراد أسرتي وزملائي الريفيين بالرغم من أنني أعيش خارج الريف ما يزيد على ست عشرة سنة. ولكن السؤال هو: ما الذي يؤكد لي أن دمي أمازيغي قح؟ أنا لست عدوا للأمازيغية ولا للأمازيغ. أنا عدو لمن يُعْتَبَر في نظري عميلا لمن له مصلحة في تخريب العقول وزعزعة الوحدة. وأستند في قولي هذا بآخر ما توصلت إليه "عبقرية صاحب هذه الحركة"، وهو تأسيس جمعية أمازيغية إسرائيلية. وهي، حسب زعمهم، جمعية للصداقة بين اليهود الأمازيغ الذين عاشوا في المغرب في قرى كان أهلها أمازيغ (وحسب روايات أهلي لم تكن هناك أية صداقة بينهم وبين اليهود آنذاك، اللهم بعض الصراعات الطاحنة التي كان يذهب ضحيتها اليهود) بعد طردهم من شبه الجزيرة الأيبيرية بعد إنشاء ما كان يطلق عليه: "محاكم التفتيش". وتساءلت بعض الصحف عن سبب هذا التطبيع مع اليهود فقال "أهل الرأي منهم" إن هناك حكومات عربية تمارس التطبيع مع اليهود في الخفاء. الله الله! ألا تستحيون من الله؟ أكل ما بقي لنا هو أن نمشي على خطى حكوماتنا بدل المشي على خطى الحبيب صلى الله عليه وسلم؟ هذه الحركة لم تكف بهذا بل تمادت في غيها وقالت إنه على العرب أن يجمعوا "قشاوشهوم" (أمتعتهم) ويعودوا أدراجهم إلى الجزيرة العربية. ويجب على المغاربة الأمازيغ ألا يتحدثوا العربية العامية في حياتهم اليومية. والنتيجة التي كنت أتوقعها (لأنه طلب مني يوما الانضمام إلى صفوفهم) هي ما عاشته الجامعة المغربية من صراعات دامية بين أنصار هذه الحركة والطلبة القاعدين (الذين ألهمهم الله، بالبصر والبصيرة، الذكاء والفطنة فيما يخص الخطر المحدق الذي يهدد شمل المغاربة ويخطر الأفكار التي تروج لها هذه الحركة)، والصراع الذي دام لأسابيع وخلف ضحايا في صفوف الطرفين راحوا فيها هباء منثورا. وكل ما يسعني قوله هو أننا أمة إسلامية على اختلاف مشاربنا ومذاهبنا وأعراقنا، والفرق الحقيقي فيما بيننا هو التقوى، تقوى القلوب طبعا، مصداقا لقول الله في أواخر سورة الحجرات: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"..."[1].

وفى كتاب يحمل غلافه اسم خليل عبد الكريم نجد المؤلف يتحسر على دخول الإسلام مصر ويسمّى فتح مصر على يد الصحابى الجليل عمرو بن العاص رضى الله عنه: استعمارا استيطانيا أتت فى ركابه قبائل كثيرة دهست صعيد مصر، واتهم ذلك الصحابى الكريم بأنه فعل الأفاعيل هو وجنوده بمصر

---

[1] هذا المقال منشور فى نفس الموقع السابق تعليقا على ما كتبه د. السليمان.

المحروسة عكس ما يزعم "حملة المباخر من المؤرخين المحدثين" بتعبيره نصا[١]. وقد تريثت عند هذه النقطة في كتابي: "لكن محمدا لا بواكي له"، مستغربا أشد الاستغراب أن يقول ذلك خليل عبد الكريم ذاته، الذي قال لي عنه ذات مرة د. عبد العظيم المطعني إن أسرته ذات أصول عربية إذ تنتمي إلى الأنصار. أي أنه لولا الفتح الإسلامي المبارك لأرض الكنانة ما فكر أجداد عبد الكريم أصلا في المجيء إلى مصر المحروسة[٢]. لقد كانت هناك نزعات فرعونية آشورية وكلدانية وفينيقية أذكاها الاستعمار وتبناها بعض منا وأخذ يدعو إليها بقوة وكأنها دين نزل من السماء، ولا تزال هذه الروح موجودة في عالمنا العربي للأسف.

ومن النصوص التي حفظها لنا الزمن عن هذه الحركة في التاريخ القديم ما كتبه الجاحظ في "البيان والتبيين"، وابن قتيبة في "فضل العرب والتنبيه على علومها"، وابن عبد ربه في "العِقد الفريد"، وما كتبه ابن غرسيه في رسالته المشهورة، وما فنّد به كلامَه بعضُ علماء الأندلس الذين انقضوا عليه فنهشوا لحمه وكسروا عظامه، وابن خلدون في مقدمته المشهورة. وسوف أقف وقفة متأنية إزاء ما كتبه ابن عبد ربه وقدم فيه خلاصة لرأي كل من الفريقين: الشعوبيين والعرب، وكذلك ما خطته يد ابن خلدون في اتهاماته للعرب، وبخاصة زعمه أنهم لا يهتمون بالعلم اهتمام الأعاجم.

يقول ابن عبد ربه في "العِقد الفريد": "ومن حُجَّة الشُّعوبية على العَرَب أن قالت: إنا ذهبنا إلى العَدْل والتَّسوية، وإلى أنّ الناس كلهم من طِينة واحدة، وسُلالة رَجُل واحد، واحتجَجنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: المؤمنون إخوة تتكافأ دِماؤُهم، ويَسْعَى بذمتهم أدناهم، وهمُ يَدٌ على مَنْ سواهم، وقوله في حِجّة الوَداع، وهي خطبته التي ودع فيها أمته، وخَتم بها نبوته: "أيها الناس، إنّ الله أذهبَ عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء. كلكم لآدم، وآدم من تُراب. ليس لعربيّ على عَجَميّ فضل إلا بالتَّقوى"، وهذا القول من النبي عليه الصلاةُ والسلام مُوافق لقول الله تعالى: "إنّ أكرمَكم عِند الله أتقاكم"، فأبيتم إلا فخرا وقلتم: لا تُساوينا العَجَمُ، وإن تَقدّمَتنا إلى الإسلام، ثم صَلّتْ حتّى تصِير كالحَناء، وصامَتْ حتّى تصير كالأوتار. ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء، الذي نهاكم عنه نبينا ونبيّكم صلى الله عليه وسلم إذ أبيتم إلا خِلافَه. وإنما نجيبكم إلى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فنَرُدّ عليكم حجتكم في المفاخرة ونقول: أخبرونا إن قالت لكم العجم: هل تعدون الفخر كله أن يكون مُلكا أو نُبوّة؟ فإن زعمتم أنه مُلك قالت لكم: فإن لنا ملوكَ الأرض كلهم من الفراعنة والنَّماردة والعَمالقة والأكاسرة

---

[١] انظر الكتاب الذي يحمل اسم خليل عبد الكريم: "فترة التكوين في حياة الصادق الأمين"/ ميريت للنشر والمعلومات/ ٢٠٠١م/ ٤٧.

[٢] انظر كتابي المذكور/ دار الفكر العربي/ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م/ ٥١.

والقياصرة. وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان، الذي سُخِّرت له الإنس والجن والطير والريح، وإنما هو رجل منا؟ أم هل كان لأحد مثل مُلك الإسكندر، الذي مَلك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها، وبنى ردمًا من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقًا من الناس تربي على خلق الأرض كلها كثرة؟ يقول الله عز وجل: "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون". فليس شيء أدل على كثر عددهم من هذا. وليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض. ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية التي أسسها في قعر البحر وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر كله في زجاجتها لكفى. وكيف، ومنا ملوك الهند، الذين كتب أحدهم إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته بنت ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران ينبتان العود والفوه والجوز والكافور، والذي يوجد ريحه على اثنى عشر ميلاً، إلى ملك العرب الذي لايشرك بالله شيئًا. أما بعد، فإني أردت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني الإسلام ويوقفني على حدوده، والسلام. وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة: هودا وصالحا وإسماعيل ومحمدا. ومنا المصطفون من العالمين: آدم، ونوح، وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر. فنحن الأصل وأنتم الفرع، وإنما أنتم غصن من أغصاننا، فقولوا بعد هذا ما شئتم وادّعوا.

ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض ملوك تجمعها، ومدائن تضمها، وأحكام تدين بها، وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات، مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل، ومثل فلسفة الروم في ذات الخالق، والقانون، والأسطرلاب، الذي يعدل به النجوم، ويدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك، وعلم الكسوف. ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها، ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها، وينهى سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة، ولا أثر في فلسفة، إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم، وذلك أن للروم أشعارا عجيبة قائمة الوزن والعروض. فما الذي تفخر به العرب على العجم، وإنما هي كالذئاب العادية، والوحوش النافرة، يأكل بعضها بعضا، ويغير بعضها على بعض؟ فرجالها موثوقون في حلق الأسر، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل، فإذا أدركهن الصريخ فاستنقذن بالعشي، وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع، فخر بذلك الشاعر فقال: "وألحق ركب المردفات عشية". فقيل له: ويحك! وأي فخر لك في أن تلحقهن بالعشي، وقد نكحن وامتهن؟ وقال جرير يعير بني دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان:

برحرحان غداة كبل معبد * نكحت نساؤكمو بغير مهور

وقال عنترة لامرأته:

إن الرجال لهم إليك وسيلة * إن يأخذوك تكحلي وتخضبي
وأنا امرؤ إن يأخذوني عنوة * أقرن إلى سير الركاب وأجنب
يكون مركبك القعود ورحله * ابن النعامة عند ذلك مركبي

أراد بابن النعامة: باطنَ القدم. وسَبَى ابن هَبُولة الغسَّاني امرأةَ الحارث بن عَمْرو الكِنْدِي، فلحِقه الحارث فقتله وارتجع المرأة، وقد كان نال منها، فقال لها: هل كان أصابك؟ قالت: نعم والله، فما اشتملت النساء على مِثْله. فأوثقها بين فرَسين، ثم استحضرهما حيث قطعاها، وقال في ذلك:

كـل أنثـى، وإنْ بـدا لك منهـا * آيـة الـوُدّ، عـهـدُها خَيْتَعـورُ

إنّ مَـن غـرّه النسـاءُ بـوُدٍّ * بعـد هِنْـد لجـاهـل مغـرورُ

وسَبَتْ بنو سليم رَيْحانةَ أختَ عمرو بن مَعْدِيكَرِب فارس العرب، فقال فيها عمرو:

أمِـنْ رَيْحـانة الـداعِي السَّميـعُ * يُـؤرّقـني وأصْحـابي هُجُـوعُ؟

وفيها يقول:

إذا لـم تسْـتطـع أمـرًا فـدَعْه * وجـاوزه إلى مـا تسْـتطِيـعُ

وأغار الحَوْفَزان على بَني سَعْد بن زَيْد مَناة، فاحتمل الزرْقاءَ من بَني ربيع بن الحارث فأعجبته وأعجبها، فوقع بها، ثم لحقه قيس بن عاصم، فاستنقذها وردّها إلى أهلها بعد أن وُقع بها. فهذا كان شأن العَرَب والعَجم في جاهليتها. فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شَطر الإسلام. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الأحْمر والأسْود من بني آدم، وكان أول من تبعه حُرّ وعَبْد، واختلف الناس فيهما، فقال قوم: أبو بَكر وبلال، وقال قوم: عليّ وصُهَيب. ولما طعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدّم صُهَيْبًا على المهاجرين والأنصار، فصلى بالناس وقيل له: استخلف. فقال: ما أجد من أستخلف. فذُكِر له الستة من أهل حراء، فكلهم طعن عليه. ثم قال: لو أدركت سالما مولى أبي حُذيفة حيًا لما شككت فيه. فقال في ذلك شاعر العرب:

هـذا صُهَيْـبٌ أمّ كـلّ مُـهاجـر * عَـلاَ جَـميـعَ قبـائـل الأنـصار

لـم يَـرضَ منهـم واحـدًا لصَلاتنا * وهُـمُ الهُـداةُ وقـادةُ الأخْيـار

هـذا، ولـو كـان المُتَـرّم سـالمٌ * حيًّـا لنَـال خِـلافة الأمْـصار

مـا بـال هـذي العُجْـم تَحيـا دوننا؟ * إن الغـويّ لفـي عَمًـى وخَسَـار

وقال بُجَيْر يُعير العرب باختلافها في النَّسب واستلحاقها للأدْعياء:

زعمـتم بـأنّ الهِنْـد أولاد خِنْـدف * بينكـمـو قـرْبـى وبيـن البـرابر

ودَيْـلـم مِـن نَسْـل ابن ضَبَّة باسل * وبُـرْجـان مـن أولاد عـمرو بن عامر

فـقـد صـار كـل النـاس أولادَ واحـد * وصـاروا سـواءً في أصـول العنـاصر

بـنـو الأصْـفـر الأمْـلاك أكـرمُ منكـمو * وأولـى بقُـرْبانـا مُـلـوك الأكـاسِر

أتُطـمِـع بـي صِهْـرًا دَعِيًّـا مُجاهرًا * ولـم تـر سِتْـرًا مـن دَعِـيّ مُجاهـر

تَشْتـم لؤمـا رَهْطـه وقبـيـلـه * تَمْـدح جهـلاً طـاهِـرًا وابن طاهر؟

وقد ذكرتُ هذا الشعر تامًّا في كِتاب "النساء والأدعياء والنُجباء". وقال الحسن بن هانيء على مَذهب الشعوبية:

جاورت قوما ليس بيني وبينهم * أواصرُ إلا دَعْوةٌ وظنونُ
إذا ما دعا باسمي العريفُ أجبته * إلى دَعْوة مما عليَّ تهون
لأزدِ عُمانَ بالمهلب نزوةٌ * إذا افتخر الأقوامُ ثم تلين
وبكرٌ ترى أن النبوة أنزلت * على مِسْمَعٍ في البطن وهو جَنينُ
وقالت تميمٌ: لا نرى أن واحدًا * كأحنفِنا حتى المماتِ يكون
فلا لُمتُ قيسًا بعدها في قُتيبةٍ * إذا افتخروا. إن الفَخار فنونُ

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب: وأما أهل التسوية فإنّ منهم قومًا أخذوا ظاهر بعض الكِتاب والحديث، فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه، فذهبوا إلى قوله عزّ وجل: "إنّ أكرَمَكم عِند الله أتقاكم"، وقوله: "إنمَا المُؤمنُونَ إخوةٌ فأصلِحوا بَينَ أخوَيكم"، وإلى قول النبي عليه الصلاةُ والسلامُ في خُطبته في حِجة الوداع: "أيها الناس، إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء. ليس لعربيّ على عجميّ فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدمَ، وآدمُ من تراب"، وقوله: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم". وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الأحكام والمنزلة عند الله عزّ وجل والدار الآخرة. ولو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف، ولا فاضل ولا مفضول. فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموه"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم"، وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم: "هذا سيّد الوبَر"؟ وكانت العرب تقول: لا يزال الناسُ بخير ما تباينوا. فإذا تساوَوا هلكوا. وتقول: لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار، فإذا جُملوا كلهم جملة واحدة هلكوا. وإذا ذمّت العربُ قوما قالوا: سواسية كأسنان الحِمار. وكيف يستوي الناسُ في فضائلهم، والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله، ولكنْ لبعضها الفضل على بعض، وللرأس الفضل على جميع البدَن بالعقل والحواس الخمس؟ وقالوا: القلبُ أمير الجسد، ومن الأعضاء خادمُه، ومنها مخدومه.

قال ابن قتيبة: ومن أعظم ما ادّعت الشعوبية فخرُهم على العرب بآدم عليه السلام، وبقول النبي عليه الصلاة والسلام: لا تفضلوني عليه، فإنما أنا حسنة من حسناته، ثم فخرُهم بالأنبياء أجمعين، وأنهم من العجَم غيرَ أربعة: هُود وصالح وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام. واحتجّوا بقول الله عزّ وجل: "إنّ الله اصطفي آدم ونوحًا وآل إبراهيمَ وآل عِمران على العالمين * ذرّية بعضها من بعض والله سميعٌ عليم". ثم فخروا بإسحاق بن إبراهيم، وأنه لسارة وأن إسماعيل لأمَة تسمى: هاجَر. وقال شاعرهم:

في بلدة لم تصل عُكل بها طُنُبًا * لا خِباءٌ ولا عَكٌ وهَمْدانُ

لا لِجُرْمٍ ولا بَهْراءَ من وَطنٍ * لكنَّها لِبَني الأحرارِ أوطانُ
أرضٌ بني بها كِسْرى مساكِنَه * فما بها من بَني اللخناء إنسانُ

فبنو الأحرار عندهم العَجَم، وبنو اللخناء عندهم العَرَب لأنهم من وَلَد هاجَر، وهي أَمَة. وقد غَلطوا في هذا التأويل. وليس كل أمة يقال لها: اللخناء. إنما اللخناء من الإماء المُمْتَهَنة في رَعْي الإبل وسَقْيها وجَمْع الحَطَب. وإنما أُخِذ من "اللخن"، وهو نَتن الرّيح. يُقال: "لَخِنَ السِّقَاء" إذا تغيَّر ريحُه. فأمّا مِثْل التي طهّرها الله من كل دَنَس، وارتضاها للخليل فِراشا، وللطيِّبَيْن: إسماعيلَ ومحمدٍ أمًّا، وجَعلهما لها سُلالة، فهل يجوز لمُلحد فضلاً عن مُسلم أن يُسمّيها: لخناء؟

قال بعضُ مَن يَرى رَأْيَ الشعوبية فيما يَرُدّ به على ابن قتيبة في تبايُن الناس وتفاضلهم، والسَّيد منهم والمَسود: إننا نحن لا نُنكِر تبايُن الناس ولا تفاضلهم، ولا السيد منهم ولا المسود، ولا الشَّرِيف ولا المَشْرُوف، ولكنا نَزْعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحْسابهم، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشَرَف أنفسهم، وبُعْد هِممهم. ألا ترى أنه من كان دنيء الهِمّة ساقِطَ المرُوءة لم يَشْرُف، وإنْ كان مِن بني هاشم في ذُؤابتها، ومن أمية في أُرومتها، ومن قَيس في أشْرف بَطْن منها؟ إنما الكَريم مَنْ كَرُمَت أفعاله، والشَّرِيف مَنْ شَرُفَت هِمّته. وهو مَعْنى حديثِ النبيّ عليه الصلاة والسلام: إذا أتاكم كَريمُ قَوْم فأكْرِموه، وقولِه في قيس بن عاصم: هذا سَيِّد أهْلِ الوَبَر. إنّما قال فيه هذا لسُؤدده في قَوْمه بالذبّ عن حَرِيمهم، وبَذْلِه رِفْدَه لهم. ألا ترى أن عامر بن الطُّفَيْل، وكان في أشْرف بَطْن في قيس، يقول:

إنّي، وإنْ كنتُ ابنَ سَيِّد عامرٍ * وفارسَها المشهورَ في كلِّ مَوْكِبِ
فما سَوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ * أَبى اللهُ أنْ أسْمُو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنَّني أحْمِي حِماها، وأتَّقي * أذاها، وأرْمي مَنْ رَماها بمَنْكِبِ

وقال آخر:

إنّا، وإنْ كَرُمَتْ أوائلُنا * لَسْنا على الأحْساب نَتَّكِلُ
نَبْني كما كانَتْ أوائلُنا * تَبْني، ونَفْعَل مثلَ ما فَعَلوا

وقال قُسّ بن ساعدة: لأقْضِيَنّ بين العَرَب بقَضيّة لم يَقضِ بها أحدٌ قَبلي ولا يردّها أحدٌ بعدي: أيما رجل رَمى رجلاً بمَلامة دُونها كَرَمٌ فلا لَوْم عليه، وأيما رجلٍ ادّعى كَرَمًا دونه لؤم فلا كَرم له. ومثله قول عائشةَ أم المؤمنين: كُلُّ كَرَمٍ دُونَه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرمُ أَوْلى به. تعني بقولها أن أَوْلى الأشياء بالإنسان طبائعُ نفسه وخِصالها: فإذا كَرُمَتْ فلا يَضرُّه لؤم أوّليته، وإذا لؤمت فلا ينفعه كرم أوّلِيَّته. وقال الشاعر:

نفسُ عِصامٍ سَوَّدت عِصَامَا * عَلَّمَتْه الكَرَّ والإقْدامَا
صَيَّرَتْه مَلِكًا هُمَامَا

وقال آخر:

مـــا لِيَ عَــقــلي، وهِمَّــتي حَسَبي * مـــا أنـــا مَـــوْلــى ولا أنــا عَرَبي
إن انــتــمــى مُنْتَمٍ إلى أحــدٍ * فــإنَّــنــي مُنْتَمٍ إلــى أدبــي

وتكلم رجلٌ عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهَبَ فيه كل مَذهَب، فأعجبَ عبدَ الملك ما سمع منه، فقال: ابن مَن أنت يا غلام؟ قال: ابن نفسي يا أميرَ المؤمنين، التي نلت بها هذا المقعد منك. قال: صدقتَ. وقال النبي عليه الصلاةُ والسلام: حَسَبُ الرجل ماله، وكرَمُه دينه. وقال عُمر بن الخطاب: إن كان لك مال فلك حَسَب، وإن كان لك دين فلك كَرَم.

وما رأيتُ أعجبَ من ابن قتيبة في كتاب "تفضيل العرب": إنه ذهب فيه كلَّ مَذهب من فضائل العرب، ثم ختم كتابه بمذهب الشُعوبية، فنقَضَ في آخره كل ما بَنَى في أوله، فقال آخر كلامه: وأعدلُ القول عندي إنَّ الناس كلهم لأب وأمّ، خُلقوا من تراب، وأعيدوا إلى التراب، وجرَوْا في مَجْرى البَول، وطُووا على الأقذاء. فهذا نسبهُم الأعلى الذي يُرْدَع به أهلُ العقول عن التعظُّم والكِبْرياء والفخر بالآباء. ثم إلى الله مَرْجعهم فتنقطع الأنساب، وتُبطل الأحْساب، إلا من كان حَسَبُه التقوى، أو كانت ماتّته طاعة الله. قالت الشُعوبية: إنما كانت العرب في الجاهليَّة يَنكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عَقْدِ نكاح ولا استبراءٍ من طَمْث، فكيف يَدْري أحدُهم مَنْ أبوه؟ وقد فخر الفرزدق ببني ضَبَّة وأنهم يبتزُّون العيالَ في حروبهم في سَبْيَةٍ سَبَوْها من بني عامر بن صَعْصعة:

فظَــلَّــتْ وظَلُّــوا يَــرْكبون هَبيرَها * ليــس لهــم إلا عــوالِيَهم سِــتْرُ

والهبير: المطمئن من الأرض، وإنما أراد ها هنا فَرْجَها. وهو القائل في بَعْض ما يَفخر به:

مِنّــا التَّميــميُّ الــذي قــام أيــرُه * ثــلاثيــن يومًــا ثم قــد زادَهــا عَشْرا

قال أصحابُ العصبيَّة من العرب: لو لم يكن منّا على المولى عَتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا له من الكُفْر وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الإيمان كما في الأثر: إنَّ قومًا يُقادون إلى حُظوظهم بالسَّواجير، وكما قالوا: عَجب ربُّنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل، يريد إخراجهم من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، لكفى. على أنّا تعرّضنا للقتل فيهم، فمن أعظمُ عليك نعمة ممّن قتل نفسَه لحياتك؟ فاللهُ أمرنا بقتالكم، وفرض علينا جهادَكم، ورَغِبنا في مُكاتبتكم. وقدّم نافعُ بن جُبَيْر بن مطعِم رجلاً من أهل الموالي يُصلي به، فقالوا له في ذلك، فقال: إنما أردتُ أن أتواضع لله بالصلاة خلفه. وكان نافعُ بن جُبَيْر هذا إذا مُرَّت به جنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا: قرشيٌّ، قال: واقوماه! وإذا قالوا: عربيّ، قال: وابلدتاه! وإذا قالوا: مَولى، قال: هو مال الله يأخذ ما شاء، ويَدَع ما شاء. قال: وكانوا يقولون: لا يَقطع الصلاةَ إلا ثلاثة: حِمار أو كلب أو مَولى. وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصَّف معهم، ولا يُقدمونهم في الموكب. وإن حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجْلسوه في طرف الخِوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريرا. وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم

إلى أبيها ولا إلى أخيها، وإنما يخطبها إلى مواليها: فإن رضي زوّج وإلا رُدّ. فإنْ زوّج الأب والأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها، وكان سِفاحًا غيرَ نكاح. وقال زياد: دعا معاوية الأحنفَ بن قيس وسَمُرة بن جُنْدب فقال: إني رأيتُ هذه الحمراء قد كثُرت، وأراها قد طعنتْ على السلَف. وكأني أنظر إلى وثْبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيتُ أن أقتل شطرًا وأدع شطرًا لإقامة السوق وعِمارة الطريق، فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أنّ نفسي لا تطيب. يُقتَل أخي لأمي وخالي ومولاي، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب؟ فظننتُ أني قد قتلتُ عنهم. وأطرق، فقال سمُرة بن جُنْدب: اجعلها إليَّ أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ إلى ما تريد منه. فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر. قال الأحنف: فقمْنا عنه وأنا خائفٌ، وأتيت أهلي حزينا. فلما كان بالغداة أرسل إليَّ، فعلمتُ أنه أخذ برأيي وترك رأي سمُرة.

ورُوِيَ أنّ عامرَ بن عبد القَيْس في نُسْكه وزهده وتقشُّفه وإخباته وعبادته كلّمه حُمْران مولى عثمان بن عفّان عند عبد الله بن عامر صاحب العراق في تشنيع عامر على عثمان وطعْنه عليه، فأنكر ذلك، فقال له حُمْران: لا كثّر الله فينا مثلَك. فقال له عامر: بل كثّر الله فينا مثلك. فقيل له: أيدعو عليك وتدعو له؟ قال: نعم، يكسحون طرقنا ويخرزون خِفافنا ويحوكون ثيابنا. فاستوى ابن عامر جالسا، وكان متكئًا، فقال: ما كنتُ أظنّك تعرف هذا البابَ لفضلك وزهادتك. فقال: ليس كل ما ظننتَ أني لا أعرفه لا أعرفه. وقالوا: إنّ خالد بن عبد الله بن خالد بن أسِيد لما وجّه أخاه عبدَ العزيز إلى قتال الأزارقة هزَموه، وقتلوا صاحبه مُقاتِل بنَ مِسْمع، وسبَوْا امرأته أمّ حفص بنتَ المنذر بنِ الجارود العَبْدي، فأقاموها في السوق حاسرةً بادية المحاسن، غالَوْا فيها، وكانت من أكمل الناس كمالاً وحُسْنًا، فتزايدتْ فيها العرب والموالي، وكانت العرب تزيد فيها على العصبيّة، والموالى تزيد فيها على الولاء، حتى بلغتْها العربُ عشرين ألفا، ثم تزايدوا فيها حتى بلغوها تسعين ألفا. فأقبل رجل من الخوارج من عبد القَيْس من خلفها بالسيفِ فضرَب عُنُقها. فأخذوه ورفعوه إلى قَطَريّ بن الفجاءة، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيْت المال، وقتل أمَة من إماء المؤمنين. فقال له: ما تقول؟ قال: يا أمير المؤمنين، إني رأيتُ هؤلاء الإسماعيلية والإسحاقية قد تنازعوا عليها حتى ارتفعت الأصوات واحمرّت الحدَق، فلم يبْقَ إلا الخبْط بالسيوف. فرأيتُ أنّ تسعينَ ألفا في جنْب ما خشيتُ من الفِتنة بين المسلمين هيّنة. فقال قطري: خلّوا عنه. عيْنٌ من عيون الله أصابتها. قالوا: فأَقِدْ منه. قال: لا أُقيد من وزَعه الله. ثم قدِم هذا العبْديّ بعد ذلك البصرة، وأتى المُنذِر بن الجارود يستَجْديه بذلك السبب، فوصَله وأحسن إليه.

قال أبو عُبيدة: مرّ عبد الله بن الأهتم بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النّحو، فقال: لئن أصلحتموه إنّكم لأوّلُ منْ أفسده. قال أبو عُبيدة: ليته سَمِع لحن صَفْوان وخاقان ومُؤمّل بن خاقان. الأصمعيّ قال: قدِمَ أبو مَهْدِيّة الأعرابي من البادية، فقال له رجل: أبا مَهْدِية، أتتوضأون بالبادية؟ قال: والله يا بن أخي،

لقد كُنا نتوضأ فيكفينا التَّوَضُّؤ الواحد الثلاثة الأيام والأربعة، حتى دخلت علينا هذه الحمراء، يعني المَوالي، فجَعَلت تَليقُ أستاهها بالماء كما تُلاقُ الدَّوَاة. ونظَرَ رجل من الأعراب إلى رجل من الموالي يَسْتَنجي بماء كثير، فقال له: إلى كم تغسلها، ويلك؟ أتريد أن تشرب بها سَوِيقًا؟ وكان عَقِيل بن عُلَفَة المَرِّيَّ أشدَّ الناس حَمِيَّة في العرب، وكان ساكنا في البادية، وكان يُصْهِر إليه الخلفاء، وقال لعبد الملك بن مَرْوَان إذ خطب إليه ابنته الجَرْباء: جَنِّبْني هُجَناء وَلَدك. وهو القائل:

كَـمَا بَـنـي غَيْظٍ رِجـالا فـأصْبَحت * بـنـو مـالك غَيْظًا، وصِـرْنا لمـالكِ
لَحَـى اللهُ دهـرًا ذَعْـذَعَ المـال كُلَّـه * سـوّدَ أشبـاهَ الإمـاء العَـوارِكِ

وقال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بنُ موسى، وكان جائرا شديد العَصَبِيَّة: مَن كان فقيه البَصْرة؟ قلتُ: الحسنُ بن أبي الحسن. قال: ثم مَن؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: مَوْلَيان. قال: فمَن كان فقيه مكة؟ قلت: عَطاء بن أبي رَباح ومُجاهد بن جَبْر وسَعيد بن جُبَيْر وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلتُ: مَوَالٍ. قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زَيد بن أسْلم ومحمد ابن المُنْكدِر ونافع بن أبي نَجِيح. قال: فما هؤلاء؟ قلت: مَوَالٍ. فتغيّر لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قُباء؟ قلتُ: رَبيعة الرأي وابن الزِّناد. قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي. فاربدّ وجهه، ثم قال: فمَن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وهَمّام بن مُنَبّه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي. فانتفخت أوداجُه وانتصب قاعدا، ثم قال: فمن كان فقيه خُراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخُراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مَوْلى. فازداد وجهُه تربُّدًا واسودّ اسودادًا حتى خِفتُه، ثم قال: فمَن كان فقيه الشام؟ قلت: مَكحول. قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى. فازداد تغيظًا وحَنَقًا، ثم قال: فمَن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهْران. قال: فما كان؟ قلت: مولى. قال: فتنفس الصُّعَداء، ثم قال: فمَن كان فقيه الكوفة؟ قال: فوالله لولا خوفه لقلت: الحَكَم بن عُيَيْنَة وعَمّار بن أبي سليمان، ولكن رأيتُ فيه الشرَّ، فقلت: إبراهيم والشَّعبي. قال: فما كانا؟ قلتُ عربيّان. قال: الله أكبر. وسكن جأشه.

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب "الموالي والعرب" أن الحجّاج لما خرج عليه ابنُ الأشعث وعبدُ الله بن الجارود، ولَقِيَ ما لقي من قُرّى أهل العراق، وكان أكثرَ مَنْ قاتله وخَلَعه وخرج عليه الفقهاءُ والمقاتلة والموالى من أهل البصرة، فلمّا عَلِم أنهم الجمهور الأكبر، والسَّواد الأعْظم، أحَبَّ أنْ يُسْقِط ديوانهم، ويفرِّق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي وقال، أنتم عُلوج وعَجَم، وقراكم أَوْلى بكم. ففرّقهم وفضّ جَمْعهم كيف أحَبّ، وسَيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسمَ البَلدة التي وَجَّهه إليها. وكانَ الذي تولى ذلك منهم رجل من بني سَعْد بن عِجْل بن لُجَيْم يقال له: خِراش بن جابر. وقال شاعرهم:

أنـتَ مَـنْ نقـش العِجْـلـيُّ رَاحتـه * فـرَّ شيخـك حـتى عـاذ بالحكم

يُرِيد الحَكَم بن أيوب الثَّقَفي عامل الحجَّاج على البَصرة. وقال آخر، وهو يعني أهل الكوفة، وقد كان قاضيَهم رجل من الموالي يقال: له نوح بن دَرَّاج:

إنّ القيامة، فيما أحسب، اقتربتْ * إذ كان قاضيَكم نوحُ بن دَرّاجِ
لو كان حيًّا له الحجّاج ما بَقِيَتْ * صحيحةً كفُّه من نقش حَجّاجِ

وقال آخر:

جاريةٌ لم تدرِ ما سَوْقُ الإبلِ * أخرجَها الحجّاجُ من كِنّ وظِلٍ
لو كان شاهدًا حُذيفٌ وحَمَل * ما نَقِشَتْ كفّاك من غير جَدَل

ويُرْوَى أنّ أعرابيا من بني العَنْبَر دخل على سَوّار القاضي فقال: "إنّ أبي مات وتركني وأخًا لي"، وخطّ خطّين، ثم قال: "وهَجينًا"، ثم خطّ خطًا ناحية، "فكيف نَقسِم المال؟". فقال له سوّار: ها هنا وارثٌ غيركم؟ قال: لا. قال: فالمال أثلاثًا. قال: ما أَحْسَبُك فهمت عني. إنه تركني وأخي وهَجينا، فكيف يأخذ الهجينُ كما آخذ أنا وكما يأخذ أخي؟ قال: أجَل. فغضب الأعرابي، ثم أقبل على سَوّار فقال: والله لقد علمت أنك قليل الخالات بالدهناء. قال سوّار: لا يضرّني ذلك عند الله شيئا".

والآن نلاحظ أن أول حجة أوردها ابن عبد ربه للشعوبيين فى هذا النص هى أنهم يريدون التسوية والعدل، محتجين بخلق الله للبشر جميعا من ذات الأب والأم وبنصوص قرآنية وحديثية. ولا شك فيما قالوه، ولا جدال فيما استشهدوا به. وهم على حق فى هذا كله كما يعرف ذلك كل مسلم. وبمناسبة ما نحن فيه أود أن أشير إلى ما قاله كاتب مادة "الشعوبية" فى " Encyclopaedia of Arabic Literature" من أن الحركة الشعوبية مدينة للخوارج. يقصد أن الخوارج كانوا ضد الرأى الذى يشترط بأن الخليفة لا بد أن يكون رجلا قرشيا، مستندين إلى أن الناس جميعا سواسية كأسنان المشط لا يشذ عن ذلك قرشى أو خلافه. لكن قائل هذا ينسى أو يتناسى شيئًا مهما، وهو أن الخوارج أنفسهم يرجعون فى دعوتهم تلك إلى نصوص القرآن والحديث، وهو نفسه ما فعله الشعوبيون كما رأينا. فالأساس الذى اعتمد عليه الشعوبيون هو القرآن والحديث لا الخوارج، وبخاصة أن أحدا منهم لم يجر ذكر الخوارج له على لسان ولا أشاد بفضلهم ولا استشهد بكلامهم ولا لفت الأنظار إلى مقولتهم. كما أن مقولة الخوارج إنما تخص الحكم وحده، أما الشعوبيون فكانت نزعتهم عامة.

ومُضيًا فى هذا الاتجاه نقول: لقد أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين أن يسمعوا ويطيعوا وإن استُعْمِل عليهم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة. وكان عليه السلام يجمع حوله عددا من الصحابة الأعاجم ويكرمهم ولا يميز بينهم وبين نظرائهم العرب، كبلال الحبشى وصهيب وسنان الروميين وسلمان الفارسى، الذى قال فيه: "سلمان منا آل البيت"، وهو ما لم يقله فى حق أحد من الصحابة العرب. ووصى أصحابه بالقبط خيرا حين تفتح بلادهم، وهم غير عرب. وروى أبو هريرة عنه فى حق الفرس الحديث التالى: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت سورة "الجمعة" فتلاها. فلما

بلغ "وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم" قال له رجل: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه. قال: وسلمان الفارسي فينا. قال: فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان فقال: والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء". ولما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدّم صُهَيْبًا على المهاجرين والأنصار، فصلى بالناس. كما قال، وهو على فراش الموت: "إني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض"، ثم أردف رضي الله عنه قائلا: "لو أدركني أحد رجلين ثم جعلتُ هذا الأمر إليه لوثقتُ به: سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح". وفى "الوافى بالوَفَيات" لصلاح الدين الصفدى أن سالما "كان من أهل فارس. . . وكان من فضلاء الموالي ومن خيار الصحابة وكبارهم. . . وكان يَؤُمّ المهاجرين بقُباء، وفيهم عمر بن الخطاب، قبل أن يَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. ورُوِيَ أنه هاجر مع عمر بن الخطاب ونفر من الصحابة بمكة، وكان يؤمهم لأنه كان أكثرهم قرآنا. وكان عمر يُفرِط في الثناء عليه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه وبين معاذ. . . ورُوِيَ عن عمر أنه قال: لو كان سالمٌ حيًّا ما جعلتُها شورى! وذلك بعد أن طُعِن. . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد، فبدأ به، ومن أُبَيّ بن كعب، ومن سالم مولى أبي حُذَيفة، ومن مُعاذ بن جبل". و"كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا. يعني بلالا".

ومعروفة قصة المصرى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص، ومعروف كيف تصرف فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه. جاء فى "التذكرة الحمدونية": "بيْنَا عمر رضي الله عنه قاعد إذ جاء رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ! فقال عمر: لقد عذتَ عائذا، فما شأنك؟ قال: سابقتُ على فرسي ابنًا لعمرو بن العاص، وهو يومئذ على مصر، فمحك فجعل يُقَنِّعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين! وبلغ عَمْرًا، فخشي أن آتيك فحبسني في السجن، فانفلتُّ منه، فهذا حين أتيتك. فكتب عُمَر إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وابنك فلان. وقال للمصري: أقم حتى يأتيك مَقْدَم عمرو. فشهد الحاجَّ، فلما قضى عمر الحج، وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جنبه، قام المصري فرمى عمر إليه بالدرة. قال أنس: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع عنه حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. قال: يا أمير المؤمنين، قد اشتفيتُ! قال: ضعها على صلعة عمرو. قال: يا أمير المؤمنين، قد ضربتُ الذي ضربني! قال: أما والله لو فعلتَ لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع. ثم قال: يا عمرو، متى تَعَبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فجعل يعتذر ويقول: إني لم أشعر بهذا". إذن فالشعوبيون فى دعوتهم بالمساواة بينهم وبين العرب لا يدينون للخوارج بشيء، بل هم والخوارج جميعا مدينون للإسلام.

هذا عن كلام الشعوبيين فى هذه النقطة، أما الرد على ذلك بأنه لا بد أن يكون فى الدنيا شريف ومشروف، فهذا، وإن كان صحيحا من حيث المبدأ، لا ينبغى أن يكون قائما على الاستقطاب، بمعنى أنه

لا يعقل أن يكون العرب المسلمون جميعا أفضل من المسلمين غير العرب جميعا . ذلك أن للحياة كلاما آخر في هذه المسألة، إذ ما أكثر المسلمين العرب الذين يقلون عن نظرائهم من الأعاجم. وليس من المقبول أبدا أن آتى إلى الأعاجم جميعا فأقول لهم: إنكم مهما اجتهدتم ورقيتم من أنفسكم وعقولكم وأخلاقكم وسلوككم فلن تبلغوا مبلغ العرب. إن هذا من شأنه أن يوئس القلوب ويوغر الصدور . والله سبحانه قد فتح الأبواب كلها أمام البشر دون اعتبار لجنس أو لون أو طبقة. صحيح أن الظروف قد تستلزم الخروج عن هذه القاعدة لمصلحة عامة ملحة، لكن لا ينبغى أن يشكل هذا الخروج قاعدة دائمة، بل تقدَّر الضرورة بقدرها ثم تُترك بعد ذلك. وإن بقية الرد لتحوى على الرد على هذا الرد، إذ قيل إن الناس لا تستوى فى فضائلها، بل لبعضها الفضل على بعض. وهذا كلام جميل، ولا شائبة فيه، إلا أنه ينبغى أن يطبق على الجميع، فيقال: ليس العرب كلهم على درجة واحدة من الفضل، كما أن الأعاجم ليسوا كلهم على درجة واحدة، بل فى كل من هؤلاء وهؤلاء الفاضل والمفضول. ومن هنا فإننا نوافق ما قالته الشعوبية من أن تفاضل الناس فيما بينهم لا يكون بآبائهم أو أحسابهم، بل بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبُعد هِمَمهم، وأنه من كان دنيء الهمّة ساقط المروءة لم يَشرُف، وإنْ كان من بني هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بَطْن منها، وأن الكريم مَن كرُمت أفعاله، والشَّرِيف مَن شرُفت همّته.

لكن الأعاجم يبلغون من الحماقة مبلغا عظيما حين يزعمون أن آدم أبوهم وحدهم، وكأن العرب أبناء الشيطان. كما أنهم يبلغون مبلغا عظيما آخر من الحماقة حين يقولون إن العرب ليس لهم من الأنبياء سوى أربعة، وكأنه كان للروم أو للفرس أنبياء أصلا، وهما الجنسان الرئيسيان اللذان تقوم على أكتافهما دعوة الشعوبية، وإلا فليذكروا لنا أسماء هؤلاء الأنبياء، فضلا عن تجاهلهم أن محمدا أحد هؤلاء الأنبياء الأربعة، وهو خاتم النبيين، والرسول المبعوث للناس جميعا بحيث يغنى دينه عن كل الأديان الأخرى بينما لا يغنى أى دين آخر عن دينه. . . وغير ذلك من الفروق التى أشار إليها عليه السلام بينه وبين الأنبياء السابقين عليه. كذلك نراهم يفتخرون جميعا بأنهم من أبناء كسرى أو قيصر، وكأن الأعاجم كلهم ملوك ونسل ملوك. وهذا حمق يبعث على الرثاء والاشمئزاز. ولقد سخِر جَحْظة البرمكي من هذا الادعاء السمج فقال:

أهـل القـرى كـلـهـم ينتمو * ن لكسـرى ادعـاءً، فـأين النَّبيط ؟

كما تهكم ابن قتيبة على من يصنعون ذلك فقال عن سفلة الأعاجم: "فمنه من ألحق نفسه بأشراف العجم واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم، ودخل فى باب فسيح لاحجاب عليه، ونسب واسع لا مدافع عنه"[١] . كذلك يبلغون من الحمق مبلغا عظيما للمرة الرابعة حين يعيبون العرب بأنهم أولاد أَمَة، على حين

---

[١] ابن قتيبة/ فضل العرب والتنبيه على علومها/ تحقيق د. وليد محمود خالص/ المجمع الثقافى/ أبو ظبى/ ١٩٩٨م/ ٣٥.

أنهم هم أولاد حرة. فهل العرب جميعا أولاد هاجر؟ هذا غير صحيح، وإنما أولادها بعض العرب ليس إلا. ذلك أن العرب كانوا موجودين قبل أن تأتى هاجر وإسماعيل إلى أرض الحجاز ويشبّ إسماعيل بين أظهرهم ويتزوج واحدة من بناتهم فيكون له منها ذرية يمثلون بعض العرب ليس إلا. أما العرب كأُمّة فهم موجودون قبل إسماعيل وبعد إسماعيل. ثم هل الأعاجم كلهم أبناء حُرّاتٍ؟ ألا يوجد فى كل أُمّة الحرائرُ والإماءُ؟ بلى. فلم إذن كل هذه العنجهية؟ وهذا لو أن الانتساب إلى أَمَةٍ، وبخاصة إذا كانت أَمَةً كهاجر عليها السلام، يعيب صاحبه فى شىء. إن هاجر هى امرأة أبى الأنبياء إبراهيم، فهل يمكن أن تكون زوجة خليل الرحمن سيئة كما يدعى الشعوبيون عليها؟ أما إذا كانت سيئة، وكان الانتساب إليها يسىء إلى أبنائها، فليس لهذا من معنى سوى أن إسماعيل، وهو نبى كأبيه عليهما السلام، قد لحقه هذا السوء. فهل يقول مؤمن هذا؟ لقد أقر الشعوبيون بأن الأنبياء مفخرة للأمم التى ينتسبون إليها، ومن ثم لا يلحقهم سوء لأن المفاخر فوق السوء. فما بالنا ونحن لا نعرف لأمة الروم أو الفرس نبيا مرسلا؟ ثم أليس من قلة الأدب والجلافة أن يقال عن هاجر: "لَخناء"، أى نتنة الرائحة؟ لقد كانت اللياقة والرجولة، ولا أقول: الإيمان، تقتضى الشعوبيين ألا يتطرقوا إلى مثل هذا الحديث الذى يَصِم قائله ولا يَصِم المَقول فيها بأى شىء لأن هاجر لم تكن أَمَة ممتهنة ترعى الإبل وتجمع الحطب وتستقى الماء، بل كانت زوجة إبراهيم كما جاء فى سفر "التكوين": "فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ"[١]. وحتى لو كانت ممتهنة فإن مهنتها هى مما يرفع من شأنها ولا يعيبها، إذ العمل حضارة، والحضارة لا تعاب بل تحمد.

وهناك رواية تقول إن هاجر هى فى الأصل بنت ملك. وهذا كلام يقوله مفسرو العهد القديم من اليهود أنفسهم، فهى عندهم ابنة ملك مصر، أهداها لسارة قائلا لها إنه يؤثر أن تكون ابنته أمة لها على أن تكون سيدة فى أى بيت آخر. وكان سارة تعاملها معاملة طيبة، ولا تدع أحدا من النساء يزورها إلا أخذته لزيارة هاجر أيضا. بيد أن هاجر ما إن حملت حتى صارت تعامل سارة على نحو استفزازى مما دفعها أن تشق عليها فى أعمال المنزل وتضربها. وفى مادة "Hagar" من "Jewish Encyclopedia" المشباكية نطالع الفقرات التالية:

"According to the Midrash (Gen. R. xlv.), Hagar was the daughter of Pharaoh, who, seeing what great miracles God had done for Sarah's sake (Gen. xii. 17), said: "It is better for Hagar to be a slave in Sarah's house than mistress in her own." In this sense Hagar's name is interpreted as "reward" ("Ha-Agar"= "this is reward"). She was at first reluctant when Sarah desired her to marry Abraham, and although Sarah had full authority over her as her handmaid, she persuaded her, saying. "Consider thyself happy to be united with this saint." Hagar is held up as an example of the high degree of godliness prevalent in Abraham's time, for while Manoah was afraid that he would die because he had seen an angel of God (Judges xiii. 22), Hagar was not frightened by the sight of the divine messenger (Gen. R. l.c.). Her

---

[١] تكوين/ ١٦/ ٣.

fidelity is praised, for even after Abraham sent her away she kept her marriage vow, and therefore she was identified with Keturah (Gen. xxv. 1), with allusion to קטר (Aramaic, "to tie"; Gen. R. lxi.). Another explanation of the same name is "to adorn," because she was adorned with piety and good deeds (l.c.). It was Isaac who, after the death of Sarah, went to bring back Hagar to the house of his father; the Rabbis infer this from the report that Isaac came from Beer-lahai-roi, the place which Hagar had named (Gen. xvi. 14, xxiv. 62; Gen. R. lx.; see commentaries ad loc.).

Other homilies, however, take an unfavorable view of Hagar's character. Referring to the report that when she had conceived she began to despise her mistress, the Rabbis say that she gossiped about Sarah, saying: "She is certainly not as godly as she pretends to be, for in all the years of her married life she has had no children, while I conceived at once" (Gen. R. xlv.; Sefer ha-Yashar, Lek Leka). Sarah took revenge (Gen. xvi.) by preventing her intercourse with Abraham, by whipping her with her slipper, and by exacting humiliating services, such as carrying her bathing-materials to the bath (l.c.);she further caused Hagar by an evil eye to miscarry, and Ishmael, therefore, was her second child, as is inferred from the fact that the angel prophesied that she would bear a child (Gen. xvi. 11), while it had been narrated before that she was pregnant (Gen. xvi. 4). It is further inferred, from the words "she went astray" (Gen. xxi. 14, Hebr.), that as soon as she had reached the wilderness she relapsed into idolatry, and that she murmured against God's providence, saying: "Yesterday thou saidest: 'I will multiply thy seed exceedingly' [Gen. xvi. 10]; and now my son is dying of thirst." The fact that she selected an Egyptian woman as her son's wife is also counted against her as a proof that her conversion to Judaism was not sincere, for "throw the stick into the air, it will return to its root" (Gen. R. liii., end). This Egyptian wife is explained in the Targum of pseudo-Jonathan to refer to Khadijaand Fatima, the widow and the daughter of Mohammed (see Zunz, "G. V." 2d ed., p. 288, note a)"[1].

ويقترب ما تقوله مادة "Agar" فى "الويكيبيديا" الإنجليزية مما جاء فى نفس المادة من "الموسوعة اليهودية"، وإن كان موجزا:

"Rabbinical commentators asserted that Hagar was "Pharaoh's daughter". The midrash Genesis Rabbah states it was when Sarah was in Pharaoh's harem that he gave her his daughter Hagar as slave, saying: "It is better that my daughter should be a slave in the house of such a woman than mistress in another house"; Abimelech acted likewise (16:2). Sarah treated Hagar well, and induced women who came to visit her to visit Hagar also. However Hagar, when pregnant by Abraham, began to act superciliously toward Sarah, provoking the latter to treat her harshly, to impose heavy work upon her, and even to strike her (ib. 16:9)"[2].

ولكن هاجر أَمَةٌ عاديّة، فما ذنبها فى هذا؟ إن الرق لا ذنب لصاحبه فيه، إذ هو فى تلك الأزمان قدرٌ يجرى على الشخص لا يستطيع عنه حِوَلاً. وهَبِ الرق يعيب الأَمَة، فهل يعيب أبناءها أيضا؟ فما ذنبهم فى أن أمهم أَمَة لا امرأة حرة؟ هل كان عليهم أن يرفضوا أن ينزلوا إلى الحياة ما دامت

---

[1] مادة "Hagar" من "الموسوعة اليهودية المشباكية": (/http://www.jewishencyclopedia.com).

[2] وهو ما تقوله بعض الروايات الإسلامية أو تقول شيئا يشبهه. وقد أشارت إلى ذلك مادة "هاجر" فى كل من "الموسوعة اليهودية" المشباكية و"الويكيبيديا" (الفرنسية والإنجليزية).

أمهم أمة؟ أم هل كان عليهم من قبل ذلك أن يمنعوا أباهم من الزواج بتلك الأمة حتى لا يجلب عليهم العار فى نظر الحمقى؟ ولكن كيف؟ ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن هاجر كانت تحظى بحب إبراهيم عليه السلام، وأن سارة كانت تغار منها أشد الغيرة على ما تذكره لنا الروايات، وعلى رأسها ما حكاه لنا العهد القديم، مما جعلها لا تطيق رؤيتها ولا رؤية ابنها، الذي رزقها الله إياه على حين حرمها هى من الخلفة حتى ذلك الوقت، فصممت على إبعادها هى وابنها لا تعرف فى ذلك لينا أو ترددا، فأخذهما إبراهيم وتركهما فى الصحراء حيث لا ماء ولا طعام، لكن هاجر تجلدت وتحملت وصبرت وصابرت مستعينة بإيمانها بالله حتى أرسل الله لها الماء بعدما أوشك ابنها أن يهلك. أفليس هذا مما يؤخذ على سارة، ويذكر فيشكر لهاجر ما دمنا قد دخلنا فى باب المعايرة، وإن كنا لا نقول بهذا، بل هو رد على السخف بما يُعرِّف الشعوبيين إلامَ يأخذهم منطقهم الأعوج؟ ألم يذكر العهد القديم أن الله قد بشر بنفسه إبراهيم عليه السلام بأنه سيكون له من ابن هاجر (إسماعيل) أمة عظيمة؟ فهل من يقول الله هذا عنها وعن ابنها يصح أن ينال منها الشعوبيون وأهل الكتاب على هذا النحو؟ اللهم كلا. ولنضرب الصفح عن هذا كله، ونسأل سؤالا واحدا: ما الذى أدخل الشعوبيين من فرس وروم وغيرهم فى سارة وإسحاق؟ هل هم من بنى إسحاق؟ أليس من السخف أن يزجوا بأنفسهم فى موضوع لا ناقة لهم فيه ولا جمل ويحشروا أنفسهم فى بنى إسرائيل؟

أما تعيير الشعوبيين للعرب بما كان يقع منهم أو يقع لهم فى الجاهلية من مخاز فلا معنى له لأنه ماض راح وانقضى، ونحن أبناء اليوم، والعبرة بما حققه العرب فى ميادين السياسة والحرب والحكم، وهو بكل المقاييس إنجاز ضخم بل إعجاز مذهل وقف أمامه مبهورا محسورا كل من قرأت له من المستشرقين، الذين لا يمكن اتهامهم بالتحيز للعرب والمسلمين بأى معنى من المعانى. وهم على حق فى هذا الانبهار. وهذا سبب من أسباب شعور العرب بالعزة والفخار. ثم إن الإسلام يَجُبّ ما قبله، والمفروض أن الفريقين كليهما يدينان بالإسلام ويؤمنان بقيمه ومبادئه ويلتزمان بها، أو هذا هو ما ينبغى أن يكون. فلماذا إثارة الماضى على هذا النحو بعُرّه وبُكْره؟

كما أن العرب لا ينكرون أنهم فى الجاهلية كانوا ضُلّالاً فهداهم الله، مشركين فأنار الله بصيرتهم، منحرفين عن الجادة فأعادهم الإسلام إلى السبيل المستقيمة. وقد أقر بهذا دون أن يطمس منه حرفا جعفر بن أبى طالب المتحدث باسمهم فى البلاط النجاشى، إذ قال للعاهل الحبشى حسبما جاء فى "سيرة ابن هشام": "أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم". وفى تفسير الآية السادسة والعشرين من سورة "الأنفال" ينقل ابن كثير عن قتادة السدوسى قوله: "كان هذا

الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالاً. من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم رُدّي في النار. يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله".

وعلى هذا لست أرى للشعوبيين أى حق ولا أى مسوغ فى نبش ركام الماضى! وكان ينبغى ألا يَنسَوْا أننا كلنا فى الهم شرْق. فإذا كان العرب فيهم من العيوب كذا وكذا لقد كان فيهم هم أيضا عيوب قاتلة. أما أنهم كانت لهم دول ولم تكن للعرب مثلها فلقد يعلم كل من له إلمام ضئيل بالتاريخ أن العرب لم يكونوا كلهم نمطا واحدا، بل كانت لهم دول فى جنوب بلادهم مشهورة ذات حضارة عريقة. أما عرب الشمال فلئن فاتهم أن تكون لهم دول لقد كانت لهم قبائل، وكل منها بمثابة دُوَيْلَةٍ يحكمها شيخ لا يمارس على رعيته شيئا من الاستبداد، الذى كان أسلاف الشعوبيين يعانون منه أشد المعاناة تحت سلطان حكامهم المتعسفين الظالمين، مما يعرفه القاصى والدانى.

وعلى كل حال فالناس، كما قلنا، أبناء اليوم. والعرب فى ذلك اليوم كانوا حكام العالم وسادته، وسادة الشعوبيين أنفسهم، أما الشعوبيون فلم تعد لهم دول، بل الدولة كل الدولة للعرب، ما دام الشعوبيون يريدون أن يتحاكموا إلى هذا المنطق! ولكن كان هذا أيام الأمويين فى الغالب، أما فى العصر العباسى فقد تغير هذا الوضع إلى حد بعيد، ولم يعد للشعوبيين حق فى الشكوى يُذكَر. ولكنى معهم رغم ذلك حين يقللون من شأن العصبية القبلية، وأرى أنهم يجرون مع الإسلام فى ذات الاتجاه. إلا أننى كنت أود من الشعوبيين، وقد حقروا من شأن النزعة القبلية الجامحة التى شَقِيَ بها العرب وأفقدتهم الكثير وقللت من جلال ذلك الإعجاز الحضارى الضخم الذى كتب الله أن يتحقق على أيديهم دون سائر أهل الأرض، أن يتناسَوْا بدورهم فخرهم القومى الجامح، الذى كان له أيضا أثر سيئ على تاريخ الإسلام، فقد استنزف الطاقات وأهدر الأموال فى الحروب الداخلية المبيرة، مما كان يمكن تصريفه فى مَنَاحٍ أخرى ذات نفع للبلاد والعباد. لكنى فى ذات الوقت لست أرى فضلا لأى عربى على أى أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، مع العلم بأن التقوى هى الإخلاص، وأن العمل الصالح هو كل عمل من شأنه إسعاد الناس وتخفيف ويلاتهم، وليس مراسم العبادة التقليدية فقط كما قد يظن بعض الناس، بل كل شىء فى حياة المسلم عبادة ما قصد بها وجه الله وأداء الواجب ونصرة الحق. ومن ثم فإذا كانت القصص التى يحكيها الشعوبيون عن استصغار بعض العرب لشأنهم وحرصهم على تأخيرهم عن الصفوف الأولى حتى لو كانوا مستحقين لها عن جدارة هى فعلا قصصا صحيحة فإنى أعترض بكل قوة على هذا المسلك، وأراه مسلكا "شعوبيا" عند العرب. ومعيارى فى هذا هو القرآن والحديث، اللذان يسويان بين البشر بوجه عام، ولا يميزان فردا على فرد إلا بالجهد الشخصى المتميز.

والآن لنقف بإزاء النص التالي: "قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بنُ موسى، وكان جائرا شديد العَصَبية: مَن كانَ فقيه البَصْرة؟ قلتُ: الحسنُ بن أبي الحسن. قال: ثم مَن؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: مَوْليَان. قال: فمَن كان فقيه مكة؟ قلت: عَطاء بن أبي رَباح ومُجاهد بن جَبْر وسَعيد بن جُبَيْر وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلتُ: مَوال. قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زَيْد بن أسْلم ومحمد ابن المُنْكدِر ونافع بن أبي نجيح. قال: فما هؤلاء؟ قلت: مَوال. فتغيّر لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلتُ: رَبيعة الرأي وابن الزِّناد. قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي. فاربدّ وجهه، ثم قال: فمَن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وهَمّام بن مُنَبّه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي. فانتفخت أوداجُه وانتصب قاعدا، ثم قال: فمن كان فقيه خُراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخُراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مَوْلى. فازداد وجهُه تربُّدًا واسودّ اسودادًا حتى خِفْته، ثم قال: فمَن كان فقيه الشام؟ قلت: مَكحول. قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى. فازداد تغيظًا وحَنَقًا، ثم قال: فمَن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهْران. قال: فما كان؟ قلت: مولى. قال: فتنفس الصُّعَداء، ثم قال: فمَن كان فقيه الكوفة؟ قال: فوالله لولا خوفه لقلت: الحَكم بن عُيَيْنة وعَمّار بن أبي سليمان، ولكن رأيتُ فيه الشرَّ، فقلت: إبراهيم والشّعبي. قال: فما كانا؟ قلتُ عَرَبيّان. قال: الله أكبر. وسكَن جأشه". وسر رغبتى فى التوقف أمامه هو أن الشعوبيين يأتون من التصرفات ما كان ينبغى أن يتنزهوا عنه لانتقادهم العرب بمثله. ذلك أنهم هنا على سبيل المثال يعملون على التنقص من العرب باعتبار أنهم لا علم عندهم، لاجئين إلى أسلوب خبيث، إذ تراهم يبرزون علماء الأعاجم فى الوقت الذى يخفون فضل العرب فلا يذكرون أسماء علمائهم.

أما ما قرفَ به الشعوبيون أعراضَ العرب مدعين أن السَّبيّة العربية فى الجاهلية كان سُبَاتُها ينتهكون عرضها فى الطريق، ثم إذا ما استخلصها زوجها من أيدى الآسرين شرع يطنطن بأنه قد حمى عرضه وأنقذه من التلوث بعد أن يكون الآسرون قد اعتدَوْا على عرضه وانتهى الأمر، فهو زعم لا يصمد للتحليل. إذ من المفهوم أن الزوج فى هذه الحالة لا يضيع وقتا بل يهب لساعته مطاردا من خطفوا زوجته، ومعه بعض أفراد قبيلته بطبيعة الحال. وفى مثل تلك الظروف لا يكون هناك وقت أمام الخاطف كى ينزل عن ناقته أو فرسه فى الطريق ويستمتع بأسيرته، بل يعمل بكل طاقته على الاستمرار فى الهرب حتى لا يدركه الزوج المطارد، بل لا تكون عنده فى الحقيقة أية رغبة سوى النجاة بنفسه وبخطيفته. ثم إنه ليس من المعقول أن تمكنه السبية من نفسها دون أية مقاومة. ذاك شىء يخالف الفِطَر. وعلى ذلك فما قاله العائبون على العرب فى هذه النقطة هو كلام فى الهواء غالبا، فلا يُلتفت إليه. وإلا فلو كان ذلك الكلام صحيحا أكان يجد العربى فى نفسه الرغبة فى الافتخار بإنقاذ زوجته، بينما هو يعلم، وكذلك الجميع يعلمون، وأولهم الخاطف، أن العدوان على العِرْض قد وقع، أو كان يسكت عنه خصوم القبيلة فلا يردوا عليه ويسخروا منه ومن أوهامه وطنطناته التى لا تسمن ولا تغنى من جوع؟

أما الحكاية التى تقول إن ابن هبولة الغساني قد سبى امرأة الحارث بن عمرو الكندي، فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة، وقد كان نال منها، فقال لها: "هل كان أصابك؟"، قالت: "نعم والله، فما اشتملت النساء على مثله"، فهو كلام لا يدخل العقل، إذ أين هى الزوجة التى ترد بهذا الرد على زوجها فى ظروف كهذه؟ ودعك من معرفتها أن مصيرها حينئذ هو القتل الوحِيّ. إنما هى حكاية ملفقة للإساءة إلى زوجها. كذلك هل يمكن أن تكون صحيحة تلك الحكاية التى تقول إن بنى سليم قد سبت ريحانة أخت عمرو بن معديكرب فارس العرب، فاكتفى عمرو بنظم بضعة أبيات يفضح نفسه وأخته وبنيه بل قبيلته كلها، وكان الله يحب المحسنين، ثم مضى فتغزل فى سلمى متدلها فى حسنها، متذكرا لهوه فى شبابه بأمثالها، بدلا من أن يكفأ على الخبر ماجورا ويكفى نفسه الخزى والعار؟ بالله أهذا وقت غزل واستعادة ذكريات وافتخار بلهو الشباب؟ أم هل من المعقول أن يكون هذا هو كل ما فعله الشاعر حين سُبِيَتْ أخته لينساها بعد ذلك إلى الأبد فلا ثأر ولا محاولة لاستعادتها كرة أخرى؟ على أن التفسير الذى يصحب هذه الأبيات يتحدث عن زواج دريد بن الصمة لريحانة لا اعتدائه على عِرْضها غصْبًا كما يقول الشعوبيون. وهناك تفسير آخر للأبيات يختلف عن هذا ويفضله فى الإقناع، ولا صلة بينه وبين سَبْى أخت الشاعر بحال من الأحوال، إذ يتحدث عن زوجة للشاعر طلقها بتأثير بعض المخادعين، ثم لما استبان له أنه وقع ضحية للخداع أنشأ القصيدة المذكورة.

وهنا نأتى إلى النص التالى المأخوذ من "رسائل الجاحظ": "اعلم بعد هذا كله أن كل أمة وقرن وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات، وفضلوا الناس في البيان، أو فاقوهم في الآداب، وفي تأسيس الملك، وفي البصر بالحرب، فإنك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور وتصلح لتلك المعاني، لأن من كان متقسم الهوى مشترك الرأي، ومتشعب النفس غير موفر على ذلك الشيء ولا مهيأ له، لم يحذق من تلك الأشياء شيئا بأسره، ولم يبلغ في غايته كأهل الصين في الصناعات، واليونانيين في الحكم والآداب، والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه، وآل ساسان في الملك، والأتراك في الحروب.

ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجارا ولا صناعا بأكفهم، ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس، ولا أصحاب جمع ومنع، وحرص وكد؟ وكانت الملوك تفرغهم وتجري عليهم كفاياتهم، فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوة وافرة وأذهان فارغة حتى استخرجوا الآلات والأدوات والملاهي التي تكون جماما للنفس، وراحة بعد الكد، وسرورا يداوي قرح الهموم، فصنعوا من المرافق وصاغوا من المنافع كالقرصوطونات والقبانات والأسطرلابات وآلة الساعات، وكالكونيا وكالشيزان والبركار، وكأصناف المزامير والمعازف، وكالطب والحساب والهندسة واللحون، وآلات الحرب كالمجانيق والعرادات والرتيلات والدبابات وآلة النفاط وغير ذلك مما يطول ذكره، وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة، يصورون الآلة ويخرطون الأداة ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها، ويشيرون إليها ولا يمسونها،

ويرغبون في العلم ولا يرغبون في العمل؟ فأما سكان الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة، وأصحاب الخرط والنحت والتصوير والنسخ والخط ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه، وإن اختلف جوهره، وتباينت صنعته، وتفاوت ثمنه. واليونان يعرفون الفلك لأن أولئك حكماء، وهؤلاء فعلة.

وكذلك العرب لم يكونوا تجارا ولا صنّاعا ولا أطباء ولا حُسّابا ولا أصحاب فلاحة فيكونون مهنةً، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية. ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم، ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة، ولم يستغنوا الغِنى الذي يورث البلدة، والثروة التي تحدث الفرة، ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم. وكانوا سكانَ فيافٍ وتربية العراء، لا يعرفون الغمق ولا اللثق ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم. أذهانٌ حِداد، ونفوس منكرة، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام بعد قيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآفاق وتعرُّف الأنوار والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وإحكام شأن المثالب والمناقب، بلغوا في ذلك الغاية، وحازوا كل أمنية. وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر، وهممهم أرفع من جميع الأمم وأفخر، ولأيامهم أحفظ وأذكر.

وكذلك الترك أصحابُ عَمَدٍ وسكانُ فيافٍ وأربابُ مَواش، وهم أعراب العَجَم كما أن هُذَيلاً أكراد العرب. فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ولا غرسٌ ولا بيانٌ ولا شقّ أنهار ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرةً ومقصورةً عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره، وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم. فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات، والأعراب فيما عددنا ونزلنا، وكآل ساسان في الملك والرياسة. . ." .

على أنه لا بد من التنبه إلى أن العرب الذين يتحدث عنهم الجاحظ هنا هم عرب ما قبل الإسلام. وهؤلاء لا تبعة عليهم فى شيء من ذلك لأنهم أبناء بادية فى غالبهم، فلا مدارس ولا حاجة إليها، ولا زراعة ولا صناعة إلا فى أضيق الحدود وفى أكثر أشكالها بدائية، ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو إلى اختراع أو إبداع فى أي ميدان من ميادين الحياة. أما بعد الإسلام وبعدما تحضروا وقادوا الأمم وعرفوا ما عندهم من الثقافات وتثقفوا بها فقد تبدل حالهم، وصاروا أساتذة وقادة فى العلم كما كانوا سادة وقادة فى السياسة والحروب. والعبرة بأن يهتبل الإنسان الفرص السانحة. وقد أثبت العرب أنهم أبرع الأمم فى هذا، إذ لم يمر عليهم سوى وقت قصير أضحوا بعده شيئا آخر غير الذى كانوه قبلا، إذ بعد أن كانوا مجرد

شعراء وخطباء لا غير أصبح منهم المعجمى والعَرُوضِىّ والمحدّث والفقيه والمفسر والنحوى والناقد والمتكلم والفيلسوف والمنطيق والكيميائى والطبيب والفيزيائى ومقارن الأديان والمؤرخ والجغرافى ومستكشف البلاد والعباد . . . إلخ.

وإذا كان العرب يمنون على العجم بأن الله قد استنقذهم من الضلال لقد كان ينبغى ألا يَنْسَوْا بدورهم أنهم كانوا ضلالا مثل العجم سواء بسواء، فهداهم الله على يد النبى محمد صلى الله عليه وسلم، إلا أن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتقاضهم شيئا مما يريدون من العجم أن يؤدوه لهم. كما أنهم لم يتقبلوا الهدى الذى أتاهم به النبى الكريم بسهولة وسلاسة، بل كان من غالبهم فى بداءة الأمر العناد والتكذيب والأذى والتآمر حتى ضاق النبى وصحابته الأولون بهذه المعاملة المجحفة فتركوا الجمل بما حمل وهاجروا من مكة إلى يثرب متحملين آلام الغربة والحاجة والفقر من بعد غنى، والضيق من بعد سعة. بل إن كثيرا من العرب لم يؤمنوا بالنبى إلا عام الوفود متأخرين وبعدما تشبت بينهم وبين النبى والمسلمين معارك وغزوات ووقع قتلى من الجانبين غير قليلين. ولا تنس من كان من العرب منافقا، ومن ظل منهم يهوديا أو نصرانيا. كذلك لا ننس أن ما يمنون به على العجم من أنهم هَدَوْهم بعد ضلال إنما هو فضل من الله سبحانه وتعالى، الذى هداهم وبوأهم هذا الشرف وتلك المكرمة، فيجب عليهم شكر الله من أجلهما لا المن بهما على العجم. ومن الناحية الأخرى لا يصح أن ننسى فضل أولئك الأعاجم إذ قبلوا الإسلام وصدقوا به وبالنبى الذى قام بدعوته رغم أنهم لم يَرَوْه ولم يسمعوا منه مباشرة. ثم إن المن لا يحسن، إذ قد يفسد عمل صاحبه ويحبط ثوابه، لا قدّر الله!

وهناك معايب أخرى حاول الشعوبيون تشويه العرب بها، منها ما كان العرب ينتهجونه فى الخطابة من تقاليد كحمل العصا فى أثناء الإلقاء، فأخذ الشعوبيون يسخرون منها على ما روى لنا الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون رسما من الرسوم كأى رسم أو تقليد آخر. ولو وقفنا عند مثل تلك الأمور عند العرب وغيرهم لما انتهينا. أولم يكن أكاسرة الفرس يمسكون فى أيديهم، وهم على عرش الحكم، بالصولجان؟ فماذا هنالك من فرق بين الصولجان والعصا؟ أإذا فعل العرب شيئا أخذ عليهم، فإذا فعل مثله الفرس كان سببا من أسباب الفخار؟ وماذا فى ترك العصا مما يفضل على الإمساك بها فى الخطبة؟ والمهم فى كل حال أن يكون الخطيب متدفقا يستولى على الألباب وينفذ بكلامه إلى ما يريد ويحرك المستمعين إلى ما يبغياه من أهداف، ويكون لكلامه متعة تشد الناس إليه وإلى ما يقول.

كذلك أخذ الشعوبيون على العرب، حسبما ورد فى "البيان والتبيين" أيضا، بدائية أسلحتهم وتخلف أسلوبهم فى الحرب. فليكن! فماذا كانت النتيجة فى المواجهات الحربية التى وقعت بين الجانبين: العرب المتخلفين فى سلاحهم وخططهم العسكرية، والفرس بأسلحتهم وأنظمتهم المتطورة؟ النتيجة يعرفها حتى الطفل فى بطن أمه، ألا وهى أن العرب هم الذين انتصروا، على حين انهزم الفرس وغير الفرس من كل أمة ظنت أن من حقها الشموخ على العرب بأنوفها، فكسر العرب تلك الأنوف. وكان من نتائج هذه

المواجهة بين التخلف والتطور أن لغة العرب هى التى انتصرت، ودين العرب هو الذى انتصر، دون أى إرغام من جانب العرب، ورأينا الأعاجم كلهم، إلا من كان فى قلبه مرض، وقليل ما هم، يُفَدُّون لغة العرب والدين الذى حمله العرب، بالنفس والنفيس. وها هم أولاء العرب قد تركوا الحكم منذ قرون وحلت محلهم أمم أخرى ، ومع هذا ظلت لغة العرب والدين الذى جاء به العرب مُتَرَبِّعَيْنِ على قلوب الملايين طوال هاتيك القرون.

ويبقى ما كتبه ابن خلدون، فى الفصل الثالث والأربعين من مقدمته، حول الدعوى القائلة بأن حَمَلَة العلم في الإسلام أكثرهم العجم، إذ يقول: "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم: لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة. وإنما أحكام الشريعة، التي هي أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دُفِعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة. وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله بـ"القُرّاء"، أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا، فقيل لحملة القرآن يومئذ: "قُرّاء" إشارة إلى هذا. فهُمْ قُرّاء لكتاب الله والسنة المأثورة عن النبي لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث، الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح. قال صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي. فلما بَعُدَ النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتِيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم احتِيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان فاحتِيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت إلى علوم أخرى، وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذبّ عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البِدَع والإلحاد، فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع.

وقد كنا قدَّمْنا أن الصنائع من منتَحَل الحَضَر وأن العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حَضَرِيّة، وبَعُدَ عنها العرب وعن سوقها. والحَضَر لذلك العهد هم العَجَم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر، الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس. فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، والفارسي من بعده، والزَّجّاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما رُبُّوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمَرْبَى ومخالطة

العرب وصيَّروه قوانين وفنا لمن بعدهم. وكذا حَمَلة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق. وكان علماء أصول الفقه كلهم عَجَمًا كما عُرف، وكذا حَمَلة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس. وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسُوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دُفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. وما زالوا يَرَوْن لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حَمَلتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل المُلك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتُهن حملتها بما يَرَوْن أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية.

فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حَمَلة الشريعة أو عامتهم من العجم. وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم، وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها، فلم يحملها إلا المعرَّبون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا. فلم يزل ذلك في الأمصار الإسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة، التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع، ذهب العلم من العجم جملةً لما شملهم من البداوة، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع. وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر. وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليفَ وصلت إلينا إلى هذه البلاد، وهو سعد الدين التفتازاني. وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يُعوَّل على نهايته في "الإصابة". فاعتبِرْ ذلك وتأمَّله تَرَ عجبا في أحوال الخليقة".

ولكن كيف لنا أن نصدق هذا، والدواعي إلى انتهاج خلافه قائمة؟ ذلك أن القرآن والحديث مملوءان بالحض على العلم وتبيين فضله، فهل كان القرآن والحديث يقولان ذلك للعرب رغم معرفتهما أنه لا فائدة من الكلام إليهم؟ إذن فمن الذى أدى القرآن والحديث إلى العجم بما فيهما من حض على العلم والتعلم؟ نحن مع ابن خلدون لو كان المقصد من كلامه هو عرب الجاهلية، أما عرب الإسلام فكلا وألف كلا. والحق أن هناك حكاما عربا أو أفرادا من أُسَر الحكام اشتغلوا بالعلم، كخالد بن يزيد، وابن المعتز، وأسامة بن منقذ، وهؤلاء مجرد أمثلة على الماشى، فما بالنا بغير الحكام؟ أما أن عدد العلماء العرب قليل

فهو الأمر الطبيعي المنتظر لأن نسبتهم إلى رعايا الدولة الإسلامية الشاسعة ضئيلة جدا كما هو معروف ومفهوم. وأخيرا هل هناك عن العرب أقوال يحطون فيها من شأن العلم؟ لكل هذا نرى أن ما قاله ابن خلدون لا ينال من العرب فى شىء، وهذا لو صح، وهو غير صحيح.

وليس ثم فرق فى هذه النقطة بين العرب وغيرهم من الأمم، فكل الأمم تتعلم ممن سبقوهم، وتأخذ منهم المشعل فتحمله وتعُنى به وتغذيه بالزيت. . . إلى أن يئين الأوان فتنهض له أمة جديدة تأخذه بدورها ممن كان معها وتحمله كما حملته وتغذيه بالزيت كما غذته، لا تختلف أمة عن أمة فى ذلك بما فيهم الغربيون، الذين قد يظن جهلة الناس أنهم لم يتعلموا من أحد، نظرا إلى التقدم الشاسع الذى أحرزوه فى مجال العلم. بيد أن هذا لا ينبغى أن يعمينا عن الحقيقة التى لا يسع أى عالم ولا يليق به أن يجهلها، وهى أن الأمم اللاحقة تتعلم من الأمم السابقة. ولقد قالها ابن قتيبة بحق حين رد على من يحقرون من شأن العرب فى ساح العلم، إذ أكد أن "كل ما يعلمه أهل فارس فهم له متعلمون، وفيه لغيرهم متبعون، ولأعقاب الأمم واطئون. فإن نحن سألنا عن قدماء الأطباء دُلِلنا على أبقراط وجالينوس. وإن سألنا عن أول علم النجوم والحساب دُلِلنا على كتاب إقليدس وكتاب "المجسطى". وإن سألنا عن حد المنطق دُلِلنا على كتاب "الموسيقى". وهذا كله للروم واليونان، وليس لأهل فارس فيه إلا ما لغيرهم من القابسين المستفيدين"[1]. على أن نفهم من ذلك أن فارس لا تنفرد بذلك، بل كل البشر فيه سواء، وأن علماء الإغريق لم يكونوا أوائل العلماء، بل سبقهم علماء مصر وبلاد الرافدين مثلا. ولقد تعلم العرب من الأمم التى سبقتهم علوما وفنونا كثيرة مثلما تعلمت منهم الأمم الأخرى، ثم أضاف العرب الكثير إلى ما تعلموه، وأبدعوا واخترعوا ما لم يكن له وجود من قبل. وعلى هذا النحو لا سواه يتم تقدم العلم، بل لا يتم تقدم أى شىء فى الدنيا إلا به.

وأما بالنسبة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس" فإنه بُشرى بانتشار الإسلام ودخول الفرس فيه ومشاركتهم فى صنع حضارته المجيدة لا انفرادهم بذلك، وإلا فمعنى هذا أن غير الفرس من عناصر الدولة الإسلامية كانوا عناصر جهل، والعياذ بالله. لقد اشترك كثير من العناصر فى صنع تلك الحضارة، ولم ينفرد بها عنصر واحد لا فارسى ولا غير فارسى كما هو معلوم. وما دام الحديث قد تطرق إلى النحاة وزعم ابن خلدون أن أعلام النحاة هم سيبويه والفارسي والزجاج، وكلهم عجم في أنسابهم، فأين هو من أبى الأسود الدؤلى وأبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدى وقطرب وأبى عثمان المازنى والمبرد وأبى عُبيد القاسم بن سلام وأبى بكر ابن الأنبارى وغيرهم؟ وقد اقتصرت على النحاة الأوائل حتى يكون كلامى عدلا لكلام ابن خلدون، إذ هو اقتصر على النحاة العجم الأوائل. ولو أردنا أن نمضى فنتناول ميادين بعض العلوم الأخرى فأمامنا من

---

[1] ابن قتيبة/ فضل العرب والتنبيه على علومها/ ٢٠٥.

الفقهاء الشافعى ومالك وابن حنبل وداود الظاهرى، وكلهم عرب. ومن الفلاسفة المشهورين نجد الكندى وابن طفيل وابن رشد وابن باجة عربا. ولا ننس أن ابن خلدون نفسه قائل هذا الكلام العجيب ومبدع علم الاجتماع عربى لا أعجمى. أما التعلل بأن العرب كانوا هم أصحاب الدولة، ولم يكن عندهم من ثم وقت لطلب العلم، فدعوى متهافتة لا تثبت على المحك، إذ معناه، حتى لو صدقناه، وما نحن بمصدقيه، أن كل عربى كان يتولى عملا من أعمال الدولة، وأن كل أعجمى كان ممنوعا من ذلك، وهو غير صحيح البتة، ولا يحتاج إلى إثبات، فالشمس أظهر من أن تحتاج إلى دليل. ولقد كان هناك رجال دولة، وهم فى نفس الوقت من أهل الفكر والأدب كابن العميد وابن عباد وسهل بن هارون وابن المعتز وأبى الفدا وابن منقذ والقاضى الفاضل وغيرهم.

وقد علق ساطع الحصرى على ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته للتنقص من شأن العرب، فأكد أن المقصود بلفظ "العرب" فى كلام ذلك المؤرخ إنما هم "الأعراب"، إذ كان ذلك هو معنى الكلمة فى عصره، فضلا عن أن السياق الذى يستخدم فيه المفكر الكبير كلمة "العرب" لا يمكن أن يسمح بأن يكون المقصود هو جنس العرب قاطبة. ثم ساق الحصرى عددا من الأمثلة للتدليل على ما يقول. ولا شك أن الأمثلة التى ساقها الحصرى تدل على ما يريده فعلا، وبخاصة حين نرى الحديث لدى ابن خلدون فى تلك الأمثلة إنما يدور حول ناس يعيشون فى الخيام وينصبون الأثافى لحمل القدور ويخربون الأبنية من أجل الحصول على بعض الأحجار أو الأخشاب لغرض الطبخ . . . إلخ. ونحن فى مصر أيضا نستعمل هذه الكلمة الآن للدلالة على طائفة من سكان مصر تعيش فى الصحراء على أطراف المناطق الزراعية وتعرّج بين الحين والحين، ولأسباب وقتية، على تلك المناطق ولا تبقى فيها إلا ريثما تنتهى من حاجتها هناك. إلا أن هذه الأمثلة ليست هى كل شىء فى مقدمة ابن خلدون. كذلك فكلام ابن خلدون عن تخلف العرب فى ميدان العلوم لا يمكن أن يكون الأعراب هم المعنيين به، إذ هو يضع العرب فيه مقابل الأعاجم، علاوة على أن البدو لا يشتغلون بنحو ولا طب ولا فلسفة ولا فقه ولا حديث، فهؤلاء مهمتهم الرعى لا الكتابة والتأليف.

فمن الواضح الذى لا تمكن المماراة فيه إذن أنه يقصد الجنس العربى على بَكْرَة أبيه لا عرب البادية وحدهم. وعلى ذلك فإن تأكيد الحصرى القاطع بأنه درس المقدمة الخلدونية من أولها إلى آخرها ووقف تلقاء ثمانين موضعا من المواضع التى استخدمت فيها كلمة "العرب" فتيقن أنها تعنى "البدو"، والبدو وحدهم، ومن ثم فابن خلدون فى سائر المقدمة لا يستخدمها إلا بهذا المعنى، هو تأكيد فى غير محله. والنص الذى نحن بصدده موجود تحت بصر القارئ، ولا أظنه يسير فى الاتجاه الذى يؤكد الحصرى أن كل

كلمات "العرب" فى تلك المقدمة تسير فيه. ومن الطريف الذى له دلالته أن ساطع الحصرى، رغم تعدد الأمثلة التى طرحها للبرهنة على صحة ما يقول، لم يقترب قط من النص الذى بين أيدينا[١].

وأنا، حين أقول هذا، لا أقوله تعصبا لعروبة الدم والجنس، فأنا فى أغلب الظن لست عربيا بهذا المعنى، بل قلته دفاعا علميا مجردا عن جهود العرب العظيمة فى ميادين الثقافة والعلم، وإن كنت لا أدعى أنهم وحدهم هم أصحاب الإنجازات الثقافية الإسلامية، بل شركهم فى ذلك جميعُ الأمم التى دخلت الإسلام، علاوة على غير المسلمين ممن استظلوا براية الحضارة الإسلامية. ومع هذا كله فإن العرب هم من هيأوا الظروف لتلك الأعمال العظيمة بتسامحهم وحبهم للعلم ومعرفتهم أنهم مأجورون من ربهم على كل ما يبذلونه من جهد فى هذا السبيل ولما كانوا يشعرون به من لذة راقية لا تقدر بثمن حين يقرأون، وحين يكتبون ويؤلفون، وهى نفس اللذة التى أحسها فى كل كيانى الآن رغم أننى لم أنم منذ يومين سوى ساعتين ورغم شدة الإرهاق الذى يزعجنى وأغالبه ويغالبنى، ولا يغيب عن وعيى إلا عندما تسخن "الطاسة": طاسة دماغى انفعالا بفكرة أديرها فى ذهنى أو أسجلها على الكاتوب أمامى، فحينئذ أنسى هذا الإرهاق، ويتحول الأمر إلى سعادة نقية قلما أخبُرها فى حياتى.

وفى نهاية المطاف أود التعرض لما قاله حِتّى عن المكانة العظيمة التى اكتسبتها بغداد فى عهد العباسيين، وكيف أنها فى ذلك تدين دينا كبيرا للثقافات الأخرى التى ترجمت أهم تراثها من هيلينية وسريانية وهندية وفارسية، إذ كان نصيب العربى المسلم أوانئذ من الفلسفة والعلوم نصيبا جد محدود، وإن كان هناك الذكاء الطبيعى الذى أظهره العرب فى تلك الفترة التاريخية من حضارتهم واصطحبوه معهم من الصحراء التى أتّوا منها. وهذا كله جميل ولا اعتراض لنا عليه. بيد أن هناك نقطتين لا يمكن أن أغفل الحديث عنهما: الأولى أن حِتّى، فى معرض كلامه عن عوامل النجاح العربى فى اكتساب مثل تلك المكانة العالمية الرفيعة، قد اقتصر على العامل الأجنبى، أى عامل الترجمة، وعلى الذكاء العربى الفطرى، مهملا أهم عامل فى الواقع، ألا وهو الإسلام، الذى يحض على التأمل والعلم ويوجب السعى لاكتسابه، مما لا تعرفه حتى الآن أية حضارة إنسانية، إذ كل ما توصلت إليه الحضارة الغربية فى العصور الحديثة هو أن العلم حق. ومعروف أن صاحب الحق قد يتنازل عنه ولا يهتم بأخذه، فضلا عن النضال من أجله، بخلاف ما لو كان واجبا لا بد له من القيام به، زيادة على أن طالب العلم مأجور على جهوده من الله، مما لا تضعه الحضارة الحديثة فى حسابها. فهنا نلاحظ أن الفرق ضخم جدا كفرق السماء من الأرض.

---

١ انظر الفصلين التاليين: "العرب فى مقدمة ابن خلدون" و"عود إلى مسألة العرب فى مقدمة ابن خلدون" فى كتاب أبو خلدون ساطع الحصرى: "آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع" (مركز دراسات الوحدة العربية/ بيروت/ ١٩٨٥م/ ١١٩-١٢٩).

والنقطة الثانية هى قوله إن الإسلام قد فقد الشيء الكثير من ملامحه الأصلية التى تنفح بأنفاس الصحراء ويغشيها الطابع العروبى. ترى ماذا يقصد الكاتب بكلمة "الإسلام"، ذلك الذى فقد الكثير من ملامحه. . إلخ؟ هل يقصد "الإسلام الدينَ"؟ لكن "الإسلام الدين" لم يتغير فى شيء البتة: فنصُّ القرآن باقٍ كما هو دون أن تمتد له يد بتغيير حرف واحد منه. أما الأحاديث فقد خضعت لغربلة مرهقة نجحت فى تخليصها من زؤان كثير واحتفظت بها نقية إلى أقصى مدى يمكن لجهد بشرى أن يبلغه. ومن هنا فعقيدة الإسلام الوحدانيّة وعباداته الأصلية وقيمه الأخلاقية وتشريعاته الاجتماعية والاقتصادية والدولية هى هى لم تتغير. وإلا فليذكر لنا النصوص التى حدث لها مثل ذلك التغيير. أما إطلاق الكلام دون التفطن إلى عواقبه، أو مع التفطن بل القصد لسيئ عواقبه، فغير مقبول. لقد كان العرب فى معظمهم وثنيين، فهل استحال الإسلام وثنيا حتى يتلاءم وعقلية جموع العرب؟ كذلك كان كثير من قبائل العرب يريدون إسقاط الزكاة بعد موت الرسول، فهل نزل الصدّيق على هواهم؟ كما أن واحدا كعمر بن الخطاب لم يستوعب فى بداية الأمر أن الرسول قد مات، وهدَّد من يقول ذلك بعقاب صارم، فهل حذف الصحابة من القرآن تلك النصوص التى تشير إلى موت الرسول عليه الصلاة والسلام وأشاعوا بدلا منها عقيدة أخرى تقول إن الرسول لم يمت بل ذهب للقاء ربه، وسوف يعود يوما؟ هل أبيح الزنا أو الخمر أو الكذب أو الربا مثلا؟ بطبيعة الحال لم يحدث شيء من هذا، ومن ثم فهذا الفرض ينبغى استبعاده. أم هل ترى فيليب حِتّى يقصد "الإسلام كثقافة"؟ لكن هل يصح استعمال الكلمة فى هذا المعنى، أى فيما خلفه المسلمون وراءهم من كتب ودراسات؟ لقد كان ينبغى فى هذه الحالة أن يقول المؤلف إن المسلمين قد تطوروا وصاروا يعرفون الفلسفة والعلوم الطبيعية بعد أن لم يكن لديهم من هذا شيء يذكر، بدلا من أن يكتب ما يُفهَم منه أن الإسلام ذاته قد تغير، وهو ما لم يحدث، لأن نصوص الإسلام من قرآن وحديث باقية كما هى بعد جمعها لم تعرف عبث الأيدى بها[١].

إذن فمن الخطأ أن يصف حِتّى الدين الذى أوحاه الله إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام بأنه ينفح بأنفاس الصحراء. ذلك أنه ليس دينا صحراويا ولا جاء للبيئة الزراعية أو الصناعية أو للطبقة الفلانية أو العلانية أو الترتانية وحدها، بل هو دين يصلح لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ولعصرنا وللعصور القادمة إلى يوم يبعثون، وللمجتمع البادية كما هو لمجتمع الريف مثلما هو للمجتمعات الصناعية، ولجميع الطبقات من فقراء وأغنياء وفلاحين وعمال ومديرين ومدرسين ووزراء وحكام ورجال ونساء وصغار وكبار . . . باختصار: إنه دين عالمى، ومن ثم كان وصفه بأنه دين صحراوى سخف لا يصح، وإلا فكيف يفسر حِتّى أو غير حِتّى انتشار الإسلام فى الشام والعراق وبلاد فارس وأواسط آسيا والهند والصين وشمال أفريقيا وتحت الصحراء؟ ثم كيف يفسر انتشاره فى أوربا وبقاءه فى جزء كبير منها ثمانية

---

[١] انظر فى ذلك ص٩٧– ٩٩ من كتاب حتّى: "The Arabs: A Short History".

قرون، ثم انتشاره أيضا فى بلاد البوشناق، ثم عبوره الأطلسى إلى أمريكا، وعبوره المحيط الهندى إلى أستراليا، وإقبال الغربيين عليه هذه الأيام بأعداد كبيرة بما فيهم الوزراء والسفراء والمفكرون واللاعبون والصحفيون والقساوسة والطلاب وأساتذة الجامعة والفنانون وأخت زوجة تونى بلير ذاته مع كل تعصبه الذى لخصته تلك السيدة حين قالت تصف رد فعله على دخولها الإسلام: "إن تونى بلير هو تونى بلير"، فضلا عن القلق المَرَضِىّ الذى يعترى الغربيين بسببه منذ فترة رغم ما يعانيه المسلمون فى كل مكان على أيدى الغربيين أنفسهم من هوان، ورغم مخططات أولئك الغربيين لإبادته أو فى أقل القليل: لتحجيمه وحصاره ومنعه من النمو، بل من التنفس ذاته؟ لا لن يستطيع حِتّى أو غير حِتّي أن يفسر لنا ذلك فى ظل صحراوية الإسلام المزعومة، تلك الصحراوية التى يكرر بها ما كان يهرف به العِلج البريطانى كرومر عميد الاحتلال الإنجليزى فى أم الدنيا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ قال: "إن الإسلام دين صحراوى، وإننا لا أمل لنا إلا فى المتفرنجين الذين يكونون بمثابة أيد عربية بعقول أوربية"[١].

---

[١] نقلا عن شوقى أبو خليل من كتابه: "موضوعية فيليب حِتّى فى كتابه: تاريخ العرب المطول" (دار الفكر/ دمشق/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م/ ١٤).

ملاحظات على كتاب حِتّي

هذه ملاحظات وتعقيبات نابعة من قراءتي لكتاب حِتّي لا يستطيع أي منها أن يشغل فصلا خاصا به لقِصَره. وأول ما أبدأ به قول حِتّي إن مطالبة الأقطار العربية بالاستقلال القرن العشرين هو ما يبعث على الابتهاج. لقد كان المسلمون حينا طويلا من الدهر تضمهم جميعا دولة واحدة، بل إنهم عندما توزعتهم أكثر من دولة كما حدث حين انفصلت الأندلس عن جسد الدولة الإسلامية الأم كانت الدولة الإسلامية الأم دولة كبرى بل عظمى بكل المقاييس، ثم انقلبت الأحوال فاحتل الغرب معظم بلادهم وصاروا في ذيل الأمم، وفقدوا استقلالهم وعزتهم وأصبحوا متاعا يتصرف فيه الغربيون كما يحلو لهم. . . ثم ها هم أولاء في بدايات القرن العشرين يهبون مطالبين بالاستقلال: كل وطن من أوطانهم على حدة، ولا تربطه سياسيا أية رابطة بغيره من بلاد العرب أو الإسلام، فيعد حِتّي ذلك الأمر مما يبعث على الابتهاج[1]. ولكن أي ابتهاج حقيقي يبتهجه صاحب الثروة الهائلة المسروقة حين يقال له: أبشِر، فإنك عما قريب سوف تحصل من ثروتك على بضعة ملاليم؟ أقصد أنه كان ينبغي أن نعمل بكل قوانا وعزيمتنا على قيام وحدة بين المسلمين حتى لو كانت على مراحل. المهم أن تكون هذه الغاية في ذهننا دائما مهما تكن العقبات التي توضع في طريقها، وما لا يُدرَك كله لا يُترَك كله، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة.

وفي الفصل الأول أيضا من الكتاب يقول حِتّي إن الإسلام في صورته الأصلية إنما يمثل الكمال المنطقي للديانة السامية[2]. فهل الإسلام فعلا هو دين سامي كما يصفه حِتّي حتى لو أضاف أنه هو الكمال المنطقي لتلك الديانة، وهو ما يدغدغ عواطف بعض المسلمين؟ لا أقصد أنه كان على فيليب حِتّي أن يعلن إيمانه بدين محمد عليه الصلاة والسلام وأنه دينٌ عالميٌّ لا ساميٌّ فقط، إذ هذا شأن شخصي لا يمكن أحدا أن يتدخل فيه، بل أقصد أنه كان عليه أن يفكر قليلا في واقع تاريخ الإسلام: لقد رفض اليهود مثلا الإسلام رفضا شرسا، ثم بين الحين والحين كان شخص من اليهود يخرج على هذا الموقف الجماعي المتصلب ويعلن انضمامه إلى النبي العربي الكريم، مثل عبد الله بن سبأ مثلا في عصر النبي، والسموأل بن يحيى بن عباس المغربي في القرن السادس الهجري، وكان في الأصل حاخاما، ومحمد أسد ومريم جميلة في عصرنا. كذلك لا ينبغي أن ننسى أن معظم العرب، والعرب ساميون كما يقولون، قد احتاجوا إلى وقت طويل قبل أن يقروا بصحة الإسلام ويرددوا الشهادة بأن محمدا نبي حقيقي من عند الله رب العالمين. ومن الناحية الأخرى لقد فتح الإسلام بلادا وعقولا وقلوبا وضمائر كثيرة غير سامية، وإلا فكيف يفسر مؤرخنا اعتناق شعوب أواسط آسيا وبعض الشعوب التي في شرقها لذلك الدين الكريم؟ وبالمثل كيف

---

[1] ص١ – ٢.

[2] ص٥.

يفسر مؤرخنا اعتناق بعض شعوب أوربا لذلك الدين، كالأيبيريين أيام حكم المسلمين للأندلس، والبشناق والألبان منذ أيام حكم العثمانيين لشرق أوربا حتى الآن؟ وكيف يفسر مؤخنا اعتناق الملايين من شعوب أوربا وأمريكا وأستراليا له فى العصر الحديث رغم ضعف المسلمين المزرى بل المخزى؟ إن نظرة سريعة واحدة لكفيلة، لمن ابتغى الحق، بتصحيح الخطأ الذى ردده فيليب حتى. وهو تصحيح لا يحتاج إلى أن يكون الإنسان مؤرخا مثل حتى، بل كل ما يحتاجه أن يجيل عينه إجالة خاطفة لا تستغرق نصف دقيقة فى خريطة انتشار الأديان على الكرة الأرضية. فلم يا ترى لم يفعلها حتى؟ كذلك لو وقفنا أمام إعلان النبى محمد عليه الصلاة والسلام أنه نبى عالمى لا تقتصر رسالته على قومه بل هى للناس جميعا من عصره إلى يوم القيامة لا ستبانت لنا الحقيقة التى يحاول حتى عبثا أن يتجاهلها، إذ من الممكن تمحيص هذا الإعلان النبوى الكريم بترديد النظر سريعا فى قيم ذلك الدين وعقيدته، والتفكر فى مدى سامية تلك القيم والعقيدة أو عالميتها؟ هل النبى العربى مثلا أعلى من شأن قومه على بقية الأقوام؟ هل تأثر بالبيئة العربية فيما نادى به؟ أبدا، بل كان كل ما أعلنه تقريبا مناقضا لما يؤمن به العرب قبل مجيئه ويتصرفون طبقا له ويطمحون إليه. كما أكد صلى الله عليه وسلم مرارا أن العرب لا يفضلون غيرهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، أى بمدى استمساكهم أكثر من غيرهم بهذا الدين. وهذه نظرة تناقض الشعور والتعصب القومى مناقضة بلقاء بحيث لا يستطيع معه أى ممار أن يفكر فى المماراة بشأنه إلا إذا كان قد فقد عقله! ترى هل يقول الإسلام بإله خاص بالعرب وحدهم كما هو الحال عند بنى إسرائيل، الذين يتصورون أن الله إلههم الخاص؟ هل يأمر الإسلام بشن حرب مبيدة على من لا يريدون اعتناقه؟ بالعكس لقد أمر أتباعه ألا يعتدوا على أحد إلا إذا اعتدى هذا الأحد عليهم؟ هل يوجب الإسلام على المؤمنين به ألا يتركوا حيا أى إنسان أو حيوان ينتمى إلى من يحاربهم كما نقرأ فى العهد القديم؟ أبدا بكل يقين. هل بارك الإسلام حالة الأمية والجهل التى كان عليها العرب أيام النبى عليه السلام؟ أبدا، بل أوجب على كل مسلم ومسلمة أن يسعى فى طلب العلم إيجابا، ولم يكتف بجعل التعليم حقا من حقوق الفرد. وشتان بين الواجب والحق. هل دعا الإسلام إلى الاستبداد أو رضى به مجرد رضا؟ أبدا، بل جعل الشورى سياسة واجبة الاتباع فى الدولة الإسلامية. هل جار الإسلام على حقوق المرأة؟ أبدا، بل بوأها مكانة كريمة سامقة ليست موجودة فى أى مكان. هل أعنت الإسلام معتنقيه فى عباداته أو معاملاته أو أخلاقياته؟ أبدا، بل السماحة الشاملة هى مبدؤه فى هذا السبيل.

وفيما يخص النبى محمدا عليه الصلاة والسلام نجد فيليب حتى لا يرضى أن يمر حديثه عنه فى الفصل المخصص له دون أن يلقى بعض بذور الاسترابة. ومن بينها أن أم النبى قد سمته باسم قد يظل مجهولا إلى الأبد، أما "محمد" فهو الاسم الذى عرف به فى القرآن لا الذى سمته به أمه، وإن كان قد سمى

فيه أيضا مرة واحدة باسم "أحمد"[١] . والحق أننى لا أدرى السر فى غرام بعض الكتاب بالوقوف عند اسم النبى والتشكيك في أن يكون اسمه "محمدا" حقا . أهو اسم مستحيل فى تلك البيئة؟ هل هناك رواية أخرى أكثر موثوقية تقول بأنه كان يسمى باسم آخر؟ لا هذا ولا ذاك. فلِمَ يحرص جِنّى إذن على ذلك التشكيك؟ ولن نقف لدن قول جِنّى إن آمنة هى التى سمت ابنها رغم أن ما يذكره التاريخ هو أن جده هو الذى سماه لا اباها .

فأما أن الجاهليين كانوا يسمون أولادهم باسم "محمد" و"أحمد" فدونك ما قاله ابن دريد مثلا فى كتاب "الاشتقاق": "وقد سمّت العربُ في الجاهلية رجالاً من أبنائها: محمدا، منهم محمدَ بن حُمْرانَ الجعفي الشاعر، وكان في عصر امرئ القيس بن حُجْر. . . ومحمّد بن بلال بن أُحيحة بن الجُلاح. . . ومحمّد بن سفيانِ بن مُجاشع بن دارم، ومحمَّد بن مَسْلمة الأنصاري. . . وأبو محمَّد مسعودُ بن أوس بن أصْرَم بن زيد بن ثعلبة، شَهِد بدرا. ومحمد بن خَوْلَيّ، وخَولي: بطنٌ من هَمْدان. وقد سَمَّت العربُ في الجاهليّة "أحمد". منهم أحمد بن ثُمامة بن جَدْعاء: بطنٌ من طيِّئ، وأحمد بن دُومان بن بَكِيل: بطنٌ من هَمْدان، وأحمد ابن زَيْد بن خِداش: بطن من السَّكاسِك. وبنو أحمد: بطنٌ من طيِّئ. ويَحْمَد: بطنٌ من الأزد. ويُحْمِد: بُطَيْن من قضاعة. وسمَّوا "حامدا" و"حُمَيْدا". . . وسَمَّوا "حُميدانَ" و"حَمّادا". . .".

وجاء فى "الوافى بالوفيات" لصلاح الدين الصفدى، فى "باب محمد"، وتحت عنوان "المُسَمَّوْن بمحمد في الجاهلية": "كان النصارى وبعض العرب يخبرون بظهور نبي اسمه "محمد" من العرب، وكانوا يسمون أبناءهم: "محمدا" رجاء أن تكون النبوة فيه: فمنهم محمد بن سفين بن مجاشع بن دارم التميمي، ومحمد بن وبْر أخو بني عوارة من بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومحمد بن أُحَيْحَة بن الجلاح الأوسي أخو بني جحجبا، ومحمد بن خزاعي السامي، ومحمد بن حمران بن مالك الجعفي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري أخو بني حارثة". وما دام اسم "محمد" معروفا للعرب فى الجاهلية على النحو الذى رأينا، فما وجه الغرابة فى أن يكون اسم النبى "محمدا"؟ ولقد كان هذا أساسا ارتكن إليه كاتب مادة "محمد" فى "دائرة المعارف الإسلامية" الاستشراقية فى طبعتها الأولى، وهو المستشرق الدانماركى بوهل، فى الرد على من يزعمون أن اسمه عليه السلام فى البداية كان شيئا آخر غير "محمد"، إذ كان رأيه أن هذا الاسم قد ورد عند العرب من قبل كما جاء عند ابن دُرَيْد وابن سعد، وعلى ذلك فليس من الضرورى القول بأن اسم "محمد" هو لقب اتخذه النبى فى فترة متأخرة من حياته صلى الله عليه وسلم[2] . ومعروف أن بوهل هذا كان يتلظى بغضا للإسلام رغم ذلك.

---

[١] ص٢٤.

[2] Shorter Encyclopaedia of Islam, Edited by Gibb & Kramers, Brill, Leiden, 1953, P. 391 left column.

وقالت الشاعرة المخضرمة ابنة الضحاك بن أبى سفيان تقرّع عباس بن مرداس لاعتناقه "دين محمد": هكذا نصا بما يدل على أن هذا هو اسمه فعلا لا ادعاء من جانبه، وإلا لاستعملت تلك الشاعرة المشركة اسمه الحقيقى: أليس كذلك ؟:

ألم ينه عباسَ بن مرداس أنني * رأيتُ الورى مخصوصة بالفجائع ؟
أتاهم من الأنصار كل سميذع * من القوم يحمي قومه في الوقائع
لعمري لئن تابعتَ دينَ محمدٍ * وفارقتَ إخوانَ الصفا والصنائع
لبدّلتَ تلكَ النفسَ ذلا بعزّةٍ * غداةَ اختلاف المرهفاتِ القواطعِ
وقومٍ همُ الرأس المقدّمُ في الوغى * وأهلُ الحجا فينا وأهلُ الدسائعِ
سيوفهمو عزّ الذليل، وخيلهم * سهامُ الأعادي في الأمور الفظائعِ

ولأن اسمه كان حقا "محمدا" فقد رأينا أم جميل زوجة عمه أبى لهب تهجوه باسم "مذمّم" بوصفه النقيض لـ"محمد" . أليس كذلك أيضا ؟ جاء فى "السيرة النبوية" لابن هشام: "ذُكِر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعتْ ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فِهرٌ من حجارة. فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. أما والله إني لشاعرة! ثم قالت:

مُذمَّمًا عصينا * وأمرَه أبينا
ودينَه قَلَينا"

ولا يعقل بطبيعة الحال أن يذكر المسلمون فى حق النبى كلمة "مذمّم" من اختراعهم. ذلك أنها تسيء إليه صلى الله عليه وسلم أشد الإساءة، ولا يمكن أن يفكر مسلم فى الإساءة إليه.

وأما أن هناك رواية باسم آخر له أوثق من تلك التى تقول إن اسمه "محمد" فلا توجد مثل تلك الرواية. وعلى أية حال فلماذا لم نسمع أحدا من المشركين فى مكة أو من اليهود والمنافقين فى المدينة أو من المرتدين بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أو من نصارى العرب أو من الروم أو الفرس يذكر أن اسمه الحقيقى لم يكن "محمدا" ؟ لقد اتهمه المشركون بكل نقيصة فقالوا عنه: ساحر ومجنون وكذاب ويكتتب أساطير الأولين، وحاولوا النيل من قدره بقولهم: لقد كان ينبغى أن ينزل القرآن على رجل من مكة أو الطائف عظيم (أى غنى ذى سلطان وسطوة) لا على محمد . كما كانوا يسمونه على سبيل التنقص بـ"ابن أبى كبشة" إشارةً إلى أحد أجداده الأولين، وكان ينكر عبادة الأصنام ويعيبها ويطعن على أهلها، وكان يكنى: "أبا كبشة"، فشبهوا النبي صلى الله عليه وسلم به على ما ذكره البلاذرى عند ترجمته لعبد الله بن

عبد المطلب والد الرسول عليه السلام فى "أنساب الأشراف" . وفى المدينة رأينا المنافقين يقولون عن الرسول والمهاجرين من أتباعه المخلصين: سَمِّنْ كلبك يأكلك ! وأشاعوا الإفك على زوجته الشريفة العفيفة الكريمة، وتآمروا على قتله. كما كان اليهود يعترضون على كل شيء فى دينه، حتى لقد كانوا يتهكمون بالصلاة والأذان ويتخذونهما هُزُوًا ولعبًا، ويسخرون من دعوة القرآن إلى إقراض الله قرضا حسنا قائلين: "إن الله فقير ونحن أغنياء"، ويجدفون فى حقه سبحانه واصفين إياه بأن يده مغلولة. بل لقد ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا لأهل مكة المشركين إن وثنيتهم خير من التوحيد، الذى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم! فهل تراهم كانوا يسكتون لو أن الرسول غير اسمه إلى "محمد" كما يهرف جرى، وبخاصة أن من يقولون هذا إنما يرمون، فيما هو واضح، إلى الزعم بأنه قد فعله كى يطابق اسمُه الاسمَ المبشَّر به فى الإنجيل؟

ثم إن الموجود فى كتب التاريخ والسيرة والأشعار والقرآن والأحاديث العربية والأجنبية أنه "محمد"، وأنه كان يستعمل هذا الاسم فى معاهداته مع أعدائه من المشركين واليهود. ألم يوقع معاهدة الصحيفة مع هؤلاء غِبَّ هجرته مباشرة إلى يثرب بهذا الاسم؟ وهذه هى السطور الأولى من تلك الصحيفة كما نقلها ابن هشام عن ابن إسحاق: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. . .". ثم ألم يوقع عليه السلام صلح الحديبية مع كفار قريش بذلك الاسم أيضا على ما هو معروف؟ جاء مثلا فى "المغازى النبوية" لابن شهاب الزهرى أن رسول الله لما أملى على كاتب المعاهدة كلمة "بسم الله الرحمن الرحيم" اعترض سهيل بن عمرو مفاوض المكيين واقترح أن يكتب بدلا من ذلك "باسمك اللهم"، مثلما اقترح صيغة "محمد بن عبد الله" بدلا من "محمد رسول الله"[١]. فلو كان اسم الرسول شيئا آخر غير محمد لكانت فرصة لسُهَيْل كى يلقن النبى والمسلمين درسا لا ينساه الناس مدى الدهر ولأصر على أن تكون الصيغة التى ينبغى إثباتها فى الاتفاقية هى ذلك الاسم الحقيقى. أليس ذلك كذلك؟

وبالمثل كان صلى الله عليه وسلم يستعمل اسم "محمد" فى رسائله إلى الملوك والزعماء من حوله قائلا فى ديباجة الخطاب: "من محمد رسول الله إلى قيصر، أو إلى كسرى. . ."، فكيف لم يعترض أى من هؤلاء على ذلك التغيير، وبخاصة أنه إنما بعث لهم بتلك الرسائل كى يدعوهم إلى دينه، وفى هذا التصرف من الجرأة ما فيه مما كان حريًّا أن يدفعهم إلى الرد عليه بتلك الطريقة المحرجة؟ يقينا لو أن الأمر على ما يدّعى جرى لما سكت أولئك الملوك والزعماء ولأشبعوه تهكما وتشنيعا ! ولقد كان أبو سفيان حاضرا

---

[١] ابن شهاب الزهرى/ المغازى النبوية/ تحقيق د. سهيل زكار/ دار الفكر بدمشق/ ١٤٠١هـ- ١٩٨١م/ ٥٤- ٥٥، وغيرها.

مجلس العاهل البيزنطى الذى نوقشت فيه رسالة النبى له يدعوه إلى الإسلام. تلك الرسالة التى تبدأ كالعادة بقوله: "من محمد رسول الله. . ." . فلو لم يكن اسمه صلى الله عليه وسلم "محمدا" لاهتبلها الزعيم القرشى الذى كانت بينه وبين الرسول فى ذلك الوقت ثارات وحروب وكان قلبه يتلظى نحوه بغضا. ولفضحه قائلا: "إنه لا يدعى: "محمدا" حسبما يزعم فى رسالته"، ولكانت تلك حقا لمحمد قاصمة الدهر. ثم ما وجه الغرابة فى أن يكون اسم النبى هو فعلا "محمدا" كما نعرف جميعا وكما تقول الروايات ويقول الناس كلهم ويقول القرآن ويقول الرسول نفسه؟ إن مثل هذه الأمور لا ينبغى أن تخضع لنزوة كل ناز، بل ينبغى أن تحكمها المنهجية العلمية الصارمة.

وثَمَّ حديث أورده الدكتور فيليب حِتّى فى كتابه، ونَسَبَه إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهو حديث غير صحيح بل موضوع، وهذا نصه: "العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان". صحيح أن العلم فى الإسلام لايعرف التفرقة التى يقول بها بعض المتدينين من أن العلم الواجب فى الإسلام هو العلم الدينى: يقصدون الفقه والتفسير والحديث والتوحيد وما إلى ذلك، أما علوم الطب والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفضاء وما أشبه فلا تهم الدين كثيرا، وليست هى المقصودة بالنصوص القرآنية والحديثية التى تحث على السعى فى تحصيل العلم وتجعله فريضة من الفروض. ويكفى أن أحيل إلى الشيخ محمود شلتوت وما كتبه مثلا فى كتابه: "من توجيهات الإسلام" عن خطورة القراءة فى الإسلام وعدم اعتداد ديننا بالذين لا يقرأون، وكيف أن الإسلام فى حديثه عن العلم لا يقصد علما دون علم، بل العلوم كلها لديه سواء فى الأهمية والخطورة[1]. وهو نفسه ما نجده عند الشيخ محمد الغزالى فى كتابه: "خلق المسلم"[2].

ومصداق ما أقول أننى منذ ليلتين كنت مارا أمام حجرة ابنتى فوجدتها تستذكر وتقرأ دروسها فى مادة "الفيزياء" فى الثانوية العامة، فقلت لها: إن الملائكة حاضرة معك الآن تسجل ما تفعلين وتضع أجنحتها لك رضا بما تصنعين. فاستغربت ذلك قائلة: لكن هذا إنما يصدق على علوم الدين. فقلت لها: العلم فى الإسلام شىء واحد له ذات الأهمية رغم اختلاف التصنيفات وتوزيع التخصصات تبعا لاهتمامات الدارسين والعلماء وقدراتهم ومواهبهم. فكأنها انتعشت لما سمعت، وسُررْتُ أنا بدورى لالتفاتتى هذه الالتفاتة التى لا أذكر أننى نبهتها إليها من قبل على هذا النحو، وإن كان علىّ أن أعترف بأننى لم أعد أنجح معها بنفس النسبة التى كنت أنجحها من قبل حين أدعوها إلى قراءة بعض الكتب التى أرشحها لها. لقد كانت قبل هذا تسارع إلى القراءة بتحمس وسرور، أما الآن فإنها بعد أن تقرأ كتابين أو ثلاثة تقول لى: لكنى أفضل مشاهدة التلفاز والتعلم منه. فأجيبها: أَوَيليق بابنة فلان أن تقول هذا الكلام؟

---

[1] انظر محمود شلتوت/ من توجيهات الإسلام/ ط٨/ دار الشروق/ القاهرة/ ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م/ ١٢٠– ١٢٤

[2] انظر محمد الغزالى/ خلق المسلم/ نهضة مصر/ القاهرة/ ٢٠٠٢م/ ٢٠١.

لا ريب أن فى التفاز علما، لكنه فى الغالب علم بسيط وسطحى وغير مرتب ولا يبقى منه فى الذهن عادة إلا الفتات، ولا يصلح فوق ذلك للبناء عليه بما يدفع النشاط الحضارى إلى الأمام، فضلا عن أنه لا يبقى فى الذاكرة طويلا، كما لا يمكن استعادته لتثبيته أو تثبيت أهم عناصره فى العقل حتى يمكن أن نرتفع ببنائه إلى الأعالى.

ويبدو أننى نجحت هذه المرة لأنها عادت إلى قراءة كتاب المنفلوطى الذى كانت قد اختارته بنفسها، وهو كتاب "الشاعر"، وكانت تضحك كلما تحدثتُ عن وصف المنفلوطى لأنفه الكبير. وأرجو أن تكمل أيضا كتاب أستاذى د. شوقى ضيف: "معى"، الذى رشحته لها بعدما رأيتها تسألنى عقب عودتها مرةً من درس حدثهم فيه مدرس اللغة العربية عنه لأن له نصا فى بعض كتب تلك المادة مقررا على طلاب الثانوية العامة وطالباتها: أتعرف الدكتور شوقى ضيف يا بابا؟ فأفهمتها أنه أستاذى وأننى كثيرا ما كنت أذهب إلى بيته حتى بعد تخرجى من الجامعة. وحكيت لها بعض ما كان يدور بيننا من أحاديث، مثنيا على تواضعه وبساطة نفسه ودماثة خلقه وصبره على مناقشاتى واختلافى معه أحيانا فى الرأى رغم الفارق الهائل بين الأستاذ الكبير والتلميذ الصغير وتشجيعه لى وإنصاته إلى ما كنت آخذ رأيه فيه من مسائل تخصنى شخصيا . . . إلخ. وكنت كلما شعرت أنها لا تقرأ الكتاب بالتحمس المطلوب أقول لها: "عَمُو الدكتور شوقى ضيف سوف يغضب منك إذا لم تنتهى من الكتاب"، فتضحك!

ونعود إلى د. فيليب حِتِّى بعد هذه الاستطرادة التى أرجو أن يغفرها القارئ للعبد الضعيف، فأقول: كيف لم يحاول ذلك المؤرخ أن يتأكد من صحة الحديث المذكور؟ أو على أقل تقدير: كيف فاته أن يقول مثلا: "الحديث المنسوب إلى النبى محمد" دون أن يتورط فى نسبته إليه على هذا النحو القاطع الفاضح؟ لقد أخذ عليه شوقى أبو خليل فى كتابه عنه أنه كثيرا ما يستخدم عبارة "فيما رَوَوْا" أو "فيما يُحْكَى" أو "الأمر الذى يقال إن فلانا قد فعله" مثلا بما تدل عليه تلك العبارات وأشباهها على التضعيف[١]، وإن كان من الممكن أن يكون مراده هو أنه يحكيها دون أن تقع عليه التبعة، فهو يوردها كما قرأها فى المصادر والمراجع التى بين يديه تاركا للقارئ مهمة التيقن من صحتها، أو ربما كانت مجرد عادة تعبيرية عنده اكتسبها من الكتاب الأوربيين. وأيا ما يكن الأمر فلقد كان بمستطاعه أن يلجأ هنا إلى عبارة كهذه فيريح ويستريح. نخرج من هذا بأن حِتِّى قد نسب شيئا إلى النبى عليه الصلاة والسلام لم يقله رغم أنه صحيح فى ذاته ورغم أن العلم كله مهم فى الإسلام، والسعى فى تحصيله فريضة على المسـ م لأن جهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى.

---

[١] انظر شوقى أبو خليل/ موضوعية فيليب حِتِّى فى كتابه: تاريخ العرب المطوَّل/ دار الفكر/ دمشق/ ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م/ ٣٦ ومابعدها مثلا.

وما دمنا بصدد الرسول فإن شوقى أبو خليل قد انتقد فيليب حِتّى انتقادا شديدا لقوله، ذكَر، إن محمدا "انتسب إلى قريش". وقد رجعت إلى كتاب حِتّى فوجدته يقول إنه فى العام الفا طفل لقريش (born to the Quraish)[١]. وقد استخدم هذا التعبير فى كلا الكتابين: الكتاب الكامل والكتاب الموجز، فعرفت أن شوقى أبو خليل عامَل الترجمة باعتبارها الكتاب الأصلى فحمَّل حِتّى المسؤولية، وهو منها براء. وهو ما يذكرنى بالمثل القائل: المترجم خائن. وهنا أود أن أبين شيئا أنتهجه فى كتبى بآخرة، ألا وهو أننى كثيرا ما لا أكتفى بترجمتى أو تلخيصى للنص المأخوذ من أحد المراجع الإنجليزية أو الفرنسية، بل أرانى أورد الأصل ذاته كى أضع القارئ معى فى الصورة فيتبين بنفسه مدى توفيقى أو فشلى فى الفهم والتعبير بالعربية، فضلاعن أننى أتغيا ربط القارئ بالأصل الأوربى حتى لا يشعر بالغربة ويتصور أن الأمر صعب، ومن ثم أحب أن يفهم أن الأمر ليس بالصعوبة التى يتصورها، وأن النص الذى يسمع به ولا يراه حاضر الآن بين يديه لا يفصله عنه فاصل. وقد استغرب بعض القراء من هذه الطريقة فى كتبى الأخيرة، فكنت أشرح لهم مقصدى منها طبقا لما قلته آنفا، وكنت أحس أن بعضهم لا يقتنع بما أسوقه من مبررات، فأسكت. وسبب إيرادى لهذا الكلام هنا هو ما وقع فيه الأستاذ شوقى أبو خليل بحسن نية من الزراية على حِتّى، الذى ليست عليه أية تبعة فيما حدث، بل الخطأ خطأ المترجم، إذ لم يكن دقيقا فى عبارته.

وفى غزوة بدر نجد حِتّى يقصر المشتركين فيها على الأنصار رغم أن أولئك المشتركين كانوا من الأنصار والمهاجرين جميعا، بل من المهاجرين قبل الأنصار، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا يصاحبه الأنصار فى تلك الغزوة تصورا منهم أن واجبهم ينحصر فى نصرته إذا دهمه عدو بالمدينة. بَيْدَ أن سعد بن معاذ قال له: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك". ودفع رسول الله اللواء إلى أحد المهاجرين، وهو مصعب بن عمير حسبما جاء فى سيرة ابن هشام.

كذلك فإن غزوة بدر لم تقع فى "الأشهر الحرم" كما قال مؤرخنا، بل فى رمضان طبقا لما تقوله كتب السيرة والتاريخ، ورمضان كما هو معروف ليس من الأشهر الحرم. أما التى كانت لها صلة بـ"الأشهر

---

[١] ص٢٤. أما فى الكتاب الكامل (History of ahe Arabs, Macmilan & Co. Ltd, London, 1963) ففى ص١١١. وعند شوقى أبو خليل ص١١.

الحرم" فهي سَرِيَة عبد الله بن جحش، التي سبقت غزوة بدر بقليل، والتي ارتبك منفذوها حين تاحت لهم الفرصة للهجوم على فريق من أعدائهم في آخر رجب، وهو من الأشهر الحرم، فرأى بعضهم أن يهجموا عليهم، ورأى الآخرون أنْ لا، ثم انتصر رأى المهاجمين، الذين لقوا انتقادا من المسلمين لولا أن القرآن ألقى التبعة في هذا على الكفار، إذ لم يكونوا يَرْعَوْن في المسلمين إلا ولا ذمة، فكان لا بد من معاملتهم بالمثل. كذلك لم يكن الأمر، كما قال حِتّي، أمر رغبة من جانبِ الأنصار في الهجوم على القافلة توفيرا للنفقات التي يحتاجها المهاجرون بعدما تركوا بيوتهم وممتلكاتهم ونجَوْا بجلودهم، بقدر ما هو اهتبال فرصة سانحة لتعويض بعض مما وضعت عليه قريش يدها من أموال وعقارات وأراض وممتلكات أخرى، ودعنا من رغبة المسلمين في إزاحة العقبات التي تعوق نشر دين الله، وهو العامل رقم واحد. وهناك أيضا استدراك سريع على ما كتبه كل من المترجم والناقد، إذ لم ينص أي منهما على أن المسلمين قد خرجوا تحت قيادة الرسول، بل سيق الخبر وكأن الأنصار (الأنصار وحدهم لا المهاجرين والأنصار جميعا) قد حملهم تعاطفهم مع إخوانهم من المهاجرين الذين يعانون من الفقر على القيام بهذه الغزوة. فهذه بعض تخبطات فيليب حِتّي[١].

وعند الحديث عن فتح مكة يُشِيد حِتّي بسمو أخلاق الرسول وكرم نفسه وتسامحه النبيل الفذ مع أعدائه، الذين طالما سامُوه الأذى والإهانة، وعذبوا أتباعه وقتلوا طائفة منهم، وهو ما يندر وقوعه من منتصر مثله في تاريخ العالم بعفو بهذه البساطة عند المقدرة. ويمضى فيعطى الرسول بعض حقه من التعظيم والتمجيد والإجلال نظرا لما أنجزه من أعمال عبقرية لم يستطع سواه أن يقوم بها مما أدى في النهاية إلى قيام إمبراطورية ضمت داخل حدودها المتناوحة أحسن أقاليم العالم المتحضر آنذاك. وهي لفتة من فيليب حِتّي لا نملك إزاءها إلا الاعتراف بحسن ما فعل رغم اختلافنا معه في المعتقد ورغم ما أخذناه وسنأخذه عليه في ذات الكتاب. فهذه نقرة، وتلك نقرة[٢]. وهذا الذي كتبه حِتّي هو في الواقع أبلغ رد على من يتهمون الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا بأنه كان يُكرِه مخالفيه على اعتناق الإسلام وينتقم منهم دون أي ذنب جنَوْه، مما يكذبه التاريخ تكذيبا، ومنه هذا المثال العبقري الذي يقر فيه الكاتب بأنه يقل أن نجد له نظيرا في تاريخ المنتصرين حين يكونون قادرين على إشباع شهوة الثأر في قلوبهم وإنزال ما يريدون من انتقام وقتل وإبادة بخصومهم الذين طالما أذاقوهم كؤوس الأذى والعذاب مُتْرَعَة.

ومن هذا الإجحاف الجلف من خصومه صلى الله عليه وسلم ما صنعه الشاعر الإيطالي في عصر النهضة دانتي أليجيري، الذي وضع النبي محمدا عليه الصلاة والسلام قريبا من قعر الجحيم مع

---

[١] ص٢٩ وما بعدها إلى ٣٣.

[٢] ص٤١.

صانعى المخازى والفتن فى "الكوميديا الإلهية"، وإن كانت الترجمة العربية لكتاب فيليب حتى قد قفزت فوق هذا الكلام فلم تثبته مثلما قفز حسن عثمان مترجم "الكوميديا الإلهية" على أبياتها التى تتحدث عن الرسول فى الجحيم حسبما صوره الشاعر المطموس البصر والبصيرة. كما اضطربت ترجمة كتاب حتى فى نقل السياق الذى ورد فيه هذا المعنى، إذ قالت إن "الدين الإسلامى أقرب إلى اليهودية القائمة على العهد القديم منه إلى النصرانية والعهد الجديد، وإن كان قربه من النصرانية من القوة بحيث حسبه الناس فى أول عهده بدعة نصرانية جديدة لا دينا مستقلا، ومن هؤلاء دانتى فى روايته: الكوميديا الإلهية"[١].

وليس هذا هو ما قاله فيليب حتى بالضبط، بل قال الآتى: "إن دين القرآن أقرب من نصرانية العهد الجديد إلى يهودية العهد القديم، وإنه لمن القرب من كلتا الديانتين بحيث إنه فى مراحله المبكرة لا بد أن يكون قد بدا للناس كمذهب نصرانى منحرف أكثر من كونه دينا مستقلا. وفى ملحمته: "الكوميديا الإلهية" يضع دانتى محمدا فى إحدى الطبقات السفلى من الجحيم مع صانعى المخازى والفتن"[٢]. والفرق بين الترجمتين بادٍ للعيان فى وضوح وقوة. ولا ريب أن ما صنعه دانتى هو من الخزى الذى سوف يظل يجلل ذلك الشاعر ويَسِمه على وجهه بالعار والشنار أبد الآبدين، إذ لا يمكن إيجاد العذر له، فهو ليس بالرجل العامى الجاهل الذى يسمع ما يردد القساوسة عن الرسول فيقوله حسبما سمعه دون فهم أو تفكير، بل كان مطلعا على جوانب من الفكر الإسلامى بما فيها القرآن الكريم مما كان من شأنه أن يحول بينه وبين التردى إلى ذلك المستوى الذى انحط إليه فيعرف أن محمدا كان رجلا عظيما وبطلا مجيدا من أبطال التاريخ استطاع أن ينهض بأمته ويحييها من العدم، فضلا عن أنه أتى بدين يدعو إلى التوحيد الصافى والإيمان بالأنبياء والرسل جميعا، ومنهم أنبياء الكتاب المقدس، الذين يؤمن بهم دانتى وأمثاله، وبوجه خاص عيسى عليه السلام، ويحرم الخمر والزنى والربا والعدوان، ويوجب على أتباعه العمل والإنتاج والإبداع وطلب العلم والمحافظة على الكرامة والمروءة. فما الذى فى هذا كله مما يمكن أن يستجلب تحامق دانتى فى حق الرسول الكريم، الذى لا يصلح ذلك البائس المهلوس أن يقبل قدميه، دعك من يديه؟ أيعقل أن يضع ذلك القذِر الغليظ العقل والقلب والضمير الرسول الكريم عند قاع الجحيم وقد خرجت أحشاؤه وانشق وجهه من شدة العذاب؟[٣] يا للغباء! ويا للخزى!

---

[١] ص٤٩-٥٠.

[٢] ص٣٦.

[٣] هذا نص ما قاله ذلك المأفون فى حق النبى العظيم ضمن الأنشودة الثامنة والعشرين من "كوميدياه الإلهية" طبقا لترجمة هنرى وردزورث لونجفلو:

وأرجو أن يلاحظ القارئ العزيز أننا هنا لا نتكلم عن الاعتراف بنبوة محمد علي الصلاة والسلام، فدانتى حر فى الإيمان أو الكفر به، بل إلى الإقرار بدوره الشامخ فى مسيرة الحضارة البشرية بوصفه رجلا عظيما. فانظر، أيها القارئ، إلام تدهْدَى الشاعر الإيطالى الأحمق الأخرق بتطاوله وتجاوز حدوده مع النبى الكريم! وبالمناسبة فقد حَمَل قسطاكى الحمصى، وهو النصرانى، على دانتى وشَدَّد النكير عليه بسبب تعصبه الأعمى والمسارعة بالقذف "في جهنمه بكل من يمر فى باله أو تحت رأس قلمه من مخالفيه فى الرأى أو فى الدين حتى إنه يقذف بنبى دعا الوثنيين وهداهم إلى عبادة إله دانتى نفسه، وليست دعواه النبوة دون دعاوى سواه من الأنبياء الوافرى العدد"[١]. وواضحٌ مَنْ هو النبى الذى تصوَّر ذلك السفيه السفيه المسمَّى: "دانتى" أنّ بمقدوره الإساءة إليه، غافلا عن أنه بذلك إنما أهان نفسه هو ومرّغها فى الرَّغام والأوحال وعرّضها للمزيد من سخط الله سبحانه وتعالى.

وبالمثل كان أصحاب رسول الله فى فتحهم البلاد عند حسن الظن بهم والرجاء فيهم، فلم يلجأوا هم أيضا، لدن انتصارهم، إلى الترويع أو سفك الدماء وما إلى ذلك إلا عند الضرورة القصوى حين يجدون أنه لا توجد أية طريقة أخرى لمعالجة الموقف. لقد كانوا يراعون الله وكأنهم يرَوْنه أمامهم يرقب أعمالهم. ولو قِيسَ العدد القليل الذى وقع فى الفتوح الإسلامية لاتضح أنه لا يمارَن أبدا بأى عدد وقع قتيلا فى أى حرب مناظرة. ولقد كان من ثمار هذا كله أنْ دخل أهالى البلاد المفتوحة الإسلام بأعداد هائلة. ولن أذهب بعيدا فى التدليل على هذا، بل أكتفى بالإحالة إلى ما قاله الكاتب فى مفتتح الفصل التالى حين ذكر أن عدد المسلمين فى العالم كله وقت تأليفه هذا الكتاب كان نصف عدد النصارى تقريبا[٢]، ثم ما هو واقع

While I was all absorbed in seeing him,
He looked at me, and opened with his hands
His bosom, saying: "See now how I rend me;
How mutilated, see, is Mahomet;
In front of me doth Ali weeping go,
Cleft in the face from forelock unto chin.

أما الترجمة الفرنسية التى قام بها لامِنِّيه فتجرى على النحو التالى:

Tandis que sur lui je tenais mes yeux fixés, il me regarda, et avec la main s'ouvrit la poitrine, disant: « Vois comme je me déchire. Vois comme dépecé est Mahomet : devant moi Ali va pleurant, le visage fendu du menton jusqu'à la chevelure.

[١] قسطاكى بك الحمصى/ منهل الوراد فى علم الانتقاد/ تحرير وتقديم د. أحمد إبراهيم الهوارى/ المجلس الأعلى للثقافة فى مصر/ ١٩٩٩م/ ١/ ٥١٧.

[٢] ص٣٥.

الآن من أن العددين صارا متقاربين جدا . ألا يدل هذا على قوة جاذبية الإسلام وشدة إقبال غير المسلمين على اعتناق دين النبى العربى رغم أن المسلمين فى هذا الفترة من تاريخهم يعيشون أشد أيامهم هوانا وضعفا وإغراء للدول الكبرى بأن تطأهم بأقدامها ولاتعمل لهم أى حساب، وإن كنا نرجو أن تقلب ثورات العرب المجيدة الحالية الميزان وترفع من شأن العرب والمسلمين؟ كذلك أكد حتّى أن القرآن يأتى على رأس الكتب التى تُقرأ فى أى عصر من العصور. بل لقد كتب سيادته بعض الفقرات الرائعة عن القرآن الكريم تشهد بإعجابه البالغ بذلك الكتاب، الذى ليس كمثله كتاب لا فى القديم ولا فى الحديث[١].

وانظر أيضا إلى قوله يبدى افتتانه بمنظر المصلين المسلمين: "وليس من شكل للصلاة الجماعية يفوق صلاة الجمعة جلالا وبساطة وتنظيما . ومما يثير النفس إعجابا أن ترى العابدين منتصبين فى المسجد أثناء الصلاة فى صفوف منسقة يمتثلون لقيادة الإمام بدقة وخشوع. ومما لا ريب فيه أن هذه الصلاة العمومية كانت أكبر عامل تأديبى فى توحيد صفوف المسلمين من أبناء البادية ذوى النفوس الفخورة الأبية المشبعة بروح الفردية. وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية والشعور الموحَّد، ورقّت فيهم التآخى الدينى الذى نشدَه محمد رابطةً بين المؤمنين بدلا من رابطة العصبية الدموية. وهكذا أصبحت نظم الصلاة خطوة أولى فى التدريب العسكرى"[٢] . وهذا الذى قاله حتّى عن القرآن والصلاة هو حسنة من حسناته ينبغى إبرازها مثلما نبرز الملاحظات التى نأخذها على ما يكتبه[٣]. إلا أننا لا ينبغى فى المقابل أن نغفل قوله إن تنظيم الصلاة على النحو المعروف هو من عمل الرسول، إذ نحن نؤمن إيمانا جازما أنه جزء مما أوحاه الله إلى نبيه عليه السلام، وليس تخطيطا منه. وبالمثل ينبغى ألا يفوتنى تسجيل شىء من الامتعاض من ربط حتّى بين تنظيم صفوف الصلاة والتدريب العسكرى مما قد يوحى بأن الصلاة ما فرضت إلا من أجل هذه الغاية. إن الصلاة هى، فى المقام الأول، عبادة من العبادات يُقصَد بها التعبير عن تمجيدنا لخالقنا وشكرنا له واستمدادنا الطمأنينة والسكينة من القيام بين يديه واستشعار عظمته ورحمته عز وجل. والخشيةَ كل الخشية أن يفهم بعض القراء أن الصلاة إنما شُرِعَتْ لهذا الغرض. أما قوله بعد ذلك إن الصيام كان معروفا قبلا فى اليهودية والنصرانية فلم يأت فيه بجديد، وإن كنت أشم رائحة محاولة للقول بأن بعض تشريعات الإسلام مأخوذة من مصادر سابقة، وهى محاولة لا معنى لها، إذ القرآن قد وضح فى إحدى آياته أن الصيام قد كُتِب على المسلمين كما كُتِب على الذين من قبلهم. ومع هذا فموعد الصيام ومواقيته والأشياء

---

[١] ص٣٤ ومابعدها

[٢] ص٥٥– ٥٦ من الترجمة العربية لكتاب "العرب– تاريخ موجز" لفيليب حتّى/ إعادة ط٦/ دار العلم للملايين.

[٣] يستطيع القارئ أن يطالع ما حبره يراع الدكتور حتّى عن القرآن فى الفصل الخامس: " The Book and the Face".

التى يصوم عنها الإنسان، كل ذلك يختلف تماما فى الإسلام عنه فى أى دين آخر. وقد أخطأ حِتّى حين لم يذكر بين ما يمتنع المسلم عنه أثناء الصيام: جماع الرجل لزوجته، إذ اقتصر على ذكر الامتناع عن الطعام والشراب ليس إلا[١]. وعلى نفس الشاكلة أرانى متوجسا من الإشارة إلى أن الحج إلى الأماكن المقدسة هو عادة سامية قديمة كما يشير إلى ذلك العهد القديم. ذلك أن هذا الكلام يومئ إلى أن الحج مجرد عادة، وأن الإسلام لم يصنع شيئا سوى استعارة تلك العادة من اليهود، مع تلوينه بما يميزه عن حجهم. إن الحج معروف لدى الأمم المختلفة، ولا يقتصر على اليهود وحدهم. ألم يكن الإغريق يحجون إلى معبد الإله زيوس؟ ألم يكن المصريون القدماء يحجون إلى قبر أوزيرس؟ ألا يحج البوذيون إلى الأماكن التى لها ارتباط ببوذا؟ ألا يحج النصارى إلى بيت المقدس وروما، بالإضافة إلى قبور قديسيهم؟ . . .إلخ[٢]. الإسلام إذن، حين شرع الحج، لم يكن يتبع عادة سامية، بل كان يصغى إلى نبض الفطرة الإنسانية، فهو دين الله خالق الإنسان والعالم بما يحتاج إليه وما تصلح به حياته ونفسه.

ومن بين ما نسجله لفيليب حِتّى ويصلح أن يُنقَش بالإبر على آماق البصر كما يقال فى القصص الشعبى تأكيده، خلال حديثه عن شعيرة الحج، إن الإسلام، دون أديان العالم جميعا، قد حقق أقصى درجة فى هدم الفواصل بين الأجناس والألوان والقوميات المختلفة، على الأقل: داخل حدود الأمة الإسلامية[٣]. وليس هذا كلاما إنشائيا، بل إن قراءات ذلك المؤرخ هى التى أملت عليه ما قال. وقد كنت قرأت لأرنولد توينبى المؤرخ البريطانى الشهير أن "انعدام الإحساس العرقى، كما هو الحال بين المسلمين، هو أحد الإنجازات الأخلاقية البارزة للإسلام"، وأنه "فى عالم اليوم هناك حاجة ملحة للدعوة إلى هذه الفضيلة

---

[١] انظر ص٤٢ من الأصل الإنجليزى. ومن طريف الأمر أنه، عند حديثه عما يمتنع عنه الحاج أثناء حجه، يذكر الامتناع عن الجماع بوصفه وجها من وجوه الشبه بين الحج والصوم. إلا أن تصويره الحج على أنه يستلزم الامتناع عما يمتنع عنه الصائم وزيادة خطأ محض، إذ الصائم يمتنع عن الطعام والشراب من الفجر إلى المغروب، فهل يمتنع الحاج عنهما؟ انظر فى هذه النقطة الأخيرة ص٤٣.

[٢] انظر فى ذلك مثلا مادة "Pilgrimage" فى "A Dictionary of Religion and Ethics Edited by Shailer Mathews and Gerald Birney Smith, The Macmillan Company, New York, P. 338" وفى "Encyclopaedia of Religion and Ethics" (تحرير جيمس هستنجز) تتبع مفصل ومرهق لتلك الشعيرة عند الأمم المختلفة من مسلمين ونصارى وهنود وعبرانيين وبوذيين وهنود وصينيين ويابانيين. . .

[٣] ص٤٤.

الإسلامية، إذ برغم ما يبدو من أن سجلات التاريخ تبين لنا أن الإحساس العرقى كان الاستثناء لا القاعدة فى عملية التزاوج المستمر بين الأجناس البشرية، فإن من فواجع الوضع الراهن أن يدور هذا الإحساس بقوة فى نفوس الشعوب التى قد حصلت، فيما وقع من صراع أثناء القرون الأربعة الأخيرة بين عدد من الدول الأوربية، على الأقل فى الوقت الحاضر، على نصيب الأسد من السيطرة على العالم. وبرغم أن انتصار الشعوب الناطقة بالإنجليزية فى بعض جوانبه يمكن الحكم عليه إذا ما رجعنا إليه النظر بأنه كان بركة على الإنسانية فإنه لا يمكن، فى مسألة الإحساس العرقى الخطيرة هذه، أن ننكر أنه كان نكبة عليها. إن الأمم الناطقة بالإنجليزية التى استقرت فى العالم الجديد فيما وراء البحار لم تكن، على وجه الإجمال، حسنة العِشرة، فقد أوشكت أن تقضى تماما على سكان البلاد الأصليين. أما حين سمحوا ببقاء السكان البدائيين كما فى جنوب أفريقيا أو حين استجلبوا عمالا بدائيين من مكان آخر، كما هو الحال فى أمريكا الشمالية، فقد ظهرت فيهم بوادر ذلك النظام الخانق الذى تعلمنا فى الهند، حيث بلغ على مدى قرون متطاولة غايته القصوى، أن نعبر عن اشمئزازنا منه من خلال تسميته بـ"نظام الطوائف" . . . ومع ذلك فإن أنصار التسامح العنصرى الذين يبدو فى الوقت الحالى أنهم يخوضون معركة خاسرة فى صراع روحى ذى أهمية هائلة بالنسبة للبشرية، قد يستعيدون الغلبة إذا برز لصالحهم أى عامل قوى كان حتى الآن بعيدا عن ميدان المعركة. ومن المتصور أن تكون روح الإسلام هى ذلك العامل الذى يأتى فى أوانه، والذى سيحسم هذه القضية لصالح التسامح والسلام"[١].

وللأسف فإننا، نحن المسلمين، نبدو فى كثير من الأحيان كالرجل الأفريقى ساكن الغابة عشية الهجمة الاستعمارية على القارة السوداء، ذلك الذى لم يكن يعرف قيمة الألماس المتوفر فى بلاده، فكان يقايضه، وهو فى منتهى السعادة والرضا، ببعض قطع الزجاج الملون الذى يعطيه إياها من يفدون عليه من الرجال البيض، متصورا أنه هو الكاسب فى تلك الصفقة. إن لدينا دينا عبقريا لا نظير له فى أى شىء، لكننا لا ندرك أبعاد عظمة هذا الدين، وإلا فلم نحن متخلفون كل هذا التخلف الهائل؟ والملاحظ فى هذه المسألة أن ما قاله الرسول عليه السلام من أن علينا أن نسمع ونطيع وإن استُعْمِل علينا عبد حبشى كأن رأسه زبيبة، وكنا ننظر إليه على أنه لون من ضرب المثل ليس إلا، قد تحقق فى أرض الواقع فعلا، إذ كان كافور، الذى كان عبدا سابقا، هو مسيّر أمور الدولة الإخشيدية فى الحقيقة بعد موت مؤسسها سيده. ولقد فاز هذا العبد السابق بثناء كثير من المؤرخين المسلمين، وهو ما يدل على أن قضية اللون ليست من القضايا التى تسبب مشكلة فى عالمنا الإسلامى. بل لقد تولى الخلافة عدد من أبناء الإماء كما هو الأمر

---

[١] نقلا مع شىء طفيف من التصرف عن كتابى: "الترجمة من الإنجليزية– منهج جديد"/ دار الحقوق/ ١٩٨٤م/ ١٦٦– ١٧٢. والنص موجود فى كتاب توينبى: (Civilisation on Trial, New York, 1948, P. 205.)، والترجمة بقلمى.

فى حالة إبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد آخر خليفتين أمويتين. أما خلفاء بني العباس، وعددهم سبعة وثلاثون، فلم يكن فيهم من هو عربي الأم إلا ثلاثة: أبو العباس السفاح ، والمهدي بن المنصور، ومحمد الأمين بن هارون، أما الباقون فأبناءُ أمهاتِ أولادٍ، وبعض أمهات الأولاد هؤلاء كنّ إماءً سُودًا ... إلخ.

نعم ليس فى تراثنا استعلاء على الزنوج يفلسفه الكتاب والمفكرون فلسفةً كما هو الحال لدى عدد من الكتاب الغربيين. وإن كلام مفكر كمونتسكيو فى هذه النقطة¹ لمما يبعث على الخزى، إذ دعا فى كتابه: "**De l'esprit des lois**: روح القوانين" إلى استعباد الشعوب السود حتى يمكن الأمريكان أن يجدوا من يقوم لهم بالعمل فى مزارعهم ومصانعهم بعدما أبادوا سكان أمريكا الأصليين. بل إنه، ويا للهول، يستغرب أن يكون للزنجى نفس أصلا، لأن الله جلت حكمته لا يمكن أن يجعل للزنجى ذى الإهاب الأسود والأنف الأفطس نفسا كبقية البشر، فضلا عن أن تكون نفسا طيبة. وهذه عنصرية متوحشة لا تستحق أن تنتمى إلى بنى الإنسان. يقول ذلك الفيلسوف العنصرى المنكوس العقل المتحجر القلب الذى يُشيد به كثير منا نحن العرب والمسلمين بوصفه فيلسوفا كبيرا مهّد لقيام الثورة الفرنسية، وكأن الثورة الفرنسية قد أفادتنا بشىء، فما بالنا إذا كان من ثمارها نابليون، الذى غزا مصر وعاث فيها هو ورجاله الأوغاد نهبا وسرقة وتحرقا وتقتيلا، وكان ينوى إقامة دولة لليهود فى قلب بلاد العرب؟:

"Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais:

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique pour s'en servir à défricher tant de terres.

Le sucre serait trop cher, si l'on ne faisait travailler la plante qui le produit par des esclaves.

Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête ; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre. On ne peut se mettre dans l'esprit que Dieu, qui est un être très sage, ait mis une âme, surtout bonne, dans un corps tout noir.

Il est si naturel de penser que c'est la couleur qui constitue l'essence de l'humanité, que les peuples d'Asie qui font des eunuques, privent toujours les noirs du rapport qu'ils ont avec nous d'une façon plus marquée.

On peut juger de la couleur de la peau par celle des cheveux, qui, chez les Égyptiens, les meilleurs philosophes du monde, étaient d'une si grande conséquence qu'ils faisaient mourir tous les hommes roux qui leur tombaient entre les mains.

---

¹ وهو مجرد مثال، وإلا فهناك غربيون آخرون يفكرون على النحو الذى يفكر به مونتسكيو، وهم غير قليلين كجوبينو وداروين وهيجل ورينان ونيتشه وهوستن تشمبرلين وهتلر. كما يؤمن الأوربيون بوجه عام أنهم مركز الكون، وأن سائر البشر يأتون بعدهم بآماد لا يتساوون أبدا بهم، وأنهم وحدهم المتحضرون، أما باقى البشر فهمج هامج لا سبيل إلى أن يتحضر أبدا.

Une preuve que les nègres n'ont pas le sens commun, c'est qu'ils font plus de cas d'un collier de verre que de l'or, qui, chez des nations policées, est d'une si grande conséquence.

Il est impossible que nous supposions que ces gens-là soient des hommes ; parce que, si nous les supposions des hommes, on commencerait à croire que nous ne sommes pas nous-mêmes chrétiens.

De petits esprits exagèrent trop l'injustice que l'on fait aux Africains. Car, si elle était telle qu'ils le disent, ne serait-il pas venu dans la tête des princes d'Europe, qui font entre eux tant de conventions inutiles, d'en faire une générale en faveur de la miséricorde et de la pitié?".

كذلك يؤكد الإسلام أنه لا فضل لعربي على أعجمي أو العكس إلا بالتقوى والعمل الصالح. ذلك أنه فى الإسلام لا اعتبار للجنس أو للطائفة أو لأى شىء آخر فى قيمة الإنسان عند ربه سوى الإنجازات الشخصية. إنه دين ضد العنصرية بامتياز. أما إن أفلتت من أقلام بعض الكتاب القدماء المنتسبين إليه عبارات قد يُفهم منها شيء من العنصرية[١] فيكذّبها أنهم فى حياتهم اليومية كانوا يخالطون الزنوج ولا يأنفون منهم، بل يتزوجون من نسائهم أو يتسرَّوْن بهن مثلما يتزوجون أو يتسرَّوْن بأية امرأة بيضاء، وكانوا يحترمون سيدنا بلالا الحبشى وسيدنا المقداد بن الأسود وغيرهما من الصحابة والتابعين السود، فضلا عن أن أحدا منهم لم يحاول أن يجعل من هذه الفكرة هِجّيراه أو يلح عليها فى كتاباته أو يدعو إلى التخلص من السود أو غير السود أو يقول، كما قال مونتسكيو، إن الزنجى ليست له نفس، بَلْهَ أن تكون له نفس طيبة لأن ذلك يناقض الحكمة الإلهية، التى تقتضى من وجهة نظره اللاإنسانية ألا يكون لصاحب البشرة السوداء والأنف الأفطس أى نفس على الإطلاق، منكرا بذلك ما لا يمكن أن ينكر، إذ لا فرق بين الزنجى وغير الزنجى فى أن لكل منهما نفسا: فبعض هؤلاء أو هؤلاء له نفس طيبة، وبعض هؤلاء أو هؤلاء له نفس شريرة. ولقد ظل المجتمع الإسلامى قائما على تعدد الألوان والجنسيات والأديان والثقافات، ولم يحدث قط أن قامت أو فكر أحد فى القيام بإبادة جماعية لأحد من هذه الأجناس أو الألوان أو الثقافات، على عكس أسبانيا، التى رفضت أن يكون فيها مسلم واحد يوحد الله واتبعت أسلوبا ممنهجا فى التخلص منهم حتى أبادتهم تماما بعد خروج المسلمين من الأندلس. وها هى ذى مصر لم ولا ولن تنبعث من جانب الأغلبية المسلمة فيها أية دعوة إلى تنقيتها من غير المسلمين، بل الذى يحدث أن بعض غير المسلمين هم الذي ينادون بخروج المسلمين، الذين يشكلون نحو خمسة وتسعين بالمائة من سكانها ورحيلهم إلى الجزيرة العربية، أو كما يسمونها: "جزيرة المعيز". وأطرف من ذلك وأمعن فى الدلالة على التسامح العجيب لدى الجانب المسلم أننا لا نسمع دعوة مضادة بخروج هؤلاء من مصر جريا على المثل القائل: السن بالسن،

---

[١] انظر ما كتبه محررو مادة "Racism" فى نسخة "الويكيبيديا" الإنجليزية تحت عنوان "Middle Ages and Renaissance". ومن مفارقات الأمور أن معظم الذين ذكرتهم المادة من المسلمين على أن فى كتاباتهم بعض العنصرية كابن قتيبة والبيرونى مثلا لم يكونوا عربا بل موالى.

والبادئ أظلم! ليس ذلك فحسب، بل لقد قامت فى معظم العالم الإسلامى على مدى عدة قرون دولة "المماليك"، وهم من الرقيق المحرَّر، فضلا عن أنهم غير عرب، وتقبل العالم الإسلامى تقبلا تاما أن يخضع لهم، غير شاعر فى هذا بأية غضاضة، بل يذكر كبارهم بالإجلال والتمجيد لا فرق بينهم وبين أى حاكم عربى، إذ الكل مسلم يخدم دينه وأمته. ودعك من ابن طولون وابن الإخشيد وصلاح الدين، الذين أقام كل منهم دولة، وجميعهم من غير العرب أيضا، وما زال المسلمون كلما حزبهم أمر فى عالم السياسة والحروب ومُنُوا بالهزيمة أو أُحْبِطتْ آمالهم تطلعوا إلى السماء مبتهلين أن يهبهم الله "صلاح دين" ثانيا، غير مفكرين فى أى حاكم أو قائد آخر من العرب[١]. وهذا كله غير الدويلات التى أقامها الطاهريون والسامانيون والبويهيون والغزنويون مثلا فى شرق الدولة فى أواسط آسيا، والمرابطون والموحدون فى بلاد المغرب، ومجاهد العامرى فى الأندلس. ثم هناك أخيرا العثمانيون، الذين لم يقيموا دولة فحسب، بل تولوا الخلافة ذاتها زمنا طويلا، وكانوا هم آخر الخلفاء[٢]. فهم أيضا لم يكونوا عربا، وكان بين رعاياهم كثير من العرب بأى معنى أردتَ من العروبة.

وفى مادة "العنصرية" من "الموسوعة العربية العالمية" نقرأ ما نصه: "وتمكن الأوروبيون في القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن العشرين الميلاديين من فرض سيطرتهم على أجزاء كبيرة من آسيا وإفريقيا. وبرر هؤلاء المستعمرون سيطرتهم على أساس أن السلالات ذات البشرة السوداء والسمراء والصفراء لا بد من تمدينهم بوساطة البيض المتفوقين. وهذه المهمة التثقيفية، كما ادَّعَوْا، هي التي أصبحت تسمى: عبء الرجل الأبيض. وفي كل مكان من الإمبراطورية البريطانية كان الزعم الزائف بتفوق البيض يتغلغل في معظم مجالات الحياة. ففي الهند المستعمرة على سبيل المثال لم يكن هناك سوى قدر ضئيل جدًا من

---

[١] وقد عبرت كارين أرمسترونج عن هذا بقولها فى كتاب "Islam: A Short History" (Modern Library, 2002, P.95):

"It was... in the twentieth century, when the West had become more powerful and threatening, that Muslim historians would become preoccupied by the medieval Crusades, looking back with nostalgia to the victorious Saladin, and longing for a leader who would be able to contain the neo-Crusade of Western imperialism".

[٢] وإذا كان الشىء بالشىء يُذكر ففى اليوم الذى كُتِبتْ فيه هذه الفقرة كان هناك استقبال حاشد فى مصر لرجب الطيب أردوغان رئيس الوزراء التركى رفع فيه بعض مستقبليه لافتات تنادى بتوليه خلافة المسلمين، أى عودة الخلافة مجددا على يديه بحيث يحكم، وهو التركى، كل المسلمين: عربا وغير عرب، أتراكا وغير أتراك.

الاختلاط بين الوطنيين الهنود والموظفين البيض. كما نظر المستوطنون البيض في أستراليا إلى السكان الأصليين على أنهم أدنى مرتبة. ومع أن معظم السياسات الاستعمارية كانت قد انتهت في أواسط القرن العشرين الميلادي إلا أن آثارها على العالم مازالت باقية إلى اليوم.

وضع كثير من البيض في الولايات المتحدة، منذ القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلاديين، كثيرا من السود تحت نير الاسترقاق الذي كان سببًا رئيسيًا في قيام الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١– ١٨٦٥م). ومع أن تحرير الرق تم خلال ستينيات القرن التاسع عشر الميلادي فإن العزل الاجتماعي والتمييز العُنصري ظلا مستمرين ضد السود. وقد سُنَّتْ قوانين لمقاومة العنصرية والتأكيد على المساواة في الفرص في بعض المجتمعات المتعددة السلالات والجنسيات، ومنعت هذه القوانين التمييز على أساس اللون والجنس أوالقومية أو الأصل العرقي فيما يتعلق بمجالات توفير السلع والخدمات والتوظيف والتعليم. كما منعت القوانين الجنائية التحريض على الكراهية العنصرية. وأصدرت بريطانيا قوانين علاقات الأعراق في ستينيات القرن العشرين، وذلك إثر قدوم أعداد من المهاجرين من جزر الكاريبي والهند والباكستان ثم بنجلادش خلال الخمسينيات والستينيات. وفي هذا الصدد أسس قانون العلاقات العنصرية الصادر عام ١٩٧٦م لجنة مساواة الأعراق، وبدأت مجالس العلاقات داخل المجتمع تعمل على المستوى المحلي. كذلك أجازت حكومة الولايات المتحدة مجموعة من القوانين تستهدف إعطاء فرص متكافئة للزنوج وغيرهم من الجماعات التي تعيش في ظل ظروف غير مناسبة. وبالرغم من ذلك ما زالت المشكلات العنصرية تمثل كارثة للولايات المتحدة الأمريكية. وألغت جنوب إفريقيا سياسة الفصل العنصري في عام ١٩٩١م، وأقامت أول انتخابات رئاسية حرة في عام ١٩٩٤م فاز فيها نلسون مانديلا، الذي أصبح أول رئيس أسود لجنوب إفريقيا.

وتعتبر إبادة الجنس أعظم الآثار المتطرفة المترتبة على الكراهية العُنْصُرِيّة. ولقد فعل ذلك الصربُ حين أعلنت جمهورية البوسنة والهرسك استقلالها من جمهورية يوغوسلافيا السابقة، فوجد أهالي البوسنة جميع أنواع الإبادة الجماعية والفردية بذريعة تطهير العرق، فقتل من جراء ذلك آلاف البوسنيين، وشُرِّد كثيرون من وطنهم تحت سمع وبصر الاتحاد الأوروبي. وقد مضى زمن طويل والفلسطينيون يرزحون تحت الغطرسة الصهيونية، التي ترى أن جنسها هو الجنس المختار، فقتلت وعذبت وصادرت وانتهكت الحرمات تحت سمع العالم وبصره. وتبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها التاريخي باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري عام ١٩٧٤م. وعملت الأمم المتحدة على تنظيم المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية والتمييز العنصري. وقاطعت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل المؤتمر الأول (١٩٧٨م)، والمؤتمر الثاني (١٩٨٣م)، وانسحبتا من المؤتمر الثالث الذي عقد في مدينة ديربان بجنوب إفريقيا في سبتمبر ٢٠٠١م"... وهكذا.

ونسى الغربيون الذين يصدعوننا الآن بتفوقهم على غيرهم من أجناس البشر أنهم قد غَبَرَتْ عليهم أزمان كانوا فيها مثال التخلف الحضاري، في الوقت الذى كانت بعض الشعوب التى ينظرون إليها الآن بعين الغطرسة والتنفج مثلا للتقدم والتفوق الحضارى. فعلى سبيل المثال ألم يكن المصريون فى كثير من عهود الحكم الفرعونى أكثر تقدما من دول أوربا، التى صارت تظن نفسها فيما بعد مفوضة من الله لتحضير الشعوب الأخرى غير الأوربية؟ ألم يأت على العرب الضعفاء المتخلفين حاليا زمن طويل كانوا سادة العالم بما فيه أوربا، بل كانوا يحكمون بعض شعوب أروبا نفسها، بل كانت أوربا ذاتها فى القرون الوسطى مثال التخلف والفقر والجهل والفوضى والقذارة، وكان حكامهم ورجال دينهم يستبدون بهم استبدادا شنيعا بل يأْلهون عليهم؟ والصينيون، الذين شرعوا منذ عدة عقود يناطحون الغربيين وتنبئ أمور حاضرهم أنهم سوف يكونون عما قليل من أقطاب العالم اقتصاديا وسياسيا، ألم يكونوا منذ وقت غير بعيد صرعى الأفيون والبلادة والضعف والخنوع للأوربيين، الذين كانوا يعملون بكل قواهم من أجل إبقاء الصين رائحة فى الأفيون والفقر والوخامة والتخلف الشامل؟ إن الأيام دُوَل بين الناس كما قال القرآن المجيد. وهذا سر حيوية الحياة والحضارة، وإلا أَسِنَتْ وأنتنت. على أن كلامى هذا لا يعنى أبدا أننى أنكر تفوق الأوربيين الحالى فى كثير من المجالات وأنهم هم الذين يقودون قاطرة الحضارة الإنسانية الآن وأن لهم أيادى بيضاء كثيرة على سائر البشر، لكنهم ليسوا بدعا فى هذا، فكثير من الأمم قامت بهذا الدور من قبل، وما الأوربيون سوى حلقة فى السلسلة. كما أنهم قد ارتكبوا وما زالوا يرتكبون وسيظلون يرتكبون جرائمهم البشعة التى تنبع من إيمانهم الغبى بتفوقهم الفطرى والأبدى على بقية الإنسانية ما بَقُوا أقوياء. فالمشكلة إذن تكمن فى المزاعم التى يرددها كثير منهم عن تفوق الغربيين على سائر الأمم والشعوب تفوقا مطلقا غير مرتبط بزمن معين، بل تفوقا أبديا، وكأن الله قد حاباهم وآثرهم على غيرهم منذ أن خلق شيئا اسمه أوربا وإلى أن تنتهى هذه الحياة الدنيا، وربما فى الجنة أيضا، وتخرج الشعوب الأخرى جميعا من المولد بلا حمص!

ولدى تناول فيليب حِتّى نجاح المسلمين فى فتح أفريقيا الشمالية وفشل الحضارة الرومانية والبيزنطية فى التغلغل داخل بلاد البربر هناك نراه يعزو ذلك إلى أن الإسلام يناسب بوجه خاص عقليات البربر البدوية وشبه البدوية نظرا لمستواهم الثقافى الخاص. وهو يقطع القول بذلك قطعا[١]. وهذا كلام

---

[١] ص٦٨. ومع هذا فإن مترجم الكتاب يقول هنا: "والظاهر أن الإسلام كان له تأثير خاص فى الشعوب التى فى مستوى البربر الثقافى" (ص٩٠ من الترجمة)، ولم يجزم الكلام جزما على عكس ما فى الأصل الإنجليزى، الذى يجرى هكذا:

"Islam had a special attraction for people in a cultural stage such as the Berbers...".

معيب لا يصح صدوره من مؤرخ مثله، إذ قلنا ونقول وسنقول، وسيقوله معنا كل من له عينان للنظر وعقل للتفكير والفهم، إن الإسلام قد فتح كل ألوان البلاد واعتنقه شعوب من جميع الأجناس والثقافات والقارات من زنوج وهنود وصينيين وكمبوديين وكوريين ويابانيين وباكستانيين وفرس وروس وتتار وأيبيريين وبشناق وألبان، وما زال حتى الآن يقبل عليه كثير جدا من الغربيين فى أوربا وأمريكا وأستراليا رغم ضعف أهله الشائن واتصاف كثير منهم بما من شأنه التنفير من الإسلام. والإسلام حين ينجح فى هذا السبيل لا ينجح بين الطبقات العامة وحدها، بل يجذب كبار المثقفين ورجال الدين والدولة ممن يقرأون ويتعمقون ويقارنون ويعرفون ما قيل فى حق الإسلام من انتقادات وجهها إليه شياطين الإنس. وهى انتقادات كانت حرية أن تصرفهم عن ذلك الدين، إلا أنهم يتغلبون على هذا كله ويعتنقون دين الله. فلم تلك الوخزة السامة التى لا تليق بفيليب حتى، إن لم يكن بشخصه فبوصفه ممثلا للمؤرخين والعلماء؟

ومع هذا نرى فيليب حتى يقف مبهورا أمام إنجاز الفتح الأندلسى، إذ يقول إن حملة فتح الأندلس تتبوأ مكانا فريدا فى تاريخ العصر الوسطى العسكرى من حيث سرعة التنفيذ وكمال النجاح[١]. ثم يقف مستعرضا الأسباب التى سهلت على المسلمين فتح تلك البلاد على هذا النحو غير المسبوق، فيذكر الشقاق بين حكامها القوط والمظالم التى كان أولئك الحكام الغرباء يصبونها فوق رؤوس الأهلين، والاضطهاد الدينى البشع الذى كانوا ينزلونه بالنصارى واليهود على السواء: النصارى بإكراههم على تغيير مذهبهم واعتناق مذهب الحاكمين، واليهود لإجبارهم على تغيير ديانتهم كى يصبحوا نصارى، فضلا عن سخط العبيد على وضعهم المزرى. ومن ثم لا غرابة، كما يقول حتى، فى أن يساعد أولئك المستعبدون المستذلون الفاتح المسلم ويمهدوا الطريق أمامه إلى دخول البلاد[٢].

ويصل حتى إلى المحاولة الإسلامية الأولى لفتح فرنسا فيذكر، بين البواعث التى فتنت الحر بن عبد الرحمن ثالث ولاة الأندلس وأغرته بالقيام بهذا الفتح، باعث الاستيلاء على كنوز الأديرة والكنائس فى تلك البلاد[٣]. وقد كرر هذا الاتهام لدن كلامه عن تكرير عبد الرحمن الغافقى لتلك المحاولة[٤]. ولست أدرى السبب الذى حدا بحتى إلى المجازفة بهذا الاتهام. وهل، حين يضع المسلمون أقدامهم على أول أرض فرنسية، سوف تتفتح السبل أمامهم إلى تلك الكنوز فيصلوا إليها دون حرب تأخذ منهم زمنا ليجدوا الكنوز فى مواضعها دون أن يكون أهلوها قد نقلوها بعيدا عن أيدى المسلمين؟ وهل كانت معهم خريطة

---

[١] ص٦٨.

[٢] ص٧٤.

[٣] ص٧٥.

[٤] ص٧٦.

بكل الكنائس والكنوز التى فيها يوزعونها على رجالهم بحيث لا يفلت منهم أى كنز من هذه الكنوز ولا يضيع منهم وقت فى تعرف الطريق إليه ووضع أيديهم عليه؟ أما إذا كانت لدى المسلمين رغم هذا كله تلك النية فأين هى الوثائق التى تذكر ذلك؟ أم ترى عالمنا المؤرخ ممن يضربون الوَدْع فيعرفوا نيات القواد الفاتحين التى لم يفصحوا عنها؟ من الواضح أن قوله ذاك ضَرْبٌ من التعسف الذى لا معنى له. ويزيد كلامه سوءا أنه لا يسوقه على أنه مما يخيَّل له مثلا، بل على أنه أمر مفروغ منه. ترى كيف نسى فيليب حِتى أنه هو نفسه قد كرر القول بأن المسؤولين المسلمين الذين وقع فتح الأندلس فى عهدهم لم يكونوا يرحبون بتوسيع قادة الجيش لجبهات الفتح[١] بما يعنى أنهم لم يكونوا يهتمون بتضخم الثروات المترتبة على التوسع فى الفتوح؟ أم تراه سيقول إن الحر بن عبد الرحمن إنما كان يطمع فى إحراز تلك الكنوز الكنسية لنفسه؟ لكن أهذا ممكن أصلا؟ إن أية كبيرة أو صغيرة مصيرها أن يعلم بها الخليفة، وبالتالى لن يكون الحر قادرا على الحصول على تلك الكنوز لنفسه. وهذا إن كان الحر ممن يَغلون المغانم ولا يوصلونها للدولة، وهو ما لا دليل عليه أبدا. وإذا كانت الكنوز الكنسية المذكورة سيكون مصيرها للدولة لا للحر بن عبد الرحمن، فلماذا يخاطر الحر بحياته ويموت فى مغامرة لن تعود عليه من ورائها أية مصلحة ما دمنا فى نطاق الأطماع الدنيوية؟ وهكذا يتبين أن ما قاله د. حِتى عن ذلك الوالى الأندلسى غير مقبول ولا معقول. ثم لماذا تفكر الدولة الإسلامية فى القيام بهذا العمل؟ أكانت على شفا الإفلاس والجوع والتشرد؟ لقد كانت البلاد المفتوحة أكثر من الهم على القلب، وكان المسلمون قد فتحوا لتوهم أسبانيا بلاد المن والسلوى، وهى وحدها كفيلة بأن يعيش المسلمون فى ثبات ونبات إلى أبد الآبدين. الحق أننى لا أستطيع أن أفكر إلا فى أن الحر ورجاله كانوا يريدون بفتح فرنسا نشر كلمة التوحيد حتى يكون الفرنسيون على بينة من أمرهم بدلا من أن يظلوا جهلاء بدين محمد صلى الله عليه وسلم ووحدانيته الطاهرة.

ونصل إلى الفصل الذى يقلب فيه حِتى الصفحات الأولى من سجل الحياة الاجتماعية والثقافية لدى المسلمين فى العهد الأموى، فنراه يختم كلامه فى آخر سطرين من ذلك الفصل قائلا: "والآن، وقد أُعطى العربىُّ العالمَ درسا فى فن الحرب، ها هو ذا قد صار مستعدا ومتلهفا لتعلم فنون السلم": "Having given the world a lesson in the art of war, the Arab was now ready and eager to learn the arts of peace"[٢]، وهو ما أداه المترجم العربى على النحو التالى: "ومما تقدم وما يلى يتبين أن العرب لم ينالوا قصب السبق فى ميدان الحروب فقط بل فى ميدان العلوم والفنون

---

[١] انظر ص٩٣– ٩٤. وبوجه عام لم يكن الحكام المسلمون يحبذون التسرع فى فتح البلاد منذ الفاروق على الأقل كما هو معروف، فضلا عن أن تفصل بينهم وبين قواتهم الحربية أمداء شاسعة.

[٢] ص٨٨.

أيضا"[١]. ومن الواضح أن المترجم قد أعطى لنفسه حرية واسعة فى نقل ما قاله حِتّى إلى لغة القرآن فلوى المعنى بعيدا عن المراد. هذه واحدة، أما الثانية فهى أن العربى، فى نظر حِتّى، لم يكن عنده ما يقدمه للعالم إلا الحروب، وكأن العالم كان غارقا لحد التخمة فى السلم وبُلَهْنِيَة السكينة والسعادة حتى أتى العربى (بل المسلم) الشرير فأيقظه من حالة "النزفانا" التى كان يغط فيها، بل وكأن العالم لم يكن يعرف فن القتال إلى أن جاء العرب فعلموه إياه فى مقابل أن يعلمهم فن السلم، أى العلوم والفنون، وكأن العربى لم يكن بيده القرآن وتوجيهات الرسول الكريم، اللذان قدمهما غنيمة باردة لشعوب البلاد التى فتحها فأشركهم فى النعمة الإلهية التى أسبغها الله عليه، علاوة على اللغة وآدابها من شعر وقصة وخطب وأمثال، وهو ميدان دخله دخولا سريعا وقويا الكتاب والأدباء المنتمون إلى الأمم الأخرى غير العربية وأضافوا إليه واشتركوا مع إخوانهم العرب فى تطويره. فهل هذا بالقليل؟ وإذا تركنا الأدب جانبا، أليس الدين الذى حمله العرب إلى الأمم المختلفة هو أساس كل شىء؟ أليس هو التشريعات والقيم والأخلاق والتوجيهات السلوكية التى تضبط الحياة وتحكمها، والباقى بعد ذلك سهل كل السهولة؟ ألا يكفى أن الشعوب الأخرى قد تخلت عن آدابها ولغتها واصطنعت آداب العرب وكتبتها بلغة العرب وترجمت العلوم القديمة إليها وطورت تلك العلوم من خلالها متعاونة فى ذلك كله مع العلماء العرب الأقحاح؟ الواقع إن فى العبارة القصيرة التى قدمتها للقارئ هنا من كلام فيليب حِتّى لأشواكا مؤذية غير قليلة.

وهناك خطأ وقع فيه مترجم كتاب د. حِتّى بالنسبة إلى آخر خلفاء بنى العباس، إذ قال إن المغول قد قتلوا آخر خليفة عباسى عند دخولهم بغداد سنة ١٢٥٨م[٢]، بينما كل ما قاله حِتّى هو أن الخليفة العباسى السابع والثلاثين قد قتل على أيدى المغول فى ذلك التاريخ[٣]. أما وجه الخطإ الذى ارتكبه المترجم فهو أن الخلافة العباسية لم تنته بموت ذلك الخليفة، بل انتقلت إلى مصر، وإن استحالت هناك إلى خلافة إسمية محضة، على حين كان الحكم الفعلى بيد المماليك. لقد جلس على العرش فى مصر سبعة عشر خليفة عباسيا آخرون فوق السبعة والثلاثين خليفة الذين حكموا فى بغداد، فكيف يقال إن المستعصم بالله، الذى قتله هولاكو المغولى، هو آخر الخلفاء العباسيين بإطلاق؟ لقد كان ينبغى أن يقال إنه آخر خليفة عباسى تولى الأمر فى بغداد. أما أنه آخرهم على الإطلاق فهو غير صحيح. ومن هنا فإن الخلافة

---

[١] ص١١١ من الترجمة العربية.

[٢] ص١١٤ من الترجمة.

[٣] انظر ص٩١ من الأصل الإنجليزى. والواقع أن مثل ذلك الخطإ هو أحد العوامل التى حملتنى فى كتبى ودراساتى الأخيرة إلى نقل النص الأجنبى الذى أترجمه أو ألخصه تحت بصر القارئ كى يقرأه القارئ بنفسه فيكون معى فى الصورة ويطمئن إلى صحة ما أقول.

العباسية لم تنته بدخول هولاكو بغداد وقتله الخليفة المستعصم، بل انتقلت إلى مصر وبقيت هناك عدة قرون أخرى بدءا بالمستنصر بن الظاهر، الذى تولى الخلافة سنة ٦٥٩هـ، وانتهاء بالمتوكل الثالث بن المستمسك، الذى تولى الخلافة سنة ٩٢٣هـ[١].

وهناك نقطة أرى أن فيليب حتّى فيها على حق خالص، إذ قال إن المترجمين الذين نقلوا آثار اليونان القديمة إلى العربية لم يهتموا بما لدى الإغريق من شعر ومسرح وتاريخ[٢]. وللأسف قد شاع بين عدد غير قليل من الدارسين العرب أن العرب اطلعوا على المسرح اليونانى القديم فوجدوه مسرحا وثنيا يتحدث عن الآلهة ويجسدها ويقيم صراعا بينها وبين البشر، فأنكروه وأحجموا عن ترجمته. وهو رأى قال به د. محمد مندور مثلا فى كتابه: "المسرح" و"الأدب وفنونه"، وكذلك توفيق الحكيم فى مقدمة مسرحيته: "الملك أوديب". ومعنى هذا الكلام أن المسلمين اطلعوا على المسرح الإغريقى وما فيه من وثنية تخالف الإسلام فنفروا من ترجمته. لكن لم يحدث أنْ ساق مندور أو الحكيم أو غيرهما أى شىء يدل على معرفة المسلمين للمسرح الإغريقى. ولو كانوا عرفوا ذلك المسرح ما أخطأ كبار تراجمتهم وفلاسفتهم كمتّى بن يونس وابن رشد وابن سينا فى ترجمة مصطلحى "التراجيديا والكوميديا" فقالوا إن المقصود بهما "المدح والهجاء". فحين يقول فيليب حتّى إن المترجمين الذين نقلوا فى العصر العباسى التراث الإغريقى إلى لغة القرآن لم يهتموا أصلا بأدب الإغريق فإنه يقول الرأى الصحيح المنطقى. وهو ما دفعنى إلى أن أتريث أمام هذا الذى قال وأُشِيد به على هذا النحو.

وثَمّ حكاية عن حُنَيْن بن إسحاق المترجم والطبيب العباسى المشهور حكاها عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع وأوردها عنه ابن أبى أُصَيْبِعَة فى كتابه: "طبقات الأطباء" تقول: "قال عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع في "مناقب الأطباء" إن حُنَيْنًا لما قَوِيَ أمره وانتشر ذكره بين الأطباء واتصل خبره بالخليفة أمر بإحضاره، فلما حضر أُقطِع إقطاعاتٍ حسنة، وقُرِّر له جار جيد. وكان يشعره بزبور الروم. وكان الخليفة يسمع بعلمه، ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره. وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظنًّا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئا من الحيلة به، فاستدعاه يوما وأمر بأن يُخلع عليه، وأحضر توقيعا فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم، فشكر له حنين هذا الفعل. ثم قال بعد أشياء جرت: أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوا نريد قتله، ولا يمكن إشهاره، ونريده سرا. فقال حنين: يا أمير المؤمنين، إني لم أتعلم إلا الأدوية النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها. فإن أحبّ أن

---

[١] انظر المستشرق زامباور/ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى/ ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود/ دار الرائد العربى/ بيروت/ ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م/ ٤- ٥ تحت عنوان "الخلفاء العباسيون فى مصر".

[٢] ص١٠٠.

أمضي وأتعلم فعلت ذلك. فقال: هذا شيء يطول. ورغّبه وهدّده، وهو لا يزيد على ما قاله، إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع، ووكّل به من يوصل خبره إليه وقتًا بوقت، ويومًا بيوم. فمكث سنة في حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف، وهو غير مكترث بما هو فيه. فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أموال يرغبه فيها، وأحضر سيفًا ونطعًا وسائر آلات العقوبات. فلما حضر قال: هذا شيء قد كان، ولا بد مما قلته لك. فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه. وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة، وقتلتك شر قتلة. فقال حنين: قد قلتُ لأمير المؤمنين إني لا أحسن إلا الشيء النافع، ولم أتعلم غيره. فقال الخليفة: فإني أقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ بحقي غدا في الموقف الأعظم. فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل. فتبسم الخليفة وقال له: يا حنين، طِبْ نفسًا، وثِقْ إلينا. فهذا الفعل كان منا لامتحانك لأنا حُذرنا من كيد الملوك، وإعجابنا لننتفع بعلمك. فقبّل حنين الأرض وشكر له، فقال له الخليفة: يا حنين، ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في الحالين؟ فقال حنين: شيئان يا أمير المؤمنين. قال: وما هما؟ قال الدين والصناعة. قال: فكيف؟ قال: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا، فكيف بأصحابنا وأصدقائنا؟ ويُبعِد ويُحرِم من لم يكن كذا. والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم، ومقصورة على مصالحهم. ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهدا مؤكدا بأيمان مغلظة ألا يعطوا دواءً قتالاً ولا ما يؤذي. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشرعيين، ووطنت نفسي على القتل، فإن الله ما كان يضيع مَنْ بذل نفسه في طاعته، وكان يثيبني. فقال الخليفة: إنهما لشريعتان جليلتان. وأمر بالخلع، فخلِعَتْ عليه، وحُمِل المال بين يديه، وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالاً وجاهًا"[١].

والآن أحب الوقوف عند تلك الحكاية التى تمدح طبيبا غير مسلم وتظهره بمظهر الشجاع الذى لا يبالى أن يُقتل فى سبيل مبادئه، والذى يواجه الخليفة ذاته بكل هيله وهيلمانه رافضا الأموال الطائلة التى تدير الرؤوس، ومتحديا ما يهدده به من العقاب الأليم، ثم صابرا محتسبا على الحبس سنة كاملة، ثم متحديا مرة أخرى ترغيب الخليفة وترهيبه. كما يلفت النظر نقل ابن أبى أصيبعة للحكاية فى كتابه: "طبقات الأطباء"، مما يدل على أنه حين حكاها لم يكن يجد فى نفسه أى تعصب دينى، إذ ها هو ذا يورد حكاية تمجد شخصا غير مسلم فى مواجهة أكبر رأس بين المسلمين. وفى هذا من التسامح العظيم ما فيه.

إلا أن لنا عددا من الملاحظات على الحكاية رغم ذلك: منها تجهيل اسم الخليفة، وهو ما يجعل الكلام عائما غائما. لقد عاصر حُنَيْنٌ تسعة من خلفاء بني العباس كما ورد فى المادة الخاصة به فى "الموسوعة العربية العالمية"، فمن ذلك الخليفة يا ترى؟ ومن هو الملك الذى كان يريد اغتياله؟ ثم ألم يكن

---

[١] بهذا التفصيل وردت الحكاية فى "طبقات الأطباء"، لكن فيليب حتى أوردها فى كتابه موجزة.

هناك من طريقة أخرى يتبين للخليفة من خلالها مدى إخلاص حنين أو خيانته غير تلك الطريقة التى تتسم باللف والدوران وتظهر الخليفة بمظهر الرجل الشرير المتهافت على طبيبه غير المسلم من أجل أن يساعده فى اغتيال عدو له؟ لقد كان فى مقدور الخليفة مثلا أن يطلب منه الشرب من أى دواء يصفه له قبل أن يتعاطاه هو، على طريقة القصور الملكية المعروفة قديما والمتمثلة فى أن يَطعَم المشرفُ على المطبخ من أى أكل أو شرب يقدَّم للحاكم قبل أن يأكله أو يشربه هو. كذلك من المحتمل جدا، إن كان هناك تآمر فعلا من جانب أحد الملوك مع حنين على اغتيال الخليفة، أن حنينا سوف يفهم أن المقصود من طلب الخليفة اختباره، ومن ثم كان من المتوقع أن يلجأ إلى التظاهر برفض تحضير الدواء السام حتى يطمئن إليه الخليفة وتذهب شكوكه منه، ومن ثم لا يفلح فى غسل الشكوك عن صدر الخليفة بسبب تفكير الخليفة على ذلك النحو ذاته. بل لقد كان بمقدور الخليفة أن يكلف أحدا من الحاشية بالتنقيب عن حقيقة حنين، وما أكثر من هو مستعد للقيام بهذا. كذلك إذا كان حبس حنين قد أريد به الضغط عليه فلماذا ترك له أن يأخذ معه ما يلزمه من أوراق وأحبار وأقلام تساعده على قضاء وقته سعيدا فى السجن؟ ألا يتعارض هذا وذاك؟ ليس هذا فحسب، بل هناك أيضا أن الخليفة مكث سنة لا يتعاطى دواء من وصف حنين ما دام لا يطمئن إليه، فهل كان هذا ممكنا؟ فإذا كان هذا ممكنا كان ممكنا إذن أن يمضى الخليفة بقية حياته دون الحاجة إلى وصفاته العلاجية، ولا داعى لكل دوشة الدماغ هذه. ثم هناك المسافة الزمنية التى ظلت فيها تلك الحكاية كامنة لا يعرفها فضلا عن أن يرددها أحد، إلى أن جاء ابن بختيشوع فى القرن الخامس الهجرى، أى بعد قرنين، فحكاها على ذلك النحو التجهيلى الغامض الذى لا يبعث على الثقة أو يساعد على التثبت[1]. ترى لماذا لم يتعرض أحد المؤرخين لتلك الحكاية، وهى ليست بالهينة حتى تهمَل من جانبهم جميعا كل ذلك الإهمال؟ بل لماذا لم يحكها ابنه إسحاق بن حنين[2]، وقد خدم من الخلفاء والرؤساء مَنْ خدمه أبوه، وكان يترجم كتب الحكمة المكتوبة باليونانية مثله، وترجم لعدد من الأطباء والفلاسفة؟

---

[1] انظر ترجمة كل من حنين بن إسحاق وعبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع فى "طبقات الأطباء" لابن أبى أصيبعة مثلا حيث تقرأ أن حنينا كان معاصرا للمأمون فى القرن الثالث الهجرى، على حين كان ابن بختيشوع من أهل القرن الخامس.

[2] انظر ترجمته فى "طبقات الأطباء" لابن جلجل الأندلسى، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"طبقات الأطباء" لابن أبى أصيبعة، و"الموسوعة العربية الشاملة"، و"الويكيبيديا". وقد ذكر البيهقى أنه أسلم فى أواخر حياته. ومن أطرف الأمور أن يحكى ابن جلجل هو أيضا حكاية عن إسحاق مع المتوكل تشبه حكاية أبيه مع الخليفة المجهول، فيقال إن المتوكل قرر بعد حادثة لإسحاق معه ألا يتناول دواء يصفه له إلا بعد مراجعة الطيفورى لذلك الدواء، وأنه لهذا السبب قد مات غما أو

الواقع، كما يبدو لى، أن ابن بختيشوع قد "رَكَّبَ" حكاية ترفع من شأن طبيب من نفس دينه يتقدم عليه كثيرا فى الزمن بحيث لا يسهل التثبت من حقيقتها، وفى ذات الوقت يمكنه أن ينجو من مَغَبّتها، إذ سيكون جوابه لمن يسأله عن السبب الذى جعله يُظهر الخليفة بهذا المظهر غير الطيب أن الخليفة لم يكن يريد اغتيال أحد، بل كان يريد التثبت من إخلاص طبيبه. على أن قول "مركِّب" الحكاية إن الخليفة كان قبل هذا يطلب من حنين أن يصف له الدواء، لكنه لم يكن يطمئن إليه، بل كان يلجأ إلى مشاورة أحد الأطباء الآخرين بشأنه قبل أن يتناوله، يدفعنا إلى أن نسأل: لماذا لم يلجأ مباشرة إلى ذلك الطبيب من أجل الحصول على ما يحتاج إليه من دواء بدلا من هذا الأخذ والرد والعيش فى شكوك مرهقة لا يتسع لها وقته ولا تحتملها أعصابه؟ ومَنْ ذلك الطبيب الآخر يا ترى؟ أوَلم يَعِنَّ له أن يسأل الخليفة عن السر فى عدم اطمئنانه إلى ما يصفه له طبيبه الخاص من أدوية ثم يريحه باقتراح طريقة أخرى للعلاج بدلا من هذا الهم المُقعِد المقيم الذى يصطلى ناره؟ وفى ختام هذا كله نتساءل: لماذا أسرع حتى إلى إيراد مثل تلك الحكاية التى لا تدخل العقل، وهو الذى كثيرا ما يشكك فى أمور أخرى هى الغاية فى العقل والمنطق؟

وفى الفصل المسمى: "Sience and Literature" نرى فيليب حتى يعمل على إبراز بعض إسهامات العرب فى ميدان العلوم والآداب، وكأنه يرد على ما يزعمه بعض الغربيين من أن العرب انحصر دورهم، على مدى تلك القرون التى كانت أوربا فيها تغط فى سُبَاتٍ غويطٍ، فى الحفاظ على التراث الإغريقى. أى أن العرب لا قيمة لهم فكرية ولا علمية ولا فلسفية، بل هم مجرد أجهزة للحفظ ليس غير. وهو غرور ما بعده غرور من قِبَل الغربيين، الذين يظنون أنهم وحدهم المفكرون المبدعون، وأنه حين ينتابهم الخمول يتعطل الإبداع بدوره ويصيبه الخمول مثلهم، إلى أن يستيقظوا فيستأنفوا النشاط الفكرى والإبداعى. وفى أثناء ذلك تنحصر جهود الأمم الأخرى فى الحفظ والتخزين، وكفى الله العرب والمسلمين شر الفكر والتفكير. ولماذا يتعب العرب والمسلمون وغيرهم أنفسهم، وقد أراحهم الله من ذلك بخلق الغربيين ينوبون عن العالم كله فى ذلك الشأن؟ أرأيتم عنصرية بغيضة كتلك العنصرية؟

لكنْ حمدا لله أن قيض من بين أولئك الغربيين أنفسهم من أرخ للعلوم فى العالم أجمع فأبرز، ضمن ما أبرز، الجهود العبقرية العملاقة التى أنجزها العرب والمسلمون فيما يسمى لدى الغربيين بـ"العصور الوسطى"، وهى العصور التى كان الغرب أثناءها متخلفا أشد التخلف، تسوده الأمية والجهل والقذارة والأمراض والفقر والاستبداد والهمجية والخرافة والفوضى والانقياد الأعمى لرجل الدين الجاهل الخبيث المنهمك فى شهوات الدنيا على حساب جموع العوام المعصوبى العيون والعقول كالبهائم. ونحن، حين نقول هذا، لا نريد

سقى نفسه سما. على أن البيهقى، كما جاء فى ترجمة حنين فى "وفيات الأعيان" و"الويكيبيديا" مثلا، قد ذكر أن إسحاق أسلم فى أواخر حياته فى عهد المكتفى، الذى يسبقه المتوكل بستة خلفاء.

إلى الزعم بأن الأوربيين أقل منا في الفهم أو في الاستعداد الحضاري، بل نذكرهم بماضيهم الذى لا يسر عدوا ولا حبيبا لنكفكف من غلواء تعصبهم. وحاشا لله أن نغمط الأوربيين حقهم، وإلا كنا كمن يتهم الله سبحانه وتعالى بأنه يحابينا عليهم. أستغفر الله!

وهذا نفسه ما أقوله دائما لطلابي أستحثهم على الانخلاع من حالة البلادة الضاربة بأطنابها فى بلاد المسلمين خلال القرون الأخيرة، إذ أستعمل معهم هذه الحجة قائلا: إنكم وأشباهكم من الطلاب فى الغرب من صنع يد واحدة هى يد الله عز وجل، ومن ثم لا تقلون عنهم فى شىء: لا فى ملامح الوجه ولا فى عدد الأصابع أو الأسنان ولا فى مواهب العقل مثلا، ولكم عينان مثلما لهم عينان، وأنف بمنخرين كما لهم أنف بمنخرين اثنين لا أزيد ولا أنقص. . . وهكذا. ولقد كان أسلافنا قبل عدة قرون مثال التحضر والرقى العلمى والفكرى، على حين كان الغرب ينام نومة أهل الكهف، ثم تغير الزمن وانقلب الحال. ويمكنكم بنفس الطريقة أن تقلبوا الوضع فتصبحوا أنتم المتحضرين وتقودوا قاطرة التمدن بدلا منهم.

وفى الفصل الذى نحن بصدده يحاول حِتّى أن يقدم نتفا شديدة الضآلة من الإبداعات والجهود العلمية والفلسفية والأدبية التى تمت على أيدى العرب والمسلمين. ومن المعروف أن مسيرة التغير والتطور فى هذه الحالة إنما تبدأ بترجمة ما عند الآخرين مما ينقصنا. على أن يكون واضحا للعيان منذ الوهلة الأولى أن الترجمة ليست غاية فى ذاتها، وإلا ظللنا نراوح مكاننا لا نبرحه أبدا، فنترجم أولا بأول ما تنتجه عقول الآخرين، وغالباً ما يكون ذلك فى الأمور التى لا تفيدنا كثيرا، بل ربما كانت تضرنا، أو على الأقل: تضرنا أكثر مما تفيدنا، دون أن نفكر فى أننا نستطيع منافستهم ومساواتهم، وكذلك التفوق عليهم. وللأسف فإن بيننا الآن من يحاول إيهامنا بأن دورنا ينحصر فى الانكباب على ماعند الغرب واستظهاره وتقليدهم فيه دون محاولة منا إضافة بصمتنا المميزة. وهذا هو الفشل بعينه.

ولسوف أكتفى بنقل السطور التالية من كتاب د. حِتّى كى أعطى القارئ فكرة سريعة جدا عن مدى تقدم الطب فى الحضارة العباسية. يقول مؤرخنا اللبنانى المتأمرك: "لقد كان الطبيب[١] أيضا عالما فيما وراء الطبيعة وفيلسوفا وحكيما. وكان العرب هم أول من جعل محلات لبيع الأدوية، وأول من أنشأ مدرسة للصيدلة، وأول من ألف فى علم التداوى. ومنذ عهد المأمون كان على الصيادلة أن ينجحوا فى امتحان يُعقد لهذا الغرض. وكان على الأطباء أن ينجحوا كالصيادلة فى الامتحان أيضا. ونتيجة لخطإ ارتكبه أحد الأطباء كلف الخليفة عام ٩٣١م واحدا من أعلام الطب أن يقوم باختبار كل الأطباء الممارسين وأن يعطى شهادات بذلك لمن تتوفر فيهم المؤهلات المطلوبة، فنجح منهم فى بغداد ما يزيد على ثمانمائة وستين. وبهذا تخلصت العاصمة من المدعين. وكان هناك ما يشبه الخدمة الصحية الريفية، إذ أمر

---

[١] يقصد الطبيب العربى

أحد الوزراء بإرسال حملة من الأطباء تنتقل من مكان إلى مكان حاملةً معها الدواء لمعالجة المرضى. كما كان هناك أطباء آخرون يزورون السجون يوميا للقيام بنفس المهمة. ومثل هذه الأشياء إنما تدل على اهتمام واعٍ بالصحة العامة لم يكن موجودا فى أى مكان من العالم فى ذلك الوقت. وفى عهد هارون الرشيد أُسس أول مستشفى فى تاريخ الإسلام على غرار ما كان معروفا لدى الفُرس، وكان ذلك فى بداية القرن التاسع الميلادى. ثم انتشرت المستشفيات فى أنحاء العالم الإسلامى ليبلغ عددها أربعة وثلاثين. أما القاهرة فقد شاهدت أول مستشفى بها حوالىْ عام ٨٧٢م، واستمر وجودها حتى القرن الخامس عشر. كذلك عرفت الحضارة الإسلامية العيادات المتنقلة فى القرن الحادى عشر. وبالمثل كانت المستشفيات الإسلامية تضم عنابر خاصة بالنساء، وفى كل منها صيدلية لصرف الدواء المطلوب، كما كان بعضها مجهزا بمكتبات طبية، ويقدم محاضرات منظمة فى الطب"[١].

وعن الطب أيضا فى الحضارة الإسلامية يورد فيليب حِتّى هذا النص العجيب عن العَدْوَى بقلم المؤرخ والأديب والطبيب والوزير لسان الدين بن الخطيب، إذ كان هناك طاعون عصف بالناس فى البلاد الأوربية عصفًا فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى حتى أهلك ثلث سكان القارة، فوضع هذا الطبيب رسالة فى العدوى أورد حِتّى بعضا من سطورها. كتب ابن الخطيب: "فإن قيل: كيف تسلم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفيِ ذلك؟ قلنا: وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحسّ والمشاهدة والأخبار المتواترة. وهذه مواد البرهان. وغير خفيّ عمن نظر في هذا الأمر أو أدركه هلاك من باشر المريض بهذا المرض غالبا، وسلامة من لا يباشره كذلك، ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوبٍ أو آنية، حتى إن القُرط أتلف من علق بأذنه وأباد البيت بأسره، ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم في جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق، ووقوعه في مدن السواحل المصطحبة حال السلامة إلى أن يحل بها في البحر من عُدْوَة أخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجلٌ مُوَف، فيكون تاريخ ظهور المرض بها مقارنا لحلوله، وسلامة الكثيرين ممن أغيا في التوحش كالزاهد ابن أبي مدين بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى، وقد تزوّد لمدة، وبنى باب منزله على أهله، وهم كثيرون، وفنيت المدينة، ولم يُرزأ نسمة واحدةً بطول تلك المدة. وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لا تطؤها الطرق منقطعة عن الناس. ولا أعجب في هذا العهد من سجن الأسرى المسلمين، أنقذهم الله، بدار صناعة إشبيلية، وهم أُلوفٌ لم يصبهم الطاعون وقد كاد يستأصل المدينة. . . ومن الأصول التي لا تُجْهَل أن الدليل السمعي إذا عارضه الحسّ والمشاهدة لزِمَ تأويله. والحقُّ في هذا تأويله بما ذهب إليه طائفة ممن أثبت القول بالعَدْوَى. وقد وقف قومٌ من أهل الورع

---

[١] ص١١٩– ١٢٠.

بالعدوى إلى الناس مستقلين مشهدين على أنفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك تحرجًا من تسويغ الإلقاء باليد إلى التهلكة. عصمنا الله من الخطل، ووفقنا في القول والعمل"[١].

والآن أرجو من القارئ أن يقارن بين هذا الكلام الذى وصف به ابن الخطيب ما كان يحدث أيام ذلك "الطاعون الأسود" وبين المقالة التالية التى نقلتها من موسوعة "الإنكارتا" الفرنسية تحت عنوان "Contagion"، وسوف يلاحظ القارئ أن مقالة "الإنكارتا" تهتم بالتصنيف على حين يورد ابن الخطيب معلوماته عن العدوى دون مراعاة لذلك. و لعل هذا أهم فرق بين الكلامين:

"Contagion: transmission d'une maladie d'un individu atteint à un individu non porteur de cette maladie. Du latin, *contagio,* « contact », le terme de contagion ne s'applique au sens strict qu'à la transmission d'une maladie entre deux individus de la même espèce (chez l'Homme par exemple, il exclut la transmission par des vecteurs animaux). On distingue deux types de processus contagieux. La contagion directe a lieu lorsque le sujet malade et le sujet sain sont en contact : elle peut se faire par le simple toucher (gale, fièvre hémorragique Ebola…), par les relations sexuelles, les transfusions sanguines ou l'utilisation de seringues non stérilisées (hépatite B, sida) ou encore, cas le plus fréquent, par voie aérienne, à la faveur, notamment, des éternuements et de la toux (rhume, grippe). La contagion indirecte se fait par l'intermédiaire de vêtements ou d'objets contaminés (diphtérie), ou par ingestion d'une eau infectée, principalement par les déjections (choléra). Certaines maladies présentent les deux types de processus contagieux : la mononucléose infectieuse, par exemple, peut être transmise par contact direct (baiser), mais aussi indirect (utilisation du même verre qu'une personne malade). C'est également le cas de l'herpès labial pendant les phases éruptives (boutons de fièvre)".

هذه بعض لمحات سريعة مما عرفته حضارتنا السابقة فى ميدان الطب وحده، ويستطيع القارئ أن يقيس باقى الجهود الحضارية عليها، مما تعلم منه الغربيون، الذين يشمخون علينا الآن بأنوفهم ويصعّرون لنا خدودهم ويزعجوننا، ككل محدث نعمة، بحديثهم عن تفوق الرجل الأبيض ورسالته التى كُلِّف بها (مِمَّنْ؟) نحو بقية الشعوب، وكأن الشعوب كانت منذ فجر البشرية غارقة لأذنيها وأنفها فى الجهل والتخلف و الوحشية حتى هل علينا سيادته حاملا رسالته التى ظل يصدعنا بها منذ أن خرج من جهله وتوحشه وأصبح آدميا متحضرا، وهى فى الحقيقة رسالة الغزو والاحتلال والتدمير والنهب والقتل والعدوان على الأعراض، وكذلك الإبادة أو العمل بكل سبيل على دوام ما تعانيه الشعوب الأخرى من تخلف إلى الأبد إن استطاع، متجاهلا أنه كانت فى أفريقيا ممالك زنجية متحضرة فى الوقت الذى كان لا يعرف هو للحضارة طعما ولا معنى. ولقد ذكرتُ الزنوج متعمدا، ردا على ما تلفظ به مونتسكيو الفرنسى

---

[١] هذا النص منقول أكثره عن الترجمة العربية لكتاب حِتّى/ ١٩٣، وباقيه عن بحث منشور على المشباك بعنوان "الطاعون في العصور القديمة والوسطى" من إعداد الدكتور عبد الناصر كعدان والدكتور محمود عنجريني/ ٥٢- ٥٣. وقد نقله المرجمان عن رسالة ابن الخطيب: "مقنعة السائل عن المرض الهائل".

من حماقة ورقاعة لا تليق بإنسان. من حق مونتسكيو ألا يحب الرجل الزنجى، ولكن ليس من حقه أن يكذب تلك الكذبة السافلة التى مسوغ لها سوى سواد قلبه.

وهنا لا بد من التأكيد بأن شوقى أبو خليل على حق فى انتقاده فيليب حِتّى لقوله، فى الصفحة الثانية من الترجمة اللبنانية لكتابه المطول عن تاريخ العرب[١]، إن العرب "قاموا مقام الوسيط فى أن نقلوا إلى أوربا خلال القرون الوسطى كثيرا من المؤثرات الفكرية التى أنتجت بالتالى يقظة أوربا الغربية، ومهدت لها سبيل نهضتها الحديثة"[٢]. لقد كان على فيليب حِتّى أن يتبع سبيلا واحدة فى معالجة هذه النقطة، وما دام يقر عن حق بدور العرب الإبداعى فى مسيرة الحضارة الإنسانية كما رأينا لقد كان ينبغى أن يلتزم بهذه المقولة أيضا فى الموضع المذكور الذى وردت فيه عبارته السابقة، ومن ثم فشوقى أبو خليل محق تماما فى الانبراء لتفنيدها وإبراز ما فيها من تجنٍ على العرب والمسلمين، وفى تأكيده من أجل هذا أن العرب قد "ألفوا وأضافوا ورفدوا الحضارة فى شتى فروعها العلمية"[٣]. والواقع أن عبارة حِتّى فى هذا السياق ترشح بقوة لهذا الذى فهمه أبو خليل واحتج عليه وفنده، إذ قال المؤرخ اللبنانى المتأمرك إن العرب "قد ورثوا المدنية[٤] القديمة التى ازدهرت على ضفاف دجلة والفرات، وفى بلاد النيل، وعلى شواطئ البحر الأبيض الشرقية، ولم يكتفوا بهذا، بل إنهم اقتبسوا واهتضموا أهم معالم الثقافة اليونانية الرومانية، فقاموا بذلك مقام الوسيط فى أن نقلوا إلى أوربا فى العصور الوسطى أكثر تلك الآثار العقلية التى أسفرت فيما بعد عن يقظة أوربا الغربية ومهدت لها سبيل نهضتها الحديثة"، إذ من الواضح أن حِتّى لم يذكر للعرب إلا الفهم والهضم، ولم يتطرق إلى أية إضافة أبدعوها فى مجال الحضارة، وإن كان قد أضاف عقب هذا مباشرة قوله: "ولا نعرف شعبا ساهم فى العصور الوسطى فى التقدم الإنسانى بقدر ما ساهم العرب

---

[١] الخامسة فى ترجمة محمد مبروك نافع/ ط٣/ مطبعة دار العالم العربى/ القاهرة/ ١٩٥٢م.

[٢] ص١٣٤ وما بعدها من كتاب شوقى أبو خليل: "موضوعية فيليب حِتّى فى كتابه: تاريخ العرب المطوّل".

[٣] ص١٦٥ من كتاب شوقى أبو خليل.

[٤] اعترض شوقى أبو خليل (ص١٦٥) على استعمال كلمة "المدنية". لكن الحق يقتضى القول بأن حِتّى قد استعمل فى الأصل الإنجليزى كلمة "civilisation". إلا أن المترجمين العرب يختلفون فى ترجمة هذه الكلمة ما بين "الحضارة" و"المدنية". بل إن محمد مبروك نافع قد استخدم هو كذلك الكلمة الأخيرة لا الأولى. وأنا أفضل الأولى، وأستعملها فى الدلالة على كل شىء فى مسيرة التقدم الإنسانى بحيث تغطى الجوانب الروحية والمادية جميعا، على حين أرى تخصيص كلمة "المدنية" للجانب المادى وحده، الذى يبدو أن الأستاذ أبو خليل يقصرها عليه هو أيضا. وقد وضحت هذا فى مقدمة كتابى: "فصول من ثقافة العرب قبل الإسلام".

والشعوب المتكلمة بالعربية"[١]. إلا أنها عبارة عامة تماما لا تساعد على تبييض صفحة الدكتور حِتّى أمام انتقاد الأستاذ شوقى أبو خليل. وعلى هذا جاءت إضافة شوقى أبو خليل فى موضعها حين أكد أن العرب والمسلمين قد "نقلوا وترجموا وصححوا ودرسوا وأضافوا وأبدعوا"، ثم انطلق فذكر لمحات من إضافاتهم الإبداعية العبقرية التى لولا هى ما كانت حضارة أوربا، التى يستظل بها العالم فى العصر الحديث[٢].

ويلى هذا الفصل فصل آخر عن الفنون الجميلة. وبغض النظر عما قاله حِتّى فى هذا الصدد فإنى أحب أن ألفت الأنظار إلى ما يسود حياة المسلمين فى كثير من بلاد الإسلام من قذارة وفوضى وقبح لا يليق بمن ينتسب إلى دين محمد، ويزعم أنه يحب قرآنه وسنة نبيه، مع الانشغال الشديد عند كثير منهم بتحريم الغناء والتصوير بدلا من العمل على ترقية الذوق والإحساس الجميل. وإنى ليعترينى الشعور الحاد بالخجل والإحباط كلما خرجت إلى الشارع، وكثيرا ما أخرج لأتريض حسب أوامر الأطباء، إذ أشاهد فى كل مكان القبح والفوضى والقذارة وأكوام القمامة، وأشم النتانة، وأسمع الضجة المزعجة، وبخاصة زمامير السيارات، التى تصم الآذان بلا رحمة، وتكاد أن تبعث على الجنون، ولا أستطيع أن أكف عن الإحساس بالهم والغم وما يشبه اليأس متسائلا: هل هذا الذى أراه وأسمعه وأشمه ويحيط بى من الجهات الست، لا الجهات الأربع وحدها، يمكن أن يدل من لا يعرفون ديننا على أن هذا الدين الذى نعتنقه هو دين يدعو إلى التحضر والرقى؟ ألا نخجل؟ ألا يمكن أن نتنبه إلى وجوب وضع حد لتلك المعاناة التى تحيل حياتنا إلى ما يشبه الجحيم؟ أم ترانا فقدنا الحساسية والذوق، وانتهت فترة صلاحيتنا الحضارية، ولم يعد هناك أمل؟ هذا ما يدور بذهنى، وتتكدر بسببه فى كل مرة جولة التريض اليومية التى لا أستطيع أن أتوقف عن القيام بها لضرورتها الملحة لى، فأحاول أن أتغلب عليها عن طريق ما أسمعه فى مذياع الهاتف المحمول، ولكن هيهات، إذ هناك الحفر والنتوءات والتجعدات والانخفاضات والارتفاعات والحجارة وقطع الزجاج ونثار القمامة وأكوامها التى يعج بها الشارع والرصيف، إن كان هناك رصيف أصلا وكان من الممكن السير عليه، أو صحّ تسمية ما يمشى فيه الناس شارعا، فضلا عن حماقة سائقى السيارات الذين يتصرف معظمهم وكأنه لا وجود للمشاة حولهم فينطلقون بأقصى سرعتهم ضاربين البوق (أما سائقو النقل والتريلا فيضربون السرينة بكل وحشية) دون أدنى تفكير فى الآخرين. وهناك القطط والكلاب وأبناء عِرْس التى تجوب الشوارع والأرصفة "من نفسها" هى أيضا، وأحيانا جثثها. وهذا بالليل، وينبغى أن تضيف الذباب أيضا بالنهار.

---

[١] ص٥ من ترجمة محمد مبروك نافع لكتاب حِتّى.

[٢] ص١٦٨ وما يليها من كتاب شوقى أبو خليل.

ولن أمضى فى هذا الموضوع، فإنه يسبب لى ألما لا يطاق. صحيح أن ما قلته عن فقدان الأمل فى تغير أوضاعنا المزرية لا يصمد للتفكير المتأنى حين أثوب إلى نفسى وأعود إلى بيتى بعيدا عن القبح والقذارة والنتانة والفوضى والضجة، إذ إنى لأعلم أن مع العسر يسرا، وأن متخلفى اليوم هم متحضرو الغد، ومتحضرى اليوم هم متخلفو الأمس والغد أيضا، وأن دوام الحال من المحال، وأن الإصلاح يأخذ وقتا. لكن السؤال هو: إلى متى يا إلهى سنظل فى هذا الشقاء الحضارى؟ لقد ألفت كتابا عن "الحضارة الإسلامية" قبيل ثورة يناير مباشرة، وهو مملوء بالقلق والتوجس والتساؤل الملح عن العوامل التى قد يكون بمستطاع المصلحين المسلمين أن يوفروها لأمتهم إعانةً لها على النهوض من رقدة الخمول، بل من رقدة العدم التى هى فيها. فلما قامت الثورة المصرية فى يناير الماضى وأطاحت بالطاغوت وبعض زبانيته أخذ أصدقائى من الكُتّاب يداعبوننى قائلين: أولا تزال على رأيك السيئ فى الأمة؟ فيكون جوابى: ما شهدنا إلا بما علِمنا. لقد كانت الأمة فى منتهى السوء، فصارحناها بحقيقة أمرها نسنخها وننخسها كى تفيق. والآن لا نملك إلا أن نقول إنها ثورة عبقرية ألهمها الله سبحانه وتعالى هذا الشعب، ودبت فى الشعب عقبها حالة من النشاط تمثلت فى تنظيف الشوارع وتجميل بعض جدرانها بالصور المعبرة ودهان أحجار الأرصفة بالأبيض والأسود على التوالى، لكن سرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها، بل زادت عما كانت، وصرنا نقاسى من عيوب القذارة والنتانة والقمامة والإزعاج ما يفوق ما كنا نقاسيه من قبل، علاوة على بقاء العيوب الأخرى كما كانت. أقصد الكسل واللامبالاة والنفور من العلم والعمل والإنتاج والإتقان والرغبة فى الحصول على كل شىء دون أن نقدم شيئا، وعبادة موظفى الدولة لنصوص الروتين القديم وانصراف المدرسين إلى الدروس الخصوصية وإهمالهم لعملهم الأساسى الذى يتقاضون عليه مرتباتهم فى المدارس، وغياب طلبة الثانوية العامة بالتالى عن الحصص المدرسية مكتفين بتلك الدروس، إذ هم يعلمون جيدا أن حصص المدرسة لا تقدم ولا تؤخر، وبخاصة أن كثيرا من المدرسين يشجعونهم على عدم الحضور إلى المدرسة أصلا. وأخذت أتساءل: أين ذلك الشعب الذى قام بتلك الثورة العبقرية العجيبة؟ هل قام بها ثم مات؟ أم ماذا؟

ولقد كنت على وعى بأهمية مواصلة الشعب ليقظته منذ اليوم الأول، وأقول لمن حولى: فرغنا من الثورة الصغرى، وبقى أمامنا أن نقوم بالثورة الكبرى، الثورة الحقيقية، ثورة النظافة والذوق الجميل والنظام والعمل والإتقان والإنتاج والسعى وراء العلم وبذل الجهود الحثيثة المتواصلة كى ندخل نادى المبدعين. . . إلخ. فكان بعضهم يستغرب أن أهتم بمثل تلك الأمور الثانوية فى نظرهم. والواقع أن ردة فعل هؤلاء على ما أقول إنما تدل على أن خوفى فى محله تماما، إذ ليست الثورة غاية فى ذاتها، بل هى وسيلة لتغيير حياتنا إلى الأفضل. فإن لم يتم مثل هذا التغيير فلا جدوى إذن مما قمنا به، ولسوف يعود كل شىء إلى ما كان عليه، بل إلى أسوأ مما كان عليه. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال مَرْجِعَه من إحدى

الغزوات: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. يقصد عليه السلام بالجهاد الأكبر جهاد الحياة اليومية بغية الترقي والتحضر.

وفى الفصل الذى يتناول إسهاماتَ المسلمين فى الحضارة الغربية يقول المؤلف ما معناه أن "الأقوال الحِكمِيّة"[١] التى تمنع تعليم المرأة الكتابة لم يُلتزَم بها، فبقيتْ حبرا على ورق. هذا ما قاله المؤلف، بيد أن المترجم كان له رأى آخر، فقد ترجم كلمة "maxim"، التى ترجمتُها أنا بـ"الأقوال الحكمية"، على أنها "الأقوال والأحاديث" مما قد يوهم أن المراد هو أحاديث النبى محمد عليه الصلاة والسلام[٢] رغم أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أكد بكل سبيل أن طلب العلم "فريضة" على كل مسلم ومسلمة، فى الوقت الذى نجد فيه أن كل ما وَصَل إليه كثير من الناس الآن هو تصنيف القراءة على أنها هواية بما يفيد أنها شىء يأتيه صاحبه للتسلية وإزجاء الوقت لا أنه واجب سوف يحاسَب عنه يوم القيامة، ويعاقب إن لم يقم به أو يثاب إن هو أحسن عمله. وبمناسبة ما نحن فيه أود أن أقول إن هناك حديثا مكذوبا عن النبى عليه السلام ينهى عن تعليم المرأة الكتابة: "لا تعلموهن الكتابة، ولا تُسكِنوهن الغرف". إذن فكيف يتعلم النساء أصلا، وطلبهن العلم فرض عليهن، إذا تم منعهن من الكتابة؟ ولقد كانت بعض الصحابيات من القارئات الكاتبات كالشفاء العَدَوِيّة، التى طلب منها النبى أن تعلم زوجته حفصة القراءة والكتابة، فقد روت الشفاء بنت عبد الله العدوية فقالت: "دخل عليَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وأنا عند حفصة، فقال: ألا تعلّمين هذه رُقْيَة النملة كما علّمتِيها الكتابة؟". فكيف ينهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تعليم النساء الكتابة إذن؟ ثم لماذا النهى عن إسكانهن الغرف بالذات؟ وما شروط المسكن الصحيح لهن إذن؟ ترى هل ينبغى أن يكون لهن مسكن معين خاص بهن دون سائر أفراد الأسرة؟ أم ماذا؟

على أن المشكلة لدى العرب والمسلمين الآن ليست هى منع النساء من القراءة والكتابة ومنعهن من طلب العلم مراغمةً لأوامر ديننا، التى جعلت طلب العلم فريضة على كل من النساء والرجال، بل المشكلة هى كراهية المسلم بوجه عام للقراءة، رجلا كان هذا المسلم أو امرأة، ودعنا الآن من الكتابة، فلقد أصبحت كتابة عدة أسطر صحيحة ودقيقة عملا صعبا لا يحسنه كثير من خريجى الجامعة. نعم إنهم يستطيعون الكتابة، لكن أية كتابة؟ إنها كتابة لا تمت إلى ما نعرفه من أمر هذه اللغة وضوابطها فى صياغة اللفظة والجملة والتعبير والصورة وما إلى ذلك. بل إن كثيرا منهم صار يلجأ الآن إلى العامية يكتب بها. وهذه ظاهرة مفزعة. صحيح أننى لا أخشى على مصير لغة القرآن، ومطمئن إلى أنها سوف تتغلب على تلك الأوضاع المؤلمة، لكن الله أمرنا أن نتحرك ونطلب الشفاء ونبحث عن الحل لمشاكلنا ولا نتركها تحل نفسها بنفسها مما لا تعرفه الحياة. وقد بُحَّ صوتى فى توعية طلابى وطالباتى بوجوب القراءة وفضلها على

---

[1] Maxims.

[٢] ص١٤٩ فى الأصل الإنجليزى، وص ١٨٦ من الترجمة العربية.

البشر ونقلها لهم من حال التوحش والبهيمية إلى حال التحضر والإنسانية. لكنى ألاحظ أن كلامى يقع، فيما يبدو، على آذان صماء لا تسمع شيئا مما أقول، وإن كان بعض منهم يؤكد لى أنهم بدأوا يستفيقون وينتبهون إلى أهمية العلم والثقافة ووجوب تحصيلهما، وأن أحدا لم يُوعِّهم قبلا إلى هذه القيمة الجميلة التى شرعوا يتذوقون ثمارها الحلوة، ولم يكن يدور بخلدهم أنها بهذه الحلاوة. وإنا لمنتظرون، ونرجو ألا يطول الانتظار، فقد باخت المسألة جدا وأضحت لا تطاق بعدما صار تخلفنا يُضرَب به المثل على كل لسان، وصار عقلاؤنا يقولون من شدة ألمهم: "أُمَّةُ "اقرأ" لا تقرأ"، فيا للعجب!

وأذكر فى هذا السياق أننى كنت أختبر الطلاب فى مادة "أعمال السنة" اختبارا شفويا قبيل قيام الثورة الينايرية، فكنت أفاجأ بأن كثيرا منهم لم يقرأوا المرجع المقرر كله، وأن عددا غير قليل من الذين قرأوه قد حفظوه، ولكن دون فهم. وكان بعض الطلاب يبدون استغرابهم الشديد حين أسألهم لماذا لم يقرأوا الكتاب كله، ودعتنا من التوسع فى قراءة المراجع، حتى إنى كنت أخجل منهم وكأننى أنا المقصر. بل إن بعضهم أجابنى فى فزع واستنكار: وهل علىَّ أن أقرأ ذلك الكتاب كله؟ وكان قد قرأ منه ربعه أو أقل من ربعه متصورا أنه يكفيه أن يفتحه ويلقى نظرة على بعض ما فيه. ولم لا إذا كان لم يُقيَّض له طوال حياته مَنْ يُفهمه أن القراءة قيمة حضارية ودينية سوف يُسأل عنها يوم القيامة فيخجل خجلا شديدا، وربما مُنِع من دخول الجنة بسبب تقصيره فيها؟ وفى النهاية أرجو أحر الرجاء ممن يقرأ كلماتى هذه أن يسامحنى فى ضيقى وتلهُّب عبارتى، فإنما هذا كله قبس من النار التى تحرق فؤادى حزنا على أمتى، هذه الأمة التى هانت على نفسها فهانت على غيرها، ولا أستطيع السيطرة على ما يصدر عنى بسببها من صراخ الألم.

ومما ينبغى الوقوف أمامه فى ذلك الفصل أيضا ما قاله حِتّى من أن المسلمين فى الأندلس عرفوا الطباعة ومارسوها على الحجر، إذ كان لعبد الرحمن (الناصر؟) كاتب اعتاد إنشاء الرسائل الرسمية فى منزله ثم إنفاذها إلى ديوان خاص يطبع منها عدة نسخ توزع على عمال الدولة[١]، وإن لم يذكر حِتّى أى نوع من الطبع كان ذلك رغم أن مترجم الكتاب قد حدده بأنه الطبع "على الحَجَر"[٢]، وهو ما لا وجود له فى كتاب حِتّى نفسه. أى أن المترجم قد أضاف شيئا لم يرد فى الكتاب، وهى إضافة تبرع بها من عند نفسه قد تكون مضللة للقراء. ولكن ينبغى رغم ذلك أن نشير إلى ما كان قد قاله المؤلف من أنه اطلع على الترجمة وأجازها بما يفيد أنه راض عنها. وكنت أتمنى أن يورد لنا المؤلف اسم المرجع الذى استقى منه هذه المعلومة الهامة، لكنه لبالغ الأسى لم يفعل.

---

[١] ص١٥٠.

[٢] ص١٨٧ من الترجمة.

ثم نصل إلى الفصل الخاص بعوامل ضعف الدولة الإسلامية وتفككها . ولقد رصد المؤلف عددا من العوامل الداخلية والخارجية مؤكدا أن الأولى هى أخطر النوعين. وأنا معه فى أن العوامل الداخلية لها السبق فى كل شىء. ذلك أنه قد يكون من الصعب علينا منع العوامل الخارجية قبل وقوعها لأنها خارجة عن نطاق سيطرتنا المباشرة بخلاف العوامل الداخلية، التى تكون تحت يد الشخص أو الجماعة فى الغالب، أو يفترض على الأقل أن تكون كذلك. على كل حال لقد ذكر فيليب حتى الصراعات المختلفة داخل المجتمع الإسلامى من مذهبية ودينية وطبقية وقومية، وذكر المظالم التى تجرعها الشعب على يد بعض الحكام والولاة المستبدين الذين انصرفوا إلى شهواتهم وكبدوا الأمة ثمنا غاليا لا معنى له لإشباع تلك الشهوات بما يصاحبها من إهمال هؤلاء الحكام والولاة لشؤون الأمة وتركها لغيرهم ممن لا يحسن شيئا منها، فضلا عن تعدد الخلافات. وناهيك بظهور الدويلات الصغيرة التى انشقت رسميا أو فعليا عن الدولة الأم. أما العوامل الخارجية فمنها هجوم المغول والصليبيين على بلاد المسلمين فى المشرق، وهجوم الممالك النصرانية فى بلاد الأندلس، وما تلا ذلك فى شبه الجزيرة الأيبيرية من تنصير وتهجير قسريين إلى أن خلت تلك البلاد تماما من الإسلام والمسلمين، ثم الاستعمار الأوربى فى العصور الحديثة إثر الاكتشافات الجغرافية، التى قلبت الأوضاع رأسا على عقب، فأصبحت الدول الأوربية أكثر جراءة فى التعامل مع المسلمين، وبخاصة أنهم كثيرا ما انتهجوا فى حربنا نهج التعاون فيما بينهم، فى الوقت الذى نصر نحن فى كثير من الأحيان على أن نظل متشرذمين لا يضع بعضنا أيديهم فى أيدى البعض الآخر، إلى أن سقطت فى نهاية المطاف البلاد الإسلامية كلها تقريبا تحت سلطان الأوربيين. ومن يومها ونحن لا نستطيع الخروج من هذه الدائرة الجهنمية. لقد حدثت انقلابات، وقامت ثورات (أو هكذا كانت تسمى كجزء من اللعبة الشيطانية)، ثم تبين لنا فى النهاية بعدما دفعنا لذلك ثمنا غاليا لا يطاق أن أحمد هو الحاج أحمد، وأن حكامنا يتعاونون من خلف ظهورنا مع أعدائنا، وأن ما يتصايحون به أمامنا من تهديدات مقعقعة لهؤلاء الأعداء إنما هو للاستهلاك المحلى ليس أكثر.

ورغم تيقن حكامنا أنهم كلما سقط منهم عميل من عملاء الغرب لم يذرف الغرب عليه دمعة، بل تعامل معه كما يتعامل الواحد منا مع حذاءٍ له بال لم يعد صالحا للاستعمال، فلا يكون منه إلا أن يلقى به فى صفيحة القمامة مستبدلا به حذاء جديداً، وما أكثر الأحذية التى ترغب فى أن ينتعلها الغرب ليخوض بها فى الأوساخ والفضلات بدلا من يخوض فيها بقدميه العاريتين، فى ذات الوقت الذى يركبها عفريت التأله والتجبر مع شعوبها، فإن حكامنا رغم هذا لا يرعوون ولا يتعلمون الدرس أبدا ولا يضعون فى أذهانهم أن إخلاصهم لشعوبهم هو السبيل الذى ينبغى أن ينتهجوه حتى يفلحوا، فيظل باقى العملاء الأغبياء يتصرفون بنفس الطريقة القديمة. لكنى أعود فأقول: وهل شعوبنا أفضل من حكامنا ؟ ترى من أين أتى حكامنا ؟ أليسوا قد نبتوا فى نفس التربة التى نبت فيها الشعب؟ ومن ربّاهم؟ أليس من رباهم هم ناسا من هذا الشعب؟ ومن أين اقتبسوا قيمهم وأخلاقهم وانحرافهم؟ أليسوا قد اقتبسوا هذا كله من

المجتمع المتمثل فى الشعب؟ ثم إن حكامنا يدركون جيدا أنهم لم يأتوا إلى السلطة بإرادة الشعب، بل بإرادة القوى الكبرى، سواء تم ذلك جهارا نهارا أو أخذ طريقه فى الخفاء. فلم إذن يعملون للشعب حسابا، وهم يعرفون أنه لا فى العير ولا فى النفير؟ لهذا تراهم يولون وجوههم لا شطر القبلة التى أمرنا الله أن نوليها وجوهنا بل شطر العواصم الغربية الكبرى، وبخاصة واشنطن عاصمة أمريكا، التى يكادون يعبدونها من دون الله. والأمل الآن، بعد الله، معقود على الشعوب ذاتها بعد أن استيقظ بعضها وثار يطالب بحقوقه، وبقى أن يستيقظ باقيها ويسير فى نفس الطريق، وأن يواصل هؤلاء و هؤلاء جميعا يقظتهم فلا يسرق ثورتهم أحد أيا كان هذا الأحد، وتعود بلادهم كما كانت قبل ذلك متحضرة قوية مهيبة الجانب يتمتع الناس فيها بمستوى معيشة طيب لا يستبد بأمورهم أحد، ولا يذلون لأحد، ولا يسكتون على ضيم ينزل بهم من أى أحد، ويكفون تماما عن ممارسة طقوس الخنوع والخضوع القديمة لأى أحد، وتنتشر المدارس والجامعات التى تعلم الطلاب والطالبات بحق وحقيق لا شكلا ومظهرا فقط كما هو الحال الآن فى كثير من الأحيان، ويقبل الشعب كله على طلب العلم، وتنشط معامل التجارب والاختراعات، ويظهر الأدباء الحقيقيون الذين يصغون إلى صوت ضمير أمتهم بدلا من تقليد الغرب فى كل ما يصدر عنه سواء ناسب أوضاعنا وقيمنا أو لا، ويسود ربوعَ البلاد قبل ذلك كله الأمنُ والأمان.

أنا إذن لست من الذين يتصورون للحظة أن الحكام ينفردون عن بقية الشعب بانحرافهم وضلالهم، بل أنا موقن أنهم يمثلون قطاعا كبيرا جدا منه، وأن قطاعا كبيرا آخر يساندهم ويريدهم ويعمل على دوام حكمهم. وإلا فمن يا ترى الذين ينافقونهم ويخدمونهم ويمكنون لهم؟ أليسوا طوائف منا نحن الشعب؟ ترى من أين أتى الوزراء والصحافيون وأساتذة الجامعات والقضاة والمديرون والضباط الذين لولا هم ما كان أولئك الحكام ولما استمروا فى دست الحكم طوال تلك المدد الطويلة التى لم تشبعهم مع ذلك، فتراهم يريدون أن يبقوا فيه إلى الأبد، أما إن كان لا بد أن يموتوا فلا يعود هناك أبد بالنسبة لهم (!) فليكن أبناؤهم المتخلفون المعاتيه خلفاءهم من بعدهم؟ أليست هذه الطوائف قد أتت من بين أظهرنا نحن الشعب؟ كل ذلك، وبقية الشعب ساكت غير مبال بل خانع. وهذه هى النتيجة المريرة لهذا كله. ولماذا الذهاب بعيدا، وها هى ذى الأحزاب التى تزعم أنها سوف تخلص مصر من جميع مشاكلها وتنهج نهجا آخر مختلفا عن نهج الطاغية المخلوع وجلاوزة نظامه، ها هى ذى تعلق لافتاتها فى كل مكان تقرر فيها بالبنط العريض ما سوف تصنعه للخروج بالبلاد من تلك المشاكل، وتحت اللافتات أكوام القمامة تنبعث منها نتانة لا تطاق، زيادة على كل ألوان القبح التى تخطر والتى لا تخطر على البال، ولا يفكر أى حزب منها مع ذلك فى القيام بحملة نظافة تذكر الناس أنهم ينتمون إلى جنس البشر، وأنهم فوق ذلك مسلمون، أىْ أتباع للدين الذى يقول إن النظافة من الإيمان. وبعض هذه الأحزاب أحزاب دينية! فعلام يدل هذا؟

ثم يقف المؤلف عند سقوط الأندلس وقفة خاصة تستثير الآلام الحادة، وكأن هذا السقوط قد وقع بالأمس القريب لا قبل مئات السنين. والحق أننى كلما قرأت قصة الأندلس وكيف خرج منها الإسلام

استولى عليَّ الذهول. لقد تمثلت فى هذه القصة كل عيوبنا، التى لم نتخلص منها بعد، فقد تناحر ملوك الطوائف فيما بينهم، وكان معظمهم يضع يده فى يد النصارى ضد إخوانهم المسلمين، وانصرف الحكام والشعوب إلى ملذاتهم لا يهتمون كثيرا بالخطر المتربص بهم. بل إن البيت الحاكم كثيرا ما انقسم على نفسه فى المرحلة الأخيرة من الوجود الإسلامى هناك، بينما يقف الأعداء فى مواجهتهم كتلة واحدة. كما أن الحكام المسلمين فى المشرق لم يهتموا بما يقع لإخوانهم فى الجنوب الغربى من أوربا، وتركوهم لمصيرهم التعس، ولم يبالوا بنكث حكام أسبانيا النصارى للمعاهدات التى عقدوها مع أولئك المسلمين ولا بالتنصير والتهجير الإجبارى لهم، وكأن ما يحدث لا يحدث لإخوان لهم مسلمين، أو كأنه يحدث فى الفضاء الخارجى بعيدا عن الأسماع والأبصار. ومن يقرأ الموسوعة التى ألفها محمد عبد الله عنان عن تاريخ الأندلس يدرك أبعاد الكارثة تمام الإدراك. ولم يفت د. حتى أن يبرز الحقيقة التى يجهلها أو يتجاهلها كثير من الناس، ألا وهى أن معظم الموريسكيين، أى مسلمى تلك البلاد، هم أسبانيون لا عرب كما أوضحنا قبلا. ولهذا كان القساوسة الذين يقومون بتنصيرهم يذكرونهم بأن آباءهم إنما كانوا نصارى، وينبغى من ثم أن يعودوا إلى النصرانية دين الآباء، وإلا فإن محاكم التفتيش تنتظرهم، ويا ويل من تنتظره محاكم التفتيش!

ومن بين الوسائل التى لجأ إليها السلطات الملكية والكنسية هدْم الحمامات عنوان النظافة، تلك التى يعدها الإسلام شطرا من الإيمان، وكان شعارهم الذى رفعوه سببا لتدميرها أنها من تراث عصر الكفر[1]. يقصدون أن المسلمين كفار[2]، وأن توحيدهم الخالص من كل شائبة كفر، وأن النظافة شعيرة من شعائر الكفر! ذلك أن الأوربيين لم يكونوا فى ذلك الوقت يعرفون للنظافة معنى[3]. فانظر كيف انقلب الحال، وصارت النظافة قيمة غريبة فى كثير من ديار المسلمين بالمخالفة الصريحة وغير المفهومة ولا المقبولة لأوامر دينهم، التى لا يمكن تأويلها لتتسع لهذا الانحراف مهما كانت المحاولات، وهو ما سيكون الحساب عليه عسيرا أشد العسر يوم القيامة رغم تصور جموع المسلمين أنه أمر غير ذى بال، وكأن من السهل أن يدخل

---

[1] ص١٦٨.

[2] كانت المنشورات التى تحض الأوربيين على الهجوم على بيت المقدس وعلى كراهية المسلمين تنعتهم دائما بـ"الكفار". يرجع مثلا إلى المادة الخاصة بـ"الحروب الصليبية" فى النسخ المختلفة من "الويكيبيديا". وقد أفتى بابا روما بأن قتل "الكفار"، أى المسلمين" لا يُعَد إثما: "le pape écrivit que ce n'était pas un péché de verser le sang des infidèles" كما ذكر كاتب المادة فى النسخة الفرنسية من تلك الموسوعة.

[3] رغم أن الأوربيين إنما اقتبسوا الحمامات العمومية منا أثناء مُقامهم فى بلادنا أيام الحروب الصليبية، ثم نشروها فى بلادهم بعد عودتهم (انظر ص١٩٦).

الجنة ويستمتع بما فيها من نظافة ونظام وجمال وراحة بال وسكينة وسعادة من كانت تصرفاتهم على النقيض من هذه المعانى الحضارية العظيمة! ومن الوسائل التى استخدمتها السلطات النصرانية فى أسبانيا أيضا للقضاء على الإسلام الطرد الجماعى من البلاد على أوسع نطاق. وهكذا انتهى الإسلام فى الأندلس، ولم يعد هناك مسلمون بعدما كانوا يبلغون الملايين. ومع هذا نرى الدول الأوربية تتهم الإسلام بأنه دين الإرهاب والإقصاء!

ويتحدث جنى عن الحروب الصليبية، مؤكدا أن العوامل التى أدت إلى نشوبها عوامل مختلفة ومختلطة: فمنها الأطماع السياسية، ومنها الطموحات التجارية، ومنها العواطف الدينية[١]. ثم يذكر بعض مخازى الصليبيين حين دخل بيتَ المقدس منهم أربعون ألفا من الجنود فى مواجهةِ حاميةٍ مصريةٍ تابعةٍ للدولة الفاطمية قِوامها لا يتجاوز ألف رجل، إذ أعملوا السيف فى سكان المدينة دون تفريق بين رجل وامرأة، أو كبير وصغير، أو جندى ومدنى حتى ملأت أكوام الرؤوس والأيدى والأرجل شوارع المدينة. وكانوا يظنون، لانطماس بصائرهم، أنهم بعملهم هذا قد أرضَوُا الرب ووَفَوْا نذورهم وكفّروا عن آثامهم، فعاد كثير منهم بعد تلك المذبحة من حيث أتَوْا سعداء مطمئنين بعد أن غفر الله لهم. ألم يقتلوا الكفار؟ ذلك أنهم كانوا يظنون أن المسلمين، حسبما أفهمهم قساوستهم، يعبدون محمدا. كذلك أورد جنى وَصْف أسامة بن منقذ لهؤلاء الأوباش بأنهم "بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير". وهؤلاء البهائم قد تعلموا من العرب الكثير فى شؤون الأكل والشرب والنظافة والملابس والعادات والتقاليد والمساكن، فتهذبت وحشيتهم وارتقَوْا فى معراج الإنسانية[٢].

يقول ابن كثير فى "البداية والنهاية" واصفا شيئا من إجرام هؤلاء الوحوش لدن دخولهم بيت المقدس: "ثم دخلت سنة ثِنْتين وتسعين وأربعمائة، وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس: لما كان ضحى يوم الجمعة لِسَبْعٍ بَقِينَ من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة أخذت الفرنج، لعنهم الله، بيت المقدس، شرفه

---

[١] تُرْجِع مادة "Crusades" فى الطبعة الإنجليزية من "الويكيبيديا" الحروب الصليبية إلى "a mixture of religious, economic, and political reasons: مزيج من العوامل الدينية والسياسية والاجتماعية".

[٢] إلى القارئ حُكم رانسيمان (Steven Runciman) المؤرخ البريطانى على الحروب التى شنها الصليبيون على العالم الإسلامى نقلا عن المادة الخاصة به فى "Crusades-Encyclopedia" المشباكية. وكتاب رانسيمان: "The History of the Crusades"، كما هو معروف، من أشهر ما أُلِّف عن الحروب الصليبية. يقول الرجل إن هذه الحروب قد لوثتها القسوة والجشع والتعصب الأعمى، وإنها ليست سوى عمل طويل من الحقد تم كذبا باسم الله.

الله. وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبّروا ما علَوْا تتبيرا. قال ابن الجوزي: وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضةٍ زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنّوريًا من فضةٍ زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب. وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان، منهم القاضي أبو سعد الهروي. فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا. وقد نظم أبو سعد الهروي كلاما قرئ في الديوان وعلى المنابر، فارتفع بكاء الناس، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئا، فإنا لله وإنا إليه راجعون"

ومن أجل أن يعرف القارئ مبلغ رأى أسامة بن منقذ فى هؤلاء "البهائم" من الصحة أو عدمه أسوق بعض ما خبره منهم أثناء اختلاطه بهم وتعامله معهم. قال عن طبهم: "ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويتَ المرضى! قال: أحضروا عندي فارسًا قد طلعت في رجله دُمّلة، وامرأةً قد لحقها نُشاف: فعملتُ للفارس لبخة ففتحت الدملة فصلحت، وحمَيْتُ المرأة ورطّبتُ مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس: أيما أحبُّ لك: أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضِروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا. حضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربا واحدا واقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. فضربه ضربة ثانية، فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها. فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها. فأخذ الموسى وشق رأسها صليبًا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليَّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت، وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه. . .

فكل مَنْ هو قريب العهد (أى من الصليبيين) بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين. فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أنني إذا زرت بيت المقدس دخلت المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى، وفيه الداوية، وهم أصدقائي، يُخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه. فدخلته يوما فكبّرتُ ووقفت في الصلاة، فهجم عليَّ واحد من الإفرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صَل. فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه فأخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم عليَّ ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صَلِ! فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إليَّ وقالوا: هذا غريبٌ وَصَل من

بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق. فقلت: حسبي من الصلاة! فخرجت، فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيُّر وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة. ورأيت واحدا منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة فقال: تريد تبصر الله صغيرا؟ قال: نعم. فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم، والمسيح عليه الصلاة والسلام صغير في حجرها، فقال: هذا الله صغير. تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا.

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوَّلتْ عليه خلَّاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا ذهبت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له: "معز"، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار قد فتح بتيَّة من هذا الخمر. من أراد منها شيئا فهي في موضع كذا وكذا. وأجرته عن نداته النبيذ الذي في تلك القنينة. فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش، فقال له: أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟ قال: وجدت فراشا مفروشا نمت فيه. قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ قال: وحق ديني إن عدتَ فعلتَ كذا تخاصمت أنا وأنت. فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته...

ومن عجيب طِبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية، وكان مقدَّما فيهم، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية وأنا معه، فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر، فمرض وأشرف على الموت. فجئنا إلى قس كبير من قُسوسنا، قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا؟ قال: نعم. فمشى معنا، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عُوفيَ. فلما رآه قال: أعطوني شمعا. فأحضرنا له قليل شمع، فليَّنه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم، كان يتعذب. سددت أنفه حتى يموت ويستريح"[١].

ويورد كاتبنا كثيرا من وقائع الحروب الصليبية، ومن بينها واقعتان تدلان على اختلاف المعاملة التى كان صلاحُ الدين يعامل بها الفرنجة عن تلك التى كان يعامل الفرنجة بها المسلمين، إذ حدث أن كانت هناك اتفاقية بين الطرفين إثر سقوط عكا فى يد الصليبيين ووقوع آلاف من الأسرى فى أيديهم، فلما تأخر المسلمون عن دفع ما اتفِق عليه من مال قام ريتشارد قلب الأسد بقتلهم، وكان عددهم ألفين وسبعمائة، وهو ما يناقض تمام المناقضة معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين الذين سقطوا فى يده عند استعادته بيت

---

[١] أسامة بن منقذ/ الاعتبار/ تحقيق فيليب حتى/ مكتبة الثقافة الدينية/ القاهرة/ ١٣٢– ١٣٧. وقد أشار فيليب حتى فى كتابه: "العرب: تاريخ موجز" (ص١٩٦) إلى هذا الفرق الهائل بين طب المسلمين وطب الصليبيين.

المقدس، إذ كان بينهم ثلاثة آلاف أسير فقير عجزوا عن فك رقهم بالمال، فما كان من القائد المسلم إلا أن أطلق سراحهم دون مقابل نزولا عند رغبة أخيه من جهة، وتحقيقا لالتماس البطريق من جهة أخرى، واحتسابا لوجه الله من جهة ثالثة. ومن بين تلك الوقائع أيضا العرض الذى قدمه الملك ريتشارد لصلاح الدين، إذ اقترح أن يتزوج أخو صلاح الدين من أخته أرملة ملك صقلية، ويحصل الاثنان على بيت المقدس هدية زواج، وبهذا تتوقف العداوات بين المسلمين والنصارى[١].

وفى هذه النقطة الأخيرة يقول ابن شداد فى كتابه الموسوم بـ"النوادر السلطانية": "لما كان يوم الاثنين التاسع والعشرون من شهر رمضان استدعاني الملك العادل في صبيحته، وأحضر جماعة من الأمراء: علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وشرح لنا ما عاد به رسول من الإنكتار المخذول من الرسالة والكلام. وذلك أنه ذكر أنه قد استقرت القاعدة على أن يتزوج الملك العادل بأخت الإنكتار. وكان قد استصحبها معه من صقلية، فإنها كانت زوجة صاحبها، وكان قد مات. فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية، فاستقرت القاعدة على أن يزوجها من الملك العادل، وأن مستقر ملكهما يكون بالقدس الشريف، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك ويجعلها ملكة الساحل، وأن السلطان، قدس الله روحه، يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والأقطاع، وأنه يسلم إليه صليب الصلبوت، وتكون القرايا للداوية والإسبتارية، والحصون لهما، وأسرانا يُفكّ أسرهم، وكذلك أساراهم، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل ملك الإنكتار طالبا بلاده في البحر وينفصل الأمر. هكذا ذكر رسول الملك العادل له عن الملك. ولما عرف ذلك الملكُ العادل بنى عليه أنه استحضرنا عنده، وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان قدّس الله رُوحَه، وجعلني المتكلم فيها، والجماعة يسمعون، ويعرض عليه هذا الحديث: فإن استصوبه ورآه مصلحة له وللمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضى به، وإن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية، وأنه هو الذي رأى إبطاله. فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضتُ عليه الحديث، وتلوتُ عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة، معتقدا أن ملك الإنكتار لا يوافق على ذلك أصلا، وأن هذا منه هُزُوٌ ومكر. فكررت عليه الرضى بذلك ثلاث مرات، وهو يصرح ويشهد على نفسه بالرضا به. فلما تحققنا ذلك منه عدنا إلى الملك العادل فعرّفناه ما قال، وعرّفه الجماعة أني كرّرتُ عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه، وأنه أصرّ على الإذن في ذلك، واستقرت القاعدة عليه. ولما كان يوم الأربعاء ثاني شوال سار ابن النحال رسولاً من جانب السلطان، قدس الله روحه، ومن جانب الملك العادل، فلما وصل إلى مخيم العدو، وعرف الملك بقدومه أنفذ إليه أن الملكة عرض عليها أخوها حديث النكاح فتسخطت من ذلك، وغضبت بسببه،

---

[١] ص١٩١– ١٩٢.

وأنكرت ذلك إنكارا عظيما، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك. وكيف تُمكّن مسلما من غشيانها؟ ثم قال أخوها: إن كان الملك العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك، وإن رَضِيَتْ فأنا أفعل ذلك. وترك باب الكلام مفتوحا، فكتب الملك العادل إلى السلطان، رحمة الله عليه، وعَرّفه ذلك".

أما العماد الأصفهاني فكتب في "الفتح القسّي": وصلتْ رسل ملك الإنكتير إلى العادل بالمصافاة على المصافاة، والمواتاة في الموافاة، وموالاة الاستمرار على الموالاة والأخذ بالمهاداة والترك للمعاداة، والمظاهرة بالمصاهرة. وترددتِ الرسل أياما، وقصدتِ التئاما، وكادت تحدثُ انتظاما. واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الإنكتير، وأن يعول عليهما من الجانبين في التدبير، على أن يحكم العادل في البلاد، ويجري فيها الأمر على السداد، وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها، وشمسها من قبوله في أوجها، ويُرضِيَ العادل مقدّمي الفرنج والداوية والأسبتار ببعض القرى، ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرا، ولا يقيم معها في القدس إلا قسيسون ورهبان، ولهم منا أمان وإحسان. واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد، وجماعة من الأمراء من أهل الرأي والسداد، وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وقال لنا: تمضون إلى السلطان، وتخبرونه عن هذا الشان، وتسألونه أن يحكمني في هذه البلاد، وأنا أبذل فيها ما في وسع الاجتهاد. فلما جئنا إلى السلطان عرف الصواب، وما أخّر الجواب، وشهدنا عليه بالرضا، وحسبنا أنه كمل الغرضُ وانقضى. وذلك في يوم الاثنين تاسع عشريّ رمضان وعاد الرسول إلى ملك الإنكتير لفصل أمر الوصلة، وإزاحة الجملة، وإزاحة العلة. واعتقدنا أن هذا أمرٌ قد تم، ونشرٌ انضم، وصلاح عَمّ، وصلح أدَمَ، وحكمٌ مضى، واستحكم به الرضا، وأن الأنثى تميل الى الذكر، وتزيل وساوس الفِكر، وأن بركوب الفحل النزول عن الدّخْل، وأن الشُكر يجلب الشُكر، ويبدّل بالعُرف النُكر، وأن الوقاع يؤمن من الوقائع، وأن القِراع ينقضي بانقضاض القارح القارع، وأن الحِرب بكسر الحاء وحذف الباء سِلم، وأن غرْم العُرْس في العسر يسر وغنم، وأن هذا الأخ لتلك الأخت كفو، وأن هذا العقد للخرق المتسع رفو، وأن الكدر يعقبه صفو، وأن التزويج ترويج، وتقويم لما فيه تعويج. وشاع الذكر، وضاع النشر، وذاع السر، وبلغ الخبر إلى مقدّميهم ورؤوسهم، فقصّوه على قسوسهم، وعسّروا على عروسهم، فجبهوها بالعذل واللذع، ونجهوها بالقدع والقذع، وقالوا لها: كيف تفجَئيننا بأفجع مُلِم مؤلم، وتسلمين بُضعك لمباضعة مسلم، فإن تنصّر تبصّر، وإن تسرّع فما تعسّر، وإن أبى أبيناه، وإن أتى أتيناه، وإن خالف خالفناه، وإن حالف حالفناه. وأي وجه ههنا للائتلاف، ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف؟ فرَهِبَتْ بعدما رَغِبَتْ، وبطلتْ بعدما طلبتْ، وسَلَتْ بعدما سألت، ونزت بعدما نزلت، وكرهت وكانت شرِهَتْ، وكانت اكتحلت فودّتْ أنها مَرِهَتْ. فأرسلت إلى الرسول، وأقبلت عليه بالقبول، ثم تصلبت في القَسم وأقسمت بالصليب، أنها مجيبة إلى التقرير والتقريب، وأنها مسارعة إلى التمكين، لكن بشرط الموافقة في الدين. فأنف العادل وعدل عن استئناف الحديث، وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث، واعتذر الملك بامتناع أخته، وأنه في معالجتها وتعرّف رضاها في وقته. وكان

قد استقر مع تمام العهد، وانتظام العقد، مفاداة كل أسير بأسير: كبيرٍ بكبير، وصغيرٍ بصغير، وبشر أولياء الطاغوت، بصليب الصلبوت، فبطل التدبير، وعطل التقدير، وذلك ثاني يوم العيد".

وفى مادة "Joan of England, Queen of Sicily"، وهى المادة المخصصة لجوانا أخت ريتشارد ملك إنجلترا[١]، فى النسخة الإنجليزية من "الويكيبيديا" نقرأ ما يلى:

"Joan was Richard's favourite sister, but he was not above using her as a bargaining chip in his political schemes. He even suggested marrying her to Saladin's brother, Al-Adil, and making them joint rulers of Jerusalem. This plan fell apart when Joan refused to marry a Muslim and Al-Adil refused to marry a Christian. King Philip II of France also expressed some interest in marrying her, but this scheme, too, failed (possibly on grounds of affinity, since Philip's father Louis VII had formerly been married to her mother)".

وهناك أمر آخر متصل بالحروب الصليبية يلفت النظر لفتا قويا، ألا وهو أن الظاهر بيبرس عند انتصاره على الصليبيين قد أسر منهم مائة ألف ما بين طفل ورجل وامرأة، وقد بيع هؤلاء الأسرى جميعا[٢].

---

[١] حرىٌّ بالذكر أن جوانا أخت ريتشارد كانت قد تزوجت قبلا وليم الثانى ملك صقلية فى الثانية عشرة من عمرها. وقد حرصتُ على أن أسوق هذه المعلومة حتى يعرف القراء أن الأوربيين أنفسهم، حتى فى البيوتات الملكية، كانوا فى بعض الأحيان يزوجون بناتهم فى تلك السن التى يقيمون الدنيا ويقعدونها من جرائها فيما يتعلق بزواج النبى من عائشة رضى الله عنها رغم أن بنت الصِّدِّيق كانت مخطوبة قبله لأحد القرشيين بما يدل على أنها كانت بسبيلها إلى أن تتزوج غيره عليه السلام فى تلك السن أيضا، بل ربما قبل تلك السن. وما دمنا قد لمسنا هذا الموضوع فقد حدد العقاد (فى "الصديقة بنت الصديق"/ ط١٢/ دار المعارف/ ١٩٨٨م/ ٤٨– ٥٠) سن زواجها من النبى بالثانية عشرة على أدنى تقدير، وبالخامسة عشرة على أعلاه. بل إن د. شوقى ضيف (فى كتابه: "محمد خاتم المرسلين"/ دار المعارف/ ٢٠٠٠م/ ٣٣٦) يؤكد أنها كانت فى نحو العشرين. وكنت قد انشغلت فترةً بهذا الموضوع منذ نحو ثمانى سنوات، فتصادف أن عثرت على المشباك بقوائم زواج أمريكية فى أوائل القرن العشرين وجدت فيها نساء يتزوجن فى سن قريبة من السن التى اشتهرت بين الناس بأن عائشة رضى الله عنها قد تزوجت فيها. وفى مادة "Child marriage" بالنسخة الإنجليزية من "الويكيبيديا" يفاجأ القارئ بأن مجتمعات كثيرة فى مختلف أنحاء العالم كانت ولا تزال حتى اليوم، ورغم أنف القوانين الحالية المجرِّمة لذلك، تزوج بناتها القاصرات، وأن الديانة اليهودية مثلا تجيز مثل هذا الزواج. كما أن طائفة المورمون تبيح زواج القاصرات، وتعدد الزوجات أيضا. كذلك فى كندا يصح زواج القاصرين إذا كانت هناك معاشرة جنسية بينهما وحدث حمل. وقد قرأت فى موقع "eHOW" أن الولايات المتحدة تجيز هى أيضا زواج القاصرين بشرط الحصول على موافقة الوالد.

[٢] ص١٩٤– ١٩٥.

فما معنى هذا ؟ معناه أن هؤلاء المائة الألف الذين يزيدون فى العدد على كل من استقر فى مصر مثلا من العرب الأصلاء قد امتزجوا بالمجتمع الإسلامى. فهل نقول لهم: اخرجوا من بلادنا وعودوا من حيث أتيتم؟ لقد تمصّروا[١]، وانتهى الأمر. ومعروف أن المجتمع المصرى قد استوعب أفرادا وجماعات من معظم جنسيات العالم. ففى القاهرة مثلا فى شارع أحمد سعيد عند تقاطعه مع شارع رمسيس يقع محل لبيع المستلزمات النسائية يملكه رجل صينى اسمه "أحمد" أعرف دكانه منذ كنت شابا صغيرا أسكن هذه المنطقة وأمرّ به صباح مساء، ثم رأيته منذ سنة بعد أن لم أره لعشرات السنين. وقد يكون متزوجا من مصرية، أو قد يتزوج أولاده من مصريات، أو بناته من مصريين، ويندمجون فى مجتمعنا ويصيرون جزءا منا. وهناك مصريون ذوو أصول شيشانية، ومصريون ذوو أصول تركية، ومصريون ذوو أصول أرمنية، ومصريون ذوو أصول كردية، ومصريون ذوو أصول إفريقية، ومصريون ذوو أصول إيرانية. . . وهلم جرا. كذلك فالمماليك كلهم أجانب عن مصر، ورغم هذا نراهم قد اندمجوا فينا نحن المصريين دون أن يفكر أحد فى أصلهم أو فصلهم، بل كل ما يشغلنا أنهم حكام مسلمون كانوا يتولون أمور مصر والشام لعدة قرون. ولا ينفرد المجتمع المصرى بهذا، بل هو موجود فى كل مكان. وقد كثرت مثلا الجاليات العربية والإسلامية فى الدول الأوربية والأمريكية فى الفترة الأخيرة كثرة مدهشة، وهم يمثلون الآن فى تلك البلاد نسبة مئوية كبيرة.

وقد وقف عند مسألة المماليك هذه د. فيليب حِتّى فأكد أن مما ينفرد به العالم الإسلامى وصول المماليك، الذين كانوا أرقاء سابقين، إلى سدة الحكم وتكوينهم دولة. ثم أشار إلى ما حققه سلاطين المماليك من أعمال باهرة استحقوا معها أن تفرَد لهم صفحة ضافية فى آخر فصل من تاريخ الإمبراطورية العربية، إذ قد أجلَوْا بقايا الصليبيين عن بلاد الإسلام، وأوقفوا زحف المغول، الذين لم يستطع أحد قبلهم الوقوف فى وجه جيوشهم المرعبة. وطوال قرنين وثلاثة أرباع القرن تقريبا نعمت البلاد بثقافة متواصلة وأنظمة سياسية مستمرة لم تتوفر لأى بلد إسلامى آخر رغم ما ذكره أيضا من انعدام ثقافة المماليك وحبهم لسفك الدماء، إذ ازدهرت تحت سلطانهم الفنون والعمارة فصارت القاهرة مثلا من أجمل مدن العالم الإسلامى. . . إلى أن غلب العثمانيون طومان باى آخر حاكم مملوكى عام ١٥١٧م، لتقوم بعدها الخلافة العثمانية وتأخذ مكان الخلافة العربية. وفى رأى فيليب حِتّى أن الظاهر بيبرس هو أعظم سلاطين المماليك وأحقهم بالزعامة نظرا لشجاعته العظيمة واستيلائه بصوته وملامحه ونشاطه الفائق على النفوس. وقد تريث بعض الشىء إزاء إنجازاته الكبيرة ومعاهداته مع حكام المغول وملوك أوربا، فضلا عن إحيائه الخلافة العباسية اسميا فى القاهرة بعد سقوط بغداد وقتل المغول للخليفة المستعصم، وهو ما أكسبه،

---

[١] أو تشوّموا إن كانوا قد بيعوا فى الشام.

حسبما يقول، شهرة تساوي شهرة هارون الرشيد. بل إن اسمه ليزيد فى الوجدان الشعبى تألقا على اسم صلاح الدين كما يتبدى ذلك فى "سيرة الظاهر بيبرس".

وقد قرأت ترجمة الرجل فى كتاب "الظاهر بيبرس" للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، فوجدته يثنى عليه ثناء شديدا رغم ما ارتكبه من قسوة وقتل. ولو كنت شابا كما كان حالى منذ عقود لتركت كل إنجازاته وتوقفت عند قسوته وما سامحته، إذ لم أكن أعرف فى شِرّة شبابى شيئا اسمه الضعف البشرى ولا المسوغات والمبررات، ولا أرى فى الدنيا إلا الأبيض والأسود. إلا أننى حين راجعت ما كتبه المؤلف عما حققه هذا السلطان المملوكى وقفت أفكر فى الأمر من جديد، ومعى تجارب ما يزيد على ستين عاما وحنكتها، إن كانت لى حنكة. لقد قيل إنه قتل بعض الناس وكان قاسيا عسيفا، وبكل يقين لا يمكن أن أوافق على القتل أو العسف دون وجه حق. إن قتله مثلا للملك القاهر الأيوبى لشعوره بالحسد منه بسبب ثناء الناس على حسن بلائه معه فى الحروب، إذ كان يكره أن يشاركه فى المجد أحد، ليصيبنى بالسخط الشديد. لكن هل بيدى أو بيد غيرى الآن أن نفعل شيئا؟ كذلك قرأت أنه لم يكن يتورع عن شرب الخمر أحيانا، والخمر أم الخبائث فى الإسلام. ولكنْ هأنذا مرة أخرى لا أستطيع أن أصنع شيئا إزاء ذلك، فقد مضى الرجل للقاء ربه، وأفضى إلى ما قدَّم، ولم يبق لنا منه إلا ما قام به للأمة من بطولات وإنجازات عملاقة قاد فيها الحرب بنفسه لا يبالى أمات أم عاش، وباشر حاجات الناس بنفسه، وأشرف على المشاريع المدنية بشخصه كى يطمئن إلى تنفيذها على الوجه الكامل. وكفى بهذا عندنا مكرمة، ويحكم الله عليه يوم القيامة.

ولكن هل هذا كل ما لدىَّ فى هذا السياق لأقوله؟ لا، إذ هناك المقارنة بين بيبرس وبين حكام العرب والمسلمين الذين نعيش فى ظل سلطانهم الآن. ولا مراء فى أنه يفضلهم جميعا، بل يفضل عشرات بل مئات من أمثالهم، فهؤلاء الحكام لا وزن لهم ولا قيمة ولا بطولة ولا إنجاز، وكلما لمسوا قضية من قضايانا فشِلتْ فشلا ذريعا، وبُؤنا على أيديهم اللعينة بالخسران المبين، وأصابنا الهم والنكد. نكد الله عليهم كما نكدوا على عباد الله، وإن كانت الشعوب التى يحكمونها هى من نفس الطينة الرديئة، فهُمْ وإياهم كما يقول المثل: "وافَقَ شَنٌّ طَبَقَة". إننى، حين أقرأ ما حققه بيبرس فى ميدان الحرب وما استرجعه من قرى ومدن كانت قد بقيت فى أيدى الصليبيين من مدن، وما فتحه من بلاد، أو ما أنجزه من مشروعات سياسية واقتصادية واجتماعية، أنبهر انبهارا، فأجدنى أقول لنفسى: دعنا من قسوته وعسفه، فهى أمور بينه وبين ربه سوف يحاسبه الله عليها يوم القيامة، ولنركز على ما قدم للأمة. و"كل بنى آدم خطاء" كما فى حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم. وصدق نابغة بنى ذبيان حين قال يعتذر عن خطإ وقع منه: "أىُّ الرجالِ المهذبُ؟". أما الحكام الملاعين فهم خزى وعار، إذ هم إلبٌ على الأمة قد

انحازوا إلى أعدائها لا يبالون بما يقع منهم فوق أم رأسها من مصائب وكوارث ورزايا وبلايا ما داموا جالسين على عروش المذلة والعمالة!

تقول "الموسوعة العربية العالمية" في مادة "الظاهر بيبرس": "الظاهر بَيْبَرْس (؟-٦٧٦هـ/ ؟-١٢٧٧م): بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر، سلطان مصر والشام، صاحب الفتوحات والأخبار والآثار. ولد بأرض القبجاق. أُسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة. اشتراه الأمير علاء الدين أيتكين البندقدار، وبقي عنده. فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ بيبرس فجعله في خاصة خدمه ثم أعتقه. ولم تزل همته تصعد به حتى أصبح أتابك (أمير) العساكر بمصر في أيام الملك المظفر قطز، وقاتل معه التتار في فلسطين. ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز، فقتلوه، وتولى بيبرس سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨هـ- ١٢٥٩م. وتلقب بـ"الملك القاهر أبي الفتوحات"، ثم عدل عن هذا اللقب وتلقب بـ"الملك الظاهر". وكان شجاعًا جبارًا يباشر الحروب بنفسه، وله الوقائع الهائلة مع التتار والفرنج (الصليبيين)، وله الفتوحات العظيمة: منها بلاد النوبة ودنقلا، ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلاطين لها منذ عهد عبد الله بن أبي السَّرْح. وانتقلت في أيامه الخلافة إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ- ١٢٦٠م. وآثاره وأخباره وعمائره كثيرة جدا. تُوفي بدمشق، وأقيمت حول مرقده المكتبة الظاهرية".

وفى المادة التى تحمل اسمه فى موسوعة "Larousse" الفرنسية المشباكية نطالع السطور التالية:

"al-Malik al-Zahir Rukn al-Din al-Salihi Baybars Ier (Kiptchak 1223-Damas 1277), chef de guerre d'origine kiptchak, devenu le quatrième sultan de la dynastie des Mamelouks bahrites d'Égypte (1260-1277): Il fut emmené en Egypte avec ses compatriotes kiptchak, achetés comme lui à Damas comme esclaves par le souverain ayyubide Malik al-Salih (d'où son nom) qui le distingua lors de la bataille de Mansourah, qui se termina par la capture du roi Saint Louis, et le plaça à la tête de sa milice de mamelouks ; en 1250, il prit une part active dans l'assassinat du fils d'al-Salih, le jeune Touran Shah, dernier sultan de la dynastie des Ayyoubides, et se mit au service du sultan mamelouk Qutuz. Vainqueur à la bataille d'Aïn Djalout qui, en septembre 1260, mit un coup d'arrêt à l'invasion des Mongols de Hülegü, qu'il repoussa loin des rives de la Méditerranée, mais furieux de se voir refuser les fonctions de gouverneur de Syrie, il fit, à son retour en Egypte, assassiner le sultan Qutuz, et fut proclamé sultan par les chefs de son armée (1260). Chef militaire prestigieux, il sut alors se montrer diplomate habile en accueillant au Caire et en reconnaissant comme calife Abou l'Qasim Ahmad, un survivant du massacre de la dynastie des Abbassides: ce fantoche*, sous le nom d'al-Moustansir, ne régna que fictivement mais conféra au pouvoir de Baybars une légitimité et un prestige accru; administrateur efficace, Baybars entreprit d'améliorer les moyens

---

* هذا الوصف: "fantoche": دمية" يصدق على جميع الحكومات العربية والإسلامية تقريبا، أما الحكومات الانتقالية فى البلاد التى قامت فيها الثورات بآخرة فلا ندرى مدى مبلغها من التحرر من هذه التبعية التى تتميز بها حكومات "الفناتيش".

d'intervention de ses armées, en organisant un remarquable service postal, en restaurant le réseau des routes et en créant une marine de guerre. Ayant ainsi fait des possessions des Mamelouks un empire centralisé et unitaire, avec une armée permanente, instrument redoutable de son pouvoir, il poursuivit avec acharnement la lutte contre les Croisés francs à qui, entre 1265 et 1271, il enleva de nombreuses villes et forteresses (Safad, Jaffa, Beaufort, Antioche, le Krak des Chevaliers...), contre les Ismaïliens («Assassins») de Syrie, à qui il enleva notamment leur place forte de Masyaf, et contre les Seldjoukides à qui il enleva Césarée de Cappadoce, et porta les frontières de l'empire mamelouk à leur extension maximale"

ويتعاقب سلاطين المماليك مملوكا بعد مملوك، ولكل مملوك إنجازاته وبطولاته. وفى نهاية المطاف يدب الفساد فى أوصال دولتهم متمثلا فى التطاحن بين جماعاتهم المختلفة وتزييف النقود والضرائب الفادحة وتالى الطواعين والمجاعات والهبّات الشعبية ورواج الخرافات والاعتقاد فى السحر، وهو ما شكل عائقا صعبا أمام استمرار التقدم الحضارى، وإن كان حِتّى قد ذكر بعض ما كان المسلمون يتفوقون فيه حتى ذلك الوقت، ومنه الطب، الذى يحتل فيه ابن النفيس مكانة سامقة، مؤكدا أنه هو مكتشف الدورة الدموية على خلاف الشائع بين الأوربيين. إلا أنه يبدى انبهاره رغم هذا بفن العمارة المملوكى، الذى ارتقى، فى رأيه، إلى مستوى لم يبلغه منذ قديم الأزمان.

ومن بين مظاهر التدهور الذى أصاب الحكم المملوكى فى أواخره يذكر حِتّى أن بعض سلاطين المماليك كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وبعضهم سفاحا فظا، وبعضهم يحتكر تجارة بعض البضائع والصناعات ضاربا بمصلحة الشعب عُرْض الحائط، وبعضهم يفرض الضرائب الباهظة المفقرة أو يصادر أموال الناس دون نظام أو قانون. ثم زاد الطينَ بلةً الاكتشافاتُ الجغرافية الجديدة التى حققها الأوربيون فحرموا الدولة من عوائد كبيرة كانت تحصل عليها بسهولة قبل أن يتحول طريق الشرق عنها وتُحْرَم من التجارة التى كانت مرتبطة بهذا الطريق، فضلا عن هجوم تيمور لنك التترى على بلاد الإسلام وبلوغه الشام قادما من أواسط آسيا كالإعصار الجائح يهدم ويحرق ويطير الرقاب بالآلاف ويجعل من الجماجم أهراما، وكذلك انتصار العثمانيين على دولة المماليك فى موقعة مرج دابق فى الشام، ثم فى موقعة الريدانية فى مصر عام ١٥١٧م، لتنتقل الخلافة بعد ذلك إلى إسطنبول وتصير خلافة عثمانية.

والآن تعالَوْا نطالع ما جاء فى مادة "مماليك مصر" فى نسخة "الويكيبيديا" العربية لنعرف من أين أتى هؤلاء المماليك، وكيف كان يتم تنشيئهم إلى أن يصلوا إلى الحكم. صحيح أن الصورة التى يعطيناها كاتب المادة هى صورة جدُّ وضاءة، إلا أنها على كل حال تقدم لنا طائفة من المعلومات المهمة عن نشأة أولئك الحكام الذين قاموا بدور شديد الخطورة فى تاريخ الإسلام. يقول كاتب المادة عن المماليك فى عصر بنى أيوب، وهو العصر السابق على دولتهم مباشرة: "كانت تسمية "المماليك" تشير إلى العبيد البيض الذين يؤسرون في الحروب أو يتم شراؤهم في الأسواق. وكان الكثير منهم جنودا وقادة بالجيش، وما لبثوا أن استولوا على الحكم في نهاية حكم الدولة الأيوبية بمصر. وهناك روايتان حول أصل المماليك: تدعي إحداهما أن المماليك ظهروا في مصر أثناء حكم الخليفة الفاطمي العزيز. أما الرواية الأخرى فتنسب أصل

المماليك إلى جلب الأسرى من القفقاس وآسيا الصغرى إلى مصر من قِبَل السلطان الصالح أيوب. لذا يكون أصل المماليك من الأتراك والروم والأوروبيين والشراكسة، جلبهم الحكام بعد ذلك ليستعينوا بهم، حيث كان كل حاكم يتخذ منهم قوة تساندة، وتدعم الأمن والاستقرار في إمارته أو مملكته. وممن عمل على جلبهم الأيوبيون. كما كان المماليك يبايعون الملوك والأمراء، ثم يدرّبون على الطاعة والإخلاص والولاء.

وكان الصالح أيوب ومن تبعه من الأمراء لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بل على العكس من ذلك تماما، فقد كانوا يقربونهم جدا منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم. ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبدا، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته. وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس لا على القهر أو المادة، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب "الأستاذ"، وليس لقب "السيد". يشرح لنا المقريزي كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يُشْتَرَى وهو ما زال في طفولته المبكرة، فيقول: "إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدْفَع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي وآداب الشريعة الإسلامية. ويُهْتَمّ جدا بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقَب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأً يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب".

لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشأون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جدا، وتكون لديهم خلفية واسعة جدا عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية جدا جدا عند المماليك طيلة حياتهم. وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم في الرأي. ولذلك ظهر في زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفذاذ من أمثال العز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن كثير والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي رحمهم الله جميعا، وظهرت أيضا غيرهم أعداد هائلة من العلماء يصعب جدا حصرهم.

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف حتى يصلوا إلى مستويات عالية جدا في المهارة القتالية والقوة البدنية والقدرة على تحمل المشاق والصعاب، ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية وحل المشكلات العسكرية والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماما في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة. وهذا كله، بلا شك، كان يثبت أقدام المماليك تماما في أرض القتال.. وفي كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذي اشتراهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة. بل أحيانا كان السلطان الصالح أيوب يطمئن بنفسه

على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيرا ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حبا كبيرا حقيقيا، ويدينون له بالولاء التام. . .

وكان المملوك إذا أظهر نبوغا عسكريا ودينيا فإنه يترقى في المناصب من رتبة إلى رتبة، فيصبح هو قائدا لغيره من المماليك، ثم إذا نبغ أكثر أُعْطِيَ بعض الإقطاعات في الدولة فيملكها، فتدرّ عليه أرباحا وفيرة، وقد يُعْطَى إقطاعات كبيرة، بل قد يصل إلى درجة "أمير"، وهم أمراء الأقاليم المختلفة، وأمراء الفرق في الجيش. . . وهكذا. وكان المماليك في الاسم ينتسبون عادة إلى السيد الذي اشتراهم: فالمماليك الذين اشتراهم الملك الصالح يُعْرَفون بـ"الصالحية"، والذين اشتراهم الملك الكامل يُعْرَفون بـ"الكاملية". . . وهكذا. وقد زاد عدد المماليك الصالحية، وقوي نفوذهم وشأنهم في عهد الملك الصالح أيوب حتى بنى لنفسه قصرا على النيل، وبنى للمماليك قلعة إلى جواره تماما. وكان القصر والقلعة في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يُعْرَف بـ"البحر"، ولذلك اشتهرت تسمية المماليك الصالحية "بالمماليك البحرية" لأنهم يسكنون بجوار البحر. وهكذا وطد الملك الصالح أيوب ملكه بالاستعانة بالمماليك، الذين وصلوا إلى أرقى المناصب في جيشه وفي دولته، وتولى قيادة الجيش في عهده أحد المماليك البارزين، واسمه فارس الدين أقطاي، وكان الذي يليه في الدرجة هو ركن الدين بيبرس، فهما بذلك من المماليك البحرية".

ويبلغ بنا حَتّى العصر العثمانى، وهو عصرٌ جِدُّ طويل يمتد حَوَالَى ستة قرون. ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية هى من الدول المتطاولة العمر. ومما يؤسف له أن كثيرا من الكتاب والمؤرخين العرب متى ما ذُكِرَت الدولة العثمانية انهالوا عليها ذما وعيبا، ولم يكادوا يعثرون لها على فضيلة واحدة، فكأنها الشيطان متجسما، مع أنها، كبقية الدول الأخرى بما فيها الدول العربية والإسلامية، كانت لها أزمنة مَجْدٍ، ثم حالت الأحوال فجاء عليها زمان ضعف وانكسار ثم انهيار. وهم يعدونها دولة استعمارية قد احتلت البلاد العربية. ولا أدرى على أى أساس ينظرون إليها هذه النظرة، فالمفروض أن يكون المسلمون يدا واحدة، وأن يَدَعوا العصبيات القومية والعرقية جانبا ولا يفكروا إلا فى أنهم جميعا مسلمون، ولا يهم بعد هذا أن يكون الذى يحكمهم عربيا أو غير عربى، بل المهم أن يكون أهلا لذلك وأن يقوم بواجبه تجاه الأمة. لقد حكم العرب العالَمُ الإسلامى أولا حكما قويا، ثم حكموه حكما ضعيفا فاسدا، ثم انتهى الأمر بأن حكموه حكما صوريا حتى انتقلت الخلافة إلى مصر، وكان المماليك هم الحكام الفعليين للبلاد، ثم ها هم أولئك العثمانيون الأترك يتولون الخلافة ويحملون اسمها. ولقد قاموا بدورهم فى البداية فحَمَوُا العالم الإسلامى من الأطماع الأوربية ردحا طويلا من الزمن، وكان لدولتهم هيبة فى قلوب الأوربيين، الذين لم يقعدوا رغم ذلك عن العمل بكل وسيلة لإضعافها، حتى تضعضعت أخيرا من كثرة الحروب التى نهكتها والمؤامرات المتتالية التى أرهقتها، وظهرت أخيرا جماعة الاتحاد والترقى فأرادوا تتريك الدولة بما فى ذلك فرض اللغة التركية على العرب، وهو ما أشعل غضب هؤلاء. واستطاع شياطين الأوربيين أن يوقعوا بين

الفريقين، متظاهرين أمام العرب بأنهم إنما يريدون مصلحتهم، وهم في الواقع إنما يعملون على تفتيت وحدة المسلمين، إلى أن تم لهم في آخر المطاف ما أرادوا، إذ انفصل العرب عن العثمانيين وأقاموا بعض الدول، التي سرعان ما وقع معظمها تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي تطبيقا لما تم بين بريطانيا وفرنسا من معاهدات سرية شيطانية، في ذات الوقت الذي كانوا يُمنُّون العرب فيه بالاستقلال ويدفعونهم إلى الثورة على الدولة العثمانية. وأخيرا قُضِيَ على الخلافة عام ١٩٢٣م على يد مصطفى كمال أتاتورك. فالعثمانيون، مثلهم مثل العرب من قبلهم، بدأوا أقوياء، ثم انتهى أمرهم إلى الضعف والتفكك.

كتب د. إسماعيل أحمد ياغي يقول: "قامت الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر على أنقاض دولة الروم السلاجقة، التي وقفت سدا منيعا أمام هجمات البيزنطيين، فظهرت في ثوبها الإسلامي كي تدافع عن الإسلام وترفع رايته وسط السلاجقة، الذين أخذوا في الضعف حتى زالت دولتهم. ولم تمض سنوات قليلة حتى طهروا الأناضول في آسيا الصغرى من البيزنطيين، ثم واصلوا مسيرتهم إلى أوربا وفتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣م، التي حاول المسلمون فتحها منذ العهد الأموي. لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون، واجتاحت جيوشها الإسلامية مناطق واسعة في جنوب شرق أوربا ووسطها لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم، وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة، وضمت دولا أوربية، وفزعت الحكومات والشعوب الأوربية من هذه الدولة الإسلامية التي هاجمتها في عُقر دارها. وتعرضت الدولة في مسيرتها في أوربا لتكتلات صليبية، وأسهمت فيها دول أوربية عديدة، وتبادلت الدولة مع أعدائها الهزائم والانتصارات، ولم تترك الدول الأوربية للدولة العثمانية فرصة لالتقاط أنفاسها. وعلى الرغم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتها وتعيد بناء قوتها وتستأنف مسيرتها المظفرة. . .

ومما لا ريب فيه أن الدولة العثمانية قد تكاثرت حولها الافتراءات والأباطيل، وليس معنى هذا أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب، فلكل دولة مزايا تُذكر، ومآخذ تُسجَّل عليها. وقد غفل أولئك المتحاملون الغرب عن الخدمات التي أسدتها الدولة العثمانية للولايات العربية بوجه خاص، وتناسَوْا أيضا أن الدولة العثمانية واجهت أخطارا جسيمة تهدد العالم العربي بأفدح الأخطار كالخطر البرتغالي والأسباني والاستعمار الغربي والصهيونية. فلقد عملت الدولة العثمانية على حماية الأماكن المقدسة من البرتغاليين وحماية شمال أفريقيا من الأسبان. كما حافظت كذلك على وحدة البلاد العربية، ونجحت في إبعاد الزحف الاستعماري عن الوطن العربي، ومنعت اليهود من الاستيطان في سيناء والهجرة إلى فلسطين.

ويعتبر التاريخ العثماني مكملا لتاريخ الإسلام، وإن السلاطين (الخلفاء) العثمانيين كانت لهم الهيبة والمحبة في نفوس المسلمين أسوة بغيرهم من الخلفاء الأمويين والعباسيين، فقد عملوا على نشر الإسلام، وأجلّوا العلماء، وأكرموا أهل القرآن، وانقادوا للشرع الشريف مع علو قدرهم، فهم دائما للشرع معظمون، وباتباعه آمزون. واهتموا بخدمة الحرمين الشريفين والاعتناء بمصالحهما، وقدموا الصدقات الجليلة والإحسانات إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة والقدس والخليل. وهكذا فإن السلاطين قد قاموا بأعمال مجيدة

وجليلة، وبسطوا العدالة والسماحة فى ربوع البلاد التى فتحوها . هذا فضلا عن إنشاء المدارس والمساجد والتكايا والأسبلة وتشييد الحصون والقلاع. ولكن الدولة العثمانية لم تستطع الصمود أمام التحديات الأجنبية والمؤامرات والحركات القومية والماسونية والصهيونية، التى تكاتفت جميعها فأطاحت بالدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى"[١] .

وقد صور حِتِّى الحكم العثمانى على أنه حكم مشؤوم حالك الشؤم على العرب، إذ لم يظهر لهم طوال القرون التى بسطت الدولة العثمانية سلطانها على بلادهم أى أثر يتسم بالإبداع أو الابتكار سواء فى العلم أو فى الأدب أو فى الفن، وكانوا يئنون من الفقر والظلم والجهل والاستبداد، إلى أن شرع العالم العربى يستيقظ وينفصل عن العثمانيين. وقد أرجع النهضة المصرية فى عهد محمد على إلى إدخال نابليون للمطبعة لدن غزوه مصر، إذ ولدت تلك المطبعة شرارة فكرية ما لبثت أن أضرمت نارا امتد لهيبها كما يقول[٢] . وهذا كلام مغرض، فالدولة العثمانية كانت قوية فى قرونها الأولى، ثم أخذ يدب فيها الضعف نتيجة للعوامل التى سبق الحديث عنها . ومن الصعب على الأوربيين أن ينسَوْا أن تلك الدولة المسلمة كثيرا ما هددتهم وأوقفت مطامعهم عند حدها وفتحت أوربا الشرقية للإسلام. ولهذا نراهم يعملون دائما على تشويهها، وما كلام حِتِّى إلا صدًى لهذا التشويه، فهو يردد ما يقوله الغربيون عنها، انتصارا للفكرة القومية، التى فتتت العالم الإسلامى، والتى تلتها الآن خطط أخبث لتمزيق الأوطان الصغيرة إلى كيانات أصغر منها . . . وهكذا، بينما نراهم، رغم ما بينهم من إحن وحروب آخرها حربان كونيتان دمرتا كل شىء، حريصين على أن تجمعهم وحدة سياسية وعسكرية واقتصادية تجعل كلمتهم هى الكلمة الوحيدة فى المحافل الدولية، فى الوقت الذى نواجههم نحن، إن كانت هناك مواجهة حقة، فرادى متشرذمين يكيد بعضنا لبعض، بل كثيرا ما يقف بعضنا حليفا لهم ضد إخوانه من العرب والمسلمين كما حدث مثلا أيام عبد الناصر فى النزاع بين الهند والباكستان، أو فى النزاع بين قبرص وتركيا، وكما حدث فى حَرْبَىِ الخليج، وكما حدث فى حصار غزة، وكما يحدث الآن فى حرب الغرب على الإرهاب، والمقصود بها محاربة الإسلام والتدخل فى كل شىء من خصوصيات المسلمين وتسييره على النحو الذى يريده الغرب بما فى ذلك المقررات الدراسية والجمعيات الخيرية والمؤسسات الإسلامية.

وهذه نظرة طائر على تاريخ الدولة العثمانية حسبما تعرضه المقالة الخاصة بالعثمانيين فى "الموسوعة العربية العالمية": "الدَّوْلة العُثْمانية (٦٩٩- ١٣٤٣هـ/ ١٢٩٩- ١٩٢٤م) دولة إسلامية تنسب إلى قبيلة قابي إحدى القبائل التركية، ومنشؤها بلاد تركستان. وكان سليمان أحد أبناء القبيلة يهيم بقبيلته

---

[١] د. إسماعيل أحمد ياغى/ الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث/ مكتبة العبيكان/ الرياض/ ٥- ٧.

[٢] ص٢١٢- ٢١٣.

في آسيا الصغرى بعد موقعة ملاذكرد، وقتل سليمان عند مشارف حلب، وترددت القبيلة بين العودة لموطنها الأصلي ومواصلة المغامرة، وانقسمت القبيلة في ذلك، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقي علاء الدين الثاني، الذي كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين، وساعده في هذا الكفاح، فأعطاه السلطان السلجوقي المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين، فاتخذ شكور عاصمة له، وأصبح ابنه عثمان ملازمًا له في حروبه وأعماله الإدارية. وفي هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية مشتعلة فشغلت جانبًا كبيرًا من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين.

وعندما توفي أرطغرل تولى عثمان الأول مكانه بموافقة علاء الدين السلجوقي وسار على هدي أبيه في مساعدة السلجوقيين وتأييدهم في حروبهم، فزاد علاء الدين في إكرامه ومنحه نوعًا من الاستقلال، وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها وأجاز له ضرب العملة باسمه وذكر اسمه في خطبة الجمعة، ومنحه لقب "بك". وهكذا اقترب عثمان من الاستقلال التام، وصار زعيم إمارة من أهم الإمارات، واستمر في التوسع حتى استولى من دولة الروم الشرقية على مدينة قرة حصار، التي جعلها عاصمة له. وانتهز عثمان فرصة انشغال المغول بحروبهم مع سلاجقة قونية، فسار في فتوحاته ووسع مملكته. وبعد وفاة عثمان الأول جاء ابنه أورخان واستولى على عدة مدن، وتم تكوين أول فرقة من طوائف الإنكشارية (العسكر الجديد).

وخلف أورخان، الذي توفي عام ٧٦١هـ- ١٣٥٩م، ابنه مراد الأول، الذي تخطى المضيق واتجه إلى أوروبا وهاجم شبه جزيرة البلقان بعد أن أقرّ النظام وتغلب على بعض العصاة في آسيا الصغرى. وكانت البلقان وقتها خاضعة لعدد من صغار الحكام، فتساقطوا واحدًا بعد الآخر في قبضة العثمانيين. وفي سنة ٧٩٢هـ- ١٣٨٩م وقعت معركة عنيفة في قوصوة بين العثمانيين بقيادة مراد الأول وأحلاف النصارى الأوروبيين التي تكونت من القوات الصربية وقوات من البشناق والمجر والبلقان والألبانيين، وانتصر مراد الأول. غير أن صربيًا طعنه غدرًا، وتولى بايزيد الأول مكان أبيه. وفي عام ٧٩٣هـ- ١٣٩٠م فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، وهي مدينة الآشهر. ونتيجة للفتوحات العثمانية انتشر الخوف والفزع بين الأوروبيين، وقامت مظاهرات دينية للحث على حربهم، وخرج جيش أوروبي بقيادة سجسمند ملك المجر ضم إليه كتائب من فرنسا وألمانيا، وانتصر الأوروبيون في بادئ الأمر واستردوا الكثير من المدن، ولكن بايزيد الأول أسرع بتجميع شتات جنوده وهزمهم سنة ٧٩٩هـ- ١٣٩٦م.

وقد اشتد الخطر المغولي تحت قيادة عسكري شهير هو تيمور لنك، الذي خطط وخطا خطوات واسعة نحو استعادة ملك جنكيزخان وهولاكو، الذي امتد من موسكو إلى الصين فسوريا. قامت المعركة الأولى بين العثمانيين والمغول سنة ٨٠٣هـ- ١٤٠٠م عند سيواس، وانتصر فيها المغول وقتل القائد أرطغرل أكبر أبناء بايزيد الأول. وفي عام ٨٠٥هـ- ١٤٠٢م بدأت المعارك الحقيقية عند جيوت أباد، فانتصر فيها

المغول أيضا واتجهوا نحو أنقرة، وهزم بايزيد ووقع في الأسر ومات عام ٨٠٦هـ، ١٤٠٣م. تولى سليمان بن بايزيد (الأول) مكان أبيه، ووافق تيمورلنك على أن يحكم السلطان سليمان تابعًا للسلطان المغولي. وكانت الفترة قصيرة، حيث مات تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ- ١٤٠٥م، وتقسم أبناؤه مملكته، فأخذ سلطان العثمانيين يعود مرة أخرى وبدأوا يتخلصون من سلطة المغول.

وقد تعاقب السلاطين العثمانيون حتى تولى مراد الثاني، الذي وضع قواعد الأمن والإصلاح، ثم اتجه لمواصلة الفتوحات حتى مات سنة ٨٥٥هـ- ١٤٥١م، وتولى مكانه ابنه محمد الفاتح أو محمد الثاني، وأخذ يخضع الثوار في آسيا الصغرى. وهاجم العثمانيون القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ- ١٤٥٣م حتى تم لهم النصر. وبفتح القسطنطينية انمحت البقية الباقية من بيزنطة، وأصبحت القسطنطينية تسمى: "إسطنبول" أو "دار السعادة"، وصارت عاصمة للامبراطورية العثمانية حتى نقل أتاتورك العاصمة إلى أنقرة سنة ١٣٤٢هـ- ١٩٢٣م. وبفتح القسطنطينية أصبحت الدولة العثمانية من الدول الإسلامية العظيمة. استمر العثمانيون يسيرون بنجاح في فتوحاتهم في أوروبا، ففتحوا بلاد الصرب وشبه جزيرة المورة وبلاد ألبانيا إلى حدود البندقية، وحاول محمد الفاتح أن يفتح إيطاليا، ولكنه انصرف عن ذلك لمشاغله الكثيرة وقتها.

وكانت الدولة المملوكية في مصر وسوريا قد أصيبت بانهيار اقتصادي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي عندما اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، فارتبطت تجارة أوروبا بالهند دون المرور بالموانئ المصرية والعربية. في ضوء هذه الأحداث قامت معركة بين المماليك والعثمانيين في مرج دابق والريدانية سنة ٩٢٢هـ- ١٥١٦م. وبلغت الدولة العثمانية أقصى قوتها في عهد سليمان القانوني أو العظيم كما يسميه الأوروبيون. وامتدت الفتوحات العثمانية إلى دول الشمال الإفريقي، التي كانت تعاني من الاضطراب بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها. استولى العثمانيون على الجزائر بقيادة خير الدين بربروسة عام ٩٢٤هـ- ١٥١٨م، ثم على تونس ثم طرابلس، ثم واصلت القوات العثمانية زحفها حتى استولت على صنعاء سنة ٩٥٤هـ- ١٥٤٧م، ثم مسقط ٩٥٨هـ- ١٥٥١م، وواصلت زحفها حتى رأس الخليج العربي. وبذلك بلغت الدولة العثمانية أقصى مداها.

وكان امتداد الإسلام بأوروبا واسعًا في عهد العثمانيين. وقد وصلوا إلى فيينا عاصمة النمسا. حرص العثمانيون على نشر الإسلام بالبقاع التي دخلوها بأوروبا، وكانت حملاتهم العسكرية يصحبها الوعاظ والمعلمون الذين يقومون بنشر الإسلام في الأماكن التي وصلت لها الدولة. كما أن السلاطين والأمراء والأثرياء اهتموا اهتمامًا كبيرًا بإقامة المساجد والمعاهد لتعليم الإسلام والدعوة له، مما جعل عددًا كبيرًا من الأوروبيين يعرفون الإسلام ويرتبطون به. وفشلت محاولات الحركة الصهيونية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩م) لإقامة وطن يهودي بفلسطين، كما أصدر فرمانا بمنع هجرة اليهود إلى سيناء، في الوقت الذي اتجه فيه اليهود إلى سيناء لتكون مهجرًا لهم.

ثم ظهر ضعف الدولة العثمانية في كل مرافقها حتى سُمّيت: "رجل أوروبا المريض". وكان من أهم العوامل التي أدت إلى هذا الضعف: ١- ضعف نظام الحكم العثماني نتيجة لوجود سلاطين ضعفاء انغمسوا في اللهو وتركوا أمر الحكم لغيرهم، فتسلط الأمراء والقواد والحريم. ٢- ضعف الإدارة في الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، فكان منصب الوالي يُمنح لمن يدفع مالاً أكثر، وجعل هذا الوالي يجمع الأموال من الناس بشتى الأساليب ليفي بالمطلوب منه، فتعطلت كافة المشروعات الإصلاحية في الولايات لقلة المال. ٣- عدم التجانس بين شعوب الولايات العثمانية الممتدة في ثلاث قارات، فأدى هذا إلى جنوحها إلى الثورة والعصيان. ٤-فساد نظام الانكشارية حيث انصرف هؤلاء إلى حياة الخمول والكسل بعد أن كانوا مضرب الأمثال في الشجاعة وسرعة الحركة. ٥- الامتيازات الأجنبية حيث بدأ السفراء الأجانب في طلب امتيازات تجارية لرعاياهم، وتطور هذا إلى طلب امتيازات أخرى منها ما هو ديني. وبهذا تمكن السفراء من التدخل في شؤون الدولة".

والآن بدأ الغرب يعمل على تفكيك الكيانات الصغيرة التى انفصلت عن الدولة العثمانية وكونت دولا، إذ جاء الدور على تفتيت المفتت. . . وهكذا يمضى الغرب فى خطته لإضعاف العرب والمسلمين. فبعد أن كان المسلمون دولة واحدة انقسموا إلى دول، ثم بعد أن كان العرب يتوقون إلى أن تكون لهم دولة واحدة نراهم قد انتهى أمرهم إلى الانقسام إلى كذا وعشرين دولة. ثم إن الغرب لا يتركهم فى حالهم، بل يعمل على تقسيم تلك الدول إلى كيانات هزيلة لا تستطيع من أمرها شيئا. وفى ذات الوقت يمضى العرب والمسلمون مستسلمين لما يضعه الغرب من خطط لتدميره: هكذا حال الشعوب، اللهم إلا من ثار على حكامه وبقى أن يواصل الثورة حتى يحصد ثمارها عزة وكرامة وحرية ورغدا . . . إلخ. أما الحكام فمن الواضح أنهم قد اختاروا الانحياز إلى الغرب ضد شعوبهم، مع التهليل فى نفس الوقت ببعض الشعارات السخيفة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع. وها هو ذا الغرب ينضم كله منذ وقت بعيد فى حلف الأطلسى، وتندمج أوربا فى كتلة واحدة تحت مسمى "الاتحاد الأوربى"، ولها سوق واحدة اسمها "السوق الأوربية المشتركة".

وعلى العرب والمسلمين أن يفيقوا مما هم فيه ويدركوا ما يبيته الغرب لهم ويجتهدوا فى التغلب على خططه الجهنمية. والمسألة ليست سهلة، ولكن لكل شىء ثمنا. وما داموا على استعداد لدفع الثمن فإنهم بمشيئة الله لغاياتهم واصلون، ولطموحاتهم محققون. أما إذا كانت الأخرى فعلى نفسها جنَتْ براقش. على أن يكون واضحا أن ما هم فيه من تفكك وتشرذم لا يصلح لهذا العصر ولا لأى عصر، وليعرفوا أنهم لم ينعموا باحترام الدول الأخرى أيام مجدهم إلا حين كانوا متحدين متكاتفين رغم ما شاب ذلك الاتحاد من ثغرات أحيانا. لكن ما لا يُدرَك كله لا يُترَك كله. والمهم العمل والاجتهاد وعدم اليأس. وليس أمامهم إلا أن يتكاتفوا ويكونوا يدا واحدة. أما كيف تكون هذه الوحدة فهذا متروك للمفكرين والساسة يبحثون عن أصلح الطرق لتنفيذه، شريطة أن تظل الشعوب يقظة تراقب أداءهم وتضغط عليهم ولا تتركهم يعملون ما

يريدون وتخلد هى إلى النوم كما كانت تفعل من قبل، مما كان سببا للكوارث التى تعانى منها الآن، وسوف تظل تعانى منها لوقت لا ندري مدى طوله، إذ هو يتوقف على مدى وعيها وإدراكها واستعدادها للتضحيات في سبيل الذود عن أمانيها.

ولعل القراء الكرام قد لاحظوا أننى، فى تحليلاتى، دائما ما أعود على الشعوب بالملامة فى نهاية المطاف. ذلك أن الشعوب هى صاحبة المصلحة أولا وآخرا، أما الحكام فقليل منهم من هو على استعداد من تلقاء نفسه للكفاح فى هذا السبيل لأنه طريق متعب مزعج، فإذا شام الحكام من الشعوب جنوحا إلى الكسل والتبلد فإنهم يسقطونها من حساباتهم ويلقون بثقلهم مع أعدائها لأن هؤلاء الأعداء هم الوحيدون الذين يحمونهم ويساعدونهم على البقاء فى كراسىّ الحكم ما عاشوا ثم أولادهم من بعدهم. صحيح أن الغرب متى وجد أن من مصلحته إسقاط هؤلاء الحكام أو تركهم يسقطون فإنه لا يتورع عن ذلك لحظة واحدة. ومع وضوح هذا الموقف الشيطانى وتكرره كثيرا من جانب الغرب فإن الحكام العرب لا يتهمون ولا يتعظون. الحل إذن هو يقظة الشعوب، مع حرصها على الوحدة والإنتاج والعلم والإبداع. وهذا هو الطريق، ولا طريق سواه. وهو جوهر الدين الحق، أما التدين الذى لا يبالى بعدل أو شورى أو عمل أو إنتاج أو إتقان أو علم أو ذوق أو إبداع، ويتشبث بدلا من هذا بالقشور، مع إعنات العباد وتعسير حياتهم دون أدنى داع والزعم بأن هذا هو الدين، فهو تدين زائف لا يقدم، ولكنه يؤخر تأخيرا شديدا، ويؤتى أصحابه أذى بالغا ويجلب على رؤوسهم المصائب من كل جنس ونوع، وهم رغم ذلك يظنون أنهم يحسنون صنعا[١].

---

[١] لصاحب هذه السطور كتاب بعنوان "الحضارة الإسلامية" يعرض فيه الدين بوصفه هو الحضارة فى أرقى أشكالها.

نبذة عن المؤلف

- إبراهيم عوض
- من مواليد قرية كاملة التابعة- غربية فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م
- تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م
- حصل على الدكتورية من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢م
- أستاذ النقد الأدبي بجامعة عين شمس
- البريد الضوئي: Ibrahim_awad9@yahoo.com

- المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين

المتنبي- دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبي- دراسة تحليلية

المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية- منهج جديد

عنترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدي وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغاني- مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصي

سورة طه- دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجالية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين – دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي

نقد القصة في مصر من بدايته حتى ١٩٨٠م

د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام- أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ في رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفي جمعة- قراءة في فكره الإسلامي

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف- دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
المرايا المشوّهة- دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
القصاص محمود طاهر لاشين- حياته وفنه
في الشعر الجاهلي- تحليل وتذوق
في الشعر الإسلامي والأموي- تحليل وتذوق
في الشعر العباسي- تحليل وتذوق
في الشعر العربي الحديث- تحليل وتذوق
موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
أدباء سعوديون
شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية
دراسات في المسرح
دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل
شعراء عباسيون
من الطبري إلى سيد قطب- دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع- قراءة نقدية
لكن محمدا لا بواكي له- الرسول يهان في مصر ونحن نائمون
مناهج النقد العربي الحديث
دفاع عن النحو والفصحى- الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
الفرقان الحق: فضيحة العصر
لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
التذوق الأدبي
الروض البهيج في دراسة "لامية الخليج"
سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب- فصول مترجمة ومؤلفة
في الأدب المقارن- مباحث واجتهادات
مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم عن الفرنسية)
فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام

بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١- ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)

دراسات في النثر العربي الحديث

"مدخل إلى الأدب العربي" لهاملتون جب- قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)

مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات

"تاريخ الأدب العربي" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

الأسلوب هو الرجل- شخصية زكي مبارك من خلال أسلوبه

فنون الأدب في لغة العرب

فصول في الأدب المقارن والترجمة

رسالة ابن غرسية الشعوبية والرسائل التي ردت عليها- دراسة مضمونية أسلوبية

محاضرات في الأدب المقارن

الرد على ضلالات زكريا بطرس- حقائق الإسلام الدامغة وشبهات خصومه الفارغة

"الأدب العربي- نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

بشار بن بُرد- الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

في التصوف وأدب المتصوفة

النساء في الإسلام- نَسْخ التفسير البطرياركي للقرآن (النص الإنجليزي مع دراسة موازنة)

الإسلام الديمقراطي المدني- الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين في أرجاء العالم)

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى

علاوة على مثل هذا العدد من الدراسات والكتب المنشورة في المواقع المشباكية المختلفة، وعلى رأسها موقعه الشخصي.

الفهرست

contributed to the cultural enrichment of the world, may then once more not only take his place in the procession of forward-looking democratic nations but be afforded a favorable opportunity for making further contributions to the progress of mankind.

heart and center of Arabism and Islam has always been in Western Asia and Egypt.

The second essay at a modern Arab empire was made by King Husayn of Mecca, who took advantage of the first World War to break with his Turkish suzerains. He incited other Arabs to rise with him and dreamed of a revived caliphate centering in Mecca with himself at its head. In the early 'twenties, this "king of the Arabs"—after proclaiming himself "caliph of the Moslems" and after seeing his son Faysal installed first on the Syrian throne and later on the Iraqi throne, and his other son Abdullah over Transjordan—appeared to be more successful in his attempts than his Egyptian precursor. Later developments, however, showed they were equally premature. A French mandate was established over Lebanon and Syria, and a British one over Palestine—with its adjunct Transjordan—and Iraq.

The first World War brought about the freeing from Turkish rule of the Arab Crescent, extending from Sinai to the head of the Persian Gulf, and the main portions of the Arabian quadrilateral to its south. The second World War may result in the federation of at least some of these countries into a loose union in which each member would maintain its autonomous status. At the time of this writing cable dispatches report that the Egyptian government is issuing invitations to the neighboring Arab countries to a federation congress in Cairo. Such federation, if effected, would no doubt be conducive to stability and peace in that part of the world. A federation would also be easier than small separate units to relate to the new world order which we hope will emerge from the war. The Arab, who in the past has greatly

Arabic and the study of Arabic literature and history. It drew its inspiration from the memory of the past glory and cultural achievements of the Arabic-speaking people of medieval times. The backward look suggested a forward look. Political awakening followed intellectual awakening and the urge for a reunited Arab world was for the first time in modern times strongly felt—mainly by Syrians and Egyptians.

Even before this, the ambitious and energetic viceroy of Egypt, Muhammad-Ali, who crushed the Wahhabi power in Arabia, wrested all Syria from Turkish rule and came near destroying the Ottoman caliphate, had planned for an Arab empire with Cairo as center long before anyone was ready for it. Besides being abortive the plans ran counter to British and other European interests in the Near East.

As the Arab national movement encountered regional problems which it had immediately to solve, it tended to become localized. In Syria and Lebanon it concentrated its force against the long-established Ottoman domination, in Egypt against British occupation. In the meantime North Africa had parted company with its sister lands to the east and fallen under European Christian control.

The first country to be thus severed was Algeria, which was occupied by the French in 1830. Tunis came next, in 1881. By 1912 France, Spain and Italy had established their ascendancy over the whole region from Morocco to Libya. The fact that this whole North African block was the first to be detached from the rest of the Arab-Moslem world and brought within the sphere of Western influence, together with the fact that its geographic position was peripheral to the lands of Islam—rather than central—denationalized it to a large extent and made it follow a course of its own. The

taxation and oppressive rule. No wonder if under such conditions no creative work in art, science or literature was produced by Arabic-speaking peoples.

By the time the Ottoman Turks were firmly established in their empire, the Arab world, once extending from Persia to Spain, had contracted into its present dimensions. The Persian nationality and language reasserted themselves. Spain was lost. Northern Africa, Egypt, the Arabian peninsula and the Fertile Crescent—one contiguous territory from the Atlantic to the Persian Gulf—retained their Arabic speech and Islamic character, as they do at the present time.

Of these lands Egypt was the first to feel stirrings of a new life, the modern life of nationalism and secularization. The earliest impulse came as a result of the Napoleonic invasion in the closing years of the eighteenth century. Vital contact was thereby established and maintained with the Western world. Missionaries—teachers, preachers and physicians, Protestant and Catholic, British, French and American—tourists, archeologists, traders and other representatives of European institutions and agencies flocked to the eastern shores of the Mediterranean in increasing numbers. Syrians, more particularly progressive Christian Lebanese, patronized European and American schools; many of them traveled or migrated into the West. Soon Lebanon and Syria outstripped Egypt in the race for modernization or Westernization. The process involved the adoption and adaptation of European and American ideas—economic, political, social and above all nationalistic.

The process culminated in the birth of the Arab national movement in the 'seventies of the last century. The movement had its beginnings in an intellectual revival of classical

A Forward Look

MEDIEVAL times, with their Dark Ages, held no blackout for the Arab lands; but modern times did. Throughout the four centuries of Ottoman domination, beginning in 1517, the whole Arab East was in a state of eclipse. Builders of one of the mightiest and most-enduring of Moslem states, the Ottoman Turks conquered not only the Arab lands but the whole territory from the Caucasus to the gates of Vienna, dominated the Mediterranean area from their capital, Constantinople, and for centuries were a major factor in the calculations of Western European statesmen. In the meantime the once glamorous Medina, Damascus, Baghdad, Cairo, former capitals of mighty empires and brilliant seats of culture, receded into the background. They became residences for provincial governors and armed garrisons sent from Constantinople, the city before whose walls had stood on four historic occasions threatening Arab armies from Damascus and Baghdad. The limelight now shone on the city on the Bosphorus.

Besides Arabs the empire of the sultan-caliphs embraced a heterogeneous mass of alien nationalists, religious groupings and linguistic units held together by the sword. The subjugated peoples shared in a common fate of excessive

sultan or not, the fact remains that the Turkish ruler in Constantinople gradually absorbed the caliphal privileges and ultimately the title itself. Although some of Salim's successors styled themselves caliphs and were so addressed, their use of the title was only complimentary and unrecognized outside their own territories. The first known diplomatic document which applies the term caliph to the Ottoman sultan and recognizes his religious authority over Moslems outside of Turkey is the Russo-Turkish treaty of 1774.

The sultan-caliph of Constantinople became the most powerful potentate in Islam, an heir not only to the caliphs of Baghdad but also to the emperors of Byzantium. With the destruction of Mamluk power and the establishment of the Turks on the Bosphorus the focus of Islamic power shifted westward. The center of world civilization had moved to the West. The discovery of America and of the Cape of Good Hope had opened a new era. The history of the Arab caliphate and the Moslem dynasties that arose in medieval times on the ruins of the Arab empire came to an end. The Ottoman domination of the Arab world begins.

tury established a kingdom. The Ottoman problem began to confront the Egyptian sultans seriously in 1481. Rivalry between the two powers found its first expression in repeated conflicts among their vassals on the borders of Asia Minor and Syria. It developed slowly, and came to a head in a battle between Mamluk and Turkish armies near Aleppo on January 24, 1516. The Ottoman victory was complete. The Turkish army was better equipped with the new arms—artillery, muskets and other long-range weapons—which the Mamluk army, comprising Bedouin and Syrian contingents, somewhat disdained to use. The Turks had for some time been using powder, but the Syro-Egyptians clung to the antiquated theory that personal valor is the decisive factor in combat. Salim, the Ottoman sultan, entered Aleppo in triumph and was welcomed as a deliverer from Mamluk excesses. Syria passed into Ottoman hands, and from Syria the Ottoman conqueror swept south into Egypt. A year later the Mamluk sultanate was forever crushed. Cairo, the center of Eastern Islam since Saladin's time, passed away as an imperial city and became a provincial town. Mecca and Medina automatically became a part of the Ottoman empire. The Egyptian preachers who led the Friday public services invoked Allah's blessing on Salim in the following words:

"O Lord! uphold the sultan, son of the sultan, ruler over both lands and the two seas, conqueror of both hosts, monarch of the two Iraqs, minister of the two Holy Cities, the victorious king Salim Shah. Grant him, O Lord, Thy precious aid; enable him to win glorious victories, O Ruler of this world and the next, Lord of the universe."

Whether, as is alleged without sufficient warrant, the last puppet caliph made a transfer of his office to the Ottoman

territory and occupied Moscow for over a year. Three years later he ravaged northern India and massacred 80,000 of the inhabitants of Delhi.

Like a cyclone Timur swept over northern Syria in 1401. For three days Aleppo was given over to plunder. The heads of over twenty thousand of its Moslem inhabitants were built into mounds ten cubits high by twenty in circumference, with all the faces on the outside. The city's priceless schools and mosques were destroyed, never to be rebuilt. Hamah, Hims and Balabakk fell in turn. The Egyptian army was routed and Damascus captured. Its citadel held out for a month. The city was sacked and committed to the flames, and the invader—a nominal Moslem with Shiite proclivities—extorted an opinion from its religious leaders approving his conduct. Of the Umayyad Mosque nothing was left but the walls. From Damascus the wild conqueror rushed back to Baghdad to avenge the deaths of certain of his officers and dotted the city with a hundred and twenty towers built of the heads of the dead.

During the next two years Timur invaded Asia Minor, crushed the Ottoman army at Ankara on July 21, 1402, and took Sultan Bayazid I prisoner. He even captured the capital, Brusa, and Smyrna. Fortunately for the Mamluk kingdom, Timur died two years later while on the march for a still more ambitious campaign against China. His descendants exhausted themselves in internal struggles.

It was at the hands of the Ottomans, early in the sixteenth century, that the Arab empire was to receive its final blow. The Ottoman Turks had originated in Mongolia, admixed with Iranian tribes in Central Asia and pressed into Asia Minor, where they gradually displaced and absorbed their Saljuq cousins and in the first years of the fourteenth cen-

tural valley and ravaged the land. Locusts, like epidemics, made their periodic visitations. Famine became almost chronic in the land and was intensified in the years of plague and drought caused by low water in the Nile. It is estimated that in the course of the Mamluk period the population of Syria and Egypt was reduced by two-thirds.

Toward the end of the period certain international factors began to contribute to the poverty and misery of the land. In 1497 the Portuguese navigator Vasco da Gama found his way round the Cape of Good Hope. This was an event of vital importance in the history of the Syro-Egyptian kingdom. Not only did attacks from Portuguese and other European fleets become frequent on Moslem ships in the Red Sea and Indian waters but gradually most of the traffic in spices and other tropical products of India and Arabia was diverted from Syrian and Egyptian ports and one of the main sources of national income forever destroyed.

An even greater barbarian than the Mamluks produced struck at Syria at the beginning of the fifteenth century. Timur Lang, commonly corrupted into Tamerlane, was born in 1336 in Transoxiana. One of his ancestors was vizir to Jenghiz's son, but the family claimed descent from Jenghiz himself. A satirical biographer, however, claims that Timur was the son of a shepherd and lived at first by brigandage and received the epithet Lang—"lame"—as a result of a wound inflicted on him while stealing sheep. In 1380 Timur at the head of his Tartar hordes initiated a long series of campaigns which gained for him Afghanistan, Persia, Faris and Kurdistan. In 1393 he captured Baghdad and in that and the following year overran Mesopotamia. In Takrit, the birthplace of Saladin, he erected a pyramid with the skulls of his victims. In 1395 he invaded the Volga River

a secretary. Nor was he above suspicion in the matter of pederasty, with which Baybars, among other Mamluks, was charged; the *ghilman* institution of Abbasid notoriety was flourishing under the Mamluks. A successor was not only illiterate but insane. Another, who had been purchased for fifty dinars, had an alchemist blinded and deprived of his tongue for his failure to turn dross into gold.

The evil economic situation of the kingdom was aggravated by the selfish policy of the sultans. One of them, for example, forbade the importation of spices from India, including the much desired pepper, and before the price rose cornered the existing supply and sold it to his subjects at a great profit. He also monopolized the manufacture of sugar and went so far as to prohibit the planting of sugar cane for a period in order to realize excessive profits for himself. In his reign another of the periodic plagues visited Egypt and neighboring countries, and sugar was in special demand as a remedy against the disease. Though not quite as devastating as the "black death," this epidemic is said to have carried away in the capital alone 300,000 victims within three months. Considering the visitation a punishment for the sins of his people, the sultan prohibited females from going outdoors and sought to make atonement by fresh exactions from Christians and Jews.

Exactions were not limited to non-Moslems. In the absence of a regulated system of taxation, the only way these sultans could raise enough money for their campaigns, extravagant courts and monumental buildings was by extortion from their subjects and from government officials who had enriched themselves at the expense of the public. Marauding Bedouins in the Delta and the desert to the east repeatedly fell on the settled *fallahin* of the narrow agricul-

and Pharaonic days. The Mamluk school of architecture received fresh Syro-Mesopotamian influences when in the thirteenth century Egypt became a haven of refuge for Moslem artists and artisans who fled from Mosul, Baghdad and Damascus before the Mongol invasions. With the ending of the Crusades, access to the stone-building territory to the north was gained once more, and brick was abandoned in minaret construction in favor of stone. The cruciform plan of school-mosque structure was developed to its perfection. Domes were constructed that defy rivalry for lightness, beauty of outline and richness of decoration. Striped masonry and decoration, obtained by using stones of different colors in alternate courses, of Roman or Byzantine origin, became a feature. The period was also noteworthy for the development of the stalactite pendentive as well as for the two other familiar features of Moslem decoration: geometrical arabesques and Kufic lettering (throughout all the Moslem ages animal forms were less freely used in Egypt and Syria than in Spain and Persia). Happily the finest examples of Mamluk structures have survived and still form one of the main attractions for tourists and scholars alike.

By the end of the fourteenth century the story of the Mamluks became one of the darkest in Syro-Egyptian annals. Several of the sultans were treacherous and bloodthirsty, some were inefficient or even degenerate, most of them were uncultured. From 1412 to 1421 the sultan was a drunkard who had been bought from a Circassian dealer. He committed some of the worst excesses. Another was not familiar with Arabic. He had his two physicians beheaded because they could give him no relief from a fatal malady. The one who ruled in 1453 could neither read nor write. His name on the official documents he traced over the writing of

and world power. By the end of the period, however, with its military oligarchy, factions among the dominant caste, debased coinage, high taxation, insecurity of life and property, occasional plague and famine and frequent revolts, both Egypt and its dependency Syria were all but ruined. Especially in the valley of the Nile, superstition and magic were prevalent, coupled with the triumph of reactionary orthodoxy. Under these conditions no intellectual activity of high order could be expected. In fact the whole Arab world had by the beginning of the thirteenth century lost the intellectual hegemony it had maintained since the eighth. Mental fatigue induced by generations of effort and moral lassitude consequent upon the accumulation of wealth and power were evident everywhere.

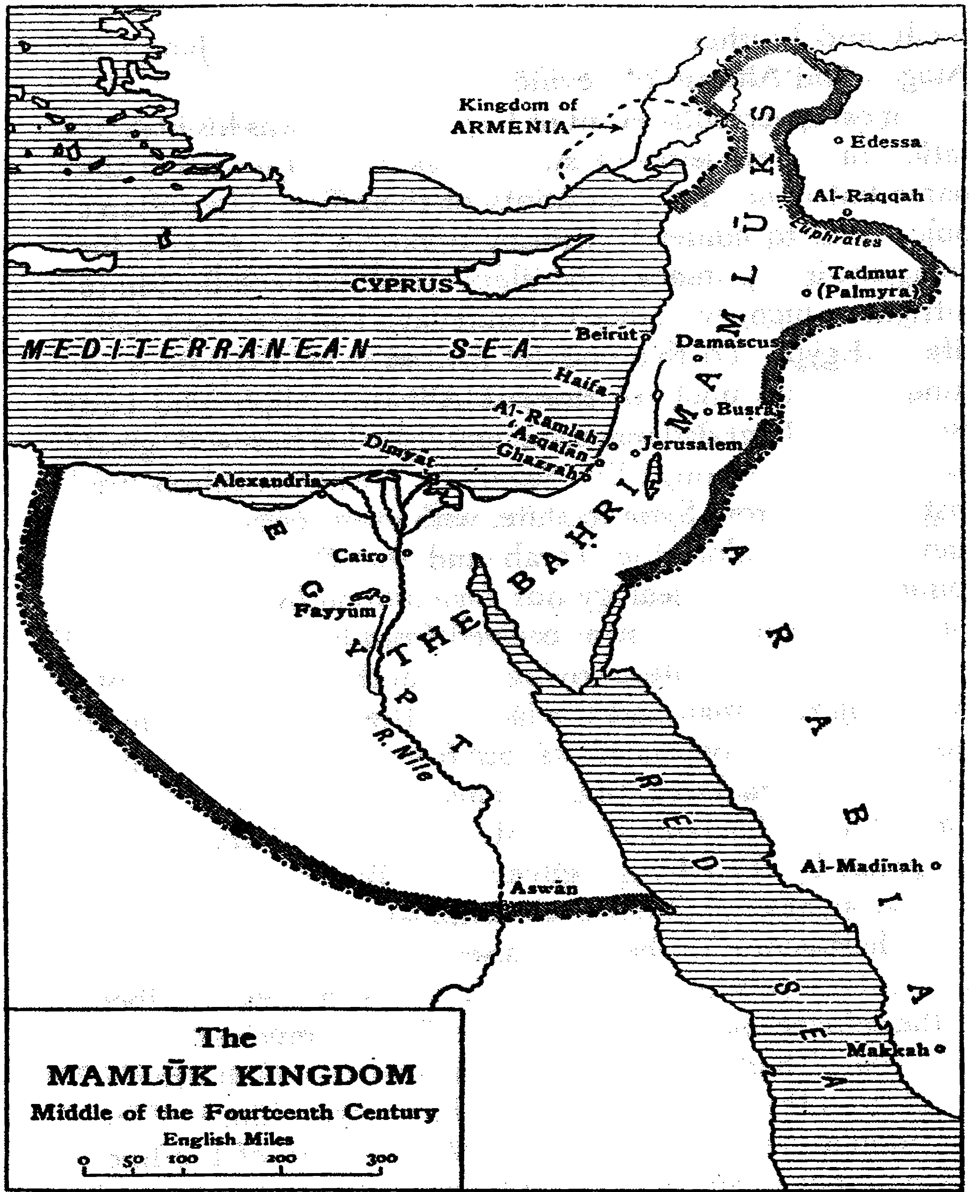
In science there were only two branches wherein the Arabs after the middle of the thirteenth century maintained their leadership: astronomy-mathematics, including trigonometry, and medicine, particularly ophthalmology. In medicine the name that stands out is that of ibn-al-Nafis who studied in Damascus, where he died in 1289 after serving as dean of a hospital in Cairo. Ibn-al-Nafis contributed a clear conception of the circulation of the blood three centuries before the Portuguese Servetus, who is credited with this discovery. The period was especially fertile in works half gynecological, half erotic, of the type we now designate "sex books." Arabic literature, in all ages primarily a male literature, abounds in anecdotes, jokes and remarks which to us today sound obscene.

The most pleasant surprise of the Mamluk period, dominated by a regime of blood and iron, is an extraordinary architectural and artistic productivity on a scale and of a quality without parallel in Egyptian history since Ptolemaic

Sicily and brother of Louis IX, as well as with James of Aragon and Alfonso of Seville.

A most spectacular event of Baybars' reign was his inauguration of a new series of Abbasid caliphs who carried the name but none of the authority of the office. The sultan's object was to confer legitimacy upon his crown, give his court an air of primacy in Moslem eyes and check the Shiite intrigues which, ever since Fatimid days, had been especially rife in Egypt. To this end he invited from Damascus in June 1261, an uncle of the last Abbasid caliph who had escaped the Baghdad massacre, and installed him with great pomp and ceremony. The would-be pensioner-caliph was first escorted from Syria in state, with even Jews and Christians carrying aloft the Torah and the Gospel, and the soundness of his genealogy was passed upon by a council of jurists. The sultan in turn received from his puppet caliph a diploma of investiture giving him authority over Egypt, Syria, Hijaz, Yaman and the land of the Euphrates. Three months later Baybars rashly set out from Cairo to reestablish his caliph in Baghdad, but after reaching Damascus abandoned him to his fate. The hapless puppet was attacked in the desert by the Mongol governor of Baghdad and never heard from again, but one such caliph after another, for two and a half centuries, held the pseudo-caliphate, whose incumbents were satisfied with having their names inscribed on the coinage and mentioned in the Friday prayers in Egypt and Syria. When in 1517 the Ottoman Sultan Salim wrested Egypt from the Mamluks he carried away with him to Constantinople the Caliph al-Mutawakkil, the last of the line.

Egypt began its history under proud and triumphant rulers who had cleared Syria of the last vestiges of Frankish dominion and had successfully stood between the Mongols



The MAMLŪK KINGDOM
Middle of the Fourteenth Century
English Miles
0 50 100 200 300

westward over the Berbers and southward over Nubia, which was now permanently controlled by an Egyptian sultan.

Baybars was more than a military leader. Not only did he organize the army, rebuild the navy and strengthen the fortresses of Syria, but he dug canals, improved harbors and connected Cairo and Damascus by a swift postal service requiring only four days. Relays of horses stood in readiness at each post station. The sultan could play polo in both capitals almost within the same week. Besides the ordinary mail the Mamluks perfected the pigeon post, whose carriers even under the Fatimids had their pedigrees kept in special registers. Baybars fostered public works, beautified mosques and established religious and charitable endowments. Of his architectural monuments both the great mosque and the school bearing his name have survived. The mosque was turned into a fort by Napoleon and later into a rationing depot by the British army of occupation. He was the first sultan in Egypt to appoint four judges, representing the four orthodox rites, and organize the Egyptian pilgrimage to Mecca on a systematic and permanent basis. His religious orthodoxy and zeal, together with the glory he brought to Islam in the holy war, combined to make his name a rival to that of Harun. In legendary history it looms even higher than that of Saladin. His romance and that of pre-Islamic Antar remain to the present day more popular in the Arab Orient than the *Arabian Nights*.

A feature of Baybars' reign was the number of alliances he made with Mongol and European powers. Soon after he became sultan he allied himself with the chief khan of the Golden Horde, or Mongols, in the valley of the Volga. He signed commercial treaties with Charles of Anjou, king of

their keen appreciation of art and architecture would have been a credit to any civilized dynasty and makes Cairo even now one of the beauty spots of the Moslem world. And finally, when they were overthrown in 1517 by the Ottoman Salim, the last of the petty dynasties that had developed on the ruins of the Arab caliphate expired, clearing the way for the establishment of a new and non-Arab caliphate, that of the Ottoman Turks.

The most distinguished of Mamluk sultans and the real founder of Mamluk power was Baybars. The petty dynasty which ruled Egypt had followed the precedent of the earlier caliphs of Baghdad in taking foreign slaves into their service as a bodyguard, with the same eventual result. The bondmen, more capable and vigorous than their masters, became the army commanders and then the sultans. Baybars, originally a Turkish slave, was made leader of a section of the sultan's bodyguard, and from that position worked his way to the highest place in Egypt. He did so, of course, by bloodshed and violence, but in terms of the decadent Arab world he took the "career open to talent." In this Mamluk dynasty there was no principle of succession and no pretence of one; the strongest survived—but for almost three centuries, the strongest were slaves or the descendants of slaves. Baybars himself was tall, dusky in complexion, commanding in voice, brave and energetic—possessed of genuine qualities of leadership.

He won his first laurels against the Mongols in Palestine, but his title to fame rests mainly on his numerous campaigns against the Crusaders. It was these campaigns, as we have noted, which broke the backbone of Frankish opposition. In the meantime his generals had extended his dominion

The Last Dynasty

The last medieval dynasty of the Arab world, the Mamluk, was the most extraordinary. In other than Moslem annals the rise and prosperity of such a dynasty is hardly conceivable. The Mamluks were a dynasty of slaves—the word Mamluk means "possessed"—slaves of varied races and nationalities forming a military oligarchy in an alien land. They are noteworthy not only because they were, in a sense, the logical climax of the corruption in Arab social life which had been in process for centuries but also because of their real achievements. These slave sultans deserve a page in the closing history of the Arab empire.

They cleared their Syrian-Egyptian domain of the remnant of the Crusaders. They checked forever the advance of the redoubtable Mongol hordes of Hulagu and of Timur, who might otherwise have changed the entire course of history and culture in Western Asia and Egypt. Because of this check Egypt was spared the devastation that befell Syria and Iraq and enjoyed a continuity in culture and political institutions which no other Moslem land outside Arabia enjoyed. For about two and three-quarter centuries, 1250-1517, the Mamluks dominated one of the most turbulent areas of the world, keeping themselves all the while racially distinct. Though on the whole uncultured and bloodthirsty,

rival the Italian city republics as a shipping center and share in the increasing wealth. The financial needs of the new situation necessitated a larger supply and a more rapid circulation of money. A system of credit notes was thereupon devised. Firms of bankers arose in Genoa and Pisa with branch offices in the Levant. The Templars began to use letters of credit, receive money on deposit and lend at interest.

An important invention connected with this maritime activity of the Crusades is the compass. The Chinese were probably the first to discover the directive property of the magnetic needle, but the Moslems, who very early carried on lively trade between the Persian Gulf and Far Eastern waters, were the first to make practical use of that discovery by applying the needle to navigation. This discovery they now passed on to the West.

Throughout this period, the Arab empire was contracting and the Moslem mind hardening; but the European man was opening his eyes to a dramatically expanded world. Before the expiration of that empire, however, a last attempt at its revival was made by the Syro-Egyptian Mamluk dynasty.

During their stay in the Orient, the Franks acquired new tastes, especially in perfumes, spices, sweetmeats and other tropical products of Arabia and India with which the marts of Syria were well stocked. These tastes later supported the commerce of Italian and Mediterranean cities. Incense and other fragrant gums of Arabia, the damask rose and sweet scents in which Damascus specialized, and numerous fragrant volatile oils and attars of Persia became favorites. Alum and aloes figured among the new drugs with which they became acquainted. Cloves and other aromatic spices together with pepper and similar condiments came into use in the Occident in the twelfth century, and from that time on no banquet was complete without spiced dishes. Ginger (an Arabic word) was added to the Crusaders' menu in Egypt. More important than all other is sugar, the Arabic *sukkar*. Europeans had hitherto used honey for sweetening their foods. On the maritime plain of Syria, where children can still be seen sucking sugar cane, the Franks became acquainted with this plant which has since played such an important role in our domestic economy and medical prescriptions. Sugar was the first luxury introduced into the West and nothing else so delighted the Western palate. With it went soft drinks, waters tinctured by distillation with roses, violets or other flowers, and all varieties of candy and sweetmeats. The great American ice cream soda might be said to bear a trace of Crusading heritage, the word "soda" being of Arabic etymology.

The creation of a new European market for Oriental agricultural products and industrial commodities, together with the necessity of transporting pilgrims and Crusaders stimulated maritime activity and international trade to an extent unknown since Roman days. Marseilles began to

drum for their military bands, which hitherto had been served only by trumpets and horns. They learned from the natives how to train carrier pigeons to convey military information, and borrowed from them the practice of celebrating victory by illuminations and the knightly sport of the tournament. In fact a large part of the institution of chivalry developed on the plains of Syria. The growing use of armorial bearings and heraldic devices was due to contact with Moslem knights.

The Crusades also fostered the improvement of siege tactics, including the art of sapping and mining, the employment of mangonels and battering rams and the application of various combustibles and explosives. Gunpowder was evidently invented in Syria or Latin Europe, more likely the latter, toward the end of this period; the Chinese claim is unsubstantiated. The application of its explosive force to the propulsion of missiles, i.e. the invention of firearms, which was by far the more important step, was not accomplished before the second quarter of the fourteenth century. The first European recipe for gunpowder we find appended to a work written about 1300 by a certain Marc the Greek; Bacon's recipe is apocryphal.

In the realm of agriculture, industry and commerce the Crusades produced much greater results than in the realm of the intellect. They explain the popularization in the regions of the Western Mediterranean of such new plants and crops as sesame and carob, millet and rice, lemons and melons, apricots and shallots. "Carob" is Arabic *kharrub*; lemon is Arabic *laymun*, of Indic or Malay origin; and both "shallot" and "scallion," meaning originally the onion of Ascalon, preserve the name of the Palestinian town. For many years apricots were called the plums of Damascus.

onists, were largely foreign legions quartered in castles and barracks and in close contact with the native tillers of the soil and artisans rather than with the intelligentsia. Then there were the nationalistic and religious prejudices and animosities which thwarted the play of interactive forces. In science and art the Franks had very little to teach the natives. The comparative standing of medical lore in the two camps may be illustrated by the anecdotes cleverly told by a contemporary Arab historian, who also pokes fun at the Franks' judicial procedure with its trial by duel and by water.

Since in the twelfth century we find a number of hospices and hospitals, chiefly lazar houses for leprosy, springing up all over Europe, we may assume that the idea of systematic hospitalization received a stimulus from the Moslem Orient. This Orient was also responsible for the reintroduction into Europe of public baths, an institution which the Romans patronized but the Christians discouraged.

In literature the influence was more pervasive. The legends of the Holy Grail have elements of undoubted Syrian origin. The Crusaders must have heard stories from the Bidpai fables and the *Arabian Nights* and carried them back with them. Chaucer's *Squieres Tale* is an *Arabian Nights* story. From oral sources Boccaccio derived the Oriental tales incorporated in his *Decameron*. To the Crusaders we may also ascribe European missionary interest in Arabic and other Islamic languages.

In the realm of warfare the influences, as is to be expected, are more noticeable. The use of the crossbow, the wearing of heavy mail by knight and horse and the use of cotton pads under the armor are of Crusading origin. In Syria the Franks adopted the tabor (corrupted from an Arabic word) and the

dirhams and a young girl five. Antioch never recovered from the pillage.

Under Baybars' successors Acre was besieged, ninety-two catapults levelled against its ramparts, and its walls stormed. Its Templar defenders were massacred. Tyre, Sidon, Beirut and Antartus were occupied. The Crusaders were driven into the sea; one of the most dramatic chapters in the history of Syria was closed.

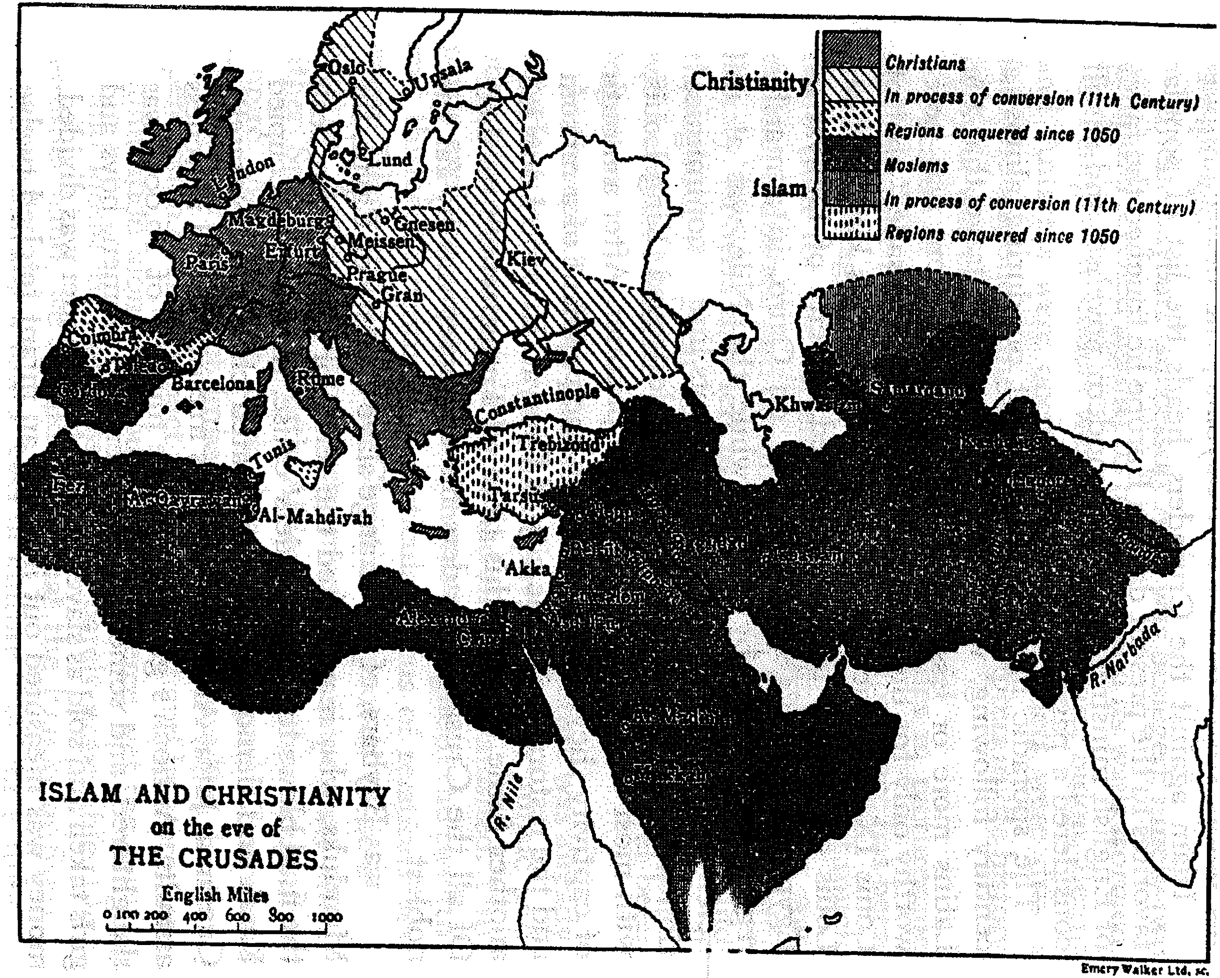
Because of the richness of the Crusades in picturesque and romantic incidents, their historical importance has been somewhat exaggerated. For the Occident they meant much more than for the Orient. Their civilizing influence was artistic, industrial and commercial rather than scientific and literary. In Syria they left in their wake havoc and ruin and throughout the Near East they bequeathed a legacy of ill will between Moslems and Christians that has not yet been forgotten.

In the epoch of the Crusades Moslem culture was already decadent in the East. In philosophy, medicine, music and other disciplines its great lights had almost all vanished. This partly explains why Syria, which was throughout the twelfth and thirteenth centuries a particular focus of relations between Islam and Western Christianity, proved to be a vehicle of Arabic influence very much less important than either Spain, Sicily, North Africa or even the Byzantine empire. Although in Syria Islam acted upon European Christianity by direct impact upon the Crusaders, by the repercussion of that impact upon the West and by a process of infiltration along the routes of commerce, yet the spiritual and intellectual impress it left is barely noticeable. On the other hand, we should recall that the Franks in Syria, besides possessing a lower level of culture than their antag-

utilized stones from the smaller pyramids. Among his people his name, with Harun's and Baybars', the next champion of Islam against the Crusaders, heads the list of popular favorites to the present day. In Europe he touched the fancy of English minstrels as well as modern novelists and is still considered a paragon of chivalry.

The sporadic fighting which went on during almost a century following, with inconclusive results save that the Latins more or less maintained their position, was noteworthy only for the events of the "Sixth Crusade," that of Louis IX of France, and his chevaliers. This king, the St. Louis of history, in 1249 captured the city of Dimyat in Egypt; but as his army marched on Cairo, in a marshy region intersected by canals, while the Nile was at its height, pestilence spread in its ranks, its line of communication was cut off and it was entirely destroyed. King Louis, with most of his nobles, was taken prisoner. After a month of captivity they were released on the payment of a ransom and the restoration of the city of Dimyat. In 1270 Louis led another futile crusade, this time to Tunis, where he died. Of all the Crusading leaders his character was by far the noblest.

It was Baybars, of the strange slave dynasty of Egypt, the Mamluks, who inaugurated the series of sultans who dealt the final blows to the Crusaders' cause. In 1263 he occupied Karak and demolished the venerated church of Nazareth. Caesarea, Jaffa, Antioch fell to his irresistible and merciless assaults. Antioch's garrison, to the number of 16,000, was slaughtered, and some 100,000 men and women, boys and girls taken and sold as slaves. When the plunder was divided, money was measured out in cups; an infant fetched twelve



Christianity
Christians
In process of conversion (11th Century)
Regions conquered since 1050
Islam
Moslems
In process of conversion (11th Century)
Regions conquered since 1050
Oslo
Upsala
Lund
London
Magdeburg
Gnesen
Meissen
Erfurt
Paris
Prague
Gran
Kiev
Coimbra
Toledo
Barcelona
Cordova
Rome
Constantinople
Trebizond
Tunis
Tarsus
Al-Mahdiyah
'Akka
Khwarizm
R. Nile
R. Narbada
ISLAM AND CHRISTIANITY
on the eve of
THE CRUSADES
English Miles
0 100 200 400 600 800 1000
Emery Walker Ltd. sc.

conspicuous contrast with Saladin's treatment of his prisoners at the capture of Jerusalem. He too had then stipulated a ransom and several thousand of the poor could not redeem themselves. At the request of his brother, however, Saladin had set free a thousand of these poor captives; at the request of the patriarch another group was released. Then, considering that his brother and the patriarch had made their alms and that his own turn had come, Saladin freed without ransom many of the remaining captives, including numerous women and children.

Acre now takes the place of Jerusalem in leadership and henceforth negotiations for peace between the two combatant parties go on almost without interruption. Richard, who was full of romantic ideas, proposed that his sister should marry Saladin's brother, and that the two should receive Jerusalem as a wedding present, thus ending the strife between Christians and Moslems. On Palm Sunday, May 29, 1192, he knighted with full ceremony this brother's son. Peace was finally concluded on November 2, 1192, on the general principle that the coast belonged to the Latins, the interior to the Moslems and that pilgrims to the holy city should not be molested. Saladin had only a few months to live and enjoy the fruits of peace. On February 19 of the following year he was taken ill with fever in Damascus and died twelve days later at the age of fifty-five. His tomb near the Umayyad Mosque is still one of the attractions of the Syrian capital. He was more than a mere warrior and champion of Sunnite Islam. He patronized scholars, encouraged theological studies, built dikes, dug canals and founded schools and mosques. Among his surviving architectural monuments is the Citadel of Cairo, which he began, together with the walls of the city, in 1183 and for which he

Frederick, who was the first to start, took the land route and was drowned while crossing a Cilician river. Most of his followers returned home. En route Richard stopped to capture Cyprus, destined to become the last refuge of the Crusaders driven from the mainland.

In the meantime the Latins in the Holy Land had decided that Acre provided the key to the restoration of their lost domain. Against it they marched virtually all their forces, augmented by the remnant of Frederick's army and the contingents of the king of France. King Guy, who had been released by Saladin on pledging his honor never again to bear arms against him, led the attack. Saladin arrived the next day to rescue the city and pitched his camp facing the enemy. The struggle was waged by land and sea. The arrival of Richard was hailed with great rejoicing and bonfires. During the progress of the siege many picturesque incidents took place and were recorded by the contemporary Arabic and Latin chroniclers. Saladin and Richard even exchanged presents, but never met. Richard offered a handsome reward for every stone dislodged from the walls of the city, and the combatants, as well as the women, performed deeds of great valor. The siege, considered one of the major military operations of medieval times, dragged on for two years—August 27, 1189 to July 12, 1191. The Franks had the advantage of a fleet and up-to-date siege artillery; the Moslems had the advantage of single command. Finally the garrison surrendered.

Two of the conditions of surrender were the release of the garrison on the payment of 200,000 gold pieces and the restoration of the holy Cross. When at the end of a month the money was not paid Richard ordered the twenty-seven hundred captives to be slaughtered—an act that stands in

had sworn to slay with his own hand the breaker of truce, and now the time came for the fulfillment of his oath. Taking advantage of a recognized tradition connected with Arab hospitality Reginald secured a drink of water from his captor's tent. But the drink was not offered by Saladin and therefore established no guest and host relationship between captive and captor. Reginald paid for his treachery with his life. All the Templars and Hospitallers were also publicly executed.

The victory of Hattin sealed the fate of the Frankish cause. After a week's siege Jerusalem, which had lost its garrison at Hattin, capitulated on October 2, 1187. In the Aqsa Mosque the muezzin's call replaced the Christian gong, and the golden cross which surmounted the Dome of the Rock was torn down by Saladin's men.

The capture of the capital of the Latin kingdom gave Saladin most of the towns of Frankish Syria-Palestine. In a series of brilliantly executed campaigns most of the remaining strongholds were seized. The Franks came very near being swept out of the land. Only Antioch, Tripoli and Tyre, besides certain smaller towns and castles, remained in their possession.

The fall of the holy city aroused Europe. Hostilities among its rulers were buried. Frederick Barbarossa, emperor of Germany, Richard Coeur de Lion, king of England, and Philip Augustus, king of France, took the cross. These three were the most powerful sovereigns of Western Europe, and with them the "Third Crusade," 1189-1192 began. In point of numbers it was one of the largest. For legend and romance, both Oriental and Occidental, this Crusade, with Saladin and Coeur de Lion as its chief figures, has provided the favorite theme.

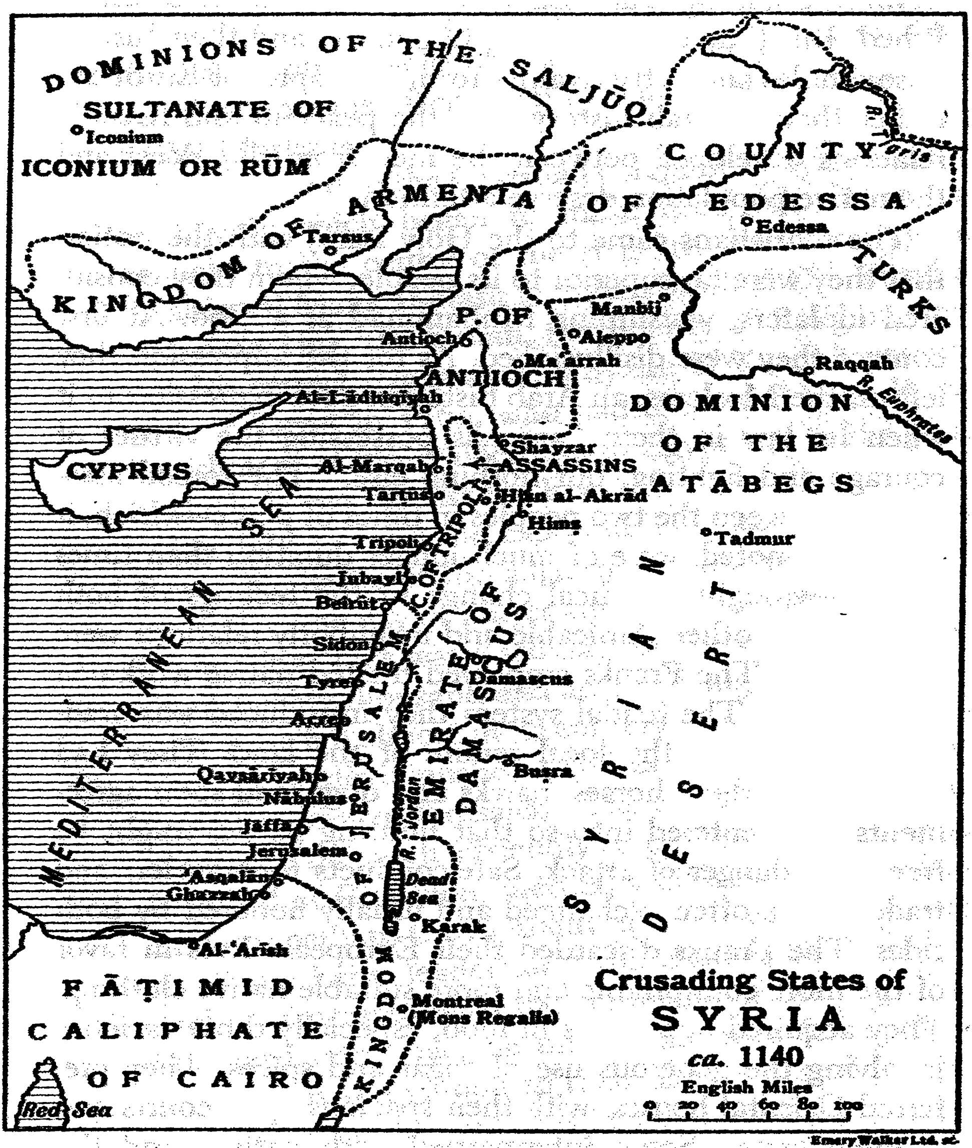
instances venerated shrines held equally sacred by Moslems and Jews. In their intermittent quarrels among themselves the Latins often welcomed assistance from the "infidels," and the Moslems often sought alliances with Latins against fellow Moslems.

The reaction to the Christian conquest of Syria and much of Egypt, which began to make itself felt about 1127, brought to the center of the stage the romantic figure of Saladin—al-Malik al-Nasir al-Sultan Salah-al-Din Yusuf (the victorious king, the Sultan, the Bounty of Religion, Joseph —as his correct name was), a Syrian of Kurdish parentage, vizir of Egypt in 1169, who had dedicated himself to the banishment of Shiite doctrines in Egypt and to the pressing of the holy war against the Franks.

On July 1, 1187, he captured Tiberias after a six days' siege. The battle of the adjacent Hattin followed. It began on Friday, the day of prayer and a favorite one with Saladin for fighting. This was a sad day for the Franks. Numbering about twenty thousand and all but dying of thirst and heat, their army fell almost in its entirety into the enemy's hands. The list of distinguished captives was headed by Guy de Lusignan, king of Jerusalem. The chivalrous sultan gave the crestfallen monarch a friendly reception; but his companion Reginald of Chatillon, merited a different treatment. Reginald was perhaps the most adventurous and least scrupulous of all the Latin leaders and the most facile in the use of Arabic. Entrusted with the command of the city of Karak, Latinized into Crac, he more than once fell upon peaceful caravans and plundered them as they passed beneath the walls of his castle—and that in violation of treaty relations. He even fitted out a fleet and harassed the coasts of the sacred territory of Hijaz, preying upon its pilgrims. Saladin

Latin states, in Syria and Egypt, and others were to be established. But they were not long to endure, and their history of squabbles and petty rivalries forms a chapter of European rather than of Arab history. But the peaceful and friendly relations developed between the men from the West and the native population deserve attention.

The Christians came to the Holy Land with the notion that they were far superior to its people, whom they considered idolaters, worshiping Muhammad as a God. At first contact they were disillusioned. As for the impression they left on the Moslems, an Arab historian gave expression to it when he saw in them "animals possessing the virtues of courage and fighting, but nothing else." The forced association between the two peoples in times of peace—which, it should be noted, were of much longer duration than times of war—wrought a radical change in the feelings of both toward each other. Amicable and neighborly relations were established. The Franks employed trusted native workmen and farmers. The feudal system they introduced was gradually adapted to the local tenure of the land. They had carried with them horses, hawks and dogs, and soon agreements were entered into so that hunting parties might be free from danger of attack. Safe-conducts for travelers and traders were often exchanged and usually honored by both sides. The Franks discarded their European dress in favor of the more comfortable and more suitable native clothing. They acquired new tastes in food, especially those varieties involving the generous use of sugar and spices. They preferred Oriental houses, with their spacious open courts and running water. Some intermarried with natives and the half-caste progeny of native mothers were designated as *poulains*—"kids," or "young ones." They even in certain



DOMINIONS OF THE SALJŪQ
SULTANATE OF ICONIUM OR RŪM
Iconium
KINGDOM OF ARMENIA
Tarsus
COUNTY OF EDESSA
Edessa
TURKS
R. Tigris
P. OF ANTIOCH
Antioch
Manbij
Aleppo
Ma'arrah
Raqqah
R. Euphrates
Al-Lādhiqīyah
DOMINION OF THE ATĀBEGS
CYPRUS
Shayzar
Al-Marqab
ASSASSINS
Tartūs
Ḥiṣn al-Akrād
Ḥimṣ
Tadmur
Tripoli
C. OF TRIPOLI
Jubayl
Beirūt
Sidon
Tyre
Damascus
Acre
EMIRATE OF DAMASCUS
Busra
SYRIAN DESERT
MEDITERRANEAN SEA
Qaysārīyah
Nābulus
Jaffa
Jerusalem
R. Jordan
Dead Sea
'Asqalān
Ghazzah
Karak
Al-'Arīsh
KINGDOM OF JERUSALEM
Montreal (Mons Regalis)
FĀṬIMID CALIPHATE OF CAIRO
Red Sea
Crusading States of SYRIA ca. 1140
English Miles
0 20 40 60 80 100
Emery Walker Ltd. sc.

conquest falls in its entirety before the so-called Second Crusade, 1147-1149, and the third period coincides roughly with the thirteenth century. One of the Crusades of this last period was directed against Constantinople, 1202-1204, two against Egypt, 1218-1221, accomplishing nothing, and one even to Tunis in 1270.

The route of the first Crusaders from their rendezvous at Constantinople lay across Asia Minor. This victorious march restored to Alexius, who had exacted from all the Crusading leaders an oath of feudal allegiance, the western half of the peninsula and helped to delay the Turkish invasion of Europe for three centuries and a half.

Tarsus, Antioch and Aleppo fell to the invaders, the latter reduced in a surge of religious enthusiasm resulting from the discovery of the "holy lance," which had pierced the Saviour's side as He hung upon the cross and had lain buried in a church in Antioch. On June 7, 1099, some forty thousand Crusaders, of whom about twenty thousand were effective troops, stood before the gates of Jerusalem. The Egyptian garrison may be estimated at about one thousand. Hoping the walls would fall as those of Jericho had done, the Crusaders first marched barefoot around the city, blowing their horns. A month's siege proved more effective. On July 15 the besiegers stormed the city and perpetrated an indiscriminate massacre involving all ages and both sexes. "Heaps of heads and hands and feet were to be seen throughout the streets and squares of the city." Many of the Crusaders and pilgrims, considering their vows now fulfilled, sailed back home.

Under the leadership of Raymond of Toulouse, the most powerful count of France, Bohemond, Baldwin, Godfrey and Tancred, the Crusading army had set up three small

reuniting the Greek Church to Rome, the final schism between the two having been effected as late as 1054.

Probably the most effective speech in all history was made when, on November 26, 1095, Pope Urban spoke at Clermont in southeastern France, urging the faithful to "enter upon the road to the Holy Sepulchre, wrest it from the wicked race and subject it" to themselves. The rallying cry "God wills it!" ran through the land and seized high and low with its psychical contagion. By the spring of the following year a hundred and fifty thousand men, mostly Franks and Normans, had answered the call and met at Constantinople. The first of the Crusades, so called from the cross borne as a badge, had started.

Not all, of course, who took the cross were actuated by spiritual motives. Several of the leaders, including Bohemond, were intent upon acquiring principalities for themselves. The merchants of Pisa, Venice and Genoa had commercial interests. The romantic, the restless and the adventurous, in addition to the devout, found a new rallying point and many criminals sought penance thereby. To the great mass of the inhabitants of France, Lorraine, Italy and Sicily, with their depressed economic and social conditions, taking the cross was a relief rather than a sacrifice.

The customary classification into a definite number of Crusades, seven to nine, is by no means satisfactory. The stream was more or less continuous and the line of demarcation between Crusades not sharply drawn. A more logical division would be into, first, a period of conquest extending to 1144; second, a period of Moslem reaction culminating in the brilliant victories of Saladin; and third, a period of civil and petty wars ending in 1291 when the Crusaders lost their last foothold on the Syrian mainland. The period of

The Crusades

The Crusades represent the medieval chapter in the long story of interaction between East and West. The Trojan and Persian wars of antiquity were the prelude and the imperialistic expansion of modern Western Europe was the latest chapter.

More specifically, the Crusades represent the reaction of Christian Europe against Moslem Asia, which had been on the offensive since 632 not only in Syria and Asia Minor but in Spain and Sicily also. Among other antecedents were the migratory and military tendencies of the Teutonic tribes, who had changed the map of Europe since their entrance into the light of history; the destruction by a Fatimid caliph in 1009 of the Church of the Holy Sepulchre—the object of pilgrimage for thousands of Europeans and whose keys had been sent in 800 to Charlemagne by way of a blessing from the patriarch of Jerusalem—and the hardships to which pilgrims through Moslem Asia Minor were subjected. The immediate cause of the Crusades, however, was the appeal made in 1094 to Pope Urban II by the Byzantine Emperor Alexius Comnenus, whose Asiatic possessions had been overrun by the Saljuqs as far as the shores of Marmora. These Moslems threatened Constantinople itself. The Pope possibly viewed the appeal as affording an opportunity for

favors. Certain schools and mosques were spared or rebuilt. For the first time in its history the Moslem world was left without a caliph whose name could be cited in the Friday prayers.

In 1260 Hulagu was threatening northern Syria. Here he captured Hamah and Harim in addition to Aleppo, where he put to the sword some fifty thousand people. After dispatching a general to the siege of Damascus he felt himself constrained by the death of his brother, the Great Khan, to return to Persia. The army left behind, after subjugating Syria, was destroyed in 1260 near Nazareth by Baybars, the distinguished general of the last medieval dynasty of the Arab world, the Mamluks.

Hulagu, the first to assume the title of the Khan, died in 1265. Less than half a century after his death the faith of Muhammad scored another of its dazzling victories when the seventh Khan recognized Islam as the state religion. Just as in the case of the Saljuqs, the religion of the Moslems conquered the Mongols where their arms had failed.

Meanwhile, on a front farther west, Islam had been undergoing another assault, one which wrote one of the memorable pages in the history of our own civilization and which saw the rise of one of Islam's greatest champions. This was the period of the Crusades, and of Salah-al-Din—Saladin.

thirteenth century shaken every kingdom from China to the Adriatic. Russia was in part overrun and central Europe penetrated as far as eastern Prussia. It was only the death of Jenghiz's son and successor in 1241 that saved Western Europe from these Mongolian hordes. There was no salvation for Baghdad.

In 1253 Hulagu, a grandson of Jenghiz Khan, left Mongolia at the head of a huge army intent upon the destruction of the caliphate. The second wave of Mongol hordes was on. It swept before it all those petty princedoms which were striving to grow on the ruins of the empire. In January 1258 the mangonels of Hulagu were in effective operation against the walls of the capital. Soon a breach was effected in one of the towers. The vizir, accompanied by the Nestorian primate—Hulagu had a Christian wife—appeared to ask for terms. But Hulagu refused to receive them. Equally ineffective were warnings citing the fate of others who had dared to violate "the city of peace" or undo the Abbasid caliphate. Hulagu was told that "if the caliph is killed the whole universe is disorganized, the sun hides its face, rain ceases and plants grow no more." But he knew better, thanks to the advice of his astrologers. By the tenth of February his hordes had swarmed into the city and the unfortunate caliph with his three hundred officials rushed to offer an unconditional surrender. Ten days later they were all put to death. The city itself was given over to plunder and flames; the majority of its population, including the family of the caliph, were wiped out of existence. Pestilential odors emitted by corpses strewn unburied in the streets compelled Hulagu to withdraw from the town for a few days. But as he intended to retain Baghdad for his residence the devastation was not as thorough as in other towns. The Nestorian patriarch received special

T[illegible]smen swelled their armies the Saljuqs extended their conquests in all directions until once more Western Asia was united into one Moslem kingdom and the fading glory of Moslem arms revived. A new race from Central Asia was pouring its blood into the struggle of Islam for world supremacy. The story of these barbarian infidels, setting their feet on the necks of the followers of the Prophet and at the same time accepting the religion of the conquered and becoming its ardent champions, was not unique in the checkered annals of that religion. Their cousins, the Mongols of the thirteenth century, as well as their other kinsmen the Ottoman Turks of the early fourteenth century, repeated the same process. In the darkest hour of political Islam religious Islam proved able to achieve some of its most brilliant victories.

The hour was dark indeed for Islam now. In 1216 Jenghiz Khan, with an appalling swarm of some sixty thousand Mongolian barbarians, riding fleet horses and armed with strange bows, appeared to spread havoc and destruction. Before them the cultural centers of eastern Islam were practically wiped out of existence, leaving bare deserts or shapeless ruins where formerly had stood stately palaces and libraries. A crimson streak marked their trail. Out of a population of 100,000, Herat was left with 40,000. The mosques of Bukhara, famed for piety and learning, served as stables for Mongolian horses. Many of the inhabitants of Samarqand and Balkh were either butchered or carried into captivity. Khwarizm was utterly devastated. Baghdad's turn was soon to come. At the capture of Bukhara, Jenghiz is reported by a late tradition to have described himself in a speech as "the scourge of God sent to men as a punishment for their sins." The people he led had by the first half of the

ate was overthrown finally by the renowned Sa[illegible] period of the Crusades.

Politically the Fatimid period marks a new epoch in the history of Egypt, which for the first time since the days of the Pharaohs had a completely sovereign power full of vitality and founded on a religious basis. A Persian missionary traveler who visited the country in 1046-1049, has left us a description in glowing colors. The caliphal palace housed 30,000 persons, of whom 12,000 were servants, and 1,000 horse and foot guards. The young caliph, whom he saw at a festival riding on a mule, was pleasant looking, clean shaven and dressed simply in a white caftan and turban. An attendant carried over the caliph's head a parasol enriched with precious stones. The seven galleys drawn up on the bank of the Nile measured 150 cubits over-all by 60 in beam. The caliph owned in the capital 20,000 houses, mostly of brick, rising to a height of five or six stories, and an equal number of shops, which were let at two to ten dinars a month. The main streets were roofed and lighted by lamps. The shopkeepers sold at fixed prices, and if one cheated he was paraded on a camel through the streets ringing a bell and confessing his fault. Even the shops of jewelers and money-changers were left unlocked. The whole country enjoyed a degree of seeming tranquillity and prosperity that made the missionary enthusiastically declare: "I could neither limit nor estimate its wealth and nowhere have I seen such prosperity as I saw there."

While the Fatimids were ruling in Egypt and North Africa, disintegration was proceeding rapidly in the heart of the old empire at Baghdad. The Saljuq Turks enjoyed a period of ascendancy and put one of their number, Tughril, as ruler in the caliph's capital in the year 1037. As fresh

of the caliphate. These states broke off entirely from the central government or remained only nominally dependent upon the caliph in Baghdad. Ahmad served as an example of what could be done in the matter of achieving military and political power at the expense of a bulky and unwieldy caliphate through the strong-handed and confident ambition of a subject soldier and his slave satellites. But the Tulunid, and most of the other dynasties, had no national basis in the lands over which they ruled and therefore were short-lived. Their weakness consisted in the absence of a strong coherent body of supporters of their own race. The rulers were themselves intruders who were obliged to recruit their bodyguards, which were their armies, from various alien sources. Such a rule can be maintained only by men of outstanding personal influence and no sooner does the mighty arm of the founder relax than disintegration sets in. The state founded by ibn-Tulun reverted to the Abbasids under his son and fourth successor, in 905.

One separate dynasty lasted for more than two centuries and wrote a page of history which warrants attention—the Fatimid caliphate, the only major Shiite one in Islam, which established itself in Tunis in 909 as a deliberate challenge to the religious headship of the Islamic world represented by the Abbasids of Baghdad. It presently controlled all of North Africa and Egypt and under it the city of Cairo reached a new height of splendor. But for all its wealth at the moment, the Fatimid dynasty was not to endure much longer. The familiar story of intrigue and corruption—plus the precariousness of the existence of the common people, who depended on the overflow of the Nile for sustenance and who were harried by famines, plagues and the not less deadly tax gatherers—undermined its strength. The Fatimid caliph-

evidenced by the mosaics and inscriptions of the Palatine Chapel. The renowned weaving house established by the Moslem rulers in the royal palace at Palermo supplied European royalty with state robes which bore Arabic inscriptions. So great was the demand for Oriental fabrics that there was a time when no European could have felt really well-dressed unless he possessed at least one such garment.

During the fifteenth century, when opulent Venice was so actively adopting and scattering Moslem fashions in art, books bound in Italian workshops began to assume an Oriental appearance. The peculiarities of Arabic binding, including the flap that folds over to protect the front edges of the volume, appear on Christian books. At the same time new methods of tooling and decorating leather covers were also being learned from Oriental artisans in various Italian towns. Venice, moreover, was the home of another Arab craft, the inlaying of brass with gold, silver, or red copper. Sicily, as a transmitter of Moslem culture, might claim for itself a place next in importance to that of Spain and higher than that of Syria in the period of the Crusades.

While the last vestiges of Moslem power were being erased in Europe the caliphate in Baghdad was expiring amid a welter of bloodshed and intrigue. A taste of what was to come and an instance of the way in which it came had been supplied as early as the ninth century by the rise of the Tulunid dynasty, the earliest manifestation of a political crystallization in the unruly and heretofore inarticulate Turkish element in the heart of the caliphate. Other and more important Turkish dynasties were soon to follow. The case of Ahmad ibn-Tulun, who seized power in 868, was typical of the founders of the many states on the ruins

Europe to be established by a definite charter. In it he deposited a large collection of Arabic manuscripts. The works of Aristotle and Averroës which he caused to be translated were used in its curriculum; copies of the translations were sent to the Universities of Paris and Bologna. The University of Naples counted among its pupils Thomas Aquinas. In the fourteenth and following centuries Arabic studies were cultivated in several European universities, including Oxford and Paris, but with an entirely different motive: that of preparing Christian missionaries for Moslem lands.

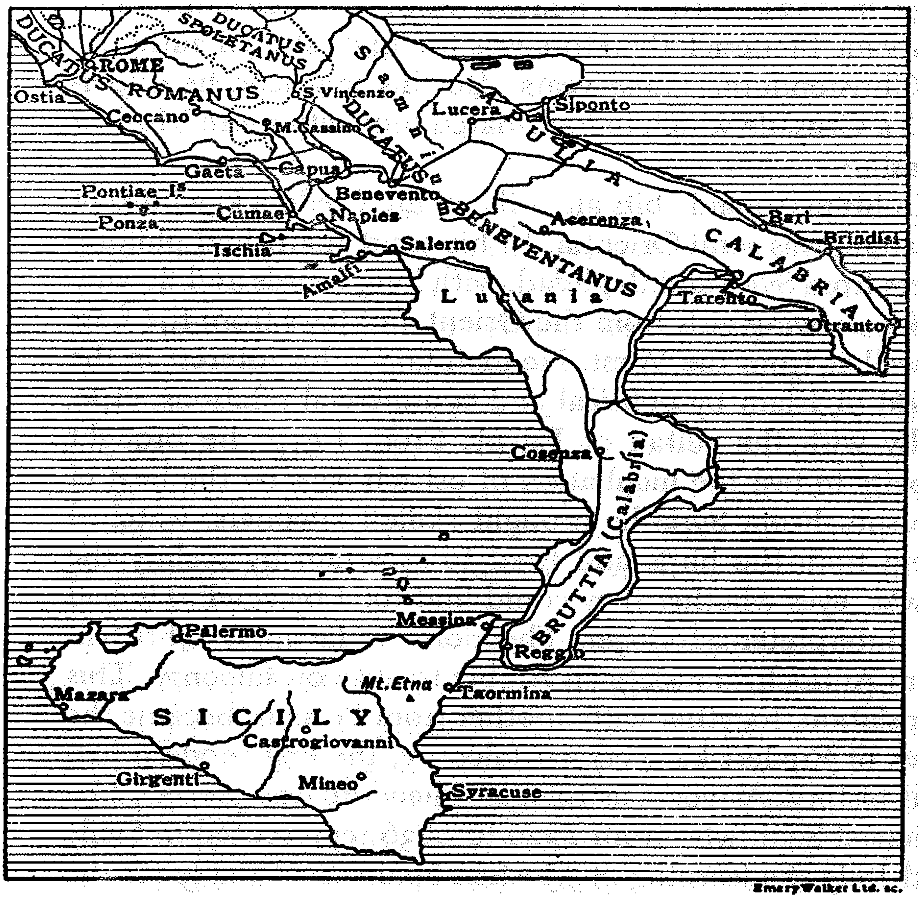
The meeting point of two cultural areas, Sicily was peculiarly adapted to act as a medium for transmitting ancient and medieval lore. Its population comprised a Greek element which used Greek, a Moslem element which spoke Arabic, and a body of scholars who knew Latin. All three languages were in current use in the official registers and royal charters as well as among the populace of the many-tongued Palermo.

Since the Norman kings and their successors on the Sicilian throne held not only the island but also Southern Italy, they provided a bridge for the transmission of various elements of Moslem culture into the peninsula and mid-Europe. By the middle of the tenth century traces of Arab learning became clearly noticeable north of the Alps. Dante's ideas of the other world may not have been derived from any particular Arabic text, but they certainly appear to have been of Oriental origin, though drawn by him from the popular lore of Europe. This penetration from the East through various channels is evident in the domain of art as well as in science and literature. Long after Sicily and the southern part of the peninsula had reverted to Christian rule Moslem craftsmen and artists continued to flourish, as

Empire after 1220, became king of Jerusalem by his marriage in 1225 with the heiress, Isabelle of Brienne. The Emperor Frederick therefore was the highest civil authority in Christendom. Three years after his marriage he undertook a Crusade which indoctrinated him with more Moslem ideas.

In his personal habits and official life Frederick, who kept a harem, was semi-Oriental. In his court flourished philosophers from Syria and Baghdad, with long beards and flowing robes, dancing girls from the Orient and Jews from the East as well as from the West. He maintained his interest in the world of Islam by political and commercial relations, especially with the sultan of Egypt. From Egypt he brought experts to test the incubation of ostrich eggs by the heat of the sun. From Syria he brought skilled falconers, watched them train the birds and tried to ascertain by seeling the hawks' eyes whether they could find food by smell. He had his interpreter-astrologer Theodore, a Jacobite Christian from Antioch, translate an Arabic treatise on falconry. This translation, together with another from Persian, became the basis of Frederick's work on falconry, the first modern natural history. As court astrologer Theodore was preceded by Michael Scot, who from 1220 to 1236 represented in Sicily and Italy the learning of Moslem Spain. Scot made for the emperor from Arabic a Latin summary of Aristotle's biological and zoological works, with Avicenna's commentary, which he dedicated to his patron. This almost modern spirit of investigation, experimentation and research which characterized the court of Frederick marks the beginning of the Italian Renaissance.

But Frederick's greatest single contribution was the founding of the University of Naples in 1224, the first in



Emery Walker Ltd. sc.

The earliest extant document on paper from Europe is an order in Greek and Arabic issued by the wife of Roger I, presumably in 1109. This paper may have been imported by Sicilian Arabs from the East rather than manufactured by them in Sicily.

The strange and fascinating Sicilian-Arab line started by Roger I culminated in his son and successor, Roger II (1130-1154) and in Frederick II. Roger II dressed like a Moslem and his critics called him the "half-heathen king." His robe bore decorative Arabic characters. Even under his grandson a chronicler saw the Christian women of Palermo wearing Moslem costumes.

The chief ornament of Roger II's court was al-Idrisi, the most distinguished geographer and cartographer of the Middle Ages. Born in Ceuta in 1100 of Hispano-Arab parents, abu-Abdullah Muhammad ibn-Muhammad al-Idrisi, who died in 1166, did his life work at Palermo under the patronage of Roger II. His Rogerian treatise not only sums up the main features of such preceding works as those of Ptolemy and al-Masudi, but is primarily based upon original reports submitted by observers who had been sent to various lands to secure data. In his critical collation of the material al-Idrisi shows a remarkable breadth of view and a grasp of such essential facts as the sphericity of the earth. He located the sources of the Nile, supposedly discovered in the late nineteenth century, in the equatorial highlands of Africa. Besides this monumental work al-Idrisi constructed for his Norman patron a celestial sphere and a disk-shaped map of the world, both in silver. The second of "the two baptized sultans of Sicily" was Roger II's grandson Frederick II of Hohenstaufen, who ruled both Sicily and Germany and, besides holding the title of emperor of the Holy Roman

"Saracen towers," structures from which the approach of Arab fleets from Sicily or Africa was announced, still contribute to the scenic beauty of the peerless coastline south of Naples.

The Norman conquest of the island of Sicily began with the capture of Messina in 1060 by Count Roger, son of Tancred de Hauteville, culminated in the seizure of Palermo in 1071 and Syracuse in 1085, and ended in 1091. In 1090 Malta was taken by Roger. The Normans, already strong in the possession of a vigorous state on the mainland, were now secure in their newly conquered territory.

Sicily under the Normans saw the appearance of an interesting Christian-Islamic culture. Throughout the Arab period of domination there streamed into the island, already rich in memories of bygone civilizations, Eastern cultural currents which, blending with the precious legacy of Greece and Rome, took definite shape under Norman rule and gave the Norman culture its distinctive character. Hitherto the Arabs had been too engrossed in warfare and quarrels to develop the finer arts of peace, but now their genius attained its full fruition in a rich outburst of Arab-Norman art and culture.

Though himself an uncultured Christian, Roger I drew from the Moslems the mass of his infantry, patronized Arab learning, surrounded himself with Eastern philosophers, astrologers and physicians and allowed the non-Christians full liberty to follow their rites. His court at Palermo seemed more Oriental than Occidental. For over a century after this Sicily presented the unique spectacle of a Christian kingdom in which some of the highest positions were held by Moslems.

on the slopes of Vesuvius. About four years later Bari, on the Adriatic, which was to become the main base for the next thirty years, was captured. About the same time the victorious Moslems made an appearance before Venice. In 846 even Rome was threatened by Arab squadrons which landed at Ostia and, unable to penetrate the walls of the Eternal City, sacked the cathedrals of St. Peter beside the Vatican and of St. Paul outside the walls, and desecrated the graves of the pontiffs. Three years later another Moslem fleet reached Ostia but was destroyed by the tempestuous sea and the Italian navy. A painting from sketches by Raphael recalls this naval fight and the marvelous rescue of Rome. But the hold of the Moslems over Italy remained so firm that Pope John VIII (872-882) deemed it prudent to pay tribute for two years.

The Aghlabids did not limit their operations to the Italian coasts. In 869 they captured Malta. From Italy and Spain piratical raids in the tenth century extended through the Alpine passes into mid-Europe. In the Alps are a number of castles and walls which tourists' guides attribute to the invasion of the Saracens. Certain Swiss place names such as Gaby and Algaby may possibly be of Arabic origin.

The recapture of Bari by the Christians in 871 marks the beginning of the end of the Moslem menace to Italy and Central Europe. In Bari the commanders had gone so far as to declare themselves "sultans" independent of the amir at Palermo. In 880 the Byzantine Emperor Basil I wrested Taranto, another important fortress, from Moslem hands and a few years later expelled the last remnants of the Arabs from Calabria. The final stage of the expansion which had begun in distant Arabia two and a half centuries before was thus brought to an end. At the present day numerous

In the hands of Mudejar workmen this mixed art attained great beauty and perfection and became the Spanish national style.

Long after the fall of Granada, Moorish dancers and singers continued to entertain the natives of Spain and Portugal. The recent researches of Ribera tend to show that the popular music of Spain, in fact of all southwestern Europe, in and after the thirteenth century, like the lyric and historical romance of that region, is to be traced to Andalusian and then through Arabic to Persian, Byzantine and Greek sources. Even as philosophy, mathematics and medicine traveled from Greece and Rome to Byzantium, Persia and Baghdad, then to Spain, and thence to all Europe, so did several phases of musical theory and practice.

The only place in Europe, other than Spain, in which the Moslems gained a firm foothold was Sicily. The Moslem conquest of Sicily, which had begun with sporadic raids as early as 652, had been completed in the year 827 and for the next hundred and eighty-nine years Sicily under turbulent Arab chieftains had formed in whole or in part a province of the Arab world. Palermo was its capital.

Just as Spain was a *point d'appui* for further raids and temporary conquests northward, so was Sicily with regard to Italy. Before his death in 902 the amir Ibrahim II, an Aghlabid from Tunisia who also ruled Sicily, had carried the holy war across the straits into the toe of Italy, Calabria, but he was not the first Arab invader to set foot on Italian soil. Shortly after conquering Palermo other Aghlabid generals from North Africa had interfered in the quarrels of the rival Lombards of Southern Italy, whose heel and toe were still held by the Byzantine emperor, and when Naples in 838 appealed for Arab aid the Moslem war cry echoed

Almohades were the second Berber dynasty, after the Almoravides, to rule over Moslem Spain and acquired their name from an Arabic word meaning "unitarians." The Alcazar was restored in the Moslem style by Mudejar workmen for King Peter the Cruel in 1353, and was used until a few years ago as a royal residence. Among the many Alcazars in Cordova, Toledo and other Spanish towns, this of Seville is the most renowned and the only one surviving. But it was gravely damaged in Spain's most recent civil war.

The Hispano-Moslem system of decoration reached its culminating point in the Alhambra. This Acropolis of Granada, with its excessive decoration in mosaics, stalactites and inscriptions, was conceived and constructed on an extensive and magnificent scale. Begun about 1248 by a Nasrid sultan, its construction was completed about the middle of the fourteenth century.

The horseshoe form of arch, which became characteristic of Western Moslem architecture, was represented in the Near East even before Islam. In its round horseshoe variety it was used at the Umayyad Mosque of Damascus. This last type, which in the West became known as the Moorish arch, undoubtedly existed in Spain before the Arab conquest, but it was the Spanish, more particularly the Cordovan, Moslems who realized its structural and decorative possibilities and adopted it generally. Another contribution of Arab Cordova, which was truly original, was the system of vaulting based on intersecting arches and visible intersecting ribs. These and other architectural features developed at Cordova were carried to Toledo and other centers in the north of the peninsula by Mozarabs. Here, by the merging of Christian and Moslem traditions, arose a definite style characterized by almost regular use of the horseshoe arch and the vault.

Granada and the first decade of the seventeenth century it is estimated that about three million Moslems were banished or executed. The Moorish problem was forever solved for Spain, which thus became the conspicuous exception to the rule that wherever Arab civilization was planted there it was permanently fixed. "The Moors were banished; for a while Christian Spain shone, like the moon, with a borrowed light; then came the eclipse, and in that darkness Spain has grovelled ever since."

All monuments of religious art in Spain have perished with the exception of one of the earliest and grandest, the great Mosque of Cordova. The foundation was laid in 786 on the site of a Christian church which was originally a Roman temple. The main part of the mosque, with the square minaret, was completed in 793. The Spanish minarets followed the African style, which was of Syrian origin. Twelve hundred and ninety-three columns, a veritable forest, supported its roof. Brass lanterns made from Christian bells illuminated the building. "One chandelier held a thousand lights; the smallest held twelve." For the decoration of the building Byzantine craftsmen were employed, as they may have been employed in the Umayyad mosques of Syria. Eighty thousand gold pieces from the spoils of the Goths were spent on the structure by its founder. Enlargements and repairs were made on it by Moslems down to the year 1000. Today it is a cathedral to the Virgin of the Assumption.

Of the secular monuments the Alcazar (an Arabic word) of Seville and the Alhambra of Granada, with their profuse but graceful decorations, are the most superb remains. The oldest part of the Alcazar of Seville was built by a Toledan architect for an Almohade governor in 1199-1200. The

all Moslems of Spain and northwestern Africa. The half million Moslems of the Philippines are still known by the name of Moros, given them by the Spaniards on the discovery of the islands by Magellan in 1521. The term Morisco was applied originally to Spaniards converted into Islam.

The Moslem Spaniards spoke a Romance dialect but employed the Arabic script. Many, if not most, Moriscos were of course of Spanish descent, but all were now "reminded" that their ancestors had been Christians and that they must either submit to baptism or suffer the consequences. The Mudejars were grouped with the Moriscos and many became crypto-Moslems, professing Christianity but secretly practicing Islam. Some would come home from their Christian weddings to be married secretly by the Moslem rite; many would adopt a Christian name for public and an Arabic one for private use. As early as 1501 a royal decree was issued declaring that all Moslems in Castile and Leon should either recant or leave Spain, but evidently it was not strictly applied. In 1526 the Moslems of Aragon were confronted with the same alternatives. In 1556 Philip II promulgated a law requiring the remaining Moslems to abandon at once their language, worship, institutions and manner of life. He even ordered the destruction of the Spanish baths as a relic of infidelity. A rising, the second of its kind, started in Granada and spread to the neighboring mountains, but was put down. The final order of expulsion was signed by Philip III in 1609, resulting in the forcible deportation en masse of practically all Moslems on Spanish soil. Some half a million are said to have suffered this fate, having been forced to embark for the shores of Africa or to take ship to more distant lands of Islam. It was mainly from these Moriscos that the ranks of the Moroccan corsairs were recruited. Between the fall of

Mudejars, from an Arabic word meaning "domesticated." Many of the Mudejars were now forgetting their Arabic, adopting exclusively the Romance tongue and becoming more or less assimilated to the Christians.

Progress toward the final unification of Spain was slow but sure. At this time the Christian territory was made up of but two kingdoms, Castile and Aragon. The marriage in 1469 of Ferdinand of Aragon to Isabella of Castile united permanently the crowns of these two kingdoms. This union spelled doom for Moslem power in Spain. The late Nasrid sultans were by no means able to cope with the increasing danger. The last of them were involved in dynastic troubles which rendered their position still more precarious. Of the twenty-one sultans who ruled from 1232 to 1492, six ruled twice and one ruled three times. On January 2, 1492, a date that impinges on the beginning of the history of America, Christian troops entered Granada after a long and fierce siege. "The Cross supplanted the Crescent."

Their Catholic Majesties Ferdinand and Isabella failed to abide by the terms of the capitulation. Under the leadership of the Queen's confessor, Cardinal Ximenez de Cisneros, a campaign of forced conversion was inaugurated in 1499. The cardinal at first tried to eliminate Arabic books dealing with Islam by burning them. Granada was the scene of a bonfire of Arabic manuscripts. The Inquisition was then instituted and kept busy. All Moslems who remained in the country after the capture of Granada were now called Moriscos, Spanish for "little Moors." The Romans called Western Africa Mauretania and its inhabitants Mauri (presumably of Phoenician origin meaning "western"), whence the Spanish *Moro*, and the English Moor. The Berbers were the Moors proper, but the term was conventionally applied to

most ferociously bent upon exterminating one another. In man's power to pass on his learning and his art lies the clue to most of that which is noble and enduring in his civilization.

The period of Christian reconquest in Spain started as early as the fall of the Umayyad caliphate in the eleventh century. In fact, Spanish historians consider the battle of Covadonga in 718, in which the Asturian chieftain Pelayo checked Moslem advance, as marking the actual beginning of reconquest. Had the Moslems in the eighth century destroyed the last vestiges of Christian power in the mountainous north, the subsequent story of Spain might have been entirely different. Impeded at first by constant friction among the Christian chiefs of the north, the process of reclamation was greatly accelerated by the final union of Castile and Leon in 1230. By the middle of the thirteenth century the reconquest was practically completed, with the exception of Granada. Toledo fell in 1085; Cordova followed in 1236 and Seville in 1248.

After the middle of the thirteenth century two major processes were in operation: the Christianizing of Spain and its unification. Christianizing the country was different from reconquering and unifying it. The only part of the peninsula where Islam had struck root was where the earlier Semitic, Carthaginian, civilization had once flourished. The same was true of Sicily, a fact not without significance. In general the line of cleavage between Islam and Christianity coincided with the ancient line between the Punic and Occidental civilizations. By the thirteenth century many Moslems throughout the land had become subject to the Christians either by conquest or treaty, but had otherwise preserved their laws and religion. Such Moslems were designated

the caliphate in the eastern and central parts of the empire, save that the death blow here was delivered by Christian rather than Mongol arms.

From the ruins of the Umayyad caliphate of Cordova, which fell in 1031, there emerged a conglomeration of petty Moslem states which spent themselves in fratricidal quarrels. No less than twenty such short-lived states arose in as many towns or provinces. The primacy among them lay first with Seville, whose court enjoyed a period of glory second to that of Cordova. Before the century was over Seville, among other states, fell a prey to a newly rising power, a Berber dynasty from Morocco. The period of Berber hegemony in Spain had begun.

This Berber dynasty which controlled both northwestern Africa and Spain was called Almoravides. The name is a corruption of an Arabic word which means "warrior monks." Originally a military brotherhood, the Almoravides drew their first recruits from tribes whose men wore veils covering the face below the eyes, as their descendants the Touareg still do to the present day. Hence the other name they acquired, the "Veil Wearers." Another Berber dynasty followed the Almoravides. Among the Arab dynasties worthy of note was the Nasrid of Granada, one of whose members Muhammad al-Ghalib, who ruled from 1232 to 1372, built the world-renowned Alhambra.

We are not concerned in tracing the vicissitudes of the petty dynasties, east or west, which marked the process of disintegration. But the main outline of that story is worth noting, especially in the story of the later days of Moslem power in Europe, the interesting and always significant evidence of the tendency of contrasting men and cultures to blend and harmonize, even at the times when they were

course of centuries diluted with that of the conquered, with a subsequent loss of their dominating position and qualities. With the decay of the Arab national life, Arab stamina and morale broke down. Gradually the empire developed into an empire of the conquered. The harem, made possible by the countless number of eunuchs; the girl and the boy slaves, *ghilman*, who contributed most to the degradation of womanhood and the degeneration of manhood; the unlimited concubines and the numberless half brothers and half sisters in the imperial household with their unavoidable jealousies and intrigues; luxurious living with its emphasis on wine and song—all these and similar forces sapped the vitality of family life. The position of the already feeble heirs to the throne was rendered still more uncertain by their interminable disputes over the right of succession.

Economic factors were likewise important. The imposition of taxes and the government of the provinces for the benefit of the ruling class discouraged farming and industry. As the rulers grew rich the people grew proportionately poor. Within the states grew smaller states whose lords habitually robbed their serfs. The depletion of manpower by the recurring bloody strife left many a cultivated farm desolate. Floods in lower Mesopotamia periodically wrought havoc, and famines in various parts of the empire added their quota of disaster. The frequent spread of epidemics—plague, smallpox, malaria and other fevers—before which medieval man stood powerless, decimated the population in large areas. No less than forty major epidemics are recorded in the Arabic annals of the first four centuries after the conquest.

The causes of the disintegration of Moslem power in Spain and other parts of Europe were on the whole of the same nature as those which brought about the collapse of

burglars burst open the doors and snatched their share of the imperial heritage.

The caliphate was going to pieces. Many of the original conquests were only nominal to begin with, and the method of administration was not conducive to stability and continuity. Exploitation and overtaxation were recognized policies, not the exception but the rule. Lines of cleavage between Arabs and non-Arabs, between Arab Moslems and Neo-Moslems, between Moslems and dhimmis, remained sharply marked. Among the Arabians themselves the old divisive feeling between north and south persisted. Neither the Iranian Persians, nor the Turanian Turks, nor the Hamitic Berbers were ever welded into a homogeneous whole with the Semitic Arabians. No consciousness of kind knit these diverse elements closely together. The sons of Iran were ever mindful of their ancient national glory and never reconciled themselves entirely to the new regime. The Berbers vaguely expressed their tribal feeling and sense of difference by their readiness to embrace any schismatic movement. The people of Syria long expected the rise of a leader to deliver them from the Abbasid yoke. Within the fold of religion itself centrifugal forces, no less potent than the political and military, were active, producing Shiites, Qarmatians, Ismailites, Assassins and the like. Several of these groupings represented more than religious sects; the Qarmatians staggered the eastern part of the empire with their blows, and soon afterward the Fatimids seized the west. Islam was no more able to unite its devotees into a corporate whole than was the caliphate to incorporate the lands of the Mediterranean with those of Central Asia into a stable unit.

Then there were the social and moral forces of disintegration. The blood of the conquering element became in the

The Cross Supplants the Crescent

If anything parallels the astounding rapidity with which the sons of the Arabian desert conquered most of the civilized world in the first Islamic century, it is the swift decadence of Arab domination between the middle of the third and the middle of the fourth centuries after the death of Muhammad. About A.D. 820 more extensive authority was concentrated in the hands of one man, the caliph in Baghdad, than in those of any other living person; by 920 the power of his successor had so diminished that it was hardly felt even in his capital city. By 1258 that city itself lay in ruins. With its fall Arab hegemony was lost forever and the history of the real caliphate closed.

Among the external factors the barbarian (in this case Mongol or Tartar) onslaughts, though spectacular in themselves, were in reality only contributory to the final downfall. Even the rise, mushroom-like, of the numberless dynasties and quasi dynasties in the heart of the caliphate and on its periphery was in itself a symptom of the disease rather than the cause of it. As in the case of the Roman Empire of the West, the sick man was already on his deathbed when the

Latin translation of the Koran, besides various pamphlets directed against Islam. Arabic science, introduced into Lorraine or Lotharingia in the tenth century made that region a center of scientific influence in the following two centuries. Liege, Gorze and Cologne, among other Lotharingian cities, provided the most fertile soil for the germination of Arab learning. From Lorraine it radiated into other parts of Germany and was transported into Norman England by men born or educated in Lorraine. Spanish Arabic learning had permeated all Western Europe. Spain's work as an intermediary was done.

but did not share, was the atomistic one as distinguished from the two others held by the Arabic-writing thinkers; namely, the fundamentalist theory, which made God creator of everything, and the philosophical, which was Neo-Platonic and Aristotelian. His works, with one exception, were all written in Arabic, but in Hebrew characters, and were soon translated into Hebrew and later in part into Latin. Their influence, far-reaching in space and time, was exerted mainly over Jews and Christians. Down to the eighteenth century they remained the principal medium through which Jewish thought reached the Gentiles. Modern critics detect traces of that influence in the Dominicans, as attested by the works of Albertus Magnus, in Albertus' rival, Duns Scotus, in Spinoza and even in Kant.

The ruling mystic of the age was another Hispano-Arab, ibn-Arabi, the greatest speculative genius of Islamic Sufism. Ibn-Arabi flourished in Seville but died in Damascus in 1240, where his tomb is still standing. In one of his works he develops the theme of the nocturnal journey of Muhammad and his ascension to Heaven in which he anticipates the masterpiece of Dante.

By the close of the thirteenth century Arabic science and philosophy had been transmitted to Europe. The intellectual avenue leading from the portals of Toledo through the Pyrenees wound its way through Provence and the Alpine passes into Lorraine, Germany and Central Europe and across the Channel into England. Marseilles, Toulouse, Narbonne, Montpellier were French centers of Arabic thought. In eastern France Cluny, whose famous abbey housed a number of Spanish monks, was during the twelfth century a significant focus for the diffusion of Arab learning. Its abbot, Peter the Venerable, sponsored in 1141 the first

professed Islam in public but practiced Judaism in secret has recently been subjected to sharp criticism. In Cairo he became the court physician of the celebrated Saladin and of his son. From 1177 on he held the chief religious office of the Jewish community at Cairo, where he died in 1204. In accordance with his will his body was carried by hand over the route once taken by Moses and buried in Tiberias, where his unpretentious tomb is still visited by throngs of pilgrims. Ailing people among the poor Jews of modern Egypt still seek their cure by spending the night in the underground chamber of the Synagogue of Rabbi Mosheh ben-Maimon in Cairo. A popular Jewish saying, "From Moses to Moses [Mendelssohn] there was none like Moses," expresses the eminent position he has ever held in Jewish estimation.

Ibn-Maymun distinguished himself as astronomer, theologian, physician and above all as philosopher. He improved the method of circumcision, ascribed hemorrhoids to constipation, prescribing for them a light diet predominantly vegetarian, and held advanced ideas on hygiene. His leading philosophical work bore the title *Dalalat al-Ha'irin,* the guide of the perplexed, and in this he tried to reconcile Jewish theology with Moslem Aristotelianism or, in broader terms, faith with reason. Prophetic visions he explained as psychical experiences. To this extent at least he stood as the champion of scientific thought against biblical "fundamentalism" and aroused the anger of conservative theologians, who referred to his book as *Dalalah* misguidance. His philosophic ideas as expressed in this and other works resembled those of Averroës, though developed independently. Like Averroës he knew no Greek and depended entirely on Arabic translations. The theory of creation which he propounded,

lem Asia or Africa. To the West he became "the commentator" as Aristotle was "the teacher." The minds of the Christian schoolmen and scholars of medieval Europe were agitated by Averroës' Aristotle as by no other author. From the end of the twelfth to the end of the sixteenth century Averroism remained the dominant school of thought, and that in spite of the orthodox religious reaction it created first among the Moslems in Spain, then among the Talmudists and finally among the Christian clergy. Averroës was a rationalist and claimed the right to submit everything save the revealed dogmas of faith to the judgment of reason; but he was not, as believed by many, the father of free thought and unbelief and the great enemy of faith. Earlier Moslem Aristotelians had taken for genuine a number of apocryphal works, including some of Neo-Platonic character; Averroës' philosophy involved a return to purer and more scientific Aristotelianism. After being purged of objectionable matter by ecclesiastical authorities, his writings became prescribed studies in the University of Paris and other institutions of higher learning. With all its excellences and all the misconceptions collected under its name, the intellectual movement initiated by Averroës continued to be a living factor in European thought until the birth of modern experimental science.

For first place after Averroës among the philosophers of the age the only candidate is his Jewish contemporary and fellow Cordovan ibn-Maymun, the renowned Mosheh Maimon, or Maimonides, the most famous of the Hebrew physicians and philosophers of the whole Arabic epoch. He was born in Cordova in 1135, but his family left the country as a result of Moslem persecution and settled in Cairo about 1165. The claim of certain biographers that in Spain he

lore, the interest of Europeans in scholarship and philosophy led them rapidly on to an independent intellectual life of their own, whose fruits we still enjoy.

We can mention here only a few of the many great philosophers of Islamic Spain. Ibn-Tufayl, who died in 1185, was among the outstanding. His masterpiece was an original philosophic romance entitled *Hayy ibn-Yaqzan*, "the living one, son of the vigilant," whose underlying idea was that human capacity unassisted by external agency may attain to the knowledge of the higher world and may find out by degrees its dependence upon a Supreme Being. This story, one of the most delightful and original in the literature of the Middle Ages, was first translated into Latin by Edward Pococke, the Younger, in 1671 and then into most European languages, including Dutch in 1672, Russian in 1920 and Spanish as recently as 1934. Some have sought in it an original of *Robinson Crusoe*.

The greatest Moslem philosopher, judged by his influence especially over the West, was the Hispano-Arab astronomer, physician and Aristotelian commentator Averroës (in Arabic ibn-Rushd), who was born in Cordova in 1126. Averroës' chief contribution to medicine was a work in which the fact is recognized that no one is taken twice by smallpox and the function of the retina is accurately described. In the Jewish and Christian world, however, he was known primarily as a commentator on Aristotle. A medieval commentator, we should recall, was an author who composed a scientific or philosophic work using some earlier writing as a background and framework. Accordingly, Averroës' commentaries were a series of treatises using in part the titles of Aristotle's works and paraphrasing their contents. He belonged more to Christian Europe than to Mos-

water), for a medicinal aromatic drink, and "syrup" (Arabic *sharab*), a solution of sugar in water made according to an officinal formula and often medicated with some special therapeutic, may serve as illustrations. "Soda," which in medieval Latin meant headache and in the form *sodanum* headache remedy, comes ultimately from Arabic *suda*, splitting pain in the head. Among chemical terms which passed into European languages through Latin from Arabic works we may note "alcohol," "alembic," "alkali," and "antimony."

The crowning achievement of the intellectual class of Arabs in Spain was in the realm of philosophic thought. Here they formed the last and strongest link in the chain which transmitted Greek philosophy, as transmuted by them and their Eastern coreligionists, to the Latin West, adding their own contribution, especially in reconciling faith and reason, religion and science. To the Moslem thinkers Aristotle was truth, Plato was truth, the Koran was truth; but truth must be one. Hence arose the necessity of harmonizing the three, and to this task they addressed themselves. The Christian scholastics were faced by the same problem, but their task was rendered more difficult by the accumulation of dogmas and mysteries in their theology. Philosophy as developed by the Greeks and monotheistic religion as evolved by the Hebrew prophets were, as we have noted before, the richest legacies of the ancient West and of the ancient East.

This first influx into Western Europe of a body of new ideas, mainly philosophic and medical, marks the beginning of the end of the "Dark Ages" and the dawn of the scholastic period. Kindled by contact with Arab thought and quickened by fresh acquaintance with ancient Greek

like many other physicians a vizirial office. In connection with the "black death," which in the middle of the fourteenth century was ravaging Europe and before which Christians stood helpless, considering it an act of God, this Moslem physician of Granada composed a treatise in defense of the theory of infection, which has a genuinely scientific ring:

"To those who say, 'How can we admit the possibility of infection while the religious law denies it?' we reply that the existence of contagion is established by experience, investigation, the evidence of the senses and trustworthy reports. These facts constitute a sound argument. The fact of infection becomes clear to the investigator who notices how he who establishes contact with the afflicted gets the disease, whereas he who is not in contact remains safe, and how transmission is effected through garments, vessels and earrings."

In the first centuries of Moslem domination in Spain, Eastern culture flowed from a higher level into Andalusia. Spanish savants journeyed "in quest of learning" to Egypt, Syria, Iraq, Persia and even Transoxiana and China; but in the eleventh and following centuries the course was reversed and the current became strong enough in the twelfth century to overflow into Europe. In the transmission of Arab medicine to Europe, northwestern Africa and Spain—in particular Toledo, where Gerard of Cremona and Michael Scot worked—played the leading part. Thereby were the three main medical traditions, Moslem, Jewish and Christian, at last brought into a position where they could be amalgamated. Through these and similar translations several Arabic technical terms were introduced into European languages. "Julep" (Arabic *julab*, from Persian *gulab*, rose

Moslem master and had traveled in North Africa, published a work which was the main landmark in the introduction of the Arabic numerals. More than that, it marks the beginning of European mathematics. With the old type of numerals, arithmetical progress along certain lines would have been impossible. The zero and Arabic numerals lie behind the science of calculation as we know it today.

In the field of natural history, especially botany pure and applied, as in that of astronomy and mathematics, the Western Moslems enriched the world by their researches. They made correct observations on sexual difference between such plants as palms and hemps and classified plants into those that grow from cuttings, those that grow from seed and those that they thought grow spontaneously. A treatise on agriculture by ibn-al-Awwam of Seville—toward the end of the twelfth century—is not only the most important Islamic, but the outstanding medieval, work on the subject. Derived partly from earlier Greek and Arabic sources and partly from the experience of Moslem husbandmen in Spain, this book treats of five hundred and eighty-five plants and explains the cultivation of more than fifty fruit trees. It presents new observations on grafting and the properties of soil and manure and discusses the symptoms of several diseases of trees and vines, suggesting methods of cure.

The best known botanist and pharmacist of Spain, in fact of the Moslem world, was ibn-al-Baytar, who died in Damascus in 1248, leaving the foremost medieval treatise on "simple remedies."

Most of the Spanish Arab physicians were physicians by avocation and something else by vocation. Ibn-al-Khatib, whom we have already noted as a stylist and historian, held

development of Arab astronomy. From their studies of the stars, Arab authors gave us also the first chapters on spherical and plane trigonometry—for, like algebra and analytical geometry, the science of trigonometry was largely founded by Arabs. Everyone who reads the names of stars on an ordinary celestial sphere can readily discern that Arab astronomers have left on the sky immortal traces of their industry. Not only are most of the star names in European languages of Arabic origin, such as Acrab (*aqrab*, scorpion), Algedi (*al-jadi*, the kid), Altair (*al-tair*, the flyer), Deneb (*dhanab*, tail), Pherkad (*farqad*, calf), but a number of technical terms, including "azimuth" (*al-sumut*), "nadir" (*nazir*), "zenith" (*al-samt*), are likewise of Arabic etymology and testify to the rich legacy of Islam to Christian Europe.

One of the most interesting mathematical terms borrowed from Arabic is "cipher" or "zero." While the Arabs did not invent the cipher, they nevertheless introduced it with the Arabic numerals into Europe and taught Westerners the employment of this most convenient convention, thus facilitating the use of arithmetic in everyday life. Without the zero we should have to arrange our figures in a table with columns of units, tens, hundreds, etc.; that is, use an abacus.

Diffusion of the Arabic numerals in non-Moslem Europe was incredibly slow. Christian arithmeticians throughout the eleventh, twelfth and part of the thirteenth centuries persisted in the use of the antiquated Roman numerals and the abacus, or made a compromise and used the new algorisms together with their old system. It was in Italy that the new symbols were first employed for practical purposes. In 1202 Leonardo Fibonacci of Pisa, who was taught by a

deed no European, had ever before taken a view of history at once so comprehensive and philosophic. By the consensus of all critical opinion ibn-Khaldun was the greatest historical philosopher Islam produced and one of the greatest of all time.

Arab geographical studies had but a limited influence in the West, but they kept alive the ancient doctrine that the earth was round. We have already referred to the Hindu idea that the known hemisphere of the world had a center or "world cupola" situated at an equal distance from the four cardinal points. This *arin* theory found its way into a Latin work published in 1410 and from this Columbus acquired the doctrine which made him believe that the earth was shaped in the form of a pear and that on the western hemisphere opposite the *arin* was a corresponding elevated center.

In the realm of astronomical geography and mathematics a number of new concepts were contributed to Western lore. In Spain astronomical studies were cultivated assiduously after the middle of the tenth century and were regarded with special favor by the rulers of Cordova, Seville and Toledo. Most of the Andalusian astronomers believed in astral influence as the cause of most events between birth and death on this earth. The study of this astral influence, i.e. astrology, necessitated the determining of the location of places throughout the world together with their latitudes and longitudes. Thus astrology became the mother of astronomy. It was through Spanish channels that the Latin West found its Oriental inspiration in astronomy and astrology. The leading Moslem astronomical works were translated in Spain into Latin, and the Alfonsine tables compiled by Alfonso X in the thirteenth century were nothing but a

libraries. These formed the nucleus of the Escurial library still standing not far from Madrid. An interesting tale explains how these were saved. In the early part of the seventeenth century the sultan of Morocco, fleeing his capital, sent his library aboard a ship whose captain refused to land the books at the proper destination because he had not received full pay in advance. On its way to Marseilles the ship fell into the hands of Spanish pirates and its bookish booty, to the number of three or four thousand volumes, was deposited by order of Philip III in the Escurial, which made this library one of the richest in Arabic manuscripts.

The two names which stand for the highest literary accomplishment and historical comprehension of which Western Islam was capable are those of the two friends, ibn-al-Khatib and ibn-Khaldun. In 1371 ibn-al-Khatib, who was a vizir, fled from Granada because of court intrigues, only to be strangled to death three years later at Fas as a result of a private feud. In his death Granada, if not the whole of Arab Spain, lost its last important author, poet and statesman. Of the sixty odd works penned by ibn-al-Khatib —poetical, historical, geographical, medical and philosophical—about a third have survived. Of these the most important for us is the extensive history of Granada.

The fame of ibn-Khaldun rests on his *Muqaddamah*, an introduction to history. In it he presented for the first time a theory of historical development which takes due cognizance of the physical facts of climate and geography as well as of moral and spiritual forces. As one who endeavored to find and formulate laws of national progress and decay ibn-Khaldun may be considered the discoverer—as he himself claimed—of the true scope and nature of history or at least the real founder of social science. No Arab writer, in-

Granada the curriculum comprised theology, jurisprudence, medicine, chemistry, philosophy and astronomy. Castilian and other foreign students patronized this institution.

Side by side with the universities, libraries flourished. The royal library of Cordova became the largest and best. A number of persons, including some women, had private collections. The peculiarities of Moslem life with its lack of political assemblies and theaters, which were characteristic features of Greece and Rome, made books almost the sole means of acquiring knowledge.

This accumulation of books in Andalusia would not have been possible but for the local manufacture of writing paper, one of the most beneficial contributions of Islam to Europe, as we have noticed in our study of Baghdad. From Morocco, into which the manufacture of paper was introduced from the East, the industry passed into Spain in the middle of the twelfth century. A philological reminder of this historical fact is English "ream," which is derived through Old French *rayme* from Spanish *resma*, a loan word from Arabic *rizmah*, a bundle. After Spain the art of paper making was established in Italy, about 1270, also as a result of Moslem influence, presumably from Sicily. France owed its first paper mills to Spain, and not to returning Crusaders as claimed by some. From these countries the industry spread throughout Europe. A secretary of Abd-al-Rahman used to write the official communications in his home and send them to a special office for reproduction—a form of printing (*tab*)—whence copies were distributed to the various governmental agents.

After the destruction of Moslem power in Spain less than two thousand volumes survived to be collected by Philip II (1556-1598) and his successors from the various Arab

villancico, which was extensively used for Christian hymns, including Christmas carols.

The emergence of a definite literary scheme of Platonic love in Spanish as early as the eighth century marks a distinctive contribution of Arabic poetry. In southern France the first Provencal poets appear full-fledged toward the end of the eleventh century with palpitating love expressed in a wealth of fantastic imagery. The troubadours who flourished in the twelfth century imitated their southern contemporaries, the *zajal*-singers. Following the Arabic precedent the Cult of the Dame suddenly arises in southwestern Europe. The *Chanson de Roland*, the noblest monument of early European literature, whose appearance prior to 1080 marks the beginning of a new civilization—that of Western Europe—owes its existence to a military contact with Moslem Spain, just as the Homeric poems mark the beginning of historic Greece.

Primary education, widely diffused as we have seen, was based, as in all Moslem lands, on writing and reading from the Koran and on Arabic grammar and poetry. The position of women in the learned life proves that in Andalusia the maxims prohibiting the teaching of writing to women were but little applied. Higher education was based on koranic exegesis and theology, philosophy, Arabic grammar, poetry and lexicography, history and geography. Several of the principal towns possessed what might be called universities, chief among which were those of Cordova, Seville, Malaga and Granada. The University of Cordova included among its departments astronomy, mathematics and medicine, in addition to theology and law. Its enrollment must have reached into thousands and its certificate opened the way to the most lucrative posts in the realm. At the University of

peoples, manifested itself on Spanish soil. The first Umayyad sovereign was a poet and so were several of his successors. Most of the sovereigns had poets-laureate attached to their courts and took them along on their travels and wars. Seville boasted the largest number of graceful and inspired poets, but the flame had been kindled long before in Cordova and later shone brilliantly at Granada as long as that city remained the bulwark of Islam.

Ibn-Zaydun, an important and characteristic poet, belonged to a noble Arab family, and was first a confidential agent to the chief of the Cordovan oligarchy. He later fell from grace, probably on account of his violent love for the poetess al-Walladah, daughter of a caliph, but after several years in prison and exile was appointed to the twofold position of grand vizir and commander of the troops and given the title "he of the two vizirates," that of the sword and that of the pen. This beautiful and talented al-Walladah, who died in 1087, renowned alike for personal charm and literary ability, was the Sappho of Spain. Arab women in Spain seem to have shown special taste and aptitude for poetry and literature.

Emancipated to a limited degree from the fetters of convention, Spanish Arabic poetry developed new metrical forms and acquired an almost modern sensibility to the beautiful in nature. Through its ballads and love songs it manifested a romantic feeling which anticipated the attitude of medieval chivalry. Music and song established and maintained everywhere their alliance with poetry.

It was Arabic poetry in general and the lyric type in particular that aroused native Christian admiration and became one of the potent factors in assimilation. Two of the lyric forms developed into the Castilian popular verse form of

The most valuable of his surviving works is one which entitles him to the honor of being the first scholar in the field of comparative religion. In this work he pointed out difficulties in the biblical narratives which disturbed no other minds till the rise of the higher criticism in the sixteenth century.

In prose, the fables, tales and apologues which began to flourish in Western Europe during the thirteenth century present unmistakable analogies with earlier Arabic works, themselves of Indo-Persian origin. The delightful fables of *Kalilah wa-Dimnah* were translated into Spanish for Alfonso the Wise (1252-1282) of Castile and Leon, and shortly afterward into Latin by a baptized Jew. A Persian translation became through French one of the sources of La Fontaine, as acknowledged by the poet himself. To the *maqamah*, written in rhymed prose adorned with all manner of philological curiosity and intended to teach some moral lesson through the adventures of a cavalier-hero, the Spanish picaresque novel bears close affinity. But the most significant contribution of Arabic to the literature of medieval Europe was the influence it exercised by its form, which helped liberate Western imagination from a narrow and rigid discipline circumscribed by convention. The rich fantasy of Spanish literature betrays Arabic models, as does the wit of Cervantes' *Don Quixote*, whose author was once a prisoner in Algiers and claimed that the book had an original in Arabic.

Wherever and whenever the Arabic language was used, the passion for poetical composition was intense. Verses countless in number passed from mouth to mouth and were admired by high and low. This sheer joy in the beauty and euphony of words, a characteristic of Arabic-speaking

Contributions to the West

A FAVORITE inscription over collegiate portals in Moslem Spain reads: "The world is supported by four things only: the learning of the wise, the justice of the great, the prayers of the righteous and the valor of the brave."

It is significant that in this European statement of Moslem ideals, learning comes first. The strength of Arab arms impressed itself deeply on the Western world, but the impression was not lasting; the Arab faith never appealed strongly to the European imagination; the Arab idea of justice set few precedents; but Moslem learning entered Western thought at many a point. Moslem Spain wrote one of the brightest chapters in the intellectual history of medieval Europe. Between the middle of the eighth and the beginning of the thirteenth centuries, as we have noted before, the Arabic-speaking peoples were the main bearers of the torch of culture and civilization throughout the world, the medium through which ancient science and philosophy were recovered, supplemented and transmitted to make possible the renaissance of Western Europe. The greatest scholar and the most original thinker of Spanish Islam was Ali ibn-Hazm who lived from 994 to 1064, one of the two or three most fertile minds and most prolific writers of Islam. Biographers ascribe to him four hundred volumes on history, theology, tradition, logic, poetry and allied subjects.

of first magnitude. Al-Hakam was a bibliophile; his agents ransacked the bookshops of Alexandria, Damascus and Baghdad with a view to buying or copying manuscripts. The books thus gathered are said to have numbered 400,000, their titles filling a catalogue of forty-four volumes, in each one of which twenty sheets were devoted to poetical works alone. Al-Hakam, probably the best scholar among Moslem caliphs, personally used several of these works; his marginal notes on certain manuscripts rendered them highly prized by later collectors. In order to secure the first copy of the *Aghani*, which al-Isbahani, a descendant of the Umayyads, was then composing in Iraq, al-Hakam sent the author a thousand dinars. The general state of culture in Andalusia reached such a high level at this time that the distinguished Dutch scholar Dozy went so far as to declare enthusiastically that "nearly everyone could read and write." All this when in Christian Europe only the rudiments of learning were known, and that chiefly by a few churchmen.

and oil; it imported cloth and slaves from Egypt and singing girls from Europe and Asia. The exports of Malaga and Jaen included saffron, figs, marble and sugar. Through Alexandria and Constantinople Spanish products found markets as far away as India and Central Asia. Especially active was the trade with Damascus, Baghdad and Mecca. The international nautical vocabulary of the modern world contains not a few words which testify to the former Arab supremacy on the seas—admiral, arsenal, average, cable, shallop.

The government maintained a regular postal service. It modeled its coinage on Eastern patterns, with the dinar as the gold unit and the dirham as the silver unit. Arab money was in use in the Christian kingdoms of the north, which for nearly four hundred years had no coinage other than Arabic or French.

The real glory of this period, however, lies in fields other than political. Al-Hakam, Abd-al-Rahman's successor, was himself a scholar and patronized learning. He granted munificent bounties to scholars and established twenty-seven free schools in the capital. Under him the University of Cordova, founded in the principal mosque by Abd-al-Rahman III, rose to a place of preeminence among the educational institutions of the world. It preceded both al-Azhar of Cairo and the Nizamiyah of Baghdad, and attracted students, Christian and Moslem, not only from Spain but from other parts of Europe, Africa and Asia. Al-Hakam enlarged the mosque which housed the university, conducted water to it in lead pipes and decorated it with mosaics brought by Byzantine artists. He invited professors from the East to the university and set aside endowments for their salaries.

In addition to the university the capital housed a library

Cordova for its iron and lead, and Malaga for its rubies. Toledo, like Damascus, was famous all over the world for its swords. The art of inlaying steel and other metals with gold and silver and decorating them with flower patterns, which was introduced from Damascus, flourished in several Spanish and other European centers and left a linguistic heritage in such words as damascene and damaskeen.

The Spanish Arabs introduced agricultural methods practiced in Western Asia. They dug canals, cultivated grapes and introduced, among other plants and fruits, rice, apricots, peaches, pomegranates, oranges, sugar cane, cotton and saffron. The southeastern plains of the peninsula, especially favored by climate and soil, developed important centers of rural and urban activity. Here wheat and other grains, as well as olives and sundry fruits, were raised by a peasantry who worked the soil on shares with the owners.

This agricultural development was one of the glories of Moslem Spain and one of the Arabs' lasting gifts to the land, for Spanish gardens have preserved to this day a "Moorish" character. One of the best-known gardens is the Generalife—a word which comes from the Arabic *jannat al-arif,* "the inspector's paradise"—a monument of the late thirteenth century whose villa was one of the outlying buildings of the Alhambra. This garden, "proverbial for its extensive shades, falling waters and soft breeze," was terraced in the form of an amphitheater and irrigated by streams which, after forming numerous cascades, lost themselves among the flowers, shrubs and trees represented today by a few gigantic cypresses and myrtles.

The industrial and agricultural products of Moslem Spain were more than sufficient for domestic consumption. Seville, one of the greatest of its river ports, exported cotton, olives

streets illuminated by lights from the bordering houses, whereas "seven hundred years after this time there was not so much as one public lamp in London," and "in Paris, centuries subsequently, whoever stepped over his threshold on a rainy day stepped up to his ankles in mud."

The Arab attitude toward the Nordic barbarians found expression in the words of the learned Toledan judge Said, who thought that "because the sun does not shed its rays directly over their heads, their climate is cold and atmosphere clouded. Consequently their temperaments have become cold and their humors rude, while their bodies have grown large, their complexion light and their hair long. They lack withal sharpness of wit and penetration of intellect, while stupidity and folly prevail among them." Whenever the rulers of Leon, Navarre or Barcelona needed a surgeon, an architect, a master singer, or a dressmaker, it was to Cordova that they applied. The fame of the Moslem capital penetrated distant Germany, where a Saxon nun styled it "the jewel of the world."

Spain under the caliphate was one of the wealthiest and most thickly populated lands of Europe. The capital boasted some thirteen thousand weavers and a flourishing leather industry. From Spain the art of tanning and embossing leather was carried to Morocco and from these two lands it was brought to France and England, as the terms cordovan, cordwainer and morocco indicate. Wool and silk were woven not only in Cordova but in Malaga, Almeria and other centers. The raising of silk worms, originally a monopoly of the Chinese, was introduced by Moslems into Spain, where it thrived. Almeria also produced glassware and brasswork. Paterna in Valencia was the home of pottery. Jaen and Algarve were noted for their mines of gold and silver,

state so triumphant. All this was achieved through the genius of one man. He died at the ripe age of seventy-three. And he left a statement, we are told, which said that he had known only fourteen days of happiness.

As always, under any dynasty, sovereignty in the Moslem world, West or East, was unstable and precarious. In Spain the Umayyad dynasty kept the nominal rule from the time Abd-al-Rahman I imposed it; but by the time of the ascension of the next outstanding figure in the dynasty, Abd-al-Rahman III, in the year 912, civil disturbances, tribal revolts and general political incompetence on the part of the amirs had reduced the organized Moslem state of Spain to the city of Cordova and its environs.

This third Abd-al-Rahman, like his illustrious predecessor, was a young man when he took office, being only twenty-three; and like him also was a youth of intelligence and determination. One by one he reconquered the lost provinces, reduced them to order, and administered them with sagacity and ability. His reign lasted for fifty years, from 912 to 961, an exceptionally long time for that day; it was signalized, politically, by the proclamation by the amir of himself as caliph. With him the Umayyad caliphate in Spain begins. His reign, and that of his two immediate successors, mark the height of Moslem rule in the West. In this period, roughly the tenth century, the Umayyad capital of Cordova took its place as the most cultured city in Europe and, with Constantinople and Baghdad, as one of the three cultural centers of the world. With its one hundred and thirteen thousand homes, twenty-one suburbs, seventy libraries and numerous bookshops, mosques and palaces, it acquired international fame and inspired awe and admiration in the hearts of travelers. It enjoyed miles of paved

and apartments housing thousands of slaves and guards, stood northwest of the town on one of the spurs of the Sierra Morena overlooking the Guadalquivir River. Abd-al-Rahman started its construction in 936 with money left, so the legend goes, by one of his concubines who willed that the fund be used for ransoming captives in Christian hands; but since none were found he acted on the suggestion of his other concubine, al-Zahra, "she with the bright face," and erected this palatial mansion which he named after her. Marble was brought from Numidia and Carthage; columns as well as basins with golden statues were imported or received as presents from Constantinople; and 10,000 workmen with 1,500 beasts of burden labored on it for a score of years. Enlarged and embellished by later caliphs, al-Zahra became the nucleus of a royal suburb whose remains, partly excavated in and after 1910, can still be seen.

In al-Zahra the caliph surrounded himself with a bodyguard of "Slavs" which numbered 3,750 and headed his standing army of a hundred thousand men. At first applied to slaves and prisoners captured by Germans and others from among the Slavonic tribes and sold to the Arabs, the name Slav was later given to all purchased foreigners: Franks, Galicians, Lombards and the like, who as a rule were secured young and Arabicized. With the aid of these "Janissaries" or "Mamluks" of Spain the caliph not only kept treason and brigandage in check but reduced the influence of the old Arab aristocracy. Commerce and agriculture flourished and the sources of income for the state were multiplied. The royal revenue amounted to 6,245,000 dinars, a third of which sufficed for the army and a third for public works, while the balance was placed in reserve. Never before was Cordova so prosperous, Andalusia so rich and the

outside Cordova in imitation of the palace built by an ancestor in northeastern Syria. To his villa he brought water and introduced exotic plants, such as peaches and pomegranates. To a lonely palm tree in his garden, said to be the first imported from Syria, he addressed some tender and nostalgic verses of his own composition.

Two years before his death in 788 Abd-al-Rahman founded the great Mosque of Cordova as a rival to the two sanctuaries of Islam in Jerusalem and Mecca. Completed and enlarged by his successors, it soon became the shrine of Western Islam. With its forest of stately columns and its spacious outer court, this monumental structure, transformed into a Christian cathedral in 1236, has survived to the present day under the popular name "La Mezquita," the mosque. Besides the great mosque the capital could already boast a bridge, over the Guadalquivir (corrupted from an Arabic name meaning "the great river"), later enlarged to seventeen arches. Nor were the interests of the founder of the Umayyad regime limited to the material welfare of his people. In various ways he diligently strove to fashion into one nation Arabians, Syrians, Berbers, Numidians, Hispano-Arabs and Goths—a rather hopeless task; and in more than one sense he initiated the intellectual movement which made Islamic Spain from the ninth to the eleventh centuries one of the two centers of world culture.

The caliph's court at that time was one of the most glamorous in all Europe. Accredited to it were envoys from the Byzantine emperor as well as from the monarchs of Germany, Italy and France. Its seat, Cordova, with half a million inhabitants, seven hundred mosques and three hundred public baths, yielded in magnificence only to Baghdad and Constantinople. The royal palace, with four hundred rooms

caliph's fervent rejoinder. In a passage at arms which has been immortalized in the literature of the West, Charlemagne, king of the Franks, also learned the quality of this redoubtable adversary. As an ally of the Abbasid caliph and a natural enemy of the new amir, or sultan, as Abd-al-Rahman called himself, Charlemagne had sent troops in 778 through the northeastern Spanish marches as far as Saragossa, but had to withdraw when that city closed its gates in his face and domestic enemies threatened his authority at home. On its "via dolorosa" of retreat through the defiles of the Pyrenees, the Frankish army was attacked in its rear by Basques and other mountaineers and suffered disastrous losses in men and baggage. Among the leaders who fell was Roland. His heroic defense has been immortalized in the *Chanson de Roland*, not only a masterpiece of French literature but one of the most striking epics of medieval times.

In the process of subduing his adversaries Abd-al-Rahman developed a well disciplined, highly trained army of 40,000 or more mercenary Berbers. He knew how to keep their favor by generous pay. In 773 he discontinued the Friday sermon hitherto delivered in the name of the Abbasid caliph, but did not assume the caliphal title himself. He and his successors down to Abd-al-Rahman III contented themselves with the title amir. Under Abd-al-Rahman I Spain had thus been the first province to shake off the authority of the recognized caliph in Islam.

With his realm consolidated and temporarily pacified, Abd-al-Rahman turned to the arts of peace, in which he showed himself as great as in the art of war. He beautified the cities of his domain, built an aqueduct for the supply of pure water to the capital, initiated the construction of a wall round it and erected for himself a palace and garden

way to mastery, and kept in power there the Umayyad dynasty which was wiped out in the east.

The story of his escape is dramatic. He was in a Bedouin camp on the left bank of the Euphrates River one day, when horsemen carrying the black standards of the Abbasids suddenly appeared. With his thirteen-year-old brother, Abd-al-Rahman dashed into the river. The younger brother, evidently a poor swimmer, became frightened, heeded the reassurances shouted from the bank that he would be unharmed if he returned, and swam back. He was killed. The older boy kept on and gained the opposite bank.

Afoot, friendless and penniless, he set out southwestward, made his way after great hardships to Palestine, found one friend there, and set off again toward the west. In North Africa he barely escaped assassination at the hands of the governor of the province. Wandering from tribe to tribe, always pursued by the spies of the new dynasty, he finally reached Ceuta, five years later. He was a grandson of the tenth caliph of Damascus, and his maternal uncles were Berbers from that district of North Africa. They offered him refuge.

In the south of Spain, across the strait from Ceuta, were stationed Syrian troops from Damascus. He made his way to them and they accepted him as leader. One southern city after another opened its gates to him. It took him some years more to bring all of Spain to subjection, but he persisted. The Abbasid caliph in Baghdad appointed a governor of Spain to contest his rule; two years later that caliph received a gift from Abd-al-Rahman: the head of his governor, preserved in salt and camphor and wrapped in a black flag and in the diploma of appointment. "Thanks be to Allah for having placed the sea between us and such a foe!" was the

Cordova: Jewel of the World

WHILE the eastern branch of the Moslem empire was reaching its golden day, the far-western branch in Spain was enjoying a period of corresponding splendor. It was a time of even greater importance to us, for it was chiefly from Moslem Spain that Arab culture advanced to interpenetrate the Christian culture of the early Middle Ages to produce the civilization which we inherited. The climax of this western Moslem civilization came between the ninth and eleventh centuries. But before we can examine it, we must turn back in our story to the year 750.

It was in 750, as we have noted, that the Umayyad dynasty in Damascus was overthrown by the Abbasid family; and as we have also seen, the accession of the Abbasids to the caliphate was signalized by a ruthless extermination of every member of the defeated house on whom the victors could lay their hands.

Among the very few who escaped was a youth of twenty, Abd-al-Rahman, a striking young man, tall, lean, with sharp, aquiline features and red hair—a youth of exceptional nerve and ability. It was he who made his way to Spain, fought his

creased to 40,000 by a messenger of the ruler of Khurasan. Her owner capped the climax by freeing the girl and marrying her.

Among the many Greek works translated in the golden age of the Abbasids were a few dealing with the speculative theory of music. It was from these that Arab authors acquired their first scientific ideas on music and became schooled in the physical and physiological aspects of the theory of sound. But on the practical side, they had purely Arabian models. About this time the word *musiqi*, later *musiqa* (music), was borrowed from the Greek and applied to the theoretical aspects of the science, leaving the older Arabic term *ghina*, used hitherto for both song and music, to the practical art. *Qitar* (guitar) and *urghun* (organ), as names of instruments, and other technical terms of Greek origin now appear in Arabic. The organ was clearly an importation from the Byzantines.

Most of the technical treatises unhappily have been lost in the original. Arabic music, with its notation and its two constituent elements of *nagham* (melodic modes) and *iqa'* (rhythmic modes), was transmitted by word of mouth only and has been finally lost. Arabic chants today are scant in melody but strong in rhythm, and no modern reader can interpret properly the few surviving works on classical music or understand fully the meaning of their ancient designations of rhythm and their scientific terminology.

and furnished the theme for numberless fantastic anecdotes immortalized in the pages of the *Arabian Nights*. Two thousand such singers took part in a musical festival under the caliph's patronage. His son al-Amin held a similar night entertainment in which the personnel of the palace, both male and female, danced till dawn.

Typical of the singers of the day was a protégé of Harun al-Rashid called Mukhariq, a slave who when young had been bought by a woman singer who heard him in his father's butcher shop crying his father's meats in his beautiful and powerful voice. He later passed into the possession of Harun, who freed him, rewarded him with 100,000 dinars and honored him with a seat by the caliph's side. One evening he went out on the Tigris and started to sing. Immediately torches began to move to and fro in the streets of Baghdad in the hands of people anxious to hear the master singer.

He and other virtuosi of the halcyon days who won undying fame as companions to the caliphs were more than musicians; they were endowed with keen wits and retentive memories well stocked with choice verses of poetry and delightful anecdotes. They were singers, composers, poets and scholars well versed in the scientific lore of the day. Next to them in importance were the instrumentalists among whom the lute was generally most favored; the viol was used by inferior performers. Then came the singing girls, who as a rule performed while concealed behind curtains. Such singing girls came to be a necessary adornment of the harem and their keeping and training developed into an important industry. For one of them a messenger of the governor of Egypt offered 30,000 dinars, which sum was matched by an envoy of the Byzantine emperor and in-

painted with brilliant iridescent lusters or covered with metallic glazes of changing rainbow hue.

The art of calligraphy, which drew its prestige from its aim to perpetuate the word of God, and enjoyed the approval of the Koran, arose in the second or third Moslem century and soon became the most highly prized art. It was entirely Islamic and its influence on painting was appreciable. Through it the Moslem sought a channel for his esthetic nature, which could not express itself through the representation of animate objects. The calligrapher held a position of dignity and honor far above the painter. Even rulers sought to win religious merit by copying the Koran. Arabic books of history and literature have preserved for us with honorable mention the names of several calligraphers, but kept their silence in the case of architects, painters and metalworkers. Calligraphy is perhaps the only Arab art which today has Christian and Moslem representatives in Constantinople, Cairo, Beirut and Damascus whose productions excel in elegance and beauty any masterpieces that the ancients ever produced.

Not only calligraphy but its associate arts—color decoration, illumination, and the whole craft of bookbinding—owed their genesis and development to their relation to the sacred book. Under the late Abbasids began the art of book decoration and Koran illumination which reached its highest development in the fifteenth century.

The legists' disapproval of music was no more effective in Baghdad than it had been before in Damascus. The refined and dazzling court of Harun al-Rashid patronized music and singing, as it did science and art, to the extent of becoming the center of a galaxy of musical stars. Salaried musicians accompanied by men and women slave singers thrived in it

its full appearance until the beginning of the fourteenth century. Its derivation was evidently from the art of the Oriental Christian churches, particularly the Jacobite and the Nestorian, and developed from book decoration.

Since early antiquity the Persians, whose culture the Arabs appropriated, had proved themselves masters of decorative design and color. Through their efforts the industrial arts of Islam attained a high degree of excellence. Carpet weaving, as old as Pharaonic Egypt, was especially developed. Hunting and garden scenes were favored in rug designs, and alum was used in the dye to render the many colors fast. Decorated silk fabrics, the product of Moslem hand looms in Egypt and Syria, were so highly prized in Europe that Crusaders and other Westerners chose them above all textiles as wrappings for relics of saints.

In ceramics, another art as ancient as Egypt and Susa, the reproduction of the human form and of animals and plants, as well as geometric and epigraphic figures, attained a beauty of decorative style unsurpassed in any other Moslem art. Qashani tile, decorated with conventional flowers, which was introduced from Persia to Damascus, found great vogue, together with mosaic work, in exterior and interior decoration of buildings. Better than any others, the characters of the Arabic alphabet lent themselves to decorative designs and became a powerful motif in Islamic art. Particularly in Antioch, Aleppo, Damascus and such ancient Phoenician towns as Tyre were the processes of enameling and gilding glass perfected. Among the treasures of the Louvre, the British Museum and the Arab Museum of Cairo are exquisite pieces from Samarra and Fustat, including plates, cups, vases, ewers and lamps for home and mosque use,

carry on the tradition of Asiatic, more particularly Persian, architecture in contrast to the Umayyad structures which bear clear traces of Byzantine-Syrian art.

The Moslem theologians were hostile to all forms of representational art, which the Koran forbade, but their disapproval no more stopped its development along Islamic lines than did the more explicit koranic injunction against wine enforce prohibition in Moslem society. We have already noticed that one caliph set upon the dome of his palace the figure of a horseman which might have served as a weathercock, that another had his pleasure boats on the Tigris fashioned like lions, eagles and dolphins, and that still another had a gold and silver tree with eighteen branches planted in a huge tank in his palace. On either side of the tank stood the statues of fifteen horsemen, dressed in brocade and armed with lances, constantly moving as though in combat.

The builder of Samarra, the caliph al-Mutasim, had the walls of his palace there ornamented with frescoes of nude female figures and hunting scenes, probably the work of Christian artists. His second successor, al-Mutawakkil, under whom this temporary capital reached its zenith, employed for the mural decoration of his palace Byzantine painters who had no scruples against including among the many pictures a church with monks.

In Islam painting was pressed into the service of religion at a rather late date and never became its handmaid as it did in Buddhism and Christianity. The earliest record of any pictorial representation of the Prophet was noted by an Arabian traveler of the late ninth century who saw it in the Chinese court, but it may well have been produced by Nestorian Christians. Moslem religious painting does not make

The Fine Arts

In his art as in his poetry the Arab, a Semite, showed a keen appreciation of the particular and the subjective, with a delicate sense for detail but no particular capacity for harmonizing the various parts into a great and united whole. However, in architecture and painting particularly, he did not, as he had in the sciences, attain a certain degree of progress and then make no further advancement.

Of the architectural monuments which once adorned the city of Baghdad no trace has been left. Two of the noblest surviving structures of Islam, the Umayyad Mosque at Damascus and the Dome of the Rock at Jerusalem, date from the earlier period, as we have noted. That there was great splendor we know, but so complete was the destruction wrought by a civil war between the caliphs al-Amin and al-Mamun, by the final devastation of the capital by the Mongols in 1258 and by natural causes, that even the sites of most of these palaces cannot today be identified.

Outside of the capital no Abbasid ruin can be dated with any degree of probability prior to the reign of al-Mutawakkil (847-861), the builder of the great mosque at Samarra. This congregational mosque, which cost 700,000 dinars, was rectangular and the multifoil arches of its windows suggest Indian influence. Such Abbasid remains as have survived at Raqqah, of the late eighth century, and at Samarra

in the eleventh century. In medicine, philosophy, mathematics, botany and other disciplines a certain point was reached—and the mind of Islam seemed to stand still. Reverence for the past and its traditions, both religious and scientific, bound the Arab intellect with fetters which it is only now beginning to shake off.

numerous, do not exhaust all the material in Arabic literature dealing with morals. In all these Moslem philosophies, the virtues of resignation, contentment and endurance are admired; vices are treated as maladies of the soul with the moral philosopher as the physician; and the classification is founded on the analysis of the faculties of the soul, each faculty having its own virtue and its own vice.

Arabic literature in the narrow sense of *adab*, or belles-lettres, which reached its height around the year 1000, tended to be affected and ornate, in response to Persian influence. The terse, incisive and simple expression of early days had gone forever. It was supplanted by a polished and elegant style, rich in elaborate similes and replete with rhymes. Of the literature of the period, the West has picked out one book on which to center its attention—*Alf Laylah wa-Laylah*—"A Thousand and One Nights," better known as *The Arabian Nights*. The first draft, made in the year 942, was from an old Persian tale. Other tales, and the name of the heroine, Scheherazade, were added by local storytellers. As time went on additions were made from numberless sources—Indian, Greek, Hebrew, Egyptian, Oriental folk-tales of every description. The fabulous court of Harun al-Rashid provided a large number of humorous anecdotes and love stories. The final compilation of the *Nights* was not made until the fourteenth century. It is, incidentally, far more popular in the West than in the East.

When the *Arabian Nights* had been put into final form in Arabic the golden age of Moslem scientific and literary progress had of course ended. In no branch of pure or physical science was any appreciable advance made after Abbasid days. The Moslems of today, if dependent on their own books, would indeed have less than their distant ancestors

thorities and a text. The text follows the chain and should be in direct address: "A related to me that B related to him, on the authority of C, on the authority of D, on the authority of E, who said . . ." The same formula was used in historiography and in "wisdom literature." In all these fields criticism was usually external, being limited to a consideration of the reputation of the transmitters, who were at the same time guarantors, and to the possibility of their forming an uninterrupted chain leading back to the Prophet.

After the Romans the Arabs were the only medieval people who cultivated the science of jurisprudence and evolved an independent system. It was primarily based on the Koran and the hadith and influenced by the Greco-Roman system. Through the canon law of Islam the totality of Allah's commandments as revealed in the Koran and elaborated in the hadith was communicated to later generations.

The prescriptions of the canon law regulate for the Moslem his entire life in its religious, political and social aspects. They govern his marital and civic relations as well as his relations with non-Moslems. Ethical conduct derives its sanctions and inhibitions from the sacred law. All man's acts are classified under five legal categories: (1) what is considered absolute duty, embracing actions the commission of which is rewarded and the omission punished by law; (2) commendable or meritorious actions, the performance of which is rewarded but the omission not punished; (3) permissible actions, which are legally indifferent; (4) reprehensible actions, which are disapproved but not punishable; (5) forbidden actions, the doing of which calls for punishment.

Ethical works based on the Koran and tradition, though

the extremes of east and west. The western prime meridian was thought by them to be 90° from this mythical place. Moslem geographers in general measured longitude from the prime meridian used by Ptolemy, that of the islands now called the Canaries.

Whereas in philosophy and medicine the Greek influence was paramount, in historical and literary compositions, to which we now come, the Persian example was followed. The form of presentation, however, continued to be that of the stereotyped Islamic tradition. Each event is related in the words of eyewitnesses or contemporaries and transmitted to the final narrator, the author, through a chain of intermediary reporters. This technique served to develop exactitude, as did also the insistence on dating occurrences even to the month and day. But the authenticity of the reported facts generally depended upon the continuity of this chain and the confidence in the integrity of each reporter rather than upon a critical examination of the fact itself. Apart from the use of personal judgment in the choice of the series of authorities and in the arrangement of the data, the historian exercised very little power of analysis, criticism, comparison or inference.

Although Arab historians wrote copiously of the events of the time, the product most characteristic of the Arab approach to history is the *hadith*, or science of religious tradition. In the course of the first two and a half centuries after Muhammad the records of his sayings and doings increased in number and copiousness. Whenever an issue—religious, political or sociological—arose each party sought to find authority for its views in some word or decision of the Prophet, be it real or fictitious.

Every perfect hadith consists of two parts: a chain of au-

ing and crystallization. He knew how to prepare crude sulphuric and nitric acids and mix them so as to produce aqua regia, in which gold and silver could be dissolved. In general he modified the Aristotelian theory of the constituents of metal in a way that survived, with slight alterations, until the beginning of modern chemistry in the eighteenth century.

The institution of the holy pilgrimage, the orientation of the mosques toward Mecca and the need for determining the direction of the Caaba at the time of prayer gave religious impetus to the Moslem study of geography. Astrology, which necessitated the determining of the latitudes and longitudes of all places throughout the world, added its scientific influence. Moslem traders between the seventh and ninth centuries reached China on the east both by sea and by land, attained the island of Zanzibar and the farthest coasts of Africa on the south, penetrated Russia on the north and were checked in their advance westward only by the dreaded waters of the "Sea of Darkness"—the Atlantic. The reports of returning merchants naturally aroused popular interest in distant lands and alien peoples. Ptolemy's *Geography* was translated into Arabic either directly or through Syriac several times, and with this as a model the famous Khwarizmi constructed an "image of the earth," a map executed by him and sixty-nine other scholars—the first map of the heavens and the world in Islam. The early Arab geographers had gained from India the notion that there was a world center which they styled *arin*, a corruption of the name of an Indian town in Ptolemy's *Geography*, where there had been an astronomical observatory and on the meridian of which the "world cupola" or "summit" was supposed to lie. This they located on the equator between

After materia medica, astronomy and mathematics, the Arabs made their greatest scientific contribution in chemistry. In the study of chemistry and other physical sciences they introduced the objective experiment, a decided improvement over the hazy speculation of the Greeks. Accurate in the observation of phenomena and diligent in the accumulation of facts, the Arabs nevertheless found it difficult to project proper hypotheses and draw truly scientific conclusions. The final elaboration of a system was their weakest point.

The father of Arabic alchemy (the word goes back from Arabic through Greek to an ancient Egyptian word meaning "black") was Geber (Jabir ibn-Hayyan), who flourished in Kufah about 776. Like his Egyptian and Greek forerunners, Geber acted on the assumption that base metals such as tin, lead, iron and copper could be transmuted into gold or silver by means of a mysterious substance, and to this search he devoted his energy. He more clearly recognized and stated the importance of experimentation than any other early alchemist and made noteworthy advance in both the theory and practice of chemistry. Western tradition credits him with the discovery of several chemical compounds not mentioned in the twenty-two surviving Arabic works that bear his name. It is evident that the vast majority of the hundred extant alchemical works in Arabic and in Latin which pass under his name are spurious. Nevertheless, the works to which his name was attached were after the fourteenth century the most influential chemical treatises in both Europe and Asia. Of a few contributions we are certain. Geber described scientifically the two important chemical operations of calcination and reduction. He improved on the methods for evaporation, sublimation, melt-

was known to the Moslems centuries before it was introduced into Christian Europe.

The scientific study of astronomy in Islam was begun under the influence of an Indian work, the *Siddhanta*, brought to Baghdad in 771. Early in the ninth century the first regular observations with fairly accurate instruments were made in southwest Persia and about the middle of that century the Caliph al-Mamun erected astronomical observatories in Baghdad and outside Damascus. The equipment in those days consisted of quadrant, astrolabe, dial and globe. This caliph's astronomers performed one of the most delicate geodetic operations—the measuring of the length of a terrestrial degree. The object was to determine the size of the earth and its circumference on the assumption that the earth was round. The measurement, carried out on the plain north of the Euphrates and also near Palmyra, yielded 56-2/3 miles as the length of a degree of the meridian—a remarkably accurate result, exceeding the real length of the degree at that place only by about 2,877 feet.

Among the astronomers who took part in this operation was one named al-Khwarizmi, one of the greatest scientific minds of Islam and the man who influenced mathematical thought to a greater degree than any other medieval writer. Apart from compiling the oldest astronomical tables, al-Khwarizmi composed the oldest work on arithmetic and the oldest work on algebra, which was translated into Latin and used until the sixteenth century as the principal mathematical textbook of European universities and served to introduce into Europe the science of algebra, and with it the name. His works were also responsible for the introduction into the West of the Arabic numerals, called "algorisms" after him.

West possessed. As Moslems the Arabs believed that the Koran and Islamic theology were the summations of religious law and experience. Their original contribution, therefore, was made in the borderland between philosophy and religion on one hand and philosophy and medicine on the other. It is to the eternal glory of medieval Islam that it succeeded for the first time in the history of human thought in harmonizing and reconciling monotheism—the idea of a single God and the greatest contribution of the ancient Semitic world—with Greek philosophy, the greatest contribution of the ancient Indo-European world. Islam thus led Christian Europe toward the modern point of view.

Learning in the ancient and medieval world—in the world of Islam especially—was far less compartmented than we are accustomed to consider it today. Philosophers could be mathematicians and musicians, astronomers could be poets. The modern Western reader will, for example, be a little surprised to find under the roll of Islam's most distinguished astronomers the celebrated name of Umar al-Khayyam—the author of the even more celebrated *Rubaiyat*. He was indeed a Persian poet and a freethinker; he was also a first-class mathematician and astronomer. The work of al-Kindi is also typical. As philosopher he endeavored in Neo-Platonic fashion to combine the views of Plato and Aristotle and regarded Neo-Pythagorean mathematics as the basis of all science. But he was more than a philosopher; he was an astrologer, alchemist, optician and musical theorist. No less than two hundred and sixty-five works are ascribed to him, but most of them unhappily have been lost. His principal work on optics, based on the *Optics* of Euclid, was widely used in both East and West and influenced Roger Bacon. His works on music indicate that measured song, or mensural music,

the Arabs possessed at that time of Greek, Persian and Hindu medicine and adds some fresh contributions. Printed when printing was still in its infancy, these medical works of Rhazes exercised for centuries a remarkable influence over the minds of the Latin West.

The most illustrious name in Arabic medical annals after Rhazes is that of Avicenna. His encyclopedic treatise, translated as the *Canon*, worked its way into a position of preeminence in the medical literature of the age, becoming the textbook for medical education in the schools of Europe. In the last thirty years of the fifteenth century it passed through fifteen Latin editions and one Hebrew. In recent years a partial translation into English has been made. Its materia medica considers some seven hundred and sixty drugs. From the twelfth to the seventeenth centuries this work served as the chief guide to medical science in the West and it is still in occasional use in the Moslem East. In the words of Dr. William Osler it has remained "a medical bible for a longer period than any other work."

In the field of philosophy the primary contribution of the Arabs—and it was a highly significant one—was the bringing of Greek thought into harmony with the ideas of Islam. To the Arabs philosophy was a knowledge of the true cause of things as they really are, in so far as it is possible to ascertain them by human faculties. They adapted this essentially Greek point of view, modified by the thought of the conquered peoples and by other Eastern influences, to the mental proclivities of Islam and expressed it through the medium of Arabic. As students of Greek they considered Aristotle's works the complete codification of philosophical lore, and Galen's the summation of medical lore. Greek philosophy and medicine meant then, of course, all that the

wards for women and each had its own dispensary. Some were equipped with medical libraries and offered courses in medicine.

The most notable medical authors who followed the epoch of the great translators were Persian in nationality but Arab in language. The portraits of two of these, Rhazes and Avicenna, adorn the great hall of the School of Medicine at the University of Paris.

Rhazes (*al-Razi*), who lived from 865 to 925, was one of the keenest original thinkers and greatest clinicians not only of Islam but of the Middle Ages. In selecting a new site for the great hospital at Baghdad, of which he was chief physician, he is said to have hung up shreds of meat in different places, choosing the spot where they showed the least signs of putrefaction. He is considered the inventor of the seton in surgery. One of his principal works on alchemy, the *Book of Secrets*, after having passed through numerous editorial hands was rendered into Latin in the late twelfth century by the eminent translator Gerard of Cremona and became a chief source of chemical knowledge until the fourteenth century. Under the title *De spiritibus et corporibus* it was quoted by Roger Bacon. The best known monograph of Rhazes is a treatise on smallpox and measles, the earliest of its kind and rightly considered an ornament to the medical literature of the Arabs. His most important work, however, was *al-Hawi*, a comprehensive book, first translated into Latin under the auspices of Charles I of Anjou by the Sicilian Jewish physician Faraj ben-Salim in 1279. Under the title *Continens* it was repeatedly printed from 1486 onwards, a fifth edition appearing in Venice in 1542. As the name indicates, this book was meant to be encyclopedic in its range of medical information. It sums up the knowledge

world would have been as poor as if they had never been produced. The line of demarcation between translated and original work is, of course, not always clearly drawn. Many of the translators were also contributors.

Arab interest in the curative science found expression in the Prophetic tradition that made science twofold: theology and medicine. The physician was at the same time metaphysician, philosopher and sage. In the curative use of drugs some remarkable advances were made at this time by the Arabs. It was they who established the first apothecary shops, founded the earliest school of pharmacy and produced the first pharmacopoeia. As early as the days of the caliph al-Mamun pharmacists had to pass an examination. Like druggists, physicians also were required to submit to a test. Following a case of malpractice a distinguished physician was ordered by the caliph in 931 to examine all practicing physicians and grant certificates only to those who satisfied the requirements. Over eight hundred and sixty such men in Baghdad passed the test and the capital rid itself of its quacks. Something like a rural health service was organized when, on the orders of a vizir, a staff of physicians was sent from place to place carrying drugs and administering relief to ailing people. Other physicians made daily visits to jails. Such facts show an intelligent interest in public hygiene unknown to the rest of the world at that time. The first hospital in Islam was established by Harun al-Rashid at the beginning of the ninth century, following the Persian model. Not long afterward other hospitals to the number of thirty-four grew up throughout the Moslem world. Cairo saw its first hospital about 872, an institution which survived until the fifteenth century. Traveling clinics made their appearance in the eleventh century. Moslem hospitals had special

Science and Literature

We have reached the period in which the Arabic language became the vehicle for fresh and original work in science, especially in medicine, astronomy, alchemy (which was the beginning of the science of chemistry) and geography, in mathematics—and also in philosophy, history, ethics and literature. The period begins in the latter half of the ninth century, following the epoch of translation which lasted roughly a hundred years, from 750 to 850. It is characterized by a galaxy of names, few familiar to the general public in the West today though many of them well known and esteemed by modern students in the arts and the sciences. We shall be able to mention only a few, representatives of Islam's great contributors to the civilization which we know.

By now the Arabs had not only assimilated the ancient lore of Persia and the classical heritage of Greece, but had adapted both to their own peculiar needs and ways of thinking. Their translations, modified by the Arab mind in the course of several centuries, were passed on, together with many new contributions, to Europe through Syria, Spain and Sicily and laid the basis of that canon of knowledge which dominated medieval European thought. And transmission, from the standpoint of the history of culture, is no less essential than origination, for had the researches of Aristotle, Galen and Ptolemy been lost to posterity the

retinue of horsemen. Ahead of him marched a herald calling out: "Make way before our lord the son of David!"

This is the panorama of the life of the people of the caliphate and their relationships to one another. We are now in the third stage of the Arab conquest. The first, as we have seen, was military and political—the march of Arab arms. The second was religious, beginning with the first century of Abbasid rule. During this period the bulk of the population of the empire was converted to Islam. The third stage was linguistic: the victory of the Arabic tongue over the native languages of the subjugated peoples. This was the slowest and the one in which the conquered presented the greatest resistance. Men are more ready to give up their political and even religious loyalties than their linguistic ones.

Arabic as the language of learning won its day before Arabic as the vernacular. In the preceding chapter we saw how fresh streams of thought from Greek culture, Persia and India resulted in the beginnings of a new culture in the 800's in Baghdad. Now, Arabic has triumphed as the vehicle of Arab civilization. This ushers in Islam's intellectual golden age.

the dhimmi acquired the epithet "spotted." One other grave disability under which the dhimmis labored was a ruling of the Moslem jurists of the period that the testimony of a Christian or a Jew could not be accepted against a Moslem; for the Jews and Christians had once corrupted the text of their scripture, as the Koran charges, and therefore could no more be trusted. But in spite of these restrictions the Christians under the caliphs enjoyed a large measure of toleration. We even read of Christian vizirs in the latter half of the ninth century, and such Christian high officials received the usual marks of honor, for we find record of certain Moslems objecting to kissing their hands. One of the most remarkable features of Christianity under the caliphs was its possession of enough vitality to make it an aggressive church, sending its missionaries as far as India and China.

As one of the "protected" peoples the Jews fared on the whole even better than the Christians, and that in spite of several unfavorable references in the Koran. Under several caliphs we read of more than one Jew assuming responsible state positions. In Baghdad itself the Jews maintained a good-sized colony which continued to flourish until the fall of the city. Benjamin of Tudela, a rabbi who visited the colony in 1170, found it in possession of ten rabbinical schools and twenty-three synagogues; the principal one, adorned with variegated marble, was richly ornamented with gold and silver. Benjamin tells in glowing terms the high esteem in which the chief rabbi was held as a descendant of David and head of the community of all Jews owing allegiance to the Baghdad caliphate. On his way to an audience with the caliph he appeared dressed in embroidered silk, wore a white turban gleaming with gems and was accompanied by a

indispensable ingredient in the daily food of civilized man, work its way westward.

The agricultural class, who constituted the bulk of the population of the empire and its chief source of revenue, were the original inhabitants of the land, now reduced to the position of dhimmis—those with whom a compact for religious tolerance had been made. The Arab considered it below his dignity to engage in agricultural pursuits. Originally "Scripturaries,"—Christians, Jews and Sabians—the dhimmis had their status widened to include certain other sects. In country places and on their farms these dhimmis clung to their ancient cultural patterns and preserved their native languages. The compact was observed well, on the whole, although there were periods of religious persecution.

In cities Christians and Jews held important financial, clerical and professional positions. This of course led to jealousy on the part of the Moslem populace and found expression in official enactments, but most of this discriminating legislation remained "ink on paper" and was not consistently enforced.

The pious Umayyad caliph Umar II ordered Christians and Jews to don distinctive dress, and he excluded them from public offices. Harun al-Rashid was evidently the first to reenact some of the old measures. The caliph al-Mutawakkil in 850 and 854 decreed that Christians and Jews should affix wooden images of devils to their houses, level their graves even with the ground, wear outer garments of honey color, i.e. yellow, put two honey-colored patches on the clothes of their slaves, one sewn on the back and the other on the front, and ride only on mules and asses with wooden saddles marked by two pomegranate-like balls on the cantle. It was on account of this distinctive dress that

of the empire were gradually rehabilitated. The lower region of the Tigris-Euphrates valley, the richest, with the exception of Egypt, in the whole empire and the traditional site of the garden of Eden, was the object of special attention on the part of the central government. Canals from the Euphrates formed a "veritable network." Arab geographers speak of caliphs "digging" or "opening" "rivers," when in most cases the process involved was one of redigging or reopening canals that had existed since Babylonian days. In Iraq as well as Egypt the task consisted mainly in keeping the ancient systems in order. Even before the World War, when the Ottoman government commissioned Sir William Willcocks to study the irrigation problem of Iraq, his report stressed the necessity of clearing the old watercourses rather than of constructing new ones. It should be noted, however, that the face of this great alluvial plain has greatly changed since Abbasid days and that both the Tigris and the Euphrates have considerably shifted their courses.

Most of the fruit trees and vegetables grown at present in Western Asia were known at this time, with the exception of mangoes, potatoes, tomatoes and similar plants introduced in recent times from the New World and distant European colonies. The orange tree, allied to the citron and lemon, had its native habitat in northern India or Malay, whence it spread into Western Asia, the adjoining lands of the Mediterranean basin and eventually through the Arabs in Spain into Europe. The sugar-cane plantations of southwestern Persia, with their noted refineries, were about this time followed by similar ones on the Syrian coast, from which place the Crusaders later introduced the cane and the sugar into Europe. Thus did this sweet commodity, probably of Bengalese origin, which has since become an

of "taffeta" European ladies of the Middle Ages bought in their native shops the Persian silken cloth *taftah*.

The glass of Sidon, Tyre and other Syrian towns, a survival of the ancient Phoenician industry which next to the Egyptian was the oldest glass industry in history, was proverbial for its clarity and thinness. As a result of the Crusades, Syrian glass became the forerunner of the stained glass in the cathedrals of Europe. Glass and metal vases of Syrian workmanship were in great demand as articles of utility and luxury.

Worthy of special note is the manufacture of writing paper, introduced in the middle of the eighth century into Samarqand from China. The paper of Samarqand, which, as we have noted, was captured by the Moslems in 704, was considered matchless. Before the close of that century Baghdad saw its first paper mill. Gradually other mills for making paper followed: Egypt had its factory about 900 or earlier, Morocco about 1100, Spain about 1150; and various kinds of paper, white and colored, were produced. From Moslem Spain and from Italy, in the twelfth and thirteenth centuries, the manufacture of paper, as we shall see later, finally worked its way into Christian Europe, where, with the later discovery of printing from movable type, 1450-1455, it made possible the measure of popular education which Europe and America now enjoy.

Agriculture received great impetus under the early Abbasids because their capital itself lay in a most favored spot, an alluvial plain; because they realized that farming was the chief source of the state income; and because the tilling of the land was almost wholly in the hands of the native inhabitants, whose status was somewhat improved under the new regime. Deserted farms and ruined villages in different parts

the average merchant cost over ten thousand dinars, some over thirty thousand dinars; and many maritime traders were worth 4,000,000 dinars each. A dinar was the equivalent of about $2.40.

No commercial activity could have reached such dimensions had it not rested on extensive home industry and agriculture. Hand industry flourished in various parts of the empire. In Western Asia it centered chiefly in the manufacture of rugs, tapestry, silk, cotton and woolen fabrics, satin, brocade, sofas (from *suffah*) and cushion covers, as well as other articles of furniture and kitchen utensils. The many looms of Persia and Iraq turned out carpets and textiles maintained at a high standard by distinctive marks. One caliph's mother had a rug specially ordered for her at a cost of 130,000,000 dirhams; it bore figures of all sorts of birds in gold, with rubies and other precious stones for eyes. A quarter in Baghdad named after Attab, an Umayyad prince who was its most distinguished resident, gave its name to a striped fabric, *attabi*, first manufactured there in the twelfth century. The fabric was imitated by the Arabs in Spain and under the trade name *tabi* became popular in France, Italy and other lands of Europe. The term survives in "tabby," applied to streaked or marked cats. Kufah produced the silk and partly silk kerchiefs for the head that are still worn under the name *kufiyah*.

In ancient Susiana were a number of factories famous for the embroidery of damask (a fabric originally made in Damascus) figured with gold, and for curtains made of spun silk. Their camel- and goat-hair fabrics, as well as their spun-silk cloaks, were widely known. Shiraz yielded striped woolen cloaks, also gauzes and brocades. Under the name

trade was based on silk, the earliest of China's magnificent gifts to the West, and usually followed what has been styled "the great silk way" going through Samarqand and Chinese Turkestan, a region less traversed today by civilized man than almost any other part of the habitable world. Goods were generally transported by relays; few caravans went the whole distance.

Westward, Moslem merchants reached Morocco and Spain. A thousand years before de Lesseps an Arab caliph, Harun, entertained the idea of digging a canal through the Isthmus of Suez. Arab Mediterranean trade, however, never rose to great prominence. The Black Sea was likewise inhospitable to it, though in the tenth century brisk land trade took place with the peoples of the Volga regions to the north. But the Caspian Sea, because of its proximity to the Persian centers and the prosperous cities of Samarqand and Bukhara with their hinterland, was the scene of active commercial intercourse. Moslem merchants carried with them dates, sugar, cotton and woolen fabrics, steel tools and glassware; they imported, among other commodities, spices, camphor and silk from farther Asia, and ivory, ebony and negro slaves from Africa.

An idea of the fortunes amassed by the Rothschilds and Rockefellers of the age may be gained from the case of the Baghdad jeweler ibn-al-Jassas, who remained wealthy after a caliph had confiscated 16,000,000 dinars of his property, and became the first of a family of distinguished jewel merchants. Certain Basrah merchants whose ships carried goods to distant parts of the world had an annual income of more than a million dirhams each. An uneducated miller of Basrah and Baghdad could afford to distribute a hundred dinars as daily alms among the poor. In Siraf the home of

tribution consisted in organizing a corps of female pages, the members of which bobbed their hair, dressed like boys and wore silk turbans. The innovation soon became popular with both the higher and the lower classes of society. An eyewitness reports that when on a Palm Sunday he called on al-Mamun he found in his presence twenty Greek maidens, all bedecked and adorned, dancing with gold crosses on their necks and olive branches and palm leaves in their hands. The distribution of 3,000 dinars among the dancers brought the affair to a grand finale.

Al-Mutawakkil, according to a report, had 4,000 concubines, all of whom (we are asked to believe) shared his nuptial bed. It was customary for governors and generals to send presents, including girls received or exacted from among their subjects, to the caliph or vizir; failure to do so was interpreted as a sign of rebellion.

The commonalty was composed of an upper class bordering on the aristocracy and comprised litterateurs, learned men, artists, merchants, craftsmen and professionals; and of a lower class forming the majority of the nation and made up of farmers, herdsmen and country folk who represented the native population and now enjoyed the status of "dhimmis."

The wide extent of the empire and the high level which civilization attained necessitated extensive international trade. The early merchants were Christians, Jews and Zoroastrians, but they were later largely superseded by Moslems and Arabs, who did not disdain trade as they did agriculture. Such ports as Baghdad, Basrah, Siraf, Cairo and Alexandria soon developed into centers of active land and maritime commerce.

Eastward, Moslem traders ventured as far as China. This

time of war or purchased in time of peace. Some were negroes, others were Turks, and still others were white. The white slaves were mainly Greeks and Slavs, Armenians and Berbers. Some were eunuchs attached to the service of the harem, others, termed *ghilman*, who might also be eunuchs, were the recipients of special favors from their masters, wore rich and attractive uniforms and often beautified and perfumed their bodies in effeminate fashion. We read of *ghilman* in the reign of al-Rashid; but it was evidently the caliph al-Amin who, following Persian precedent, established in the Arabic world the *ghilman* institution for the practice of unnatural sexual relations. A judge of whom there is record used four hundred such youths. Poets did not disdain to give public expression to their perverted passions and to address amorous pieces of their compositions to "beardless young boys."

The maidens among slaves were also used as singers, dancers and concubines, and some of them exerted appreciable influence over their caliph masters. Such was "she of the mole," whom al-Rashid had bought for 70,000 dirhams and in a fit of jealousy bestowed on one of his male servants. In order to win him from another singing-girl to whom he became attached, al-Rashid's wife Zubaydah presented her husband with ten maidens, two of whom became the mothers of caliphs. The legendary story of Tawaddud, the beautiful and talented slave girl in *The Thousand and One Nights*, whom al-Rashid was willing to purchase for 100,000 dinars after she had passed with flying colors a searching test before his savants in medicine, law, astronomy, philosophy, music and mathematics—to say nothing of rhetoric, grammar, poetry, history and the Koran—illustrates how highly cultured some of these maids must have been. Al-Amin's con-

writers list ability in archery, hunting, playing ball and chess —in all of which the companion may equal his royal master with no fear of affronting him. Among the caliphs particularly fond of polo was al-Mutasim, whose Turkish general once refused to play against him because he did not want to be against the commander of the believers even in a game. Interesting references are also made to a ball game in which a broad piece of wood was used. Could this be tennis in its rudimentary form? The word "tennis," generally supposed to have come from the French verb *tenez*, meaning "take heed," is probably from *Tinnis*, the Arabic name of an Egyptian city in the Delta noted in the Middle Ages for its linen fabrics, which may have been used for making tennis balls.

The number of early Arabic books dealing with hunting, trapping and falconry testify to the keen interest in these sports. Falconry and hawking were introduced into Arabia from Persia, as the Arabic vocabulary relating to these sports indicates. They became particularly favored in the later period of the caliphate and in that of the Crusades. Hunting with the falcon or sparrow hawk is still practiced in Persia, Iraq and Syria in practically the same manner as described in the *Arabian Nights*. Incidentally, the first thing a Moslem hunter must do after seizing his prey is to cut its throat; otherwise its flesh would be unlawful.

At the head of the social register stood the caliph and his family, the government officials and the satellites of these groups. In this last class we may include the soldiers and bodyguards, the favored friends and boon companions, as well as the "clients" and servants.

The servants were almost all slaves recruited from non-Moslem peoples and captured by force, taken prisoner in

is represented as prejudiced against them and as having permitted men to enter them for purposes of cleanliness only, each wearing a cloth. In the time we are studying, however, public baths had become popular not only for ceremonial ablutions and for their salutary effects, but also as resorts of amusement and mere luxury. Women were allowed their use on specially reserved days. At the beginning of the tenth century Baghdad boasted some 27,000 public baths, and in other times even 60,000, all of which—like most figures in Arabic sources—seem highly exaggerated. A Moorish traveler who visited Baghdad in 1327 found in each of the thirteen quarters composing its west side two or three baths of the most elaborate kind, each supplied with hot and cold running water.

Then as now the bathhouse comprised several chambers with mosaic pavements and marble-lined inner walls clustering round a large central chamber. This innermost chamber, crowned by a dome studded with small round glazed apertures for the admission of light, was heated by steam rising from a central jet of water in the middle of a basin. The outer rooms were used for lounging and for enjoying drinks and refreshments.

Sports, like the fine arts, have throughout history been characteristic more of Indo-European than of Semitic civilization. Engaging in them involves physical exertion for its own sake, a rather absurd idea to the son of Arabia with his poetical temperament and his well-founded respect for the heat of the daylight hours.

In the list of outdoor sports, however, were archery, polo, ball and mallets (a sort of croquet or hockey), fencing, javelin-throwing, horse racing, and above all hunting. Among the qualifications of a prospective boon companion

guages and thence into English and the other Germanic languages as well as the Slavonic. In English it has left an interesting survival in the word "gibbet," meaning "gallows."

The most conspicuous piece of furniture in the home now came to be the *diwan*, a sofa extending along three sides of the room. Raised seats in the form of chairs were introduced under the earlier dynasty, but cushions laid on small square mattresses—a word derived from Arabic *matrah*—on the floor where one could comfortably squat remained popular. Hand-woven carpets covered the floor. Food was served on large round trays of brass set on a low table in front of the *diwan* or the floor cushions. In the homes of the well-to-do the trays were of silver and the table of wood inlaid with ebony, mother-of-pearl or tortoise-shell—not unlike those still manufactured in Damascus. Those same people who had once enjoyed scorpions, beetles and weasels as a luxury, who thought rice a venomous food and used flattened bread for writing material, by this time had their gastronomic tastes whetted for the delicacies of the civilized world, including such Persian dishes as the greatly desired stew and the rich sweets. Their chickens were now fed on shelled nuts, almonds and milk. In summer, houses were cooled by ice. Nonalcoholic drinks in the form of sherbet, consisting of water sweetened with sugar and flavored with extracts of violets, bananas, roses or mulberries, were served. Coffee did not attain vogue until the fifteenth century, and tobacco was unknown before the discovery of the New World. A ninth- to tenth-century author has left us a work intended to give an exposition of the sentiments and manners of a man of culture, a gentleman, in that period. He is one in possession of polite behavior, manly honor and ele-

fication of cunning and intrigue and as the repository of all base sentiments and unworthy thoughts.

Marriage has been regarded almost universally in Islam as a positive duty, the neglect of which is subject to severe reproach, and the gift of children, especially if sons, a boon from God. A wife's first duty consisted in the service of her husband, the care of the children and the management of household affairs; any spare time would be occupied with spinning and weaving.

Judging by the erotic expressions of the poets of the age, the early Arabian ideals of feminine beauty seem not to have undergone much change. The woman's stature should be like the bamboo among plants, her face as round as the full moon, her hair darker than the night, her cheeks white and rosy with a mole not unlike a drop of ambergris upon a plate of alabaster, her eyes intensely black and large like those of a wild deer, her eyelids drowsy or languid, her mouth small with teeth like pearls set in coral, her bosom pomegranate-like, her hips wide and her fingers tapering, the tips dyed with vermilion henna (from Arabic *hinna*).

The fashionable headdress for women was evidently a dome-shaped cap, round the bottom of which was a circlet that could be adorned with jewels. Among other objects of feminine adornment were anklets and bracelets. Men's clothing has varied but little since those days and the ancient style is still followed by the older generation in Lebanon and Syria. The common headgear was the black high-peaked hat, made of felt or wool. The wardrobe was completed by wide trousers of Persian origin, shirt, vest and jacket with outer mantle, the *jubbah*. This Arabic word has worked its way from Spanish, where we find it in a late tenth-century dictionary, into the rest of the Romance lan-

The Life of the People

ARAB historians had their interest too much centered in the caliph's affairs, in the tangled and bloody but to them all-important story of the rise and fall of dynasties and pretenders, and in the triumphs and mishaps of generals, vizirs and the politically eminent of the day to leave us any adequate picture of the social and economic life of the common people. But from sporadic, incidental passages in their works, from literary sources and indeed from the facts of ordinary life in the little-changing Moslem Orient of today, it is possible to reconstruct an outline of that picture.

The woman of the ninth century enjoyed the same considerable measure of liberty as her sister in earlier years; but toward the end of the tenth century the system of strict seclusion and absolute segregation of the sexes had become general. Not only do we read of women in the high circles of the early Abbasid period achieving distinction and exercising influence in state affairs, but of Arab maidens going to war and commanding troops, composing poetry and competing with men in literary pursuits or enlivening society with their wit, musical talent and vocal accomplishments.

In the period of decline, characterized by excessive concubinage, laxity of sex morality and indulgence in luxury, the position of woman sank to the low level we find in the *Arabian Nights*. There woman is represented as the personi-

soon took its place side by side with Arabic grammar as the basis of humanistic studies in Islam. This position it has maintained to the present day. Moslems accepted the idea of Neo-Platonic commentators that the teachings of Aristotle and Plato were substantially the same. Especially in Sufism, Moslem mysticism, did the influence of Neo-Platonism manifest itself. Through the Arab scholars, Avicenna and Averroës, as we shall later see, Platonism and Aristotelianism found their way into Latin and exercised a determining influence upon medieval European scholasticism.

This long and fruitful age of translation under the early Abbasids was followed by one of original contribution which we shall discuss in a later chapter. Arabic, which in pre-Islamic days was only a language of poetry and after Muhammad mainly a language of revelation and religion, had become by the tenth century metamorphosed in a remarkable and unprecedented way into a pliant medium for expressing scientific thought and conveying philosophic ideas. In the meantime it had established itself as the language of diplomacy and polite intercourse from Central Asia, through the whole length of Northern Africa, to Spain. Since that time the peoples of Iraq, Syria and Palestine as well as of Egypt, Tunis, Algeria and Morocco have expressed their best thought in the tongue of the Arabians.

Hunayn's ability as a translator is affirmed by the report that he and other translators received about 500 dinars (roughly $1,200) per month and that al-Mamun paid him in gold the weight of the books he translated. But he reached the summit of his glory not only as a translator but as a practitioner when he was appointed by the caliph al-Mutawakkil as his private physician. His patron, however, once committed him to jail for a year for refusing the offer of rich rewards to concoct a poison for an enemy. When brought again before the caliph and threatened with death his reply was, "I have skill only in what is beneficial, and have studied naught else." Asked by the caliph, who then claimed that he was simply testing his physician's integrity, what prevented him from preparing the deadly poison, Hunayn replied:

"Two things: my religion and my profession. My religion decrees that we should do good even to our enemies, how much more to our friends. And my profession is instituted for the benefit of humanity and limited to their relief and cure. Besides, every physician is under oath never to give anyone a deadly medicine."

A modern French historian of medicine calls Hunayn "the greatest figure of the ninth century."

Before the age of translation was brought to an end practically all the extant works of Aristotle, many of which were of course spurious, had become accessible to the Arabic reader. All this took place while Europe was almost totally ignorant of Greek thought and science. For while al-Rashid and al-Mamun were delving into Greek and Persian philosophy their contemporaries in the West, Charlemagne and his lords, were dabbling in the art of writing their names. Aristotle's logical *Organon*, which in Arabic included Aristotle's *Rhetoric* and *Poetics* as well as Porphyry's *Isagoge*,

mainly in the newly founded academy. The Abbasid era of translation lasted about a century after 750. Since most of the translators were Aramaic-speaking, many of the Greek works were first translated into Aramaic (Syriac) before their rendition into Arabic. Aramaic was the language Christ spoke.

The translators into Arabic did not interest themselves in Greek productions of the literary type. No close contact was established between the Arab mind and Greek drama, Greek poetry and Greek history. In that field Persian influence remained paramount. It was Greek philosophy as originated by Plato and Aristotle and expounded by later Neo-Platonists, that served as the starting point of the voyage of intellectual discovery.

The sheikh of the translators, as the Arabs express it, was Hunayn ibn-Ishaq (Joannitius, 809-873), one of the greatest scholars and noblest characters of the age. Hunayn was a Nestorian Christian from al-Hirah, and as a youth acted as dispenser to a physician. Taking as a challenge a chiding remark by the master that the people of Hirah had no business with medicine and that he had better go and change money in the bazar, the lad left the service of his master in tears, but intent upon the study of Greek. Among other books in Arabic Hunayn is supposed to have prepared translations of Galen, Hippocrates and Dioscorides as well as of Plato's *Republic* and Aristotle's *Categories*, *Physics* and *Magna Moralia*. Among these his chief work was the rendition into Syriac and Arabic of almost all of Galen's scientific output. The seven books of Galen's anatomy, lost in the original Greek, have luckily been preserved in Arabic. Hunayn's Arabic version of the Old Testament from the Greek Septuagint did not survive.

which by order of the caliph was translated by al-Fazari into Arabic. The stars had of course interested the Arabians since desert days, but no scientific study of them was undertaken until this time. Islam added its impetus to the study of astronomy as a means for fixing the direction in which prayer should be conducted. The famous al-Khwarizmi, who died about 850, based his widely known astronomical tables on al-Fazari's work and syncretized the Indian and Greek systems of astronomy, at the same time adding his own contribution. This same Indian traveler had also brought a treatise on mathematics by means of which the numerals called in Europe Arabic and by the Arabs Indian entered the Moslem world. Later, in the ninth century, the Indians made another important contribution to Arabic mathematical science, the decimal system.

At the time of the Arab conquest of the Fertile Crescent the intellectual legacy of Greece was unquestionably the most precious treasure at hand. Hellenism consequently became the most vital of all foreign influences in Arab life.

The height of Greek influence was reached under al-Mamun. The rationalistic tendencies of this caliph led him to the philosophical works of the Greeks for justification of his position that religious texts should agree with the judgments of reason. In 830 he established in Baghdad his famous "house of wisdom," a combination library, academy and translation bureau which in many respects proved the most important educational institution since the foundation of the Alexandrian Museum in the first half of the third century B.C. Down to this time sporadic translations had been done independently by Christians, Jews and recent converts to Islam. Beginning with al-Mamun and continuing under his immediate successors the work was centered

Syrian but mainly Hellenic, and was marked by translations into Arabic from Persian, Sanskrit, Syriac and Greek. Starting with very little science, philosophy or literature of his own, the Arabian Moslem, who brought with him from the desert a keen sense of intellectual curiosity and many latent faculties, soon became, as we have learned before, the beneficiary and heir of the older and more cultured peoples whom he conquered or encountered. Just as in Syria he adopted the existing Aramaic civilization, itself influenced by the later Greek, so did he in Iraq adopt the same civilization influenced by the Persian. Three-quarters of a century after the establishment of Baghdad the Arabic-reading world was in possession of the chief philosophical works of Aristotle, of the leading Neo-Platonic commentators, and of most of the medical writings of Galen, as well as of Persian and Indian scientific works. In only a few decades the Arabs assimilated what had taken the Greeks centuries to develop. In absorbing the main features of both Hellenic and Persian cultures, Islam lost most of its own original character, which breathed the spirit of the desert and bore the stamp of Arabian nationalism, but thereby took an important place in the medieval cultural unit which linked southern Europe with the Near East. This culture, it should be remembered, was fed by a single stream, a stream with sources in ancient Egypt, Babylonia, Phoenicia and Judea, all flowing to Greece and now returning to the East in the form of Hellenism. We shall see later how this same stream was rediverted into Europe by the Arabs in Spain and Sicily, where it helped create the Renaissance of Europe.

India acted as an early source of inspiration, especially in wisdom literature and mathematics. About 773 an Indian traveler introduced into Baghdad a treatise on astronomy,

mercial activity of the Moslems of this and the later period. The adventures of Sindbad the Sailor, which form one of the best-known tales in *The Thousand and One Nights*, have long been recognized as based upon actual reports of voyages made by Moslem merchants.

Merchants played a leading part in the Baghdad community. Members of each craft and trade had their shops in the same market as in the present day. The monotony of street life was interrupted from time to time by the occasional passage of a wedding or circumcision procession. Professional men—physicians, lawyers, teachers, writers and the like—began to occupy a conspicuous place. A biographer has left us a picture of the daily routine of a member of the learned fraternity, which indicates that scholarship had a considerable market value in those days. We are first shown this man of learning after his daily ride, at the public bath, where attendants poured water over him. On emerging he put on a lounging-robe, sipped a drink, ate a biscuit and lay down, sometimes falling asleep. The siesta over, he burned perfume to fumigate his person and ordered a dinner which generally consisted of soup, fattened chicken and bread. Then he resumed his sleep and on waking drank four rotls of old wine, to which he might add quinces and Syrian apples.

The luxurious scale of living made this period popular in history and in fiction, but what has rendered it especially illustrious in world annals is the fact that it witnessed the most momentous intellectual awakening in the history of Islam and one of the most significant in the whole history of thought and culture. The awakening was due in large measure to foreign influences, partly Indo-Persian and

number of beautiful girl dancers performed in rhythmic unison to the soft harmony of music and were joined in their singing by all those who attended. Another author relates that on the occasion of a dinner given by Ibrahim in honor of his brother al-Rashid, the caliph was served with a dish of fish in which the slices looked exceedingly small. In explanation the hosts stated that the slices were fishes' tongues, and the waiter added that the cost of the hundred and fifty tongues in the dish was over a thousand dirhams. Even when stripped of the glow cast by Oriental romance and fancy, enough of the splendor of court life in Baghdad remains to arouse our astonishment.

Along Baghdad's miles of wharves lay hundreds of vessels, including ships of war and pleasure craft and varying from Chinese junks to native rafts of inflated sheepskins, not unlike those of our present day, which were floated down from Mosul. Into the bazars of the city came porcelain, silk and musk from China; spices, minerals and dyes from India and the Malay Archipelago; rubies, lapis lazuli, fabrics and slaves from the lands of the Turks in Central Asia; honey, wax, furs and white slaves from Scandinavia and Russia; ivory, gold dust and black slaves from eastern Africa. Chinese wares had a special bazar devoted to their sale. The provinces of the empire itself sent by caravan or sea their domestic products: rice, grain and linen from Egypt; glass, metal ware and fruits from Syria; brocade, pearls and weapons from Arabia; silks, perfumes and vegetables from Persia.

From Baghdad and other export centers, Arab merchants shipped to the Far East, Europe and Africa fabrics, jewelry, metal mirrors, glass beads and spices. The hoards of Arab coins recently found in places as far north as Russia, Finland, Sweden and Germany testify to the world-wide com-

of which 12,500 were gilded, besides 22,000 rugs. The envoys were so struck with awe and admiration that they first mistook the chamberlain's office and then the vizir's for the royal audience chamber. Especially impressed were they with the Hall of the Tree which housed an artificial tree of gold and silver weighing 500,000 drams, in the branches of which were lodged automaton singing birds of the same precious metals. In the garden they marveled at the artificially dwarfed palm trees which by skilled cultivation yielded dates of rare varieties.

Harun was the beau ideal of Islamic kingship. Like a magnet, his princely munificence and that of his immediate successors attracted to the capital poets, wits, musicians, singers, dancers, trainers of fighting dogs and cocks and others who could interest or entertain. The libertine poet abu-Nuwas, the boon companion of al-Rashid and his comrade on many a nocturnal adventure, has depicted for us in unforgettable terms the colorful court life of this period of glory. The pages of *al-Aghani* abound with illustrative anecdotes whose nucleus of truth is not hard to discern. According to one story the Caliph al-Amin, Harun's son, one evening bestowed on his uncle Ibrahim, a professional singer, the sum of 300,000 dinars for chanting a few verses of abu-Nuwas. This raised the gratuities thus far received by Ibrahim from the caliph to 20,000,000 dirhams, all of which did not amount to more than the land tax of a few districts. For his parties on the Tigris, al-Amin had built a number of special barges shaped like animals. One of these vessels looked like a dolphin, another like a lion, a third like an eagle. The cost of one was 3,000,000 dirhams. We read in the *Aghani* of a picturesque all-night ballet, conducted under the Caliph al-Amin's personal direction, in which a large

table no vessels not made of gold or silver and studded with gems. She was the first to ornament her shoes with precious stones. On one holy pilgrimage she is reported to have spent three million dinars, which included the expense of furnishing the city of Mecca with water from a stream twenty-five miles away.

Zubaydah had a rival in the beauteous Ulayyah, half-sister of Harun, who to cover a blemish on her forehead devised a fillet set with jewels which, as the fillet *à la* Ulayyah, was soon adopted by the world of fashion as the ornament of the day.

Especially on ceremonial occasions, such as the installation of the caliph, weddings, pilgrimages and receptions for foreign envoys, did the courtly wealth and magnificence make its fullest display. The marriage ceremony of the caliph al-Mamun to the eighteen-year-old Buran, daughter of his vizir, was celebrated in 825 with such fabulous expenditure of money that it has lived in Arabic literature as one of the unforgettable extravaganzas of the age. At the nuptials a thousand pearls of unique size, we are told, were showered from a gold tray upon the couple who stood on a golden mat studded with pearls and sapphires. A two-hundred-rotl candle of ambergris turned the night into day. Balls of musk, each containing a ticket naming an estate or a slave or some such gift, were showered on the royal princes and dignitaries. In 917 the caliph al-Muqtadir received in his palace with great ceremony and pomp the envoys of the young Constantine VII, whose mission evidently involved the exchange and ransom of prisoners. The caliphal array included 160,000 cavalry and footmen, 7,000 black and white eunuchs and 700 chamberlains. In the parade a hundred lions marched, and in the caliphal palace hung 38,000 curtains,

retary relates that the envoys of the great king of the West returned home with rich gifts from "the king of Persia, Aaron," which included fabrics, aromatics and an elephant. This account speaks further of an intricate clock as among the gifts from Baghdad. The account of the pipe organ sent to Charlemagne by Harun, like many other charming bits of history, is fictitious. Its story is apparently based on a mistranslation of the term *clepsydra* in the sources, which in reality meant a device for measuring time by water and referred to the clock presented. Likewise the story that the keys of the Church of the Holy Sepulchre were delivered by the caliph to Charlemagne has been discredited. The strange thing about this exchange of embassies and gifts, said to have taken place between 797 and 806, is the utter silence of Moslem authors regarding it. While reference is made to various other diplomatic exchanges and courtesies, none is made to this.

Though less than half a century old, Baghdad by the time of Harun, 786-809, had grown from nothingness to a world center of prodigious wealth and international significance, standing alone as the rival of Byzantium. Its splendor had kept pace with the prosperity of the empire of which it was the capital. It had become "a city with no peer throughout the whole world."

The royal palace with its many annexes for harems, eunuchs and special functionaries occupied one-third of the Round City. Particularly impressive was its audience chamber with its rugs, curtains and cushions, the best the Orient could produce. The caliph's cousin-wife, Zubaydah, who in tradition shares with her husband the halo of glory and distinction bestowed by later generations, would tolerate at her

from which the enemy might be expected. But an Arab geographer remarks that the figure necessarily pointed always in the same direction, which would mean the existence of a constant enemy threatening the city, and declares the Moslems "too intelligent to believe such fabrications."

The new location opened the way for ideas from the East. Arab Islam succumbed to Persian influence; the caliphate became more a revival of Iranian despotism and less an Arabian sheikhdom. Gradually Persian titles, Persian wines and wives, Persian mistresses, Persian songs, as well as Persian ideas and thoughts, won the day. Their influence softened the rough edges of the primitive Arabian life and paved the way for a new era distinguished by the cultivation of science and scholarly pursuits. In two fields only did the Arabian hold his own: Islam remained the religion of the state and Arabic continued to be the official language of the state registers.

The ninth century opened with two imperial names standing supreme in world affairs: Charlemagne in the West and the Caliph Harun al-Rashid in the East. Of the two, Harun was undoubtedly the more powerful and represented the higher culture. The two contemporaries entered into friendly relations, prompted, of course, by self-interest. Charlemagne cultivated Harun as a possible ally against hostile Byzantium. Harun desired to use Charlemagne against his rivals and deadly foes, the neighboring Umayyads of Spain, who had succeeded in establishing a mighty and prosperous state. This reciprocity of cordial feelings found expression, according to Western writers, in the exchange of a number of embassies and presents. A Frankish author who is sometimes referred to as Charlemagne's sec-

rule over the eastern part of the Islamic world for the next five hundred years, until the thirty-seventh caliph of the line met his destruction at the hands of the Mongols in 1258. It was under the Abbasids that Islamic civilization experienced its golden age.

Baghdad was the creation of the Abbasids, the city which the second ruler of the dynasty had caused to be built on the west bank of the Tigris River, in that same valley which had furnished sites for some of the mightiest capitals of the ancient world. "It is an excellent military camp," he had remarked. "Besides, here is the Tigris to put us in touch with lands as far as China and bring us all that the seas yield as well as the food products of Mesopotamia, Armenia and their environs. Then there is the Euphrates to carry for us all that Syria, al-Raqqah and adjacent lands have to offer." It was a sagacious choice, and the new city—on the construction of which one hundred thousand laborers, craftsmen and architects worked for four years—instantly flourished.

The city was circular in form—whence the name the Round City—with double brick walls, a deep moat and a third innermost wall rising ninety feet and surrounding the central area. The walls had four gates from which four highways, starting from the center of the circle, radiated like the spokes of a wheel to the four corners of the empire. The whole thus formed concentric circles with the caliphal palace—styled the Golden Gate or the Green Dome—as the hub. Beside the palace stood the great mosque. The dome of the audience chamber, from which the imperial palace was named, rose to a height of one hundred and thirty feet. Later tradition topped it by the figure of a mounted man holding a lance that in time of danger pointed the direction

anon and Palestine the issue remained a living one until modern times, for we know of pitched battles fought between the two parties as late as the eighteenth century.

The lack of any definite and fixed rule of hereditary succession to the caliphal throne weakened the dynasty still further. Muawiyah had initiated the wise and far-sighted policy of nominating his son as his successor, but the antiquated Arabian principle of seniority in succession stood in constant conflict with the natural ambition of the ruling father to pass the sovereignty on to his son.

Significantly, and paradoxically—since in the chronicles of the day "the people" are scarcely even mentioned—homage by the people became the only sure title to the throne. This homage was expressed through the leaders. But the day when the people of any state, as the ultimate repository of sovereign power, could make their wishes known other than by haphazard mob action lay far in the future.

In 747 open revolt against the Umayyads was proclaimed by their cousins the Abbasids, descendants of an uncle of the Prophet, al-Abbas. It was successful. The Umayyad house was exterminated. One Abbasid general invited eighty leading members of the deposed house to a banquet, in the course of the feast had them all cut down, and after spreading leathern covers over the dead and dying, continued his repast. The first Abbasid caliph referred to himself as *al-saffah*, "the bloodshedder," which became his sobriquet. The fact was ominous. The incoming dynasty depended upon force in the execution of its policies. For the first time in the history of Islam the leathern spread beside the caliph's seat, which served as a carpet for the executioner, became a necessary adjunct of the imperial throne. The Abbasid caliphs never controlled North Africa or Spain but they did

The Glory That Was Baghdad

THE Arabs addressed themselves to the task of mastering the depravities of the civilized life of the time with no less ardor than they studied its esthetics and learning. Shortly before the middle of the eighth century a caliph ascended to the Umayyad throne who had been born of a slave mother —a portentous fact. His two successors, the last in the dynasty, were also sons of slave women. The eunuch system, which made the harem institution possible, was now fully developed. Indulgence in luxury was rife due to increased wealth and a superabundance of slaves. That the reigning family could no longer boast pure Arab blood was symptomatic of a loosening of moral standards throughout society.

The position of the Umayyad dynasty, weakened by this decadence, was further undermined by the increasingly sharp division of North Arabian as against South Arabian tribes. This racial tendency to separatism, apparent even in pre-Islamic days, now became complete and was the cause of boundless dispute. Everywhere, on the banks of the Indus, the shores of Sicily and the borders of the Sahara, the ancestral feud, transformed into an alignment of two political parties, called Qays and Yaman, made itself felt. In Leb-

surviving. This caliph employed Persian and Indian craftsmen as well as Greek artisans provided by the emperor of Constantinople. Papyri recently discovered show that material and skilled workmen were imported from Egypt.

Having given the world a lesson in the art of war, the Arab was now ready and eager to learn the arts of peace.

ages past. This technique, applied to the religious needs of the Moslem community, produced in course of time what has been variously designated Saracenic, Arabian, Moslem and Muhammadan art. Moslems object to the use of the term "Muhammadan" because of its parallelism to the term "Christian" applied to the worshipers of Christ, for they, as they maintain, are not worshipers of Muhammad.

Because of its biblical association and as the traditional stopping place of Muhammad on his celebrated nocturnal journey heavenward, Jerusalem very early acquired special sanctity in the eyes of all Moslems. The Dome of the Rock, built in 691 on a spot hallowed by Jewish, heathen, Christian and Moslem associations and considered by tradition the place where Abraham intended to sacrifice his son Isaac, shows a radical change from the old pattern, involving the introduction of mosaic and other decorative motifs and a dome erected to surpass the beautiful cupola of the Church of the Holy Sepulchre. The result was an architectural monument of such noble beauty that it has scarcely been surpassed anywhere.

The great mosque in Damascus shows even more plainly how "Arab civilization" developed. In 705 the Caliph al-Walid had taken over the site of the Christian basilica of Damascus dedicated to St. John, originally a temple of Jupiter, and built there the grand mosque named after the Umayyads. How much of the Christian construction was preserved in al-Walid's mosque is difficult to ascertain. The two southern minarets stand on ancient church towers which belonged to the old basilica, but the northern minaret, used as a beacon tower, was certainly constructed by al-Walid and became the model for similar structures in Syria, North Africa and Spain. It is the oldest purely Moslem minaret

expression in religious architecture. The Moslem architects, or the men they employed, evolved a scheme of building, simple and dignified, based on earlier patterns but singularly expressive of the spirit of the new religion. Thus we have in the mosque (from *masjid*, meaning a place to prostrate oneself) an epitome of the history of the development of Islamic civilization in its interracial and international relationships. Perhaps no clearer example could be cited to illustrate the cultural interplay between Islam and its neighbors than the mosque.

The simple mosque of Muhammad at Medina became the general prototype of the congregational mosque in the first century of Islam. This mosque consisted of a courtyard open to the sky, enclosed by walls of sun-baked clay. As a protection from the sun the Prophet later extended the flat roof from the adjacent buildings over the whole open court. The roof consisted of palm trunks used as columns to support a cover of palm fronds and mud. A palm trunk fixed in the ground served first as a pulpit for the Prophet to stand on while addressing the congregation. This was later replaced by a small platform of tamarisk wood with three steps copied from those seen in Christian churches in Syria. Here, then, we have in their simplest forms almost all the rudiments of a congregational mosque—a court, some cover to shelter the worshiper and a pulpit.

The subsequent advance of the Arabians fanwise through Western Asia and North Africa brought them into possession of numberless standing and ruined structures representing a high artistic development and, what is more essential, it put them in control of the living technical knowledge and skill inherited by members of the conquered races from

The study of the Koran and the necessity of expounding it gave rise to the twin sciences of philology and lexicography, as well as to that most characteristically Moslem literary activity—the science of tradition—*hadith*, literally "narrative." In its technical sense a tradition is an act or saying attributed to the Prophet or to one of his companions. The Koran and tradition provided the foundation upon which theology and law were raised. Law in Islam is more intimately related to religion than to jurisprudence as modern lawyers understand it. Roman law, directly or through the Talmud and other media, did undoubtedly affect Umayyad legislation, but to what extent has not been fully ascertained.

This period saw the beginning of Arab science, the first treatise on medicine coming, characteristically, by way of a translation by a Jew of a Greek tract composed by a Christian priest in Alexandria. Alchemy, like medicine, one of the few sciences in which the Arabs later made a distinct contribution, was one of the disciplines early developed.

Poetry and music flourished in the court at Damascus, the latter over the protest of conservatives, who linked music and song with wine drinking and gambling as diversions forbidden by the Prophet. The greatest measure of intellectual progress achieved under the Umayyads was undoubtedly in the field of poetical composition. The preceding grim period of conquest had inspired no poet in a nation of poets, but with the accession of the worldly Umayyads the old connections with the goddesses of wine, song and poetry were reestablished. For the first time the poet of love makes his full appearance in Arabic.

In the case of the Moslem Arabs, art found its supreme

As Persians, Syrians, Copts, Berbers and others flocked to the fold of Islam and married Arabians, the original high wall raised earlier between Arabians and non-Arabians tumbled down. The nationality of the Moslem receded into the background. No matter what his nationality may have been originally, the follower of Muhammad now passed for an Arab. An Arab henceforth became one who professed Islam and spoke and wrote the Arabic tongue, regardless of his racial affiliation. This is one of the most significant facts in the history of Islamic civilization. When we therefore speak of "Arab medicine" or "Arab philosophy" or "Arab mathematics" we do not mean the medical science, philosophy or mathematics that are necessarily the product of the Arabian mind or developed by people living in the Arabian peninsula, but that body of knowledge enshrined in books written in the Arabic language by men who flourished chiefly during the caliphate and were themselves Persians, Syrians, Egyptians or Arabians, Christian, Jewish or Moslem, and who may have drawn some of their material from Greek, Aramaean, Indo-Persian or other sources.

On the borderland of Persia the scientific study of the Arabic language and grammar was begun and carried on mainly for foreign converts and partly by them. The first impulse came from the desire to supply the linguistic needs of Neo-Moslems who wanted to study the Koran, hold government positions and converse with the conquerors. The original grammatical treatise was, according to legend, drawn up on a caliph's dictum that "the parts of speech are three: noun, verb and particle." Arabic grammar, however, shows long and slow development and bears striking marks of the influence of Greek logic.

than her master, or by her master in case he did not acknowledge the fatherhood of the child, was likewise a slave; but the offspring of a male slave by a freewoman was free.

An idea of the number of slaves flooding the Moslem empire as a result of conquest may be gained from such exaggerated figures as the following: Musa took 300,000 captives from North Africa, one-fifth of whom he forwarded to the caliph, and from the Gothic nobility in Spain he captured 30,000 virgins; the captives of one Moslem general in Turkestan alone numbered 100,000.

Between the master and the female slave, concubinage was permissible, but not legal marriage. The children of such a union belonged to the master and were therefore free; but the status of the concubine was thereby raised only to that of "mother of children," who could neither be sold by her husband-master nor given away, and who at his death was declared free. In the melting-pot process which resulted in the amalgamation of Arabians and foreigners, the slave trade undoubtedly played an extremely important role.

We have noted that the invaders from the desert brought with them no tradition of learning, no heritage of culture, to the lands they conquered. The closeness of the Umayyad period to the "barbarian" age, its many wars, and the unsettled social and economic conditions of the Moslem world all militated against the possibility of intellectual development in that early epoch. But the seed was then sown and the tree of knowledge which came into full bloom under the next dynasty in Baghdad certainly had its roots in this preceding period of Greek, Syrian and Persian culture. The Umayyad age was in general one of incubation.

religions, whose devotees were to be disarmed and compelled to pay tribute in return for Moslem protection, was the chief political innovation of Muhammad and was largely due to the esteem in which the Prophet held the Bible and partly to the aristocratic connections of certain Christian tribes.

In this status the dhimmis enjoyed considerable freedom from the payment of land and capitation taxes. Even in matters of civil and criminal judicial procedure, except where a Moslem was involved, these people were practically under their own spiritual heads. Moslem law was too sacred to be applicable to them. Essential parts of this system were still in force as late as the Ottoman period and have survived to the present day in the mandates of Syria and Palestine.

At the bottom of society stood the slaves. Islam preserved the ancient Semitic institution of slavery, the legality of which the Old Testament admitted, but it appreciably ameliorated the condition of the slave. Canon law forbade the Moslem to enslave his coreligionist, but promised no liberty to an alien slave who adopted Islam. Slaves in early Islam were recruited from prisoners of war, including women and children, unless ransomed, and by purchase or raiding. Soon the slave trade became very brisk and lucrative in all Moslem lands. Some slaves from East or Central Africa were black; others from Chinese Turkestan were yellow; still others from the Near East or from eastern and southern Europe were white. The Spanish slaves fetched about a thousand dinars each, while Turkish slaves were worth only six hundred. According to Islamic law the offspring of a female slave by another slave, by any man other

the full rights of Islamic citizenship. A Moslem was supposed to pay no tribute. Here Arabian chauvinism, pitted against theoretical claims, proved too strong for those claims to be realized. There is no doubt that throughout practically all the period of the Umayyads, holders of land, whether believers or unbelievers, were made to pay land tax. Yet one of the causes for the decline of state revenue was undoubtedly conversion to Islam.

Reduced to the position of "clients," these neophyte Moslems formed the lowest stratum of Moslem society, a status which they bitterly resented. This explains our finding them in many cases espousing such causes as the Shiite in Iraq or the Kharijite in Persia, sects which were to cause unending dissension and bloodshed. Some of them, however, as often happens, proved religiously "more royal than the king," and their zeal for the new faith, bordering on fanaticism, made them persecute non-Moslems. Among the most intolerant early Moslems are numbered converts from Christianity and Judaism.

Within the Moslem society these clients were naturally the first to devote themselves to learned studies and fine arts, for they represented the longer tradition of culture. As they outshone the Moslem Arabians in the intellectual field they began to contest with them for political leadership. Through their intermarriages with the conquering stock they served to dilute the Arabian blood and ultimately to make that element inconspicuous amidst the mixture of varied racial strains.

The third class was made up of members of tolerated sects, professors of revealed religions, the so-called *"dhimmis,"* the Christians, Jews and Sabians with whom the Moslems had made covenant. This recognition of tolerated

in a white silk *aba* and armed with a sword or lance. A few women, all veiled, cross the streets; others stealthily peep through the latticed windows of their homes overlooking the bazars and public squares. Sherbet sellers and sweetmeat vendors raise their voices to the highest pitch in competition with the incessant tramp of the passers-by and the multitude of donkeys and camels laden with the varied products of the desert and the sown land. The city atmosphere is charged with smells—every conceivable odor under the sun.

As in other cities the Arabians lived in separate quarters of their own according to their tribal affiliation. In Damascus (Dimashq), Hims, Aleppo and other towns these quarters are still well marked. The doorway of each house opened from the street into a courtyard in the center of which usually stood a large water basin with a flowing jet emitting from time to time a veil-like spray. An orange or citron tree grew by the basin. The rooms surrounded the courtyard, which in larger houses was provided with a cloister. It is to the eternal glory of the Umayyads that they supplied Damascus with a water system which was unexcelled in the contemporary Orient and still continues to function.

The population throughout the empire was divided into four social classes. The highest consisted naturally of the ruling Moslems headed by the caliphal household and the aristocracy of Arabian conquerors. Exactly how numerous was this class cannot be ascertained; it embraced in Hims and Damascus from 20,000 to 45,000 people.

Next below the Arabian Moslems came the Neo-Moslems, who by force or persuasion had professed Islam and were thereby admitted in theory, though not in practice, to

Social and Cultural Life Make a Start

We have come to the end of the first major phase of our story. The march of Islam has ended. Although there was unending warfare within the empire to the day the empire was no more, the burden of our narrative shifts now from the story of battles and conquest to the far more significant and in many ways more exciting story of the march of ideas, of the development of culture within the Moslem empire, the rise of literature, science, medicine, art and architecture and the heartening chronicle of how, through the interpenetration of cultures, man passes on to the triumphs of his mind when the victories of the sword have fallen away.

It is a striking fact that in its general tone and character, life in the Damascus of the eighth century was not greatly different from what it is today. Then, as now, in the narrow, covered streets the Damascene with his wide trousers, red pointed shoes and huge turban could be seen rubbing shoulders with the sun-tanned Bedouin in his loose gown surmounted by head shawl and head band, and occasionally meeting a European-dressed *Ifranji,* or Frank, as all Europeans are still called. Here and there the aristocrat, the well-to-do Damascene, might be seen on horseback cloaked

The year 732 marked the first centennial of the Prophet's death. His followers were now the conquerors of an empire extending from the Bay of Biscay to the Indus and the frontiers of China, from the Aral Sea to the upper Nile. Damascus, which young Muhammad according to tradition hesitated to enter because he wished to see Paradise only once, had become the capital of this huge empire. In the heart of the city stood the glittering palace of the Umayyads, commanding a view of flourishing plains which extended southwestward to Mount Hermon with its turban of perpetual snow. Its builder was none other than Muawiyah, founder of the dynasty, and it stood beside the Umayyad Mosque which al-Walid had newly adorned and made into that jewel of architecture which still attracts lovers of beauty. In the audience chamber a square seat covered with richly embroidered cushions formed the caliphal throne, on which during formal audiences the caliph, in flowing robes, sat cross-legged. On the right stood his paternal relatives in a row according to seniority, on the left his maternal relatives. Courtiers, poets and petitioners stood behind. The more formal audiences were held in the glorious Umayyad Mosque, even at the present day one of the most magnificent places of worship in the world. In some such setting must the Caliph Sulayman, who had just ascended the throne, have received Musa and Tariq, the conquerors of Spain, with their prisoners and treasures. The march of Islam had reached its climax and the glory of Islam's first dynasty had reached its zenith.

hewed down with their swords all attackers. Among the victims was Abd-al-Rahman himself. Darkness at last separated the combatants. At the dawn of day the stillness of the hostile camp caused Charles to suspect a ruse. Spies were sent out to ascertain the facts. Under cover of night the Arabs had quietly deserted their tents and vanished. Charles was victorious.

Later legends embellished this day of Poitiers or Tours, greatly exaggerating its historic importance. To the Christians it meant the turning point in the military fortunes of their eternal foe. Gibbon, and after him other historians, would see mosques in Paris and London, where cathedrals now stand, and would hear the Koran instead of the Bible expounded in Oxford and other seats of learning, had the Arabs won the day. To several modern historical writers this battle of Tours is one of the decisive battles in history.

In reality the battle of Tours decided nothing. The Arab-Berber wave, already almost a thousand miles from its starting place in Gibraltar, had reached a natural standstill. It had lost its momentum and spent itself. Internal discord and jealousy between its two component racial elements were beginning to tell on the morale of Abd-al-Rahman's army. Among the Arabs themselves there was no unanimity of feeling and purpose. It is true that the Moslems were checked at this point, but their raids continued elsewhere. In 734, for instance, they seized Avignon; nine years later they pillaged Lyons; and not until 759 did they relinquish their hold on Narbonne, the strategic base of their operations. Although this defeat near Tours was not the actual cause of the Arab halt, it does set the farthest limit of the victorious Moslem arms.

Abd-al-Rahman ibn-Abdullah al-Ghafiqi, successor of al-Samh as governor over Spain. Abd-al-Rahman advanced through the western Pyrenees, which he crossed in the early spring of 732. Having vanquished Duke Eudes on the banks of the Garonne, he stormed Bordeaux, setting its churches on fire. After burning a basilica outside the walls of Poitiers he pushed northward to the vicinity of Tours. As the resting place of the body of St. Martin, the apostle of the Gauls, Tours was a sort of religious capital for Gaul. Its votive offerings undoubtedly presented the chief attraction to the invaders.

Here, between Tours and Poitiers, at the junction of the Clain and the Vienne, Abd-al-Rahman was met by Charles Martel, mayor of the palace at the Merovingian court, whose aid Eudes had besought. Charles, as the surname Martel (the hammer) which he later won signifies, was valiant and bold. He had subdued many enemies and obliged Eudes, who exercised independent authority in Aquitaine, to acknowledge the nominal sovereignty of the northern Franks. Though not king in name Charles, an illegitimate son of Pepin of Heristal, was king in fact.

For seven days the Arab army under Abd-al-Rahman and the Frankish forces under Charles, mostly foot soldiers clad in wolfskins with long matted hair hanging down over their shoulders, stood facing one another anxiously awaiting the moment of joining battle. Light skirmishes dragged on. At last, on an October Saturday of 732, the Arab leader took the initiative in the attack. The Frankish warriors, who in the heat of the fight had formed a hollow square, stood shoulder to shoulder, firm as a wall, inflexible as a block of ice—in the words of a Western historian. The light cavalry of the enemy failed against them. Without giving way they

posed to have provided the Arab army with boats, the part he played in the conquest was greatly exaggerated.

The fall of Saragossa removed one of the last barriers between Spain and France. But there remained the Pyrenees. Musa never crossed them, though certain Arab chroniclers credit him with the feat and with having even entertained the hope of traversing "the land of the Franks" and joining hands through Constantinople with the caliph in Damascus. Though wild and fantastic, the dream of fighting their way through Europe may have flashed through the brains of the Arab invaders, whose knowledge of the geography of Europe could not have been great. In reality it was Musa's third successor, al-Hurr ibn-Abd-al-Rahman al-Thaqafi, who, in 717 or 718, was the first to cross the range.

Lured by the rich treasures of the convents and churches of France and encouraged by the internal dissension between the chief officers of the Merovingian court and the dukes of Aquitaine, al-Hurr started the raids which were continued by his successor al-Samh ibn-Malik al-Khawlani. In 720, al-Samh seized Septimania, which was a dependency of the defunct Visigothic kingdom, and captured Narbonne, which was converted later into a huge citadel with an arsenal and depots for provisions and arms. But his attempt in the following year at Toulouse, the seat of Duke Eudes of Aquitaine, resulted in failure, thanks to the effective resistance offered. Here al-Samh "suffered martyrdom," i.e. fell in battle against non-Moslems. The first great victory by a Germanic prince over Moslems had been won. The subsequent movements of the Arabs beyond the Pyrenees were not successful.

The last and greatest expedition northward was led by

were likewise invading Germanic hordes. The Visigoths ruled as absolute, often despotic, monarchs. They clung to the Arian form of Christianity until one of them, Recared, in 587 accepted Catholicism, the religion of the natives. As Catholics the people had hated the rule of the heretical Goths. The natives included a considerable class of serfs and slaves, who were naturally dissatisfied with their hard lot. That this enslaved class should have contributed its share to the success of the invasion and cooperated with the invaders is not surprising. Then there was the Jewish element in the population which was estranged from the bulk of the nation through active persecution by the Gothic royalty. Attempts at their forced conversion were consummated by a royal decree issued in 612 enjoining all Jews to be baptized under penalty of banishment and confiscation of property. That explains why several of the conquered towns were left in charge of Jews as the Moslem invaders marched through Spain.

We should, moreover, remember that political disagreements among the royalty and nobility of the Goths themselves, coupled with internal strife, had undermined the state. Toward the end of the sixth century the Gothic nobles had become territorial lords. The Moslem invasion coincided with the accession to the throne of a usurper from among the nobility who was readily betrayed by the kinsmen of his deposed predecessor. On the conquest of Toledo, Achila, the deposed son of Witiza, who had naïvely cherished the notion that the Arabs were fighting his battle for him, contented himself with the recovery of his estates in Toledo. Here he continued to live in great pomp. His uncle, Bishop Oppas, was installed over the metropolitan see of the capital. As for Julian, the governor of Ceuta who is sup-

the table with precious stones. The treasure was kept in the cathedral and was captured by Tariq, probably from the bishop as he fled with it. When Musa met Tariq in Toledo and administered his whipping he also seized the table but Tariq, so the story goes, had secreted one of its legs and now in the presence of the caliph dramatically produced the missing part as proof of his own exploit.

The same fate which befell many another successful Arab general awaited Musa. Al-Walid's successor humiliated him. Besides disciplining him by making him stand until exhausted in the sun, he confiscated his property and deprived him of all authority. The last we hear of the aged conqueror of Africa and Spain is as a beggar in a remote village of Hijaz.

Spain was now a province of the caliphate. The Arabic name it assumed was al-Andalus. Etymologically this word is connected with the name of the Vandals, who had occupied the land before the Arabs. Musa's immediate successors had only small territories in the north and east of the peninsula to conquer and comparatively few revolts to quell. Within the short space of seven years the conquest of the peninsula, one of the fairest and largest provinces of medieval Europe, was effected. The conquerors were there to stay—for centuries at least.

The reasons for this seemingly unprecedented triumph are not hard to discern even from the above sketchy account. In the first place, the line of national cleavage between the Visigoths (West Goths) who entered Spain in the early part of the fifth century as Teutonic barbarians and the Spanish-Roman population was not yet entirely obliterated. The Goths had to struggle for a long time to displace their predecessors, the Suevi and Vandals, who

nate—acting independently of his superior. As governor of Africa, Musa had none but the caliph for his superior.

Leaving his second son, Abd-al-Aziz, in command of the newly acquired territory, Musa slowly made his way overland toward Syria. On his march he was accompanied by his officers, four hundred Visigothic princes, wearing crowns and girdled with gold belts, and followed by an endless retinue of slaves and prisoners of war loaded with enormous treasures of booty. The story of the triumphal passage of this princely train through northern Africa from west to east is a favorite with Arab historians. Its description brings to mind the picture of the ancient victorious marches of Roman generals. The news of the impressive procession traveled to Damascus faster than the procession itself. On reaching Tiberias, Musa found orders awaiting him from Sulayman, brother and heir of the sick al-Walid, to delay his advent to the capital. The caliph-to-be hoped thereby to have the arrival grace his accession to the throne.

In February 715 Musa entered Damascus with his Visigothic princes bedecked in their jewelry and was evidently received with favor by al-Walid. The official reception, held with great dignity and pomp in the courtyard of the magnificent Umayyad Mosque, is a gleaming pinnacle in the history of triumphant Islam. For the first time hundreds of Western royalty and thousands of European captives were seen offering homage to the commander of the believers.

Musa presented the caliph, among other trophies, with the superb table whose workmanship legend assigns to genii in the service of King Solomon. From Jerusalem this unique piece of art, legend asserts, was carried away by the Romans into their capital, whence it was later taken by the Goths. Each Gothic king vied with the preceding one in decorating

which struck no blow. Another captured Elvira. A third, consisting of cavalry, attacked Cordova. After holding out for two months this future capital of the Moslems was delivered to the besiegers, we are told, through the treachery of a shepherd who pointed out a breach in the wall. Malaga offered no resistance. Elvira, close to the spot where Granada now stands, proved an easy prey. At Ecija the fiercest battle of the campaign was fought, ending favorably for the invaders. Toledo, the Visigoths' capital, was betrayed by certain Jewish residents. Thus did Tariq, who in the spring of 711 had started as leader of a raid, become by the end of the summer the master of half of Spain. He had destroyed a whole kingdom.

Jealous of the unexpected and phenomenal success of his lieutenant, Musa himself with 10,000 troops—all Arabians and Syrian Arabs—rushed to Spain in June 712. For his objective he chose those towns and strongholds avoided by Tariq—Medina Sidonia and Carmona. Seville, the largest city and the intellectual center of Spain and once its Roman capital, held out under siege until the end of June 713. But the most obstinate resistance was met at Merida. After a year's beleaguering, however, this city was taken by storm on June 1, 713.

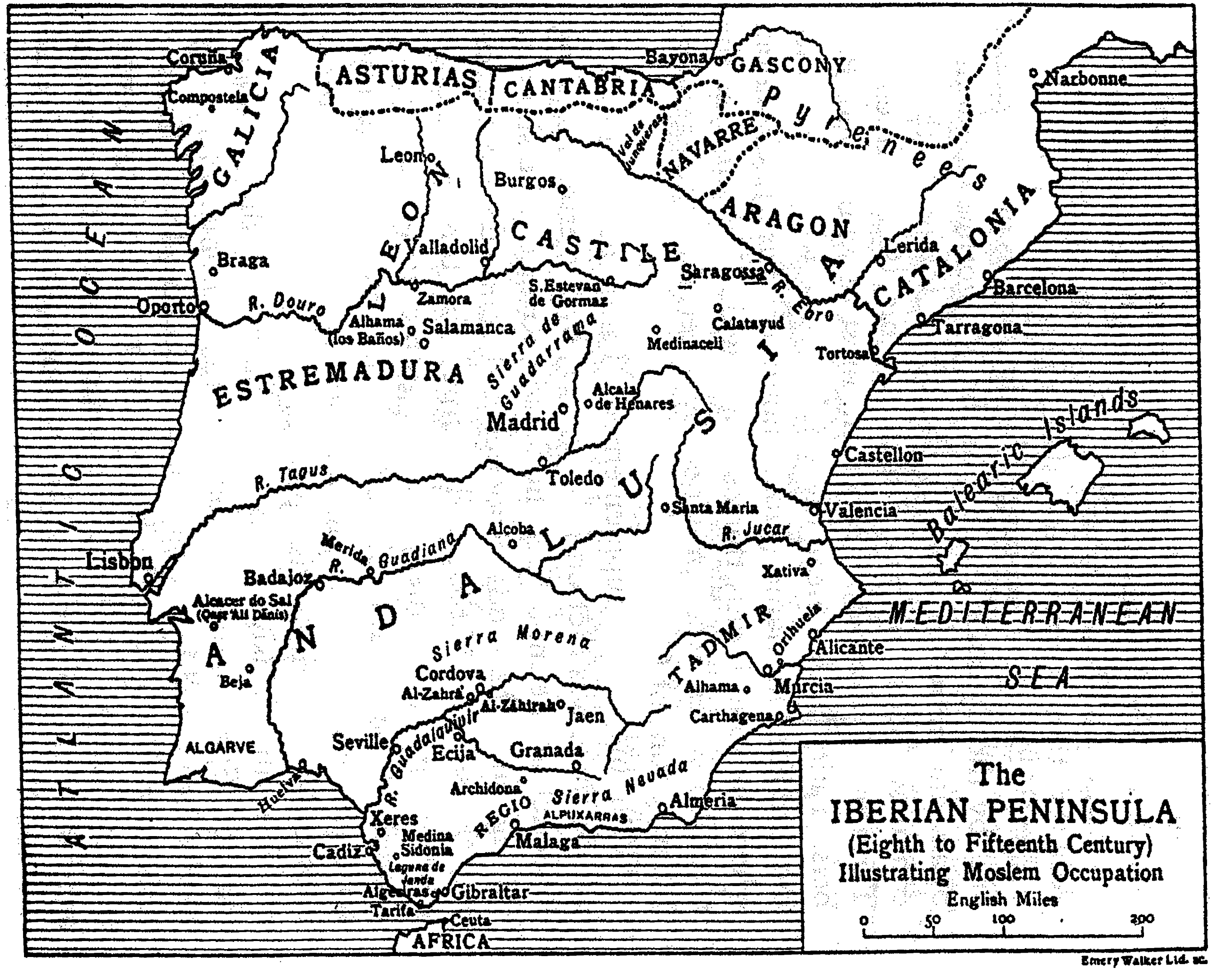
It was in or near Toledo that Musa met Tariq. Here, we are told, he whipped his subordinate and put him in chains for refusing to obey orders to halt in the early stage of the campaign. But the conquest went on. Soon Saragossa, in the north was reached and the Moslem troops advanced into the highlands of Aragon, Leon, the Asturias and Galicia. In the autumn of the same year the Caliph al-Walid in distant Damascus recalled Musa, charging him with the same offense for which Musa had disciplined his Berber subordi-

rifa) which is almost the southernmost tip of the European continent.

Musa, who had held the governorship since about 699, had driven the Byzantines forever from the territory west of Carthage and had gradually pushed his conquests to the Atlantic, thus acquiring for Islam a *point d'appui* for the invasion of Europe. Encouraged by the success of the first raid and by the dynastic trouble in the Visigothic kingdom of Spain and actuated more by the desire for booty than for conquest, Musa in 711 dispatched his Berber freedman Tariq into Spain with 7,000 men, most of whom were Berbers. Tariq landed near the mighty rock which has since immortalized his name (Jabal [mount of] Tariq), Gibraltar, where the strait is only thirteen miles wide. The ships, so the tradition states, were provided by a certain semilegendary Julian, count of Ceuta.

With his forces supplemented, Tariq, at the head of 12,000 men, was met on July 19, 711, by the armies of King Roderick at the mouth of the Salado River on the shore of the lagoon of the Janda. Roderick had deposed his predecessor, the son of Witiza, and usurped the throne. Though numbering 25,000 men, the Visigothic army was utterly routed. What became of Roderick himself remains a mystery. The usual statement in both Spanish and Arabic chronicles is that he simply disappeared.

After this decisive victory the march of the Moslems through Spain almost amounted to a promenade. Only towns dominated by Visigothic knighthood offered effective resistance. Tariq, with the bulk of the army, heading by way of Ecija toward Toledo, the capital, sent detachments against neighboring towns. The strongly fortified Seville in the south was avoided. One column seized Archidona,



The
IBERIAN PENINSULA
(Eighth to Fifteenth Century)
Illustrating Moslem Occupation
English Miles
0 50 100 200
Emery Walker Ltd. sc.
ATLANTIC OCEAN
MEDITERRANEAN SEA
Balearic Islands
GALICIA
ASTURIAS
CANTABRIA
GASCONY
Pyrenees
NAVARRE
Val de Junqueras
ARAGON
CATALONIA
CASTILE
LEON
ESTREMADURA
ANDALUSIA
TADMIR
ALGARVE
REGIO
AFRICA
Coruña
Compostela
Leon
Burgos
Bayona
Narbonne
Braga
Valladolid
Oporto
R. Douro
Zamora
S. Estevan de Gormaz
Saragossa
R. Ebro
Lerida
Barcelona
Tarragona
Tortosa
Calatayud
Medinaceli
Alhama (los Baños)
Salamanca
Sierra de Guadarrama
Alcala de Henares
Madrid
Castellon
R. Tagus
Toledo
Santa Maria
Valencia
R. Jucar
Lisbon
Merida
R. Guadiana
Alcoba
Badajoz
Xativa
Alcacer do Sal (Qasr 'Ali Dânis)
Orihuela
Alicante
Sierra Morena
Beja
Cordova
Al-Zahrá
Al-Zahirah
Jaen
Alhama
Murcia
Carthagena
Seville
R. Guadalquivir
Ecija
Granada
Archidona
Sierra Nevada
Huelva
Xeres
ALPUXARRAS
Almeria
Medina Sidonia
Malaga
Cadiz
Laguna de Janda
Algeciras
Gibraltar
Tarifa
Ceuta

sage of the Arab fleet into the Golden Horn was barred by a great chain.

But it was westward that the Moslems swept forward to their most spectacular triumph. They had already penetrated North Africa to the site of ancient Carthage. Under one of Islam's most puissant generals, Musa ibn-Nusayr, they pressed on through the land of the Berbers, a racial group belonging to the Hamitic branch of the white race, probably in prehistoric times of the same stock as the Semites. Most of the Berbers on the coast had become Christians. Tertullian, St. Cyprian and above all St. Augustine, princes among the early Christian fathers, stemmed from here. But inward from the coast the native population had not been deeply touched by Roman or Byzantine civilization, a culture quite alien to the mentality of these nomadic and seminomadic North Africans.

Islam had a special attraction for people in a cultural stage such as that of the Berbers, and the Semitic Arabs readily established intimate relations with their Hamitic cousins. Islam once again performed its seeming miracle of Arabicizing the language and Islamizing the religion of a semibarbarous horde. The blood of the conquerors found fresh ethnic strains for its enrichment, the Arabic tongue a vast field for conquest and rising Islam a new foothold in its climb toward world supremacy.

In its swiftness of execution and completeness of success the expedition into Spain holds a unique place in medieval military annals. The first reconnaissance was made in July 710, when four hundred foot and one hundred horse—all Berbers and soldiers of Musa, the governor of North Africa under the Umayyads—landed on the tiny peninsula (Ta-

Conquest of Spain

THE acquisition of Syria, Iraq, Persia and Egypt brought to an end the first stage in the history of Moslem conquest. A short period of civil disturbances followed. The second stage now begins.

A whirlwind campaign in the east carried the banner of the Prophet across the Oxus River, the traditional boundary line between Persian-speaking and Turkish-speaking peoples, and on to outer Mongolia. Bukhara, Tashkand, Samarqand, storied cities of ancient times, capitulated to the Moslems, and the supremacy of Islam in Central Asia was so firmly established that the Chinese ceased to dispute it. Another eastern column moved south, through the territory which is now termed Baluchistan, and in the year 712 reduced Sind, the lower valley and delta of the Indus River. The conquest was extended as far as Multan in southern Panjab, the seat of a renowned shrine of the Buddha, and the Indian border provinces were forever Islamized. Here Islam established contact with a new culture, that of Buddhism.

On the north-central front the Arab wave broke, as always, against the citadel of Constantinople, this period witnessing the memorable year-long siege of the Byzantine capital—August 716 to September 717—in which the pas-

ask what thou wilt." Enclosed was a blank for al-Hasan to fill in, already signed by Muawiyah. The would-be rival was naturally enchanted by such an offer.

As succeeding caliphs were to do, Muawiyah measured swords with the Byzantines and twice stretched out his strong arm against Constantinople itself. During his reign a Moslem fleet challenged Byzantine sea power, registering the first great naval victory of Islam in a sanguinary engagement off the Lycian coast in Asia Minor. Constantinople, then and later—until the time of the Turks—proved to be impregnable. Nor did the Arabs ever manage to obtain a permanent foothold in Asia Minor, or to span the Hellespont. It was eastward and westward, along the lines of least resistance, that their main energy was directed. In the time of Muawiyah they were again on the march.

divorcer." Consistent, at any rate, in recognizing the true nature of his ability, he genially permitted Muawiyah to buy him off as an aspirant to the caliphate, with a lifetime subsidy.

Muawiyah was a man of unusual administrative skill. And out of chaos he developed an orderly Moslem society. His army was the first disciplined force known in Islamic warfare. Historians credit him also with being the first in Islam to institute a bureau of registry and the first to interest himself in a postal service, which was shortly to develop into a well-organized system knitting together the various parts of the empire.

In Muawiyah the political sense was developed to a degree probably higher than in any other caliph. To his Arab biographers his supreme virtue was his *hilm*, which might be translated as finesse, that unusual ability to resort to force only when force was absolutely necessary and to use peaceful measures in all other instances. His prudent mildness by which he tried to disarm the enemy and shame the opposition, his slowness to anger and his absolute self-control left him under all circumstances master of the situation. "I apply not my sword," he is reported to have declared, "where my lash suffices, nor my lash where my tongue is enough. And even if there be one hair binding me to my fellowmen, I do not let it break: when they pull I loosen, and if they loosen I pull." The following is a letter he is supposed to have forwarded to al-Hasan on the occasion of the latter's abdication: "I admit that because of thy blood relationship thou art more entitled to this high office than I. And if I were sure of thy greater ability to fulfill the duties involved I would unhestitatingly swear allegiance to thee. Now then,

The one to wrest the caliphate from Ali was a distant cousin, the shrewd Muawiyah, governor of Syria. With him the principle of sovereignty took a new turn: the caliphate became a dynasty, established on the principle of succession, rather than on the principle of casual election as heretofore. There were to be three great dynasties in the period which our story covers: the Umayyad, which now begins in the year 661 with the caliphate of Muawiyah in Damascus; the Abbasid, in Baghdad, which endured from 750 to 1258; and the Fatimid, which ruled from 909 to 1171, with its seat in Cairo. And there was an illustrious branch of the Umayyad caliphate in Spain, from 929 to 1031 with Cordova for its capital. Of these caliphates only the Fatimid claimed descent from Ali. The dynastic principle was to introduce a semblance of political stability. Actually, however, there was seldom a long period when bloody internal warfare did not plague Islam; and there were times when a caliph, though nominally the head of an empire, did not in fact exercise control in his capital city.

Another new note which was to echo more and more loudly in Islam throughout the following centuries was also sounded in the events which accompanied Muawiyah's rise to power. Iraq had declared Ali's son, al-Hasan, the legitimate successor to the throne—with logic, since he was the eldest son of the deceased caliph and Fatimah, the only surviving daughter of the Prophet. But, unfortunately, this grandson of the Prophet had already sojourned too long among the fleshpots. His talents lay in fields other than administration—namely, in the boudoir. Though he died at the age of forty-five, he had by that time succeeded in making and unmaking no less than one hundred marriages and in winning a highly individual title for himself: "the great

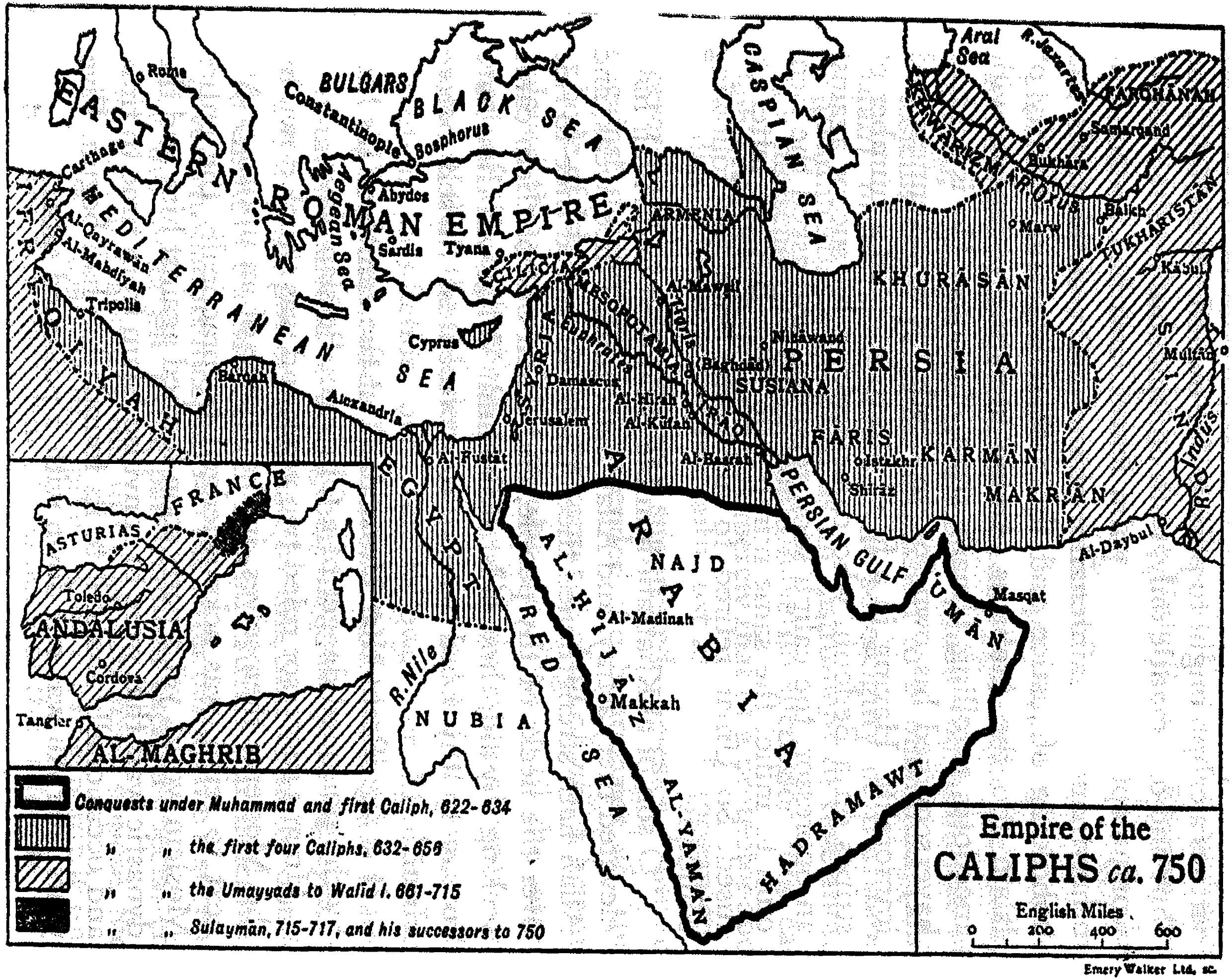
We should here guard against the common fallacy that the caliphate was a religious office. In this regard analogies drawn from the headship of the Holy Roman Empire and from the Catholic Church are misleading. As commander of the believers, the military office of the caliph was emphasized. As *imam*, leader in public prayer, the caliph could and did lead the religious service and pronounce the Friday sermon; but this was a function which the humblest of Moslems could perform. Succession to Muhammad (*khilafah*) meant succession to the sovereignty of the state. Muhammad as a prophet, as an instrument of revelation, as a messenger of Allah, could have no successor. The caliph's relation to religion was merely that of a protector and guardian. He defended the faith just as any European emperor was supposed to, suppressed heresies, warred against unbelievers and extended the boundaries of "the abode of Islam"—in the performance of all of which he employed the power of his secular arm. Not until the latter part of the eighteenth century did the notion prevail in Europe that the Moslem caliph was a kind of pope with spiritual jurisdiction over the followers of Muhammad throughout the world. The shrewd Abd-al-Hamid II made capital of the idea to strengthen his prestige in the eyes of the European powers who had by this time come to dominate most of the Moslems in Asia and Africa. An ill-defined movement had its inception in the latter part of the last century and under the name pan-Islamism exerted special effort to bring about some unity of action to oppose the Christian powers. With Turkey as its rallying point it unduly stressed the ecumenical character of the caliphate.

idolized by Moslem writers for his piety, justice and patriarchal simplicity and treated as the personification of all the virtues a caliph ought to possess. He owned, we are told, one shirt and one mantle only, both conspicuous for their patchwork, slept on a bed of palm leaves, and had no concern other than the maintenance of the purity of the faith, the upholding of justice and the ascendancy and security of Islam and the Arabians. Arabic literature is replete with anecdotes extolling Umar's stern character. He is said to have scourged his own son to death for drunkenness and immorality. Having in a fit of anger inflicted a number of stripes on a Bedouin who came seeking his succor against an oppressor, the caliph soon repented and asked the Bedouin to inflict the same number on him. But the latter refused. So Umar retired to his home with the following soliloquy:

"O son of al-Khattab! humble thou wert and Allah hath elevated thee; astray, and Allah hath guided thee; weak, and Allah hath strengthened thee. Then He caused thee to rule over the necks of thy people, and when one of them came seeking thy aid, thou didst strike him! What wilt thou have to say to thy Lord when thou presentest thyself before Him?"

It is significant that Umar died, at the zenith of his life, by the poisoned dagger of a Christian Persian slave.

Umar's successor ruled two years and was struck down by the Moslems themselves, in the course of an uprising. Ali, next to reign, was acknowledged by practically the entire Moslem world, yet a party soon formed against him and the dynastic wars that were to convulse Islam from time to time and occasionally shake it to its foundation had begun. Five years later Ali was cut down with a poisoned saber.


Empire of the CALIPHS ca. 750
English Miles
0 200 400 600
Conquests under Muhammad and first Caliph, 622-634
" " the first four Caliphs, 632-656
" " the Umayyads to Walīd I. 661-715
" " Sulaymān, 715-717, and his successors to 750
EASTERN ROMAN EMPIRE
MEDITERRANEAN SEA
BLACK SEA
CASPIAN SEA
Aral Sea
R. Jaxartes
FARGHĀNAH
Samarqand
Bukhāra
KHWĀRIZM
Balkh
TUKHĀRISTĀN
Marw
Kābul
KHURĀSĀN
PERSIA
Multān
SIND
Indus
Nihāwand
SUSIANA
FĀRIS
KARMĀN
MAKRĀN
Shīrāz
Al-Daybul
PERSIAN GULF
Masqat
ʿUMĀN
ARABIA
NAJD
AL-HIJĀZ
Al-Madinah
Makkah
AL-YAMAN
HADRAMAWT
RED SEA
NUBIA
R. Nile
EGYPT
Al-Fustāt
Alexandria
Barqah
IFRĪQIYAH
Tripolis
Al-Mahdīyah
Al-Qayrawān
Carthage
Rome
BULGARS
Constantinople
Bosphorus
Abydos
Aegean Sea
Sardis
Tyana
CILICIA
ARMENIA
Al-Mawsil
MESOPOTAMIA
Tigris
Euphrates
Baghdād
Al-Hīrah
Al-Kūfah
Al-Basrah
ʿIRĀQ
SYRIA
Damascus
Jerusalem
Cyprus
FRANCE
ASTURIAS
Toledo
ANDALUSIA
Cordova
Tangier
AL-MAGHRIB
Emery Walker Ltd. sc.

was in the linguistic and to a certain extent in the religious fields. Throughout the whole period of the caliphate the Syrians, the Persians, the Egyptians and others, as Moslem converts or as Christians and Jews, were the foremost bearers of the torch of enlightenment and learning, just as the subjugated Greeks were in their relation to the victorious Romans. The Arab Islamic civilization was at bottom the Hellenized Aramaic and the Iranian civilizations as developed *under the aegis of the caliphate* and expressed through the medium of the Arabic tongue. In another sense it was the logical continuation of the early Semitic civilization of the Fertile Crescent originated and developed by the Assyro-Babylonians, Phoenicians, Aramaeans and Hebrews. In it the unity of the Mediterranean civilization of Western Asia found its final culmination.

In the first two caliphs, abu-Bakr, who ruled from 632 to 634, and Umar (634-644), we have a clear picture of the kind of man whom Moslem Arabia produced. Abu-Bakr, the conqueror and pacifier of Arabia, lived in patriarchal simplicity. In the first six months of his short reign he traveled back and forth daily from al-Sunh, where he lived in a modest household with his wife Habibah, to his capital Medina and received no stipend since the state had at that time hardly any income. All state business he transacted in the courtyard of the Prophet's Mosque.

Simple and frugal in manner, his energetic and talented successor, Umar, who was of towering height and strong physique, continued at least for some time after becoming caliph to support himself by trade. He lived throughout his life in a style as unostentatious as that of a Bedouin sheikh. Umar, whose name according to Moslem tradition is the greatest in early Islam after that of Muhammad, has been

The Caliphate

One of the favorite themes of history is the story of young, uncultured people who overcome with their fresh strength an old civilization, only to be fascinated and ultimately weakened by the delights of the new culture to which they are exposed. This theme enters now in the story of the men from Arabia.

By the conquest of the Fertile Crescent and the lands of Persia and Egypt the Arabians came into possession of the earliest seats of civilization in the whole world. In art and architecture, in philosophy, in medicine, in science and literature, in government, the original Arabians had nothing to teach and everything to learn. And what voracious appetites they proved to have! With sharp curiosity and latent potentialities never aroused before, these Moslem Arabians in collaboration with and by the help of their subject peoples began now to assimilate, adapt and reproduce their intellectual and esthetic heritage. In Ctesiphon, Damascus, Jerusalem and Alexandria they viewed, admired and copied the work of the architect, the artisan, the jeweler and the manufacturer. To all these centers of ancient culture they came, they saw—and were conquered.

What we now call "Arab civilization" was Arabian neither in its origins and fundamental structure nor in its principal ethnic aspects. The purely Arabian contribution

andria and no contemporary writer ever brought the charge against Amr or Umar.

The fall of Egypt left the Byzantine provinces bordering on its west defenseless. After the fall of Alexandria and in order to protect his rear, Amr, with characteristic swiftness, pushed westward at the head of his cavalry. The drive carried the banner of the Prophet along the coast of North Africa to the land of the Berbers in Tripoli. It was soon to go much farther.

of such a sight must have been not unlike that which the skyline of modern New York, with its towering skyscrapers, makes upon the immigrant.

Alexandria boasted a garrison of some 50,000. Behind it lay the whole strength of the Byzantine navy, of which the city was the base. The invaders, far inferior in number and in equipment, had not a single ship, no siege machines and no immediate source of supply for their man power.

It was about a year later that the glad tidings were sent to Umar, now caliph in Medina, in the following words: "I have captured a city from the description of which I shall refrain. Suffice it to say that I have seized therein 4,000 villas with 4,000 baths, 40,000 poll-tax paying Jews and four hundred places of entertainment for the royalty." The caliph entertained his general's messenger with bread and dates and held in the Prophet's Mosque a simple but dignified service of thanksgiving. *God is most great.*

The site on which Amr pitched his camp at Heliopolis became the new capital, which has survived as Old Cairo. In it the conqueror of Egypt erected a simple mosque, the first to rise in that land, which has survived in its repaired form to this day.

The story that by the caliph's order Amr for six long months fed the numerous bath furnaces of the city with the volumes of the Alexandrian library is, incidentally, one of those tales that make good fiction but bad history. The great Ptolemaic Library was burned as early as 48 B.C. by Julius Caesar. A later one, referred to as the Daughter Library, was destroyed about A.D. 389 as a result of an edict by the Roman Emperor Theodosius. At the time of the Arab conquest, therefore, no library of importance existed in Alex-

The strategic position of Egypt, lying so dangerously close to both Syria and Hijaz; the richness of its soil, which made the land the granary of Constantinople; the fact that its capital Alexandria was the base of the Byzantine navy and that the country was the door to the rest of the North African corridor—all these considerations caused Arabian eyes to turn covetously toward the valley of the Nile quite early in the era of expansion. Seeking to outshine his illustrious rival Khalid, in 639 Amr ibn-al-As with 4,000 riders took the beaten track from Palestine along the coast trod by Abraham, Cambyses, Alexander, Antiochus, the Holy Family—and later Napoleon and Djemal Pasha. It was the international highway of the ancient world.

Again the story was the same—a rout, a siege and the cry of victory: *Allahu akbar.* God is most great! This time Babylon had fallen.

With fresh recruits from Arabia swelling his army to about 20,000, Amr found himself one morning gazing at the seemingly impregnable line of walls and towers guarding Egypt's capital and leading port, Alexandria. On one side rose the lofty Serapeum, which once housed the temple of Serapis and the great library of Alexandria; on the other loomed the beautiful cathedral of St. Mark, once the Caesarian temple begun by Cleopatra in honor of Julius Caesar and finished by Augustus; farther west stood the two red Aswan-granite needles ascribed to Cleopatra, but in reality the work of Thutmose III (ca. 1450 B.C.), the same two which now adorn the Thames Embankment in London and Central Park in New York; and in the background towered the Pharos, flashing the sun's rays by day and its own fire by night and rightly considered one of the seven wonders of the world. No doubt to the desert Arabians the impression

top, had ever been fully assimilated by the native peoples. The Persian emperor and his troops deserted their capital, Ctesiphon, without a fight, and the Moslems entered the greatest royal city in hither Asia in triumph. With the death of the emperor, by the hand of one of his subjects who coveted the crown jewels, the last ruler of an empire that had flourished for some twelve centuries passed away—an empire that was not to rise again for some eight centuries.

For the first time, now, the sons of barren Arabia came into direct contact with luxuries and comforts. The royal palace with its spacious audience chamber, graceful arches and sumptuous furnishings and decorations presented a sharp contrast to the mud houses of the peninsula. The education of the Arabians was beginning; and as is often in such cases, not without its humorous mishaps. Camphor, never seen before, was taken for salt and used in cooking. Some warriors hastened to exchange gold, which was unfamiliar, for silver, which was familiar. One soldier, when chided for selling a nobleman's daughter who fell as his share of booty for only 1,000 dirhams, replied that he "never thought there was a number above ten hundred."

Once beyond the boundary of Iraq and into Persia proper, the invaders found stiffening resistance and about a decade was needed to complete the conquest. The Persians were Aryans, not Semites, and presented a well-organized military power that had been measuring swords with the Romans for more than four hundred years. But it, too, was totally subdued. The year 643 brought the Arabs to the borders of India.

While this triumphant march was in progress in the east, the Moslem wave was likewise flooding toward the west.

of the Eastern Empire, sent an army of 50,000 men to meet the Moslems. Khalid confronted them with half that number at the valley of the Yarmuk, a tributary of the Jordan, on August 20, 636, a hot day clouded by the windblown dust of one of the most torrid spots on earth. Arab generalship had apparently picked the day with shrewdness. Before the terrific onslaught of the sons of the desert the efforts of the Byzantine troops were of no avail, in spite of the chants and prayers of their priests and the presence of their crosses. The rout of the Byzantines became a slaughter. No further resistance stood in the way of the Arabian arms until the natural limits of Syria, the Taurus Mountains, were reached.

So swift and easy an acquisition of so strategic a territory from the first potentate of the age gave the newly rising power of Islam prestige in the eyes of the world and, what is more important, confidence in its own destiny. With Syria as a base the onward push to Armenia, northern Mesopotamia, Georgia and Adharbayjan became possible, as did the raids and attacks which for many years to come were to be carried on against Asia Minor.

The same dash and the same tactics again brought success to the warriors of Allah when they turned, next, against the Persians. In the year 637 a great Sasanid army dissolved in panic on a day of dust storms, and all the fertile lowlands of Iraq west of the Tigris lay open to the invaders. With characteristic energy the Moslems pushed ahead and at a convenient ford effected a crossing of the Tigris, much swollen by the spring floods, a feat accomplished without loss of life to the army. The people of Iran, like the people of Syria, welcomed the invaders. Both Iraqis and Syrians had looked upon their old masters as an alien and hated power, and neither the Greek nor the Persian culture, imposed from the

immediate scene of his activity, was not Islamized until a year or two before his death.

In a series of short but sharp battles, abu-Bakr conquered the seceders, one after the other, his commander Khalid ibn-al-Walid displaying his talent for generalship. Islam was presently united and ready to march.

Syria, to the north of the peninsula, came first. The Byzantines held it as a part of their heritage from Alexander the Great almost a thousand years before. Their generals did not guess that the marauders from Arabia who now began to break across the borders farther than usual were more than casual raiders. They quickly discovered that their foe had a new vigor and with it a fresh weapon—superior mobility. The Arabian camel was bringing a new and irresistible element into warfare. Ordered to go to the relief of Arab troops which were being overpowered by the Byzantines, Khalid, "the sword of Allah," struck by forced camel marches from lower Iraq straight across the trackless desert with a body of veteran fighters and appeared with dramatic suddenness in the neighborhood of Damascus, the Syrian capital. Water for the troops was carried in bags, but for the horses the paunches of the old camels, which were slaughtered for food, served as reservoirs. Two weeks later, with all Arab forces united under his command, Khalid stood before the gate of the city.

Damascus, from whose walls Paul was let down in a basket on the memorable night of his flight, was reputed by tradition to be the oldest city in the world. Soon it was to be the capital of the Islamic empire. It surrendered now, after a six months' siege. Other towns fell like ninepins before the conquerors. There was one more battle. Heraclius, ruler

cent Islam asylum both would have perished. Later these two parties coalesced to form the Companions. Then came the Legitimists, who reasoned that Allah and Muhammad could not have left the community of believers to the chances and whims of an electorate, and therefore must have made clear provision for its leadership by designating some particular person to succeed Muhammad. Ali, the paternal cousin of the Prophet, the husband of his only surviving daughter and one of the first two or three believers, was the one thus designated as the only legitimate successor. As against the elective principle, this last party held to the divine right of rule. And last the aristocracy of Quraysh, the Umayyads, who held the reins of authority, power and wealth in the pre-Islamic days (but who were the last to profess Islam), asserted their right to the successorship.

The first party triumphed. The aged and pious abu-Bakr, a father-in-law of the Prophet and one of the first three or four to believe in him, received the oath of allegiance from the assembled chiefs. Abu-Bakr headed the list of the four orthodox caliphs, including Umar, Uthman and Ali. This was a period in which the luster of the Prophet's life had not ceased to shed its light and influence over the thoughts and acts of the caliphs. All four were close associates and relatives of the Prophet. The new capital was Medina.

Arab chroniclers say that as soon as Muhammad died all Arabia outside of Hijaz broke off from the newly organized state. The fact is that with the lack of communication, the utter absence of organized methods of missionary activity and the short time involved, not more than one-third of the peninsula could actually have professed Islam during the life of the Prophet or recognized his rule. Even Hijaz, the

met at once the vexing problem of the successorship to Muhammad, the caliphate.

As long as Muhammad lived he performed the functions of prophet, lawgiver, religious leader, chief judge, commander of the army and civil head of the state—all in one. But now Muhammad was dead. Who was to be his successor, his *khalifah*, or caliph, in all except the spiritual function? In his role as prophet who had delivered the final dispensation to mankind Muhammad could, of course, have no one to succeed him.

The Prophet left no male children. Only one daughter, Fatimah, the wife of Ali, survived him. But the Arabian chiefdom or sheikhdom was not exactly hereditary; it was more electoral, following the line of tribal seniority. So even if his sons had not predeceased him, the problem would not have been solved. Nor did Muhammad clearly designate a successor. The caliphate is the oldest problem Islam has had to face. It is still a living issue. In March 1924, sixteen months after canceling the sultanate, the Kemalist Turks abolished the Ottoman caliphate in Constantinople held by Abd-al-Majid II, and since then a number of pan-Islamic congresses have met in Cairo and Mecca to determine the rightful successor to the Prophet. But all to no avail. "Never was there an Islamic issue which brought about more bloodshed than the caliphate."

As always happens when a serious question is thrown open for popular decision, a number of conflicting parties arose after the death of Muhammad. These were, on one side, the Emigrants, who based their claim on having belonged to the tribe of the Prophet and on having been the first to accept his mission. On the other stood the Medinese supporters, who argued that had they not given Muhammad and nas-

was therefore due less to early design than to the logic of immediate circumstances.

The clerical or theological view favoring a providential interpretation of Islamic expansion, corresponding to the Old Testament interpretation of the Hebrew history and to the medieval philosophy of Christian history, has a faulty philological basis. The term Islam may be used in three senses: originally a religion, Islam later became a state, and finally a culture. Unlike Judaism and Buddhism, the religion of Islam proved as much an aggressive and missionary religion as Christianity. Subsequently it built up a state. The Islam that conquered the northern regions was not the Islamic religion but the Islamic state. The Arabians burst forth upon an unsuspecting world as members of a national theocracy. It was Arabianism and not Muhammadanism that triumphed first. Not until the second and third centuries of the Moslem era did the bulk of the people in Syria, Mesopotamia and Persia profess the religion of Muhammad. Between the military conquest of these regions and their religious conversion a long period intervened. And when they were converted the people turned primarily because of self-interest—to escape tribute and seek identification with the ruling class. As for Islam as a culture, it developed slowly after the military conquests on a substratum composed of the heritage of the Syro-Aramaean, Persian and Hellenistic civilizations which had preceded it. With Islam the Near Orient not only recaptured the whole of its former political domain but regained in the realm of culture its ancient intellectual preeminence.

But before Arabia could conquer other lands it had first to unify itself. And in the process of seeking that unity it

a new battle-cry, a convenient rallying point and a party watchword. It undoubtedly acted as a cohesive agency for masses never before united, and furnished a large part of the driving force. But it is hardly in itself enough to explain the conquests. Not fanaticism but economic necessity drove the Bedouin hordes (and most of the armies of conquest were recruited from the Bedouins) beyond the confines of their arid abode to the fair lands of the north. The dream of heaven in the next life may have influenced some, but desire for the comforts and luxuries of the civilized regions of the Fertile Crescent was just as strong in the case of many. The Islamic expansion marks the final stage in the age-long process of gradual infiltration from the barren desert to the adjacent Fertile Crescent, the last great Semitic migration.

The chroniclers, all of whom viewed the events of the conquest in the light of their subsequent development, would also have us believe that these campaigns were conducted through the sagacity of the first caliphs, particularly abu-Bakr and Umar, in accordance with carefully prearranged plans. History shows very few cases in which the course of great events was foreseen by those who launched them. Far from being entirely the result of deliberate and cool calculation, the campaigns seem to have started as raids to provide new outlets for the warring spirit of the tribes now forbidden to engage in fratricidal combats, the objective in most cases being booty and not the gaining of a permanent foothold. But the machine so built soon got beyond the control of those who built it. The movement acquired momentum as the warriors passed from victory to victory. It was then that the systematic campaigns began, and the creation of the Arab empire followed inevitably. Its creation

shoulder. The javelin was introduced later from Abyssinia. The chief weapon of the cavalry was the lance. This, together with the bow and arrow, formed the two national weapons. The defensive armor, which was lighter than the Byzantine, was the coat of mail and the shield.

The order of battle was primitive, in lines or rows and in compact array. Hostilities began with individual combats of distinguished champions who stepped forward out of the ranks and delivered a challenge. The Arabian warrior received higher remuneration than his Persian or Byzantine rival and was sure of a portion of the booty. Soldiering was not only the noblest and most pleasing profession in the sight of Allah but also the most profitable. The strength of the Moslem Arabian army lay neither in the superiority of its arms nor in the excellence of its organization but in its higher morale, to which religion undoubtedly contributed its share; in its power of endurance, which the desert breeding fostered; and in its remarkable mobility, due mainly to camel transport.

The "clerical" interpretation of the Islamic movement, emphasized in Arabic sources, makes it entirely or primarily a religious movement and lays no stress on the underlying economic causes. The corresponding and equally discredited hypothesis held by many Christians represents the Arabian Moslems as offering the Koran with one hand and the sword with the other. Outside of the Arabian peninsula and especially in the instance of the Christians and Jews there was a third and, from the standpoint of the conquerors, more desirable choice besides the Koran and the sword—tribute. "Make war . . . upon such of those to whom the Book has been given until they pay tribute offered on the back of their hands, in a state of humiliation" (9: 29). Islam did provide

upon these wars, imposed on the citizens of both empires and undermining their sense of loyalty; the previous domestication of Arabian tribes in Syria and Mesopotamia, particularly along the borders; the existence of schisms in the Christian church, together with the persecution by the orthodox church—all these paved the way for the surprisingly rapid progress of Arabian arms. The native Semites of Syria and Palestine, as well as the Hamites of Egypt, looked upon the Arabian newcomers as nearer of kin than their hated and oppressive alien overlords. In fact the Moslem conquests may be looked upon as the recovery by the ancient Near East of its early domain. Under the stimulus of Islam the East awoke and reasserted itself after a millennium of Western domination. Moreover, the tribute exacted by the new conquerors was less than that exacted by the old, and the conquered could now pursue their religious practices with more freedom. As for the Arabians themselves, they represented a fresh and vigorous stock fired with new enthusiasm, imbued with the will to conquer and emboldened by the utter contempt of death inculcated by their new faith.

But no small share of their seemingly miraculous success was due to their application of a military technique adapted to the open steppes of Western Asia and North Africa—the use of cavalry and camelry—which the Romans never mastered. The army was divided into center, two wings, vanguard and rear guard. The cavalry covered the wings. In the division the tribal unit was preserved. Each tribe had its own standard, a cloth attached to a lance, borne by one of the bravest. The Prophet's banner was the eagle. The infantry used bow and arrow, sling and sometimes shield and sword; the sword was carried in a scabbard flung over the right

Islam on the March

THE two cardinal events of early medieval times are the Teutonic migrations resulting in the disruption of the venerable Roman empire, and the Arab conquests which demolished the Persian empire and shook the Byzantine power to its very foundation. If someone in the first third of the seventh Christian century had had the audacity to prophesy that within a decade or so some unheralded, unforeseen power from the hitherto barbarous and little-known land of Arabia was to make its appearance, hurl itself against the only two world powers of the age, fall heir to the one (the Sasanid) and strip the other (the Byzantine) of its fairest provinces, he would undoubtedly have been declared a lunatic. Yet that was exactly what happened. After the death of the Prophet, sterile Arabia seems to have been converted as if by magic into a nursery of heroes the like of whom, both in number and quality, would be hard to find anywhere. The military campaigns of Khalid ibn-al-Walid and Amr ibn-al-As which ensued in Iraq, Persia, Syria and Egypt are among the most brilliantly executed in the history of warfare and bear favorable comparison with those of Napoleon, Hannibal or Alexander.

The enfeebled condition of the rival Byzantines and Sasanids, who had conducted incessant wars against each other for many generations; the heavy taxes, consequent

late as the autumn of 1914 by the Ottoman Sultan-Caliph Muhammad Rashad, proved an utter failure. It was made by an Orientalist the subject of a book: *The Holy War Made in Germany*.

These religious obligations constitute the fundamentals of Islam. They are not the only ones instituted by koranic prescription. Basically there is but one criterion for the conduct of a believer: the will of Allah, as revealed through Muhammad in the Book.

that year 280,000. The Malays normally send the largest number, some 30,000. Down through the ages this institution has continued to serve as the major unifying influence in Islam and the most effective common bond among the diverse believers. It rendered almost every capable Moslem perforce a traveler for once in his lifetime. The socializing influence of such a gathering of the brotherhood of believers from the four quarters of the earth is hard to overestimate. It afforded opportunity for negroes, Berbers, Chinese, Persians, Syrians, Turks, Arabs—rich and poor, high and low—to fraternize and meet together on the common ground of faith. Of all world religions Islam seems to have attained the largest measure of success in demolishing the barriers of race, color and nationality—at least within the confines of its own community. The line is drawn only between believers and the rest of mankind. These gatherings have undoubtedly contributed an important share toward the achievement of that result. They have further provided excellent opportunities for the propagation of sectarian ideas among peoples coming from lands not bound together by the modern means of communication and where the press is not yet a living voice.

The duty of jihad, holy war, has been raised to the dignity of a sixth pillar by at least one Moslem sect, the Kharijites. To it Islam owes its unparalleled expansion as a worldly power. It is one of the principal duties of the caliph to keep pushing back the geographical wall separating "the land of Islam" from "the territory of war." Of more recent years, however, *jihad* has found less support in the Moslem world. Islam now flourishes under many alien governments considered too strong or too benevolent to be overthrown. The last call to a universal uprising against non-Moslems, made as

Pilgrimage is the fifth and last pillar. Once in a lifetime every Moslem of either sex who can afford it is supposed to undertake at a stated time of the year a holy visit to Mecca. As long as he is in a sanctified state, symbolized by the wearing of a seamless garment, the pilgrim must observe, in addition to the abstinences imposed in connection with the fasting of Ramadan—such as abstinence from sexual intercourse—those special regulations forbidding the shedding of blood, hunting and the uprooting of plants. Pilgrimage to holy places was an ancient Semitic institution echoes of which survived to Old Testament days. Originally it may have been a feature of a solar cult the ceremonies of which coincided with the autumnal equinox and constituted a kind of farewell to the harsh rule of the burning sun and a welcoming to the thunder-god of fertility.

A constant trek of pilgrims across Central Africa, from Senegal, Liberia, Nigeria, is ever on the move eastward and increasing in numbers as it goes along. Some are on foot, others on camel-back. The majority are men, but a few are women and children. They trade, they beg, many fall by the wayside and are martyrs; those who survive finally strike an eastern Red Sea port whence they are transported across by dhows. But the four major caravans are those from Yaman, Iraq, Syria and Egypt. Each of these countries used to send annually at the head of its caravan a *mahmil* symbolic of its dignity, a splendidly decorated litter, carried on a camel that was led and not ridden. In recent years the Egyptian caravan has been the only one comparable to the ancient ones in splendor.

The average number of pilgrims annually between the years of the first and second World Wars was about 172,000. The official Turkish statistics for 1907 make the number for

proud, individualistic sons of the desert, developing in them a sense of social equality and a consciousness of solidarity. It promoted that brotherhood of believers which the religion of Muhammad had theoretically substituted for blood relationship. The prayer ground became "the first drill ground of Islam."

Prescribed originally as a voluntary act of love and considered almost identical with piety, legal almsgiving constitutes the third pillar of the faith. It evolved into an obligatory tax on property, including money, cattle, corn, fruit and merchandise. The young Islamic state collected it through regular officials and administered it from a central treasury to support the poor among the community, build mosques and defray government expenses. Its underlying principle is something like that of the tithe, which, according to Pliny, the South Arabian merchants had to pay to their god before they were allowed to sell their spices. Its exact amount varies, but generally it averaged two and a half per cent. Even soldiers' pensions were not exempt. Later, with the disintegration of the purely Islamic state, it was again left to the Moslem's conscience.

Though penitential fasts are prescribed a number of times in the Koran, Ramadan as a fasting month is mentioned only once. Abstinence from all food and drink is enjoined from dawn till sunset during Ramadan. Instances in which violence has been used by the government or by the populace against a nonfasting believer in Moslem lands are not unknown. We have no evidence of any practice of fasting in pre-Islamic pagan Arabia, but the institution was, of course, well established among both Christians and Jews and became the fourth pillar of Islam.

world at the hour of prayer would present the spectacle of a series of concentric circles of worshipers radiating from the Caaba at Mecca and covering an ever-widening area from Sierra Leone to Canton and from Tobolsk to Cape Town.

The ritual prayer is a legally defined act performed by all with the same general bodily postures and genuflections and with the same proper orientation. The worshiper should be in a state of legal purity, and the use of Arabic as a medium of expression is absolutely incumbent upon him, no matter what his native tongue may be. In its stereotyped form prayer is not so much petition or supplication as it is the mention of Allah's name. The simple and meaningful *fatihah* or opening surah, often likened to the Lord's Prayer, is reiterated by the faithful Moslem about twenty times a day, one of the most often repeated formulas ever devised. Doubly meritorious is the voluntary ritual prayer performed at night, for it is a work of supererogation.

The Friday noon prayer is the only public one and is obligatory for all adult males. Certain mosques have places reserved for women. One feature of the Friday service is the sermon delivered by the leader (*imam*), in which intercessory prayer is offered on behalf of the ruling head of the state. This congregational assembly had for its prototype the Jewish synagogue worship, but was influenced in its later development by the Christian Sunday service. In dignity, simplicity and orderliness it is unsurpassed as a form of collective worship. Standing erect in self-arranged rows in the mosque and following the leadership of the *imam* with precision and reverence, the worshipers present a sight that is always impressive. As a disciplinary measure this congregational prayer must have had great value for the

Sin can be either moral or ceremonial. The worst and only unpardonable sin is *shirk,* joining or associating other gods with the one true God. Ascribing plurality to the Deity seemed most detestable to Muhammad, and in the Medinese surahs the polytheists are continually threatened with the last judgment. In Muhammad's mind "the people of the book," the Scripturaries, i.e. the Christians and Jews, were probably not included among the polytheists, though some commentators would hold a different view.

The most impressive parts of the Koran deal with the future life. The reality of future life is emphasized by the recurrent references to "the day of judgment," "the day of resurrection," "the day," "the hour" and "the inevitable." Future life as depicted in the Koran, with its bodily pains and physical pleasures, implies the resurrection of the body.

The acts of worship, or religious duties, of the Moslem center on the so-called five pillars of Islam.

The profession of faith, which is the first pillar, is summed up in the tremendous formula *la ilaha illa-'llah: Muhammadum rasulu-'llah* (No God but Allah: Muhammad is the messenger of Allah). These are the first words to strike the ear of the new-born Moslem babe; they are the last to be uttered at the grave. And between birth and death no other words are more often repeated. They occur in the muezzin's call to prayer, chanted many times daily from the tops of minarets. Islam has generally satisfied itself with only a verbal profession; once the formula is accepted and reproduced the person is nominally a Moslem.

Five times a day—dawn, midday, midafternoon, sunset and nightfall—is the faithful Moslem supposed to turn his face toward Mecca and recite his prescribed prayer. Prayer is the second pillar of faith. A bird's-eye view of the Moslem

hammad with the name for the new faith. In this uncompromising monotheism, with its simple, enthusiastic faith in the supreme rule of a transcendent being, lies the chief strength of Islam as a religion. Its adherents enjoy a contentment and resignation unknown among followers of other creeds. Suicide is rare in Moslem lands.

The second dogma in *iman* treats of Muhammad as the messenger (*rasul*) of Allah, His prophet, the admonisher of his people, the last of a long line of prophets of whom he is the "seal," and therefore the greatest. In the koranic system of theology Muhammad is but a human being whose only miracle is the elegance of the composition of the Koran; but in tradition, folklore and popular belief he is invested with a divine aura. His religion is preeminently a practical one, reflecting the practical and efficient mind of its originator. It offers no unattainable ideal, few theological complications and perplexities, no mystical sacraments and no priestly hierarchy involving ordination, consecration and "apostolic succession."

The Koran is the word of Allah. It contains the final revelation, and is "uncreated." A koranic quotation is always introduced with "saith Allah." In its phonetic and graphic reproduction and in its linguistic form the Koran is identical and coeternal with a heavenly archetype. Of all miracles it is the greatest: all men and jinn in collaboration could not produce its like.

In its angelology Islam gives the foremost place to Gabriel, the bearer of revelation, who is also "the spirit of holiness" and "the faithful spirit." As a messenger of the supreme deity he corresponds to the Hermes of Greek mythology.

servative Arabic writer of today consciously strives to imitate.

In his *Literary History of the Arabs*, Nicholson tries to preserve some of the Arabic flavor in the opening *surah* by translating it thus:

> In the name of God, the merciful, who forgiveth aye!
> Praise to God, the Lord of all that be,
> The merciful, who forgiveth aye,
> The King of Judgment Day!
> Thee we worship and for Thine aid we pray.
> Lead us in the right way,
> The way of those to whom thou hast been gracious, against whom thou hast not waxed wroth, and who go not astray!

In dealing with the fundamentals of their religion Moslem theologians distinguish between religious belief and acts of worship, or religious duty.

Religious belief, *iman*, involves belief in God and in His angels, His "books" and His messengers and in the last day. Its first and greatest dogma is: *la ilaha illa-'llah*, no God but Allah. In *iman* the conception of God stands supreme. In fact, over ninety per cent of Moslem theology has to do with Allah. He is the one true God, the supreme reality, the pre-existent, the creator, the omniscient, the omnipotent, the self-subsistent. He has ninety-nine names and as many attributes. The full Moslem rosary has ninety-nine beads corresponding to His names. His attributes of love are overshadowed by those of might and majesty. Islam is the religion of "submission," "surrender," to the will of Allah. The submission of Abraham and his son in the supreme test, the attempted sacrifice by the father, expressed in the verb *aslama* (37:103), was evidently the act that provided Mu-

the most humane portions of Islamic legislation. The freeing of slaves is encouraged as something most pleasing to God and an expiation for many a sin.

The word Koran (*Qur'an*) itself means recitation, lecture, discourse. This book, a strong, living voice, is meant for oral recitation and should be heard in the original to be appreciated. No small measure of its force lies in its rhyme and rhetoric and in its cadence and sweep, which cannot be reproduced when the book is translated. Its length is four-fifths that of the New Testament in Arabic. The religious influence it exercises as the basis of Islam and the final authority in matters spiritual and ethical is only part of the story. Theology, jurisprudence and science being considered by Moslems as different aspects of one and the same thing, the Koran becomes the scientific manual, the textbook, for acquiring a liberal education. In such an institution as al-Azhar, the largest Moslem university in the world, this book still holds its own as the basis of the whole curriculum. Its literary influence may be appreciated when we realize that it was due to it alone that the various dialects of the Arabic-speaking peoples have not fallen apart into distinct languages, as have the Romance languages. While today an Iraqi may find it a little difficult fully to understand the speech of a Moroccan, he would have no difficulty in understanding his written language, since in both Iraq and Morocco—as well as in Syria, Arabia, Egypt—the classical language modeled by the Koran is followed closely everywhere. At the time of Muhammad there was no work of the first order in Arabic prose. The Koran was therefore the earliest, and has ever since remained the model prose work. Its language is rhythmical and rhetorical, but not poetical. Its rhymed prose has set the standard which almost every con-

ing out in the cradle and creating birds out of clay, recall similar acts recorded in the Apocryphal Gospels.

The religion of the Koran comes nearer the Judaism of the Old Testament than does the Christianity of the New Testament. It has such close affinities with both, however, that in its early stages it must have appeared more like a heretic Christian sect than a distinct religion. In his *Divine Comedy* Dante consigns Muhammad to one of the lower hells with "sowers of scandals and schism."

The arrangement of the chapters (termed *surahs* in Arabic) is mechanical, in the order of their length. The early ones, written in Mecca, about ninety in number and belonging to the period of struggle, are mostly short, incisive, fiery, impassioned in style and replete with prophetic feeling. In them the oneness of Allah, His attributes, the ethical duties of man and the coming retribution, are the favorite themes. The Medinese surahs, the remaining twenty-four (about one-third of the contents of the Koran) which "were sent down" in the period of victory, are mostly long, verbose and rich in legislative material. In them theological dogmas and ceremonial regulations relating to the institution of public prayer, fasting, pilgrimage and the sacred months are laid down. They contain laws prohibiting wine, pork and gambling; fiscal and military ordinances relating to almsgiving and holy war (the famous *jihad* of the Moslems); civil and criminal laws regarding homicide, retaliation, theft, usury, marriage and divorce, adultery, inheritance and the freeing of slaves. The often-quoted prescription for marriage limits rather than introduces the practice of polygamy. Critics consider the statutes relating to divorce (4:24, 33:48, 2:229) the most objectionable, and those about the treatment of slaves, orphans and strangers (4:2, 3, 40; 16:73; 24:33)

Unlike the Christian Bible, the Koran offers no textual uncertainties. The first, final and only canonized version of the Koran was collated nineteen years after the death of Muhammad, when it was seen that the memorizers of the Koran were becoming extinct through the battles that were decimating the ranks of the believers. From passages written on "ribs of palm-leaves and tablets of white stone and from the breasts of men" an earlier but unofficial text had been constructed. All other copies were then destroyed. Its 6,239 verses, its 77,934 words, even its 323,621 letters have since been painstakingly counted. The Book is not only the heart of a religion, the guide to a Kingdom of Heaven, but a compendium of science and a political document, embodying a code of laws for a kingdom on earth.

The parallels between the Old Testament and the Koran are many and striking. Almost all the historical narratives of the Koran have their biblical counterparts. Among the Old Testament characters, Adam, Noah, Abraham (mentioned about seventy times), Ishmael, Lot, Joseph, Moses (whose name occurs in thirty-four chapters), Saul, David, Solomon, Elijah, Job and Jonah figure prominently. The story of the Creation and Fall of Adam is cited five times, the flood eight and Sodom eight. Of the New Testament characters Zachariah, John the Baptist, Jesus and Mary are the only ones emphasized. But many old Semitic proverbs and sayings common to both Hebrew and Arab are found in New or Old Testaments and in the Koran—such, for example, as those dealing with "an eye for an eye," "the house built upon sand," "the camel and the needle's eye," and the "taste of death for every man." Certain miraculous acts attributed to Jesus the Child in the Koran, such as speak-

The Book and the Faith

TODAY the sight of a Moslem picking up a piece of paper from the street and tucking it carefully into a hole in a wall, lest the name of Allah be on it, is not rare. The Koran, the Book of Allah, is treated with unbounded reverence by the Moslem. It is the word of God, dictated through Gabriel to Muhammad. "Let none touch it but the purified" (56:78).

Although there are approximately twice as many Christians as Moslems in the world it can safely be said that the Koran is the most widely read book ever written. For besides its use in worship it is the textbook from which practically every young Moslem learns to read Arabic. Other than the official translation into Turkish there is no authorized Moslem translation; it has, however, been done without authorization into some forty languages. It is readily available in Rodwell's English translation in Everyman's Library. The first translation was that into Latin, undertaken in the twelfth century by Peter the Venerable, abbot of Cluny, in an attempt to refute the beliefs of Islam and discredit its founder. The first translation into English appeared in 1649, made from the French, by Alexander Ross, Vicar of Carisbrooke: "*The Alcoran of Mohamet* . . . newly Englished, for the satisfaction of all that desire to look into the Turkish vanities."

were abolished in one verse. Singing, almost equally attractive, was frowned upon.

From Medina the Islamic theocracy spread all over Arabia and later encompassed the larger part of Western Asia and North Africa. The community of Medina was in miniature the subsequent community of Islam. Within a brief span of mortal life Muhammad called forth out of unpromising material a nation never united before, in a country that was hitherto but a geographical expression; established a religion which in vast areas superseded Christianity and Judaism and still claims the adherence of a goodly portion of the human race; and laid the basis of an empire that was soon to embrace within its far-flung boundaries the fairest provinces of the then civilized world. Himself an unschooled man, Muhammad was nevertheless responsible for a book still considered by one-eighth of mankind as the embodiment of all science, wisdom and theology.

grants and Supporters was established on the basis of religion as the Ummah, or congregation of Allah. This was the first attempt in the history of Arabia at a social organization with religion, rather than blood, as its basis. Allah was the personification of state supremacy. His Prophet, as long as he lived, was His legitimate viceregent and supreme ruler on earth. As such, Muhammad exercised, in addition to his spiritual function, the same temporal authority that any chief of a state might exercise. All persons within this community, regardless of tribal affiliation and older loyalties, were now brethren at least in principle. These are the words of the Prophet in his noble sermon at the "farewell pilgrimage":

"O ye men! harken unto my words and take ye them to heart! Know ye that every Moslem is a brother to every other Moslem, and that ye are now one brotherhood. It is not legitimate for any one of you, therefore, to appropriate unto himself anything that belongs to his brother unless it is willingly given him by that brother."

Thus by one stroke the most vital bond of Arab relationship, that of tribal kinship, was replaced by a new bond, that of faith. A sort of Pax Islamica was instituted for Arabia. The new community was to have no priesthood, no hierarchy, no central see. Its mosque was its public forum and military drill ground as well as its place of common worship. The leader in prayer, the *imam*, was also to be commander in chief of the army of the faithful, who were enjoined to protect one another against the entire world. All Arabians who remained heathen were outside the pale, almost outlaws. Islam cancelled the past. Wine and gambling—next to women the two indulgences dearest to the Arabian heart—

he unexpectedly took ill and died, complaining of severe headache, on June 8, 632.

To the Medinese period in the life of the Prophet belong the lengthy and more verbose chapters of the Koran which contain, in addition to the religious laws governing fasting and almsgiving and prayer, social and political ordinances dealing with marriage and divorce, and the treatment of slaves, prisoners of war and enemies. The legislation of him who was himself once a poor orphan is especially benevolent on behalf of the slave, the orphan, the weak and the oppressed.

Even at the height of his glory Muhammad led, as in his days of obscurity, an unpretentious life in one of those clay houses consisting, as do all old-fashioned houses of present-day Arabia and Syria, of a few rooms opening into a courtyard and accessible only from it. He was often seen mending his own clothes and was at all times within the reach of his people. "Serious or trivial," says Hogarth, "his daily behaviour has instituted a canon which millions observe at this day with conscious mimicry. No one regarded by any section of the human race as Perfect Man has been imitated so minutely."

The little wealth he left he regarded as state property. He took about a dozen wives, some for love, others for political reasons, among all of whom his favorite was Aishah, the young daughter of abu-Bakr. By Khadijah he had a number of children, none of whom survived him except Fatimah, later to be the famous spouse of Ali. Muhammad mourned bitterly the loss of his infant son Ibrahim, born to him by Mary, a Christian Copt.

Out of the religious community of Medina the later and larger state of Islam arose. This new community of Emi-

only the polytheists from drawing near to the Caaba at the time of the annual pilgrimage, but the injunction as interpreted is still effective. No more than fifteen Christian-born Europeans have thus far succeeded in seeing the two Holy Cities and escaping with their lives. The first was Ludovico di Varthema of Bologna in 1503, and the latest was the Englishman, Eldon Rutter. The most interesting was undoubtedly Sir Richard Burton.

In the year A.H. 9 Muhammad concluded treaties of peace with the Christian chief of al-Aqabah and the Jewish tribes in the oases of Maqna, Adhruh and Jarba to the south. The native Jews and Christians were taken under the protection of the newly arising Islamic community in consideration of a payment called *jizyah*, which included land and head tax. This act set a precedent far-reaching in its future consequences.

This year 9 (630-631) is called the "year of delegations." During it deputations flocked from near and far to offer allegiance to the prince-prophet. Tribes joined out of convenience if not conviction, and Islam contented itself with exacting a verbal confession of faith and a payment of a tax. Groups came from distant Oman, Hadramawt and Yaman. The leading tribes sent deputies. Arabia, which had hitherto never bowed to the will of one man, seemed now inclined to be dominated by Muhammad and to be incorporated into his new scheme. Its heathenism was yielding to a nobler faith and a higher morality.

In the tenth Moslem year Muhammad headed triumphantly the annual pilgrimage into his new religious capital, Mecca. This proved his last visit and was styled "the farewell pilgrimage." Three months after his return to Medina

lished on the date plantations thus made ownerless. This tribe was the first but not the last body of Islam's foes to be offered the alternative of apostasy or death.

In this Medinese period the Arabianization, the nationalization, of Islam was effected. The new prophet broke with both Judaism and Christianity; Friday was substituted for Sabbath; the call from the minaret was decreed in place of trumpets and bells; Ramadan was fixed as a month of fasting, the direction to be observed during the ritual prayer was changed from Jerusalem to Mecca, the pilgrimage to Caaba was authorized and the kissing of the Black Stone—a pre-Islamic fetish—sanctioned.

In 628 Muhammad led a body of 1,400 believers to the city of his birth and exacted the pact in which Meccans and Moslems were treated on equal terms. This treaty practically ended the conflict between Muhammad and his people, the Quraysh. Among other members of this tribe, Khalid ibn-al-Walid and Amr ibn-al-As, destined to become the two mighty swords of militant Islam, were about this time received as recruits to the great cause. Two years later, toward the end of January 630 (Anno Hegirae 8), the conquest of Mecca was complete. Entering its great sanctuary, Muhammad smashed the many idols, said to have numbered three hundred and sixty, exclaiming: "Truth hath come, and falsehood hath vanished!" The people themselves, however, were treated with special magnanimity. Hardly a triumphal entry in ancient annals is comparable to this.

It was probably about this time that the territory around the Caaba was declared by Muhammad forbidden and sacred, and the passage of the Koran was revealed which was later interpreted as prohibiting all non-Moslems from approaching it. This verse was evidently intended to forbid

ground and the practical man of politics comes to the fore. The prophet is overshadowed by the statesman.

Taking advantage of the periods of "holy truce" and anxious to offer sustenance to the Emigrants, the Medinese Moslems (called Supporters) under the leadership of the new chief intercepted a summer caravan on its return from Syria to Mecca, thus striking at the most vital point in the life of that commercial metropolis. The caravan leader had learned of the scheme and sent to Mecca for aid. The encounter between the reinforced Meccan caravan and the Moslems, thanks to the inspiring leadership of the Prophet, resulted in the complete victory of three hundred Moslems over a thousand Meccans. However unimportant in itself as a military engagement, this skirmish laid the foundation of Muhammad's temporal power. Islam had won its first and decisive military victory: the victory itself was interpreted as a divine sanction of the new faith.

The spirit of discipline and the contempt of death manifested at this first armed encounter of Islam proved characteristic of it in its later and greater conquests. True, in the following year the Meccans avenged their defeat and even wounded the Prophet, but their triumph was not to endure. Islam recovered and passed on gradually from the defensive to the offensive, its propagation now assured. Hitherto it had been a religion within a state; in Medina it passed into something more than a state religion—it became the state. Then and there Islam came to be what the world has ever since recognized it to be—a militant polity.

Muhammad then conducted a campaign against the Jews for "siding with the confederates," which resulted in the killing of six hundred able-bodied men of their leading tribe and the expulsion of the rest. The Emigrants were estab-

Jerusalem, already sacred to the Jews and Christians, became and has remained the third holiest city after Mecca and Medina in the Moslem world. Embellished by later accretions, the story of this miraculous trip still is a favorite in mystic circles in Persia and Turkey. A Spanish scholar considers it the original source of Dante's *Divine Comedy*. That the memory of the journey is still a living, moving force in Islam is illustrated by the serious disturbance in Palestine in August 1929. The trouble centered about the Wailing Wall of the Jews in Jerusalem, which the Moslems consider the starting place of the winged horse with a woman's face and peacock's tail on which Muhammad journeyed heavenward.

Two years after the miraculous journey a deputation of about seventy-five men invited Muhammad to make Medina his home. In that city the Jews, who were looking forward to a Messiah, had evidently prepared their heathen compatriots for such a claimant. Muhammad allowed two hundred followers to elude the vigilance of the Quraysh and slip quietly into Medina, his mother's native city; he himself followed and arrived there on September 24, 622. Such was the famous hegira—not entirely a "flight," but a scheme of migration carefully considered for some two years. Seventeen years later the Caliph Umar designated that lunar year (beginning July 16) in which the hegira took place as the official starting point of the Moslem era.

The hegira, with which the Meccan period ended and the Medinese period began, proved a turning point in the life of Muhammad. Leaving the city of his birth as a despised prophet, he entered the city of his adoption as an honored chief. The seer in him now recedes into the back-

pose by vivid and thrilling descriptions of the joys of Paradise and the terrors of hell, even threatening his hearers with imminent doom. But short, crisp and impressive as were his early revelations, Muhammad was gaining few converts. His wife, his cousin Ali, and his kinsman abu-Bakr acknowledged him, but the aristocratic and influential branch of Quraysh stood adamant. Slowly, however, new recruits, mainly from among the slave and lower classes, began to swell the ranks of the believers. The ridicule and sarcasm which had hitherto been used unsparingly on the part of the Quraysh were no longer deemed effective as weapons; it became necessary to resort to active persecution. These new measures forced the migration to Abyssinia of eleven Meccan families, converts to the new faith, followed in 615 by some eighty-three others. The emigres found asylum in the domain of the Christian Negus, who was unbending in his refusal to deliver them into the hands of their oppressors. Undaunted through these dark days of persecution by the temporary loss of so many followers, Muhammad fearlessly continued to preach and by persuasion convert men from the worship of the many and false gods to that of the one and true God, Allah. Revelations continued to "descend." He who had marveled at the Jews and Christians having a "scripture" was determined that his people, too, should have one.

Soon Umar ibn-al-Khattab, destined to play a leading role in the establishment of the Islamic state, was enrolled in the service of Allah. Within this period there also falls the dramatic nocturnal journey in which the Prophet is said to have been instantly transported from the Caaba to Jerusalem preliminary to his ascent to the seventh heaven. Since it thus served as the terrestrial station on this memorable journey,

independently and had taken young Muhammad into her employ. As long as this lady with her strong personality and noble character lived, Muhammad would have none other for a wife.

Muhammad now had leisure and was able to pursue his own inclinations. He was then often noticed secluding himself and engaging in meditation in a little cave on a hill outside of Mecca. It was in the course of one of these periods of distraction caused by doubts and yearning after the truth that Muhammad heard a voice commanding: "Recite thou in the name of thy Lord who created" (Koran 96: 1). This was his first revelation. The Prophet had received his call. When after a brief interval following his call to the prophetic office, the second vision came, Muhammad, under the stress of great emotion, rushed home in alarm and asked his wife to put some covers on him, whereupon these words "descended": "O thou, enwrapped in thy mantle! Arise and warn" (Koran 74: 1). The voices varied and sometimes came like the "reverberating of bells" but later became one voice, identified as that of Gabriel.

The message of the Arabian Muhammad was a parallel of the message of the Hebrew prophets of the Old Testament. God is one. He is all-powerful. He is the creator of the universe. There is a judgment day. Splendid rewards in Paradise await those who carry out God's commands, and terrible punishment in hell for those who disregard them. Such was the gist of his early message.

Consecrated and fired by the new task which he felt called upon to perform as the messenger of Allah, Muhammad now went among his own people teaching, preaching, delivering the new message. They laughed him to scorn. He turned warner, prophet of doom, seeking to effect his pur-

Muhammad the Prophet of Allah

In or about a.d. 571 a child was born to the Quraysh, a high-ranking tribe which was custodian of the shrine called Caaba, a pantheon of multitudinous deities and a center of pilgrimage at Mecca, and was given by his mother a name which may remain forever uncertain. His tribe called him al-Amin (the faithful), apparently an honorific title. The form which his name takes in the Koran is Muhammad, and once Ahmad. The name, which means "highly praised," is borne by more male children than any other in the world. The baby's father died before his birth; the mother when he was about six years old.

Though the only one of the world prophets to be born within the full light of history, Muhammad is but little known to us in his early life: of his struggle for a livelihood, his efforts toward self-fulfillment and his gradual and painful realization of the great task awaiting him we have but few reliable reports. But with his marriage at the age of twenty-five to the wealthy and high-minded widow Khadijah, fifteen years his senior, Muhammad steps upon the threshold of clear history. Khadijah was a Qurayshite and, as a well-to-do merchant's widow, was conducting business

Judg[illegible]poetry the pagan Bedouin of the age before Muhamm[illegible]d little if any religion. His conformity to religious [illegible]ce followed tribal inertia and was dictated by his conservative respect for tradition. Nowhere do we find an illustration of genuine devotion to a heathen deity. The Bedouin peopled the desert with living things of beastly nature called jinn or demons. These jinn differ from the gods not so much in their nature as in their relation to man. The gods are on the whole friendly; the jinn hostile—personifications of the fantastic notions of the terrors of the desert and its wild animal life. Even after Islam the idea of the jinn persisted; indeed, the number of jinn increased, since the heathen deities were then degraded into such beings.

But in the city of Mecca, in the territory of Hijaz, the barren country standing like a barrier between the uplands of Najd and the low coastal region, there was a deity—not the only deity—named Allah. The name is an ancient one. Allah was held by the people of Mecca to be the creator, the supreme provider, the god to be invoked in time of greatest peril. And soon now, from the lips of a man from this city of Mecca, was to ring out the greatest phrase of the Arabic language, the resonant and electrifying cry which was to drive the people of the desert out of their insularity almost to the limits of the known world: *la ilaha illa-'llah!* There is no God but Allah!

was to a certain extent the triumph of a language, more particularly of a book.

It was only in the field of poetical expression that the pre-Islamic Arabian excelled. The Bedouin's love of poetry was his one cultural asset.

As his office developed, the poet acquired a variety of functions. In battle his tongue was as effective as his people's bravery. In peace he might prove a menace to public order by his fiery harangues. His poem might arouse a tribe to action in the same manner as the tirade of a demagogue in a modern political campaign. As the press agent, the journalist, of his day his favor was sought by princely gifts. His poems, committed to memory and transmitted from one tongue to another, offered an invaluable means of publicity. He was at the same time the molder and the agent of public opinion. "Cutting off the tongue" was the classical expression for subsidizing the poet and thus avoiding his satires.

Besides being oracle, guide, orator and spokesman of his community the poet was its historian and scientist, in so far as it had a scientist. Bedouins measured intelligence by poetry. "Who dares dispute my tribe . . . its preeminence in horsemen, poets and numbers?" exclaims a bard. In these three elements—military power, intelligence and numbers—lay the superiority of a tribe.

Aside from its poetic interest and the worth of its grace and elegance, ancient poetry, therefore, has historical importance as source material for the study of the period in which it was composed. In fact it is our only quasi-contemporaneous data. It throws light on all phases of pre-Islamic life. Hence the adage, "Poetry is the public register of the Arabians."

was the period in which Arabia had no dispensation, no inspired prophet, no revealed book.

No people in the world has such enthusiastic admiration for literary expression and is so moved by the word, spoken or written, as the Arabs. Hardly any language seems capable of exercising over the minds of its users such irresistible influence as Arabic. Modern audiences in Baghdad, Damascus and Cairo can be stirred to the highest degree by the recital of poems only vaguely comprehended, and by the delivery of orations in the classical tongue, though only partially understood. The rhythm, the rhyme, the music, produce on them the effect of what they call "lawful magic."

Typical Semites, the Arabians created or developed no great art of their own. Their artistic nature found expression chiefly through one medium: speech. If the Greek glorified in his statues and architecture, the Arabian found in his ode, and the Hebrew in his psalm, a finer mode of self-expression. "The beauty of man," declares an Arabic adage, "lies in the eloquence of his tongue." "Wisdom," in a late saying, "has alighted on three things: the brain of the Franks, the hands of the Chinese and the tongue of the Arabs." Eloquence (i.e. ability to express oneself forcefully and elegantly in both prose and poetry), archery and horsemanship were considered in the Jahiliyah period the three basic attributes of "the perfect man." By virtue of its peculiar structure Arabic lent itself admirably to a terse, epigrammatic manner of speech. Islam made full use of this feature of the language and of this psychological peculiarity of its people. Hence the "miraculous character" of the style and composition of the Koran, adduced by Moslems as the strongest argument in favor of the genuineness of their faith. The triumph of Islam

ized in the Song ascribed to Solomon was probably an Arabian of the Kedar tribe. Job, the author of the finest piece of poetry that the ancient Semitic world produced, was an Arab, not a Jew. The "wise men from the East" who followed the star to Jerusalem were possibly Bedouins from the North Arabian desert rather than Magi from Persia. The Jews were geographically the next-door neighbors of the Arabians and racially their next of kin. The list of biblical associations could be infinitely extended.

But it is the rise of Islam, the religion of submission to the will of Allah, which concerns us most here. It is sufficient to note that by the beginning of the seventh century of the Christian era, the national life developed in early South Arabia had become utterly disrupted; anarchy prevailed. Throughout the entire peninsula the antiquated paganism of the Arabians, which, for the Bedouin, centered chiefly on the worship of a moon-God (as is likely to be the case with pastoral people in hot climates who find the coolness of the night their friend and the sun their enemy) had reached a point where it failed any longer to meet the spiritual demands of the people. Vague monotheistic ideas had already appeared and developed into a cult. Christian influences had been increasingly felt, although the Christian idea had never caught hold of the Arab imagination. But the stage was set and the time had come for the rise of a great religious and national leader.

Moslems call the era before the appearance of Muhammad the Jahiliyah period, a term usually rendered as "time of ignorance" or "barbarism." Although the North Arabians produced no system of writing almost until the time of Muhammad, "barbarism" is too strong a word to apply to the society which had been developed in South Arabia; this

was a city carved from solid rock. Palmyra, located in the Syrian desert between the rival empires of the Romans and the Parthians, has left us also the lively tale of its ruler, the beautiful and ambitious Zenobia, self-styled Queen of the East, who stretched the frontiers of her kingdom to include Egypt and a large part of Asia Minor. When her generals were defeated in battle in 272 by the Emperor Aurelian, she fled from Palmyra on a swift dromedary into the desert; but the long arm of Rome caught up with her. She was honored, in the spirit of the day, by being loaded with golden chains when led before the victor's chariot in his triumphal entry into Rome.

A less spectacular episode in the early history of the peninsula, but one far more deeply significant, was the forty-year sojourn of the Hebrew tribes in Sinai and the Nufud, on their way to Palestine from Egypt about 1225 B.C. In Midian, the southern part of Sinai and the land east of it, the divine covenant was made. Moses, the leader of the tribes, there married an Arabian woman, the daughter of a Midianite priest (Exodus 3: 1,18), and this union led to one of the most significant of all events in history. The wife of Moses was a worshiper of a God named Yahu, who became Yahweh, or Jehovah. He was a desert God, simple and austere. His abode was a tent and his ritual not elaborate, consisting chiefly in desert feasts and sacrifices and burnt offerings from the herds. The daughter of the Midianite priest instructed Moses in this cult. What vast events were to follow!

Echoes of the desert origin of the Hebrews abound in the Old Testament. The "kings" of the prophet Jeremiah were in all probability sheikhs of northern Arabia and the Syrian desert. The Shunamite damsel whose beauty is immortal-

type styled Armenoid, Hittite or Hebrew and characterized by a broad jaw and aquiline nose, flat cheeks and abundant hair. The South Arabians were the first to rise to prominence and to develop a civilization of their own. The North Arabians did not step onto the stage of international affairs until the advent of Islam in medieval times. It is necessary to mark the distinction, since the gulf between the two Arabian stocks was never bridged, even after Islam had apparently unified the Arabian nation. This had serious effects, later, in weakening the Arab empire.

Like a thick wedge the Arabian peninsula thrusts itself between the two earliest seats of culture: Egypt and Babylonia. It could not escape their influence. Africa touches Arabia in the north at the Sinai peninsula—the home of Mt. Sinai of biblical fame. A land route came down from there; another, the chief one, followed the Nile and bent near Thebes to the Red Sea. During the Twelfth Egyptian Dynasty, about 2000 B.C., a canal, the antecedent of the Suez, connected the eastern arm of the Nile with the head of the Red Sea. Restored by the Ptolemies and again by the caliphs, it was used until the discovery of the route to India around the Cape of Good Hope in 1497. In the south, the peninsula is separated from Africa by only fifteen miles of water.

In the pre-Islamic age the Arabians were not a military people. Their history was that of traders—of a prosperous maritime civilization in the south, which linked India with Africa, and in the north was memorable for the rise of two great cities on the trade routes, Petra and Palmyra, both in due course "destroyed," "devastated," and both now magnificent and notable ruins. Petra, which reached its greatest wealth and prosperity under the patronage of the Romans,

On the Eve of the Rise of Islam

"ISLAND" though it was, the Arabian peninsula did not escape the attentions of the outside world. The first unmistakable reference to the Arabians as such occurs in an inscription of the Assyrian Shalmaneser III, who in 854 B.C. led an expedition against the king of Damascus and his allies, among whom was an Arabian sheikh. It is typical of the spirit and of most of the events of the time: "Karkar, his royal city, I destroyed, I devastated, I burned with fire. 1,200 chariots, 1,200 cavalry, 20,000 soldiers of Hadad-ezer, of Aram [Damascus] . . . 1,000 camels of Gindibu, the Arabian." It is also significant that the first Arabian in recorded history should be associated with the camel.

We have thus far used the term Arabian for all the inhabitants of the peninsula without regard for geographic location. But we must differentiate between the Arabians of the South and the North, the latter including the Najdis of Central Arabia. The geographical division of the land by the trackless desert into northern and southern sections has its counterpart in the peoples who inhabit it.

The racial affinities of the people of the north are with the Mediterranean race; those of the south are with the Alpine

of prodigious genealogies and often traces his lineage back to Adam.

The Bedouin woman, whether Islamic or pre-Islamic, enjoyed and still enjoys a measure of freedom denied to her sedentary sister. She lived in a polygamous family and under a baal system of marriage in which the man was the master; nevertheless she was at liberty to choose a husband and leave him if ill-treated.

Ability to assimilate other cultures when the opportunity presents itself is well marked among the children of the desert. Faculties which have remained dormant for ages seem to awake suddenly, under the proper stimuli, and develop into dynamic powers. In the Fertile Crescent lies the field of opportunity. A Hammurabi makes his appearance in Babylon, a Moses in Sinai, a Zenobia in Palmyra, a Philip the Arab in Rome or a Harun al-Rashid in Baghdad. Monuments are built, like those of Petra, which still arouse the admiration of the world. The phenomenal and almost unparalleled efflorescence of early Islam was due in no small measure to the latent powers of the Bedouins, who, in the words of the Caliph Umar, "furnished Islam with its raw material."

full use of the tribal system for its military purposes. It divided the army into units based on tribal lines, settled the colonists in the conquered lands in tribes, and treated new converts from among the subjugated peoples as "clients" or protégés. By a "client" Arabs ordinarily mean one who seeks voluntarily to become a member of a chosen clan. The unsocial features of individualism and the clan spirit were never outgrown by the Arab character as it developed and unfolded itself after the rise of Islam, and were among the determining factors that led to the disintegration and ultimate downfall of the various Islamic states.

The clan is represented by its titular head, the sheikh. Unlike his modern namesake of Hollywood fame, the sheikh is the senior member of the tribe whose leadership asserts itself in sober counsel, in generosity and in courage. In judicial, military and other affairs of common concern the sheikh is not the absolute authority; he must consult with the tribal council composed of the heads of the component families. His tenure of office lasts during the good will of his constituency.

The Arabian in general and the Bedouin in particular is a born democrat. He meets his sheikh on an equal footing. The society in which he lives levels everything down. The Arabian almost never uses the title *malik* (king) except in referring to foreign rulers. But the Arabian is also aristocratic as well as democratic. He looks upon himself as the embodiment of the consummate pattern of creation. To him the Arabian nation is the noblest of all nations. The civilized man, from the Bedouin's exalted point of view, is less happy and far inferior. In the purity of his blood, his eloquence and poetry, his sword and horse, and above all his noble ancestry, the Arabian takes infinite pride. He is fond

together make a tribe. All members of the same clan consider each other as of one blood, submit to the authority of but one chief—the senior member of the clan—and use one battle-cry. Blood relationship—real or fictitious (clan kinship may be acquired by sucking a few drops of a member's blood)—furnishes the cohesive element in tribal organization.

The tent and its humble household contents are individual property, but water, pasturage and tillable land are the common property of the tribe.

If a member of a clan commits murder inside the clan, none will defend him. In case of escape he becomes an outlaw. If the murder is outside the clan, a vendetta is established, and any fellow clan member may have to pay for the crime with his own life.

Blood, according to the primitive law of the desert, calls for blood; no chastisement is recognized other than that of vengeance. The nearest of kin is supposed to assume primary responsibility. A blood feud may last forty years. In all those intertribal battles of pre-Islamic days, the chroniclers emphasize the blood-feud motif, though underlying economic reasons must have motivated many of the events.

No worse calamity could befall a Bedouin than the loss of his tribal affiliation, for a tribeless man is practically helpless. His status is that of an outlaw beyond the pale of protection and safety.

The spirit of the clan demands boundless and unconditional loyalty to fellow clansmen, a passionate chauvinism. His allegiance, which is the individualism of the member magnified, assumes that his tribe is a unit by itself, self-sufficient and absolute, and regards every other tribe as its legitimate victim and object of plunder and murder. Islam made

mood is a chronic mental condition, raiding is one of the few manly occupations. Christian tribes, too, practiced it. An early poet gave expression to the guiding principle of such life in two verses: "Our business is to make raids on the enemy, on our neighbor and on our own brother, in case we find none to raid but a brother!"

According to the rules of the game—and *ghazw* is a sort of national sport—no blood should be shed except in cases of extreme necessity. *Ghazw* does help to a certain extent to keep down the number of mouths to feed, though it does not actually increase the sum-total of available supplies. A weaker tribe or a sedentary settlement on the borderland may buy protection by paying tribute to the stronger tribe.

The principle of hospitality, however, mitigates in some measure the evils of *ghazw*. However dreadful he may be as an enemy, the Bedouin is also loyal and generous within his laws of friendship. Pre-Islamic poets, the journalists of their day, never tired of singing the praises of hospitality which, with fortitude and manliness, is considered one of the supreme virtues of the race. The keen competition for water and pasturage, on which the chief causes of conflict center, splits the desert populace into warring tribes; but realization of helplessness in the face of a stubborn and malignant nature develops a feeling for the necessity of one sacred duty: that of hospitality. To refuse a guest such a courtesy in a land where there are no inns or hotels, or to harm him after accepting him as a guest, is an offense not only against the established mores and honor, but against God Himself, the real protector.

The clan organization is the basis of Bedouin society. Every tent represents a family; members of one encampment constitute a clan. A number of kindred clans grouped

life is indicated by the fact that the Arabic language is said to include about a thousand names for the camel in its numerous varieties, breeds, conditions and stages of growth, a number rivaled only by the number of synonyms used for the sword.

The horse, on the contrary, is an animal of luxury whose feeding and care constitute a problem to the man of the desert. Its possession is a presumption of wealth. Renowned as the Arabian horse has become in Moslem literature, it was nevertheless a late importation into ancient Arabia. But once there, before the beginning of our era, it had a perfect opportunity to keep its blood pure and free from admixture. Celebrated for its physical beauty, endurance, intelligence and almost touching devotion to its master, the Arabian thoroughbred is the origin from which all Western ideas about the good breeding of horseflesh have been derived. In the eighth century the Arabs introduced it into Europe through Spain, where it left permanent traces in its Barbary and Andalusian descendants. During the Crusades the English animal received fresh strains of blood from the Arabian horse.

The horse's chief value to an Arabian lies in providing the speed necessary for the success of Bedouin raids. It is also used for sports: in tournament, coursing and hunting. In an Arab camp today if there is a shortage of water the children may cry for a drink, but the master, unmoved, would pour the last drop into a pail to set before the horse.

The raid or *ghazw* (corrupted into "razzia"), otherwise considered a form of brigandage, is raised by the economic and social conditions of desert life to the rank of a national institution. It lies at the base of the economic structure of Bedouin pastoral society. In desert land, where the fighting

His raiment is as scanty as his nourishment: a long shirt with a sash—an Arabic word—and a flowing upper garment which pictures have made familiar. The head is covered by a shawl held by a cord. Trousers are not worn and footwear is rare.

Of the animals of Arabia, two are preeminent: the camel and the horse. Without the camel the desert could not be conceived of as a habitable place. It is the nomad's nourisher, his vehicle of transportation and his medium of exchange. The dowry of the bride, the price of blood, the profit of gambling, the wealth of a sheikh—all are computed in terms of camels. It is the Bedouin's constant companion, his alter ego, his foster parent. He drinks its milk instead of water, which he spares for the cattle; he feasts on its flesh; he covers himself with its skin; he makes his tent of its hair. Its dung he uses as fuel, and its urine as a hair tonic and medicine (as shampoo it leaves on the hair an odor corresponding to perfume and on the face a layer of oil serviceable as a protection against insect bites). To him the camel is more than "the ship of the desert"; it is the special gift of Allah.

The Bedouins of our day take delight in referring to themselves as "the people of the camel." Musil, in his book on the Ruwalah Bedouins, states that there is hardly a member of that tribe who has not on some occasion drunk water from a camel's paunch. In time of emergency either an old camel is killed or a stick is thrust down its throat to make it vomit water. If the camel has been watered within a day or two, the liquid is tolerably drinkable.

As Arabia is the chief camel-breeding center of the world, the camel industry is one of its great sources of income. The part which the camel has played in the economy of Arabian

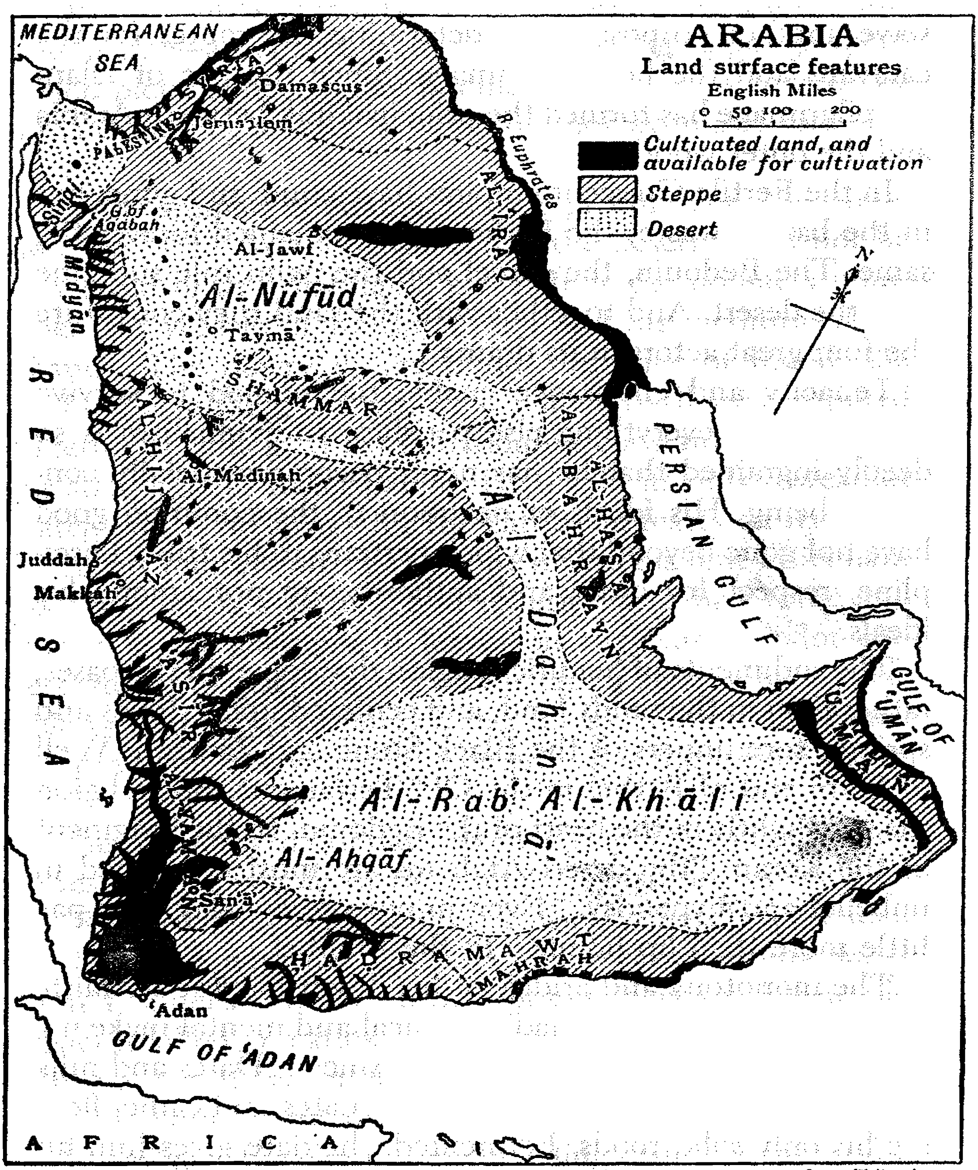
serve another purpose: they determine the routes for the caravans and the holy pilgrimage. Since the rise of Islam the pilgrimage has formed the principal link between Arabia and the outer world.

In the Fertile Crescent empires have come and gone, but in the barren wastes the Bedouin has remained forever the same. The Bedouin, the camel and the palm rule supreme over the desert. And together with the sand they constitute the four great actors in its drama.

Tenacity and endurance enable the nomad to survive where almost everything else perishes. Individualism is so deeply ingrained that he has never become a socially conscious being. His ideals of devotion to the common good have not gone beyond that which pertains to his tribe. Discipline, respect for order and authority are not among his ideals.

The rudiments of Semitic religion developed in the oases, rather than in the sandy land, and centered upon stones and springs, forerunners of the Black Stone and Zamzam Well in Islam and of Bethel in the Old Testament. But religion sits very lightly in the heart of the Bedouin. In the judgment of the Koran, "the desert Arabians are most confirmed in unbelief and hypocrisy." Even in our present day they pay little more than lip homage to the Prophet.

The monotony and aridity of his desert habitat are faithfully reflected in the nomad's physical and mental make-up. He is a bundle of nerves, bones and sinews. Dates and milk are the chief items on his menu; and dates and camel flesh are his only solid foods. Fermented, the date gives him his favorite beverage. Its crushed stones furnish the cakes which are the everyday meal of his camel. To possess "the two black ones," water and dates, is the dream of every Bedouin.



Emery Walker Ltd. sc.

rift of the Nile Valley and the great chasm of the Red Sea) and of the sandy belt which traverses Asia through central Persia and the Gobi Desert. It is one of the driest and hottest countries in the whole world. Though sandwiched between seas on the east and west, these bodies of water are too narrow to break the climatic continuity of the Africo-Asian rainless continental masses. The ocean on the south does bring rains, to be sure, but the monsoons (an Arabic word, incidentally) which seasonally lash the land leave very little moisture for the interior. It is easy to understand why the bracing and delightful east wind has always provided a favorite theme for Arabian poets.

The Bedouin still lives, as his forebears did, in tents of goats' or camels' hair ("houses of hair"), and grazes his sheep and goats on the same ancient pastures. Sheep- and camel-raising, and to a lesser degree horse-breeding, hunting and raiding, are his regular occupations, and are to his mind the only occupations worthy of a man. It is his conviction that agriculture—as well as all varieties of trade and craft—are beneath his dignity. And indeed there is not much tillable land. There is little wheat. Bread, to the Arabian, is a luxury. There are a few trees, the date-palm, the shrub from which comes the famous coffee of South Arabia (not introduced until the fourteenth century), grape vines, and in the oases, numerous fruits as well as almonds, sugar cane and watermelons. The frankincense tree, important in the early commercial life of South Arabia, still flourishes.

It is a harsh and forbidding land, the air dry, the soil salty. There is not a single river of significance which flows perennially and reaches the sea. None of its streams is navigable. In place of a system of rivers it has a network of wadis which carry away such floods as occur. These wadis

The Original Arab, the Bedouin

ALTHOUGH we are concerned in this book with all Arabic-speaking peoples—not only in Arabia but in many lands, including Syria, Lebanon, Palestine, Transjordan, Iraq, Persia, Egypt, North Africa and medieval Sicily and Spain—it is necessary to throw the spotlight first upon the original Arab, the Bedouin.

The Bedouin is no gypsy roaming aimlessly for the sake of roaming. He represents the best adaptation of human life to desert conditions. Wherever grass grows, there he goes seeking pasture. Nomadism is as much a scientific mode of living in the Nufud as industrialism is in Detroit or Manchester. It is a reasonable and stoic adjustment to an unfriendly environment. For the surface of Arabia is almost completely desert with only a narrow strip of habitable land round the periphery. The Arabians called their habitat an island, and an island it is, surrounded by water on three sides and by sand on the fourth.

Despite its size—it is the largest peninsula in the world—its total population is estimated at only seven to eight millions. Geologists tell us that the land once formed the natural continuation of the Sahara (now separated from it by the

the same throughout all recorded ages. And it was in Arabia that the ancestors of the Semitic peoples—the Babylonians, the Assyrians, the Chaldaeans, Amorites, Aramaeans, the Phoenicians, Hebrews, Arabians and the Abyssinians—had their origin. Here they lived at some time as one people.

preserved the characteristic physical features and mental traits of the family. Their language, though the youngest among the Semitic group from the point of view of literature, has nevertheless conserved more of the peculiarities of the mother Semitic tongue—including the inflection—than the Hebrew and its other sister languages. Islam, too, in its original form is the logical perfection of Semitic religion. In Europe and America the word "Semite" has come to have a Jewish connotation, but the "Semitic features," including the prominent nose, are not Semitic at all. They are exactly the characteristics which differentiate the Jew from the Semitic type and evidently represent an acquisition from early intermarriages between the Hittite-Hurrians and the Hebrews.

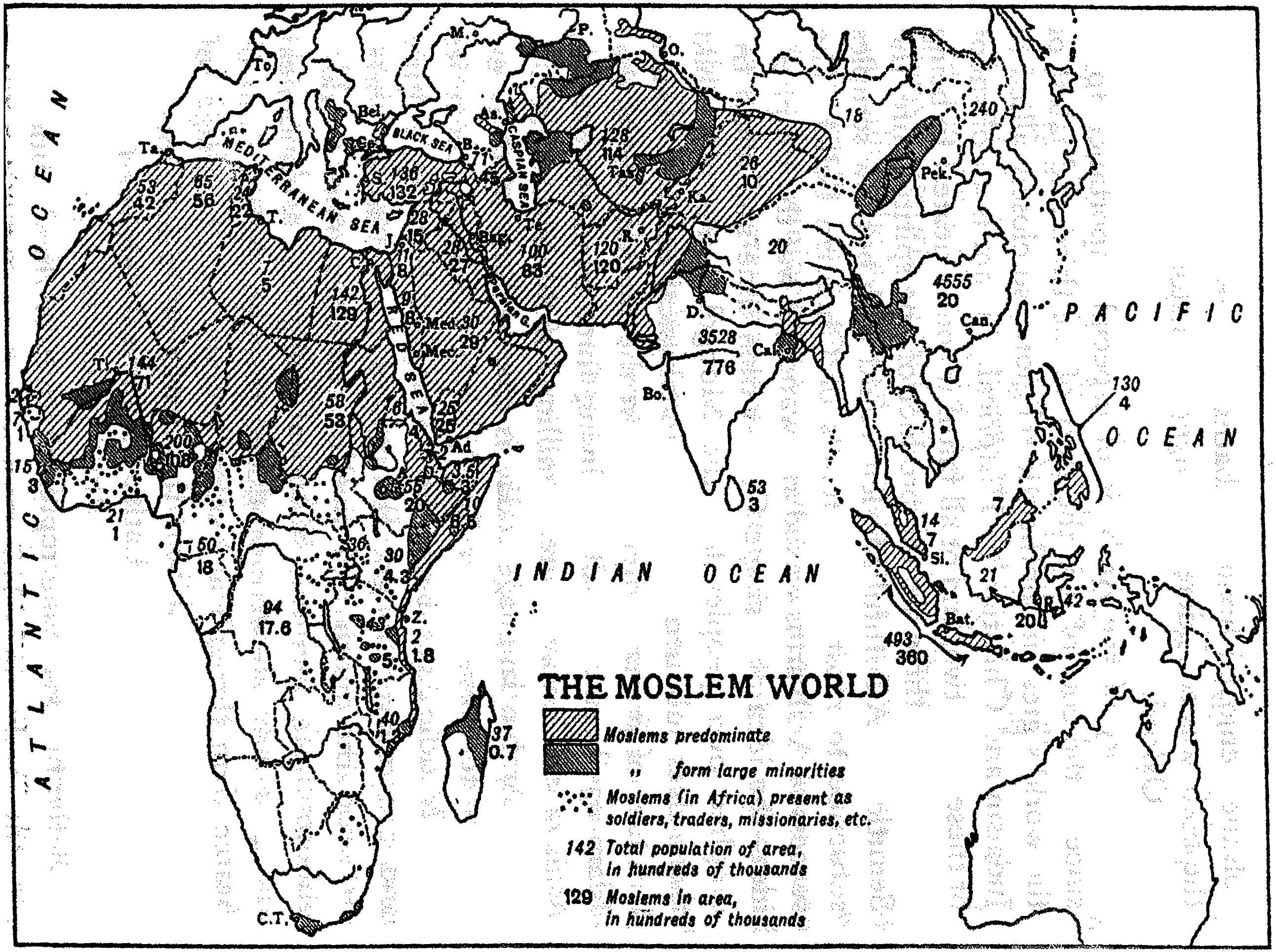
The reasons which make the Arabian Arab, the nomad especially, the best representative of the Semitic family biologically, psychologically, socially and linguistically should be sought in their geographical isolation and in the monotonous uniformity of desert life. Ethnic purity is a reward of a most ungrateful and isolated environment, such as central Arabia affords. The "Island of the Arabians" furnishes an almost unique example of uninterrupted relationship between populace and soil. If immigrations have ever taken place into Arabia resulting in successive waves of settlers ousting or submerging one another—as in the case of India, Greece, Italy, England and the United States—history has left no record of them. Nor do we know of any invader who succeeded in penetrating the sandy barriers and establishing a permanent foothold in this land. The people of Arabia, particularly the Bedouins, have remained virtually

volumes, enjoyed luxurious baths at a time when washing the body was considered a dangerous custom at the University of Oxford.

The story of the Arabs is of especial importance to us since at the core of it is the story of the third and latest of the world's great monotheistic religions, so closely allied to Judaism and Christianity. Historically, Islam is an offshoot of these other two, and of all faiths it comes nearest to being their kin. All three are the product of one spiritual life, the Semitic life. A faithful Moslem could with but few scruples subscribe to most of the tenets of Christian belief. The success of Arab arms waxed and waned; it was the Prophet's idea—the idea of a single God—which time and again triumphed over peoples like the Mongol Turks, who had themselves subdued the Arabs in physical combat. And it is a fact of primary importance in the modern world that Islam has been and still is a living force from Morocco to Malaya, and a way of life to millions of the human race.

The Arabic language today is the medium of daily expression for some fifty million people. For many centuries in the Middle Ages it was the language of learning, culture and progressive thought throughout the civilized world. Between the ninth and twelfth centuries more works—philosophical, medical, historical, religious, astronomical and geographical—were produced through the medium of Arabic than through any other tongue. The languages of Western Europe still bear the marks of its influence. Its alphabet is, next to the Latin, the most widely used system in the world.

Of the two surviving representatives of the Semitic people, the Arabs, in a larger measure than the Jews, have



Emery Walker Ltd. sc.

Arabia, has carved out for himself and consolidated a large kingdom, including most of central and northwestern Arabia. Lebanon was the first Arabic-speaking state to declare itself a republic.

The phoenix, a bird of Araby, is rising again. Its wings are strong. Islam, the religion founded by Muhammad, today claims the adherence of no less than two hundred and seventy-five millions of people, representing nearly all races. These are Moslems, who prefer to be called by this name rather than Muhammadans. Every eighth person in our world is a follower of Muhammad, and the Moslem call to prayer is heard almost round the globe, twenty-four hours of the day.

It was not only an empire that the Arabs built, but a culture as well. Heirs of the ancient civilization that flourished on the banks of the Tigris and the Euphrates, in the land of the Nile and on the eastern shore of the Mediterranean, they likewise absorbed and assimilated the main features of the Greco-Roman culture, and subsequently acted as a medium for transmitting to medieval Europe many of those intellectual influences which awoke the Western world and set it on the road toward its modern renaissance.

No people in the Middle Ages contributed to human progress so much as did the Arabs, a term which in our usage would comprise all Arabic-speaking peoples, including the Arabians, that is, the inhabitants of the Arabian peninsula. Arab scholars were studying Aristotle when Charlemagne and his lords were learning to write their names. Scientists in Cordova, with their seventeen great libraries, one alone of which included more than 400,000

Arabs and Moslems

One hundred years after the death of Muhammad his followers were the masters of an empire greater than that of Rome at its zenith, an empire extending from the Bay of Biscay to the Indus and the confines of China and from the Aral Sea to the upper cataracts of the Nile. The name of the prophet-son of Arabia, joined with the name of almighty Allah, was being called five times a day from thousands of minarets scattered over southwestern Europe, northern Africa and western and central Asia. In this period of unprecedented expansion, the Moslem Arabs "assimilated to their creed, speech, and even physical type, more aliens than any stock before or since, not excepting the Hellenic, the Roman, the Anglo-Saxon or the Russian."

The Babylonians, the Assyrians, the Chaldaeans, the Aramaeans, the Phoenicians—all of whose ancestors were nurtured in the Arabian peninsula—were, but are no more. The Arabs were and remain. They stand today as they stood in the past in a strategic geographical position astride one of the greatest arteries of world trade. Since the first World War these people have become increasingly conscious of their heritage. Egypt has been declared a sovereign and independent state. Iraq has installed a king in its ancient capital, Baghdad. Ibn-Saud, the strong man of modern

Contents

Arab often feels that he is the forgotten man. And it is the American, in particular, to whom he looks for understanding and comprehension.

The following pages are addressed not to the scholar but to the general reader. They tell, very briefly, the story of the rise of Islam in the Middle Ages, its conquests, its empire, its time of greatness and of decay. The story of the Arabians and the Arabic-speaking peoples unrolls before us one of the truly magnificent and instructive panoramas of history. Knowledge of the past throws new light on the present—the light of perspective. It is hoped that this brief history of the Arab world will suggest how intimately a part of our own history it is.

man squatting in the shadow of his campfire. Without Arabic numerals, without the Arab symbol and idea of the cipher, of the zero, there would be no modern mathematics, nor any busy little machine-tool shop in the environs of a New England town. Columbus steered the *Santa Maria* west, confident of the truth of the Arab theory, inherited from the Greeks, that the world was round. Columbus found America. Yankees return. The government of the Yankees is faced with other problems today, in another quarter of the world, because the Moslems, who spread from the Fertile Crescent above the Arabian peninsula, expanded not only west into Spain, France, Sicily, Italy, but also east to China and far into India, as the presence of some eighty million Moslems in that divided land today attests.

The Moslem world has far more in common with the Western world than is generally assumed. Arab contempt for Axis ideology is not surprising. Islam's concept of God, of the equality of man, of the obligations of righteous living and the duty of refraining from wrongdoing are all based on the Jewish-Christian tradition. They are utterly at variance with the Fascist doctrines of racialism, of the absolute supremacy of the state and the insignificance of the individual and of the Fascist disregard of ethical and moral values in favor of economic values. It is unlikely that Moslems could ever reconcile their ideals with Nazi ideology.

It was America's knock that awakened the Arab East from its medieval slumber and set it on the road to modernism and national progress in the 1870's. It was the work of such American educational institutions as the American University at Beirut that led to an intellectual renaissance in the Arab world. In the international melee today, the

Preface

AMERICAN boys from Nebraska, New Jersey, Georgia, wheeling their tanks in combat against Prussians and Bavarians on the North African coast have seen in the distance the great mosque of Kairouan, toward which they were struggling. That mosque was built from the marble pillars of Carthage strewn in the sands by victorious Roman warriors; pillars discovered and used again by a medieval wave of conquerors which had swelled up from Arabia and swept over North Africa—the men of Islam, warriors of Allah, builders of an empire vaster than the Roman.

To the historian, man's history is one. It is a truth learned, forgotten, relearned painfully, as we in the United States are relearning it today. It was not an accident, not an arbitrary decision of military commanders, which brought Americans, Britons, Frenchmen, Germans, Italians, Moroccans, Senegalese, Sikhs from India—and soldiers of many *other races and nationalities—to death grips along the Mediterranean* shore, "the crossroads of the world." A new conqueror was reaching for a new empire. It was there, inexorably, that the battle had to be joined.

The elm-shaded town from which the Yankee soldier came is what it is in part because the Arabs, among whom he so strangely finds himself, once set their stamp upon Europe. The elaborate calculations by which he determines the range and trajectory of the projectile from his mighty weapon are the gift of the swarthy-skinned, white-robed

The publishers acknowledge the generous cooperation of Macmillan and Company, Limited, and of Mr. Daniel Macmillan in London and Mr. George P. Brett, Jr., in New York, for authorizing publication of this short version of Mr. Hitti's monumental History of the Arabs, *published by Macmillan and known to scholars throughout the English-speaking world. The publishers are likewise grateful to Mr. Byron Dexter who did the work of condensation in collaboration with the author.*

The Arabs: A Short History is based on Philip K. Hitti's book, *The History of the Arabs*, published by Macmillan and Company, Limited, London. This book is not for sale outside the United States.

PRINTED IN THE UNITED STATES OF AMERICA
BY PRINCETON UNIVERSITY PRESS AT PRINCETON, NEW JERSEY